موسوعة
عالم علم النفس

NOBILIS

التحليل النفسي للأحلام

إسم الموسوعة	:	موسوعة عالم علم النفس
إسم المؤلّف	:	الدكتور عبد المنعم الحفني
إعـداد	:	قسم الدراسات في دار نوبليس
		بإشراف الأستاذ غسّان شديد
قياس الكتاب	:	27.5 × 19.5 سم
عدد صفحات الجزء	:	320
عدد صفحات المجموعة	:	6436
إسم الكتاب	:	التحليل النفسي للأحلام
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبليس
تلفاكس	:	961 1 583475
تلفون	:	961 1 581121
		961 3 581121
الطبعة الأولى	:	2005

عالم عِلم النفس

17

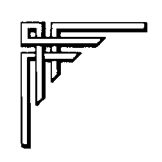
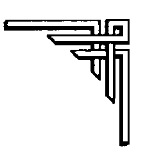
الدكتور عبد المنعم الحفني

التحليل النفسي للأحلام

NOBILIS
MAISON D'EDITION

التحليل النفسي للأحلام

الكتاب الجامع لنظريات تفسير الأحلام،
والطريقة العلمية الحديثة للتفسير،
ولزوم التحليل النفسي للأحلام كأداة
لتشخيص وعلاج الاضطرابات النفسية
ومعرفة الجوانب النفسية والاجتماعية
والثقافية للحالم. والفروق بين أحلام
الشباب والشيوخ والأطفال والأسوياء
والمرضى والذكور والإناث...

رحلة حلم

رأيتُ أشيـــاءَ شـتَّـى لا عِـدادَ لـهـــا — والـعينُ مـغـمضـةٌ والحِسُّ في عَـدمِ

وطـرتُ في الـجـوِّ أحـيـانـاً وسـرتُ إلى — أقصـى الـبـلادِ ولم أخـطـر عـلـى قدمِ

وكلَّمتُ من لم يكلمني ونُحتُ على — مَـن لم يمُت وبـلا خـطٍ جرى قـلـمـي

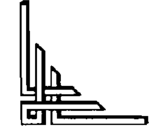
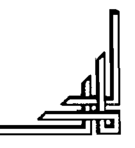
وشـدّ مـا خفتُ مـن غـول بـلا سـبب — رام اغـتـيـالي بـغْـيـاً وهـو لم يـرمِ

وكـم رأيت بـداري الـلص يسـرقـني — وإنـه حـول داري قـطٌّ لم يـحُـمِ

وكـم تَـسـوّرتُ أسـواراً وهِـمْتُ عـلـى — وجـهـي فـراراً ولـو نُـبِّـهت لم أهـمِ

وكم تصـوّرتُ مـن ضـغـطٍ أنـاخ عـلـى — صـدري وحـاول تـعـجـيـلاً لمخترمِـي

وكـلّ ذاك وهـذا في الـحـقـيـقـة قـد — لـفـيـتُـه وأنـا في غـفـلـة الـحُـلـمِ

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

المقَدمة

كانت الأحلام دائماً محل اهتمام كبير من الناس وخاصة في زماننا هذا حيث الظروف المضطربة عائلياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، ووسائل الاعلام لها ضغوطها، والناس يكبتون أو يتعلمون أن يخفوا ما بأنفسهم ولا يظهروا انفعالاتهم وتطلعاتهم وطموحاتهم، فتكثر الأحلام، ويكثر تناول الصحافة والاذاعة لموضوعات الأحلام ولتفسيرها وتأويلها، تترضّى بذلك القارئ أو المشاهد.

وتفسير الأحلام كوسيلة من وسائل مطالعة الغيب أو استكناه المستقبل ينضاف إلى وسائل أخرى كثيرة لعلها أكثر شهرة من تفسير الأحلام. وربما كان الاقبال على قراءة الكف أو الفنجان من الممارسات اليومية للناس، وربما كان ذلك عن حاجة حقيقية أو للتسلية. وليس تفسير الأحلام من ذلك. وبعد أن كان الاهتمام بالأحلام منذ فترة ليست بالبعيدة عظيماً حتى لكأنَّ تشبيه هذا المجال الجديد بأنه كاكتشاف أميركا، لم تعد الأحلام تحظى من العلماء وخاصة علماء النفس والتحليل النفسي والأنثروبولوجيا بالاهتمام نفسه، ويبدو أنهم تركوا أمرها كالسابق لمرتزقة قراءة الطوالع فصرنا نقرأ إعلانات لكتب في تفسير الأحلام ليست من العلم في شيء، وليس مؤلفوها من العلماء، ومن ذلك كُتب في الأحلام وكأنها القواميس، كأن يحلم الشخص أنه تلقّى رسالة، فيفتح الكتاب على حرف الراء مادة رسالة، ليجد أن الحالم الذي يحلم أنه تلقى رسالة فإن ذلك يشير بأنه سيتقلد منصباً أو يرزق مالاً أو ولداً!!

وما تشهده سوق الكتب العربية لا يعدو إعادة صياغة لكتابين مشهورين هما «منتخب الكلام في تفسير الأحلام» لابن سيرين، و«تعطير الأنام في تعبير المنام» لعبد

الغني النابلسي. وتتناول الصحف أو كتّاب هذه الصحف مقتطفات منهما يسوقونها سياقة عصرية وبأسلوب العصر، ويشفع لهم أن الكتابين السابقين خلاصة الحكمة القديمة في مجال تفسير الأحلام وهو ما سنعرض له من بَعد.

وهناك ترجمة لكتاب فرويد «تفسير الأحلام» لا يجرؤ صحفي ولا كاتب على الاقتباس منه، ولا يشار إليه، ربما لصعوبة في النقل عنه، وربما لصعوبة في الإحاطة به وفهم مراميه، وللأسلوب الاستطرادي الذي اتبعه فيه فرويد، والذي جعله عند الترجمة جافاً شديد الجفاف، مع أن الكتاب في الأصل الألماني سهل العبارة وكثير التشويق.

وربما يكون انصراف أطباء العلاج النفسي عن تفسير الأحلام بالنظر إلى الاتجاهات المادية التي تسود حياتنا الفكرية المعاصرة، حتى لقد صار علم الاقتصاد هو العلم الأول، وصار تفسير كل قيمة في ضوء ما تعود به على الناس من نفع مادي. ولو خُيِّر الناس بين أن يناموا أو يقضوا بقية عمرهم في السعي دون نوم لاختاروا عدم النوم. والنوم عند الغالبية وقت ضائع. ولئن كان من الضروري أن ننام فلا بأس أن يخلو ذلك من الأحلام. ويختلف اتجاه الناس بشأن الأحلام، فمن كانت له ميول غيبية فإنه يحب أن يعرف ما تعنيه الأحلام التي يراها في المنام، وقد يكون لها تأثير على سلوكه في الحياة ومع الناس، وقد يقبل على تفسيرها إقباله على قراءة تنبؤات الفلك ومطالعة الفنجان. ومن لم تكن له هذه الميول وله طبيعة جافة عملية إنصرف عنها بالكلية ولا يكاد يحلم، وإذا حلم لا يكاد يذكر ما يحلم، وما يذكره يحسبه أضغاث أحلام.

والناس هذه الأيام عمليون وماديون. وحتى توجهات علم النفس المعاصر توجهات مادية تعتمد على دراسة حاجات الناس وتصنيفها وتبويبها والتنبيه إليها. وما يعنيهم من أمر النفس اليوم هو الأنا وليس اللاشعور، والأنا هو الجزء الواعي والحاضر من النفس بحاجاته الملحة وتطلعاته المادية، واللاشعور هو ذلك الجزء المستور من النفس والذي يتعلق غالباً بالماضي، والناس يعنيهم الظاهر دون الباطن، ويهمهم أن يعرفوا من أمر الذات والأنا ما يساعدهم في لقاءاتهم مع غيرهم بحيث يخرجون منها بفائدة، أو بحيث يستطيعون أن يتنبأوا بسلوكياتهم، فيكيفوا أنفسهم على ذلك، ويغيّروا من

معاملاتهم، ليجنوا أكبر الفائدة، أو لضمان النجاح. وسيكولوجية الأنا تجد إذن رواجاً دون سيكولوجية اللاشعور، سواء من الجمهور أو علماء النفس. وتعتمد الأحلام في تفسيرها على الإحاطة بمجريات اللاشعور، ولعله لهذا السبب يمكن أن نعزو الانصراف عن تحليل الأحلام كوسيلة من وسائل الكشف عن ديناميات الشخصية في مجال العلاج النفسي. وهو موقف بالتأكيد خاطئ من أساسه لأنه حتى مع هذه التوجهات المادية والاهتمام بالحاضر دون الماضي فإن الحلم يبقى من أهم الوسائل الكاشفة عن مكونات الأنا وأعماق النفس وأبعاد الشخصية. وإذا كانت مذكرات الشخص أو يومياته أو كتاباته التي بينه وبين نفسه هي من وسائل الإحاطة بما يفكر فيه، وما يشغله، وما يخبئه ولا يفصح عنه إلا لماماً ويمكن أن يفيد في العلاج، فإن الأحلام أكثر فائدة في هذا المجال، وذلك لأن الكبت يعمل عمله في استبعاد أمور وستْر أخرى، والتمويه على الكاتب والقارئ. وأما في الحلم فالكبت أقل عملاً. والحلم أقدر على التعبير عن الأماني والرغبات والحاجات والآمال والمخاوف. ويصف عالم كبير مثل مورفي (Murphy: Personality) عمل الحلم فيقول إنه ليس كالحلم وسيلة غنية بالتعبيرات عن الشخصية، وهو سجل للشخصية، فضلاً عن أنه شكل تعبيري للسلوك كالطريقة التي نتميز بها عن الآخرين في الكتابة أو في المشي أو في الكلام، مع الفارق أننا يمكن أن نصطنع كل ما سبق لنؤثر على الآخرين. أما في الأحلام فنكون على سجيتنا ونعبر عن أنفسنا بتلقائية. والحلم لا يراعي الأصول الاجتماعية، وهو وسيلة إسقاطية بمعنى أننا نُسقط في الحلم كل ما نتمنى ونرغب متحررين من أية قيود، ونُخرج كل ما عندنا من المعاني، وكل المشاعر بعفوية لا يمكن أن نخبرها في أي موقف آخر، ونمارس الخيال في الحلم، خيالاً ليس فيه أعمال كما في ممارسة الخيال في ممارسة الكتابة مثلاً. والحالم في حلم النوم ليس كالحالم في حلم اليقظة، فإن كان حلم اليقظة يتجه إلى الحاضر ويقدم مشاهد خيالية لأجواء مستقبلية فإن حلم النوم فيه التوجهات للماضي والمستقبل معاً. والحلم منه ما هو هروب من الحاضر إلى الماضي، وما هو هروب من الحاضر إلى المستقبل، ففي الحلم تتصارع الرغبات، بعضها من الماضي يلهبه الندم، وبعضها يمتُّ الى

المستقبل ويستشرفه، والحلم ينظمها جميعاً بعد شتات، وينفخ فيها حياة جديدة لها وحدة درامية فريدة تجعل كل حلم نسيج وحده، وتضمه لبقية أحلام الشخص كفصول المسرحية الواحدة أو تابلوهاتها المتتابعة، فيفسر كل حلم أحلاماً أخرى ويضفي عليها معانٍ جديدة.

وحتى لو لم تكن الأحلام تهم الحالم، فإن عملية الحلم نفسها ضرورية كنشاط حيوي. والكثير من الناس يحلمون أحلاماً مبهرة تعطي لحياتهم بريقاً أو لمعة ليست لها، وكأن الأحلام تعويض أو استكمال لحياة تخلو من كل بهرج أو جمال.

والحالم قد يحلم لأنه يريد أن يحلم، وقد كان المصريون القدماء يستجلبون الأحلام ليستلهموا منها حلول مشاكلهم وعلاج أمراضهم، ومن ذلك حلم فرعون يوسف. وكان الملوك القدماء والغزاة والفاتحون يطلبون الأحلام ويعيّنون في بلاطهم المفسرين، لعلهم يستفتحونها تواريخ الأحداث الكبرى والنتائج المسبقة لها. وفي عصرنا من يفعل ذلك، وقد قيل إن الروائي دي كوينسي مثلاً كان يفتعل الأحلام موضوعات لقصصه، والشاعر كوليردج كان ينسج قصائد من أحداث أحلامه.

وللحلم لغته ومنطقه العالميان، ولعل ذلك هو السبب في تشابه قواميس الأحلام في اللغات المختلفة، مع فارق أن معاني بعض النباتات أو الحيوانات قد تختلف باختلاف الثقافات، فمن يحلم بالخنزير مثلاً في بلاد الاسلام قد يؤول الحلم تأويلاً مختلفاً عما يمكن أن يؤوله الحالم من دائرة الثقافة الأوروبية.

ويبدو أن الساميين كانوا أكثر الأجناس اهتماماً بالأحلام. وقد قيل إن أقدم كتاب في الأحلام سجلته ورقة بردى مصرية من الأسرة العشرين (من ٢٠٠٠ إلى ١٧٩٠ ق.م.). وقيل إن البابليين مهروا في تفسير الأحلام، وكانوا يعتبرون الأحلام رسالات سماوية منبئة أو منذرة أو مبشرة، ومفسرو الحلم هم «البارو»، وهم طبقة متميزة من الكهنة. وكان المرضى وأصحاب المسائل يتوجهون إليهم فيؤدون الصلاة ويبيتون ليلتهم بالمعبد ليحلموا، وإله الأحلام عندهم هو الماخير، ويخاطبونه قائلين: «فلتتجلَّ علينا

أيها الربّ ماخير ولتباركنا بالأحلام نرى فيها مصائرنا وأقدارنا» :Hastings)
Encyclopedia of Religion and Ethics. Vol 5) وكانت الأحلام المنذرة كثيرة ومطاعة بحرفيتها، ومن ذلك أن اشور بانيبال حلم أنه يعبر النهر، وكان ذلك مستحيلاً ولكنه رضخ للحلم. وحلم نابينودس أنه يبني معبداً في حرّان ففعل. وعندما حلم سيدنا ابراهيم أنه يقتل إبنه اسماعيل صدّق الرؤيا وهمّ أن يقتله. وفي مصر القديمة حلم تحتمس الرابع أن مُلك مصر سيؤول إليه، فلما تحقّق له الحلم أعاد بناء المعبد أسفل أبي الهول حيث كان قد غفا وحلم حلمه المُنبئ.

وكانت نظرية الحلم المصرية أن الأحلام تأتي الناس أصحاب الشفافية، وأن الأحلام وقائع تستشرفها الأنفس مقدماً.

وفي اليونان القديمة ساد الاعتقاد أن الأحلام يلهمها زيوس، ولكن إلهامها في مواضع معينة أصدق أو أفصح منها في مواضع أخرى، ومن تلك الأماكن معبد دلفي المشهور وإلهه هو أبوللو. وكان الإله بشخصه يظهر للحالم الذي ينام في معبد إسكوبيوس بأبيدوروس.

والأحلام صادقة في الديانة اليونانية الأورفية، وأورفيوس فيها هو إله النوم أو الأحلام. وورثت الفلسفة الفيثاغورية معتقدات الأورفية، وورثت اليهودية والمسيحية كل الميراث السابق، ومن ذلك، أن الأبطال والأنبياء كانت تأتي البشارة بهم من خلال الأحلام، ففي الديانة المصرية أن ساتوى الكاهن «توجه لينام فحلم كما لو أن البشر قد جاءه وقال له ان زوجتك قد حملت، وأنها ستلد ولداً ذكراً إسمه سينوسيريس، وأنه مبارك وتتم عليه الكثير من البركات (Encyclopedia of Religion and Ethics). وشبيه بذلك الحلم الذي رأى فيه ملك اليونان فيليب أن الصقر المصري قد أتاه وبشّره بميلاد الإسكندر (Seafield: Litetrature and Curiosities of Dreams). والحلم الذي عاينته داجهدو أم زرادشت، حيث جاءها الإله بنفسه يقول لها إن الطفل الذي ستحمل به سيكون خيراً للعالم ومصدر بركة للأجيال القادمة. وفي العهد الجديد يقول القديس ماتيو «إن الإله ظهر في الحلم ليوسف النجّار وقال له تقدّم يا يوسف يا ابن داود وخذ

إليك مريم زوجة، ولا تخش شيئاً، لأن الذي تحمل به هو من روح الله وستسميه يسوع، وهو الذي سيخلّص شعبه من خطاياهم». «وجاءها الملاك وبشّرها بابنٍ اسمه يسوع، سيكون عظيماً، وسيقال له ابن العلي، وسيجلسه الله على عرش أبيه داود، وسيسود بيت يعقوب للأبد، ولن تكون هناك نهاية لمملكته».

ولقد حلم خسرو أحد ملوك ساسان أن لساناً من الدخان والنار إنطلق من السماء فأخفى مجد أسرته وأعلن ميلاد النبي محمد. وحلم أحد جدود تيمورلنك بأن من نسله سيأتي مَن يؤسّس إمبراطورية جنكيز خان. وكانت هناك أحلام مشابهة عند أكتا أم أوغسطس، وأرلوتا أمّ وليام النورماندي، وفي قصة ميلاد سيروس، وفي التاريخ الحديث سكاندربرج والقديس برنارد.

ونخلص من الدراسة الأنثروبولوجية للأحلام أنه كانت هناك دائماً نظرتان للحلم، إحداهما تُرجع الأحلام كرؤى إلهية وتجسدها كتعبير عن القَدَر وعن تعامل الأحلام كرؤى إلهية وتجسدها كتعبير عن القدر، وعن الإيدلوجية الدينية السائدة في الأمة والثقافة التي تميّزها، والأخرى نظرة عقلانية تعامل الأحلام كرؤى خاصة بالأفراد وتصنّفها كأنماط، وتُعمل فيها الرأي والاجتهاد بخلفية فلسفية. والنظرتان موجودتان في الثقافة العربية، فابن سيرين يقسّم الأحلام إلى قسمين، فقسم من الله، وقسم من الشيطان. ويطلق على الحلم من القسم الأول إسم الرؤيا الصالحة، وينسب إلى القسم الثاني أن بعضها أحلام فسيولوجية مصدرها الجسم وما يصيبه من امتلاء بالطعام أو خلوّه منه، فالجائع يحلم بالخبز، والمحروم جنسياً يحلم بمضاجعة الحسان، وبعضها أحلام نفسية فيها الآمال والمخاوف والأحزان.

وأما عبد الغني النابلسي فيجعل تفسير الأحلام علماً يقول إنه من أشرف علوم الأوائل، ويذهب إلى نظرية في مصدر الأحلام فيقول إن النائم يرى في منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربعة، فإن غلبت عليه السوداء رأى الأحداث والسواد يجللها، والأهوال والأفزاع تتخللها. وإن غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصابيح والدم والمعصفرات، وإن غلب عليه البلغم رأى البياض والمياه والأنهار والأمواج، وإن غلب

عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعازف والمزامير. ويطلق النابلسي على هذه الأحلام إسم الأحلام النفسية أو الأحلام التي من همّة النفس، ويقول إنّ أصحّ الرؤيا هي البشرى، وهي التي تبشّر الرائي بالخير، بعكس الرؤيا الزاجرة التي تحذّر الرائي من شيء. والرؤيا البشرى صريحة بعكس الزاجرة، وهي المرموزة التي تكثر فيها الرموز، كأن يحلم الشخص بأن زوجته تخونه فيراها تدس له السم، والسم هنا رمز للزنا. أو كأن يرى الرائي نفسه يغني في المسجد بدلاً من أن يصلي، فذلك رمز إلى إتيان المعصية وافتضاحه. وما يذهب إليه النابلسي أو إبن سيرين يعكس الإيديولوجية العربية حول الأحلام. ويُخضع تعبيرها أو تفسيرها للمكان والزمان بعكس الإيديولوجية العربية حول الأحلام. ويُخضع تعبيرها أو تفسيرها للمكان والزمان ولنوع الثقافة.

ويقول النابلسي: «واعلم أن تربة كل بلد تخالف غيرها من البلاد لاختلاف الماء والهواء والمكان، فلذلك يختلف تأويل كل طائفة من المعبرين لاختلاف الطبائع والبلدان كالذي يرى في المنام في بلاد الحر ثلجاً أو جليداً أو بَرَداً، فإنه يدل على الغلاء والقحط. وإن رأى الرائي ذلك في بلد من بلاد البرد فإن ذلك لهم خصباً وسعة. والوحل لأهل الهند مال، ولغيرهم محنة وبلية. والسمك في بعض البلاد عفونة وفي بعضها مصيبة».

ويذهب الكثيرون من ثقافات الأنثروبولوجيا إلى ردّ الصور الحلمية إلى بداية الإنسانية أو أنها كالفطرة، ويقولون إنها لغة بدائية، وتشبه الديانات الأولى أو البدائية، وكأنما التفكير الأول أو البدائي أو الفطري يجمع بين الاثنتين، ولعل ذلك سبب القول إن بعض الأحلام مصدره إلهي، وكل الثقافات تعتبر بعض الأحلام موحى بها إلهياً، وتوصف بأنها رؤيا صادقة. ويطلق العرب على الملاك الموكل بالأحلام إسم صادوق.

ومن رأي عالم كإدوارد تايلور أن كل الثقافات تقول إن الروح تخرج من الجسد عند النوم وتتجول، وإن جولانها هو هذه الأحلام، وإن الأصل في هذا القول ما يسميه علماء الأنثروبولوجيا الإحيائية Animism، وهي أن كل شيء في الطبيعة حيّ وله روح، وأنه في الأحلام تتواصل الأرواح وتبوح الكائنات والموجودات بأسرارها

(Tylor: Primitive Culture). ويذهب إلى ذلك أو ما يشبهه النابلسي فيقول: إن المعبّرين من المسلمين، الرؤيا عندهم أن الانسان يراها بالروح، ويفهمها بالعقل. ومستقر الروح القلب، والقلب متصل بالدماغ، والروح معلق بالنفس، فإذا نام الإنسان إمتد روحه مثل السراج أو الشمس وبذهاب النوم ترجع إلى النائم نفسه فتعود الحواس باستيقاظها إلى أفعالها.

وقال بعضهم إن الحسّ الروحاني أشرف من الحس الجسماني، لأن الروحاني دال على ما هو كائن، والجسماني دال على ما هو موجود، يعني أن الأرواح في الأحلام تستشرف ما سيكون. وبتعبير العالم سيليجمان: While the body slept, the dream was the reality experience of the soul or shadow (Seligman: Anthropology and Psychology) يعني ان الحلم هو التجربة الواقعية للروح أو النفس بينما الجسد نائم.

والكثير من العبادات مصدره الأحلام، فلم تكن زيارة الموتى في القبور إلا لأن الموتى يأتوننا في الأحلام، وتعبير ذلك أن نزورهم. ويبدو أن الاعتقاد في الروح جاء أصلاً من شيوع الأحلام بينما الانسان نائم. فكيف يتسنى للنائم أن يحلم والمفروض أن كل حواسه متعطلة؟ ولم يكن هناك تفسير إلا القول بالروح، فإذا كنا نحلم بالموتى: فإن الموتى لا يموتون على الحقيقة، بل هم أحياء، وذلك مصدر القول بالخلود.

ويذهب علماء الأنثروبولوجيا أكثر من ذلك إلى ردّ فكرة التناسخ إلى الأحلام، طالما أنه في الحلم يتحول الحالم أو أشخاص الحلم إلى حيوانات أو أناس آخرين، ومن ثم ذهب تفكير الناس إلى القول بإمكان التناسخ. ولعل ذلك سبب للقول أيضاً بالتوتم Totem، وهو أن يكون لنا جميعاً كقبيلة أو شعب أصل إلهي من حيوان أو كائن يسري فينا، ويجعل من ثم من الممكن أن نتحول شكلاً إلى بعضنا البعض.

ولعله من البديهي أن يكون للشخصية ومكوناتها والأحداث التي تمر بها تأثير على الأحلام، غير أن القليلين جداً هم الذين تحدّثوا في تأثير الأحلام على سلوكياتنا وعلى الثقافة التي نتفيأها. ومن الذين أفاضوا في هذا التأثير جماعة العلماء النفسانيين

الذين لهم اهتمامات ثقافية أنثروبولوجية، ففضلاً عن أن الأحلام تجعل الحالم بمزاج معين بعد أن يصحو من نومه، فيتوجه لأفعال معنية، أو يفكر بطريقة خاصة، كأن يحذر أحد الناس، أو يحاذر فيما يسلك، فإن الكثير من الإنتاج الفكري القومي هو من وحي الأحلام، والكثير من الأساطير والملاحم والشعر الملحمي والعقائد والخرافات يمكن ردّه إلى الأحلام. (Seligman: Huxley Memorial Lecture). ولنا أن نتساءل: ألم يكن تعيين النبي يوسف وزيراً لمصر بناء على حلم؟ وألم يكن بناؤه لصوامع الغلال من مترتبات التفسير؟ وأيضاً أليس احتفال المسلمين بعيد الأضحى، وما يصنعون من الأضاحي هو من نتائج حلم النبي ابراهيم؟ أكان من الممكن أن يكون هناك عيد للضحية لو لم يُفتدى النبي اسماعيل؟ لقد صدّق ابراهيم الرؤيا، وفسّر الحلم تفسيراً حرفياً لو لم تتداركه رحمة الله، والتي نعلم بمقتضاها أن الأحلام رمزية، وأننا لا ينبغي أن نأخذ الحلم بحذافيره، وأن للحلم محتوى وظاهراً هو الحلم كما نراه، وأما الباطن فهو الذي يحتاج إلى تفسير، ولم يكن إبراهيم قد تعلّم تأويل الأحلام ففسّر الحلم على ظاهره، وأما يوسف فقد تعلم التأويل وبرع فيه، حتى أن القرآن يذكر ذلك من مناقبه. وكذلك كان حفر زمزم بناءً على حلم. وكانت توجهات موسوليني للسياسة لأنه نشأ يسمع إلى أبيه وتفسيره للحلم الذي رآه له. ونحن نفعل الأشياء الكبيرة وكذلك الصغيرة لأننا حلمنا بها. وفي بلادنا إذا حلمنا مثلاً بميّت لنا فإننا نصحو لنتصدق على روحه، أو لنقرأ على روحه القرآن. وقيل إن ملحمة جلجامش تصوّر قصة الفيضان بناءً على حلم. ويذهب فريزر إلى تفسير التوتم هذا المذهب، ولو طبّقنا نظرية فريزر على ثقافتنا لقلنا إن الكبش هو توتم العرب، والعرب رعاة غنم، وعيد الأضحى هو عيد التوتم عندهم، والمسلمون جميعاً الآن يتشاركون في هذا التوتم الذي كان عند الشعوب التي دخلت الإسلام وليسوا من رعاة الأغنام. وقيل إن اسماعيل هو أبو العرب، وهو الذي تدور حوله قصة الفداء والحلم. وكانت البقرة والعجل والقطط من أحلام المصريين تواتم لقوى الخير في الطبيعة، فكانوا الآلهة حاتحور وإيزيس وتوت وأبيس وبسطة. وسلوك المصريين يوجهه في القديم رؤياهم

لهذه الحيوانات. ولكل حيوان في الحلم هيئة يكون عليها التفسير وتوجيه السلوك في الغد، فالكبش رجل عظيم في قومه، والبقرة امرأة، والأخذ بقرون الكبش يعني المنعة، والأخذ بإليته يعني التسيّد، وذبح الكبش انتصار، والبقرة الحلوب امرأة مخصبة، وذات القرون المرأة المنيعة، والعثور على بقرة يعني الزواج المبارك. والتوتم الذي يحكي عنه فريزر (Frazer: Golden Bough) جعل فليتشر له شبيهاً خصوصياً يقول إنه التوتم الخصوصي، وهو الحارس والحامي والبركة للشخص، يراه في منامه فيتفاءل ويستبشر، وهو الشيء أو الشخص الذي يتردّد باستمرار في أحلامه، وقد يكون الرسول أو الشيخ أو الولي (Fletcher: The import of the Totem).

والعرب يفسرون ذلك بأن الرائي ربما يبلغ منزلة على قَدْر التوتم، وله كيفيات فقد يظهر في المنام راضياً أو غاضباً، وقد يتوارى منه الحالم، وقد يراه في هيئة والده أو أخيه أو أحد من ذوي قرباه، وسُخط التوتم معناه سخط الوالدين أو ذوي الأمر، وغضبه قد يعني سقوطه من مكان رفيع. والتوتمية ليست كما قد يتبادر إلى الذهن شيئاً من الماضي، فما زالت حتى اليوم. وتتخذ الأحزاب السياسية مثلاً أشكالاً من الحيوانات كالحمار رموزاً وتعويذة لها كما في أمريكا، ولقد اتخذ ست أخو إيزيس شكل الحمار في إحدى تحولاته، ولعل ذلك سبباً أن الحمار في الحلم يعني الخير، وقد يعني الحكمة، وقد يعني الصبر. والحمار أيضاً امرأة معينة على المعيشة، كثيرة الخير، ذات نسل. وقيل إن لفظ الأتان والأتانة من الإتيان، والاتيان للأنثى، والمباشرة إتيان. وقيل مَن مات حماره في الحلم فقد ماله. وإنه لأمر ذو بال أن يتم هذا التبادل النفسي بين الحالم وقوى الطبيعة والكائنات بحيث يُضفي الناس عليها معانٍ وقيماً في الأحلام، يُسقطونها عليها من بعد في الحياة، وبالعكس.

والأحلام قد تلهم الدواء وتستحدث الشفاء، وهكذا كان حلم أيوب. وقد تستحدث الإيمان والتحوّل من ديانة مثلما حدث مع بولس الرسول. وقد تلهم أعمالاً أدبية كبيرة كما عند دانتي والكوميديا الإلهية. ولقد كتب كوليردج قصيدته Kubla khan مباشرة من الحلم. وقد استغرق الأمر طويلاً ليتحول الملهم في الحلم من روح أو إله أو ولي أو أحد

الأسلاف أو الشيطان، إلى القول باللاشعور. وينبغي التنويه بأهمية كتابَي ابن سيرين والنابلسي بالمقارنة إلى نظرية فرويد في الأحلام، فقد ذكر المؤلفان العربيان الكثير من تفاصيل نظرية فرويد في كتابيهما، غير أنهما لم يطورا ذلك إلى نظرية لها عملها العلاجي مثلاً كما عن فرويد.

والأحلام فسّرها الإنسان كرسالات إلهية مُوحىً بها، وكإشراقات روحية وتأثيرات شيطانية، وإنذارات وتحذيرات أو مُبشرات، أو فسِّرت بأنها انعكاسات للتفاعلات النفسية والاجتماعية للمُدركات (توماس هوبز)، وقد تكون رغبات تنفّس عن نفسها أو تحقّق نفسها (فرويد)، أو محاولات من قِبَل الحالم لاستكناه أحواله النفسية والتبصُّر بمشاكله وحلولها لتدبير نفسه مستقبلاً (يونج)، وقد تعبر عن أسلوب كل حالم الذي ارتضاه لنفسه في حياته وينعكس على أحلامه (أدلر)، أو قد تكون محاولات من الحالم لحلّ صراعاته (شتيكل). وقد تكون بعض ذلك أو كلّ ذلك، فالمحاولات من الحالم لتفسيرها لن تتوقف، وسيظل اهتمام الناس بتفسيرها طالما كانت هناك أحلام، وكان بالإنسان قصور عن تحقيق ما يصبو إليه، وناله الإحباط وأصابته خيبة الأمل، وطالما كان له أعداء ومعارضون، وكانت له أشواق وعواطف، وطالما اعتملت به الآمال أو انتابته المخاوف من الحاضر والمستقبل. وستظل الأحلام بالناس طالما كانوا مشروعات، أو كما يقول الوجوديون، طالما لا يتطابق حاضرهم مع ما يرجونه، وطالما كانت لهم مخططات للمستقبل.

عبد المنعم الحفني

لوس أنجلس كاليفورنيا سنة ١٩٨٨



الباب الأول
«النظريات قبل العلمية وتفسير فرويد للأحلام»

نحسب أن كلّ توتر أو دافع يمكن أن يؤثر في الأحلام، وقد يكون التوتر شديداً أو الدافع قوياً حتى ليصبح مركز الحلم، وتبعاً لذلك فإن الجنس قد تصطبغ به أحلام المراهقة والأحلام التي قد تكون لنا ونحن في مطالع البلوغ، غير أنها على الأساس السابق قد تقل في فترة الطفولة المتأخرة، وتندر في الطفولة، وتتهافت في الشيخوخة بحسب سطوة الجنس في كل مرحلة من مراحل العمر. ولذلك فقد يكون تعميم فرويد أن الأحلام جنسية الطابع هو ابتسار لا يجوز. إلا أن فرويد أصدر عما يوصف في الدوائر العلمية بأنه حالات نفسية تاريخية، وظروف تخصه هو نفسه كباحث، فقد لاحظ فرويد أن الدافع الجنسي قوي عند المرضى الذين يتردّدون عليه للعلاج من أنواع العصاب، وأنه قد يكون واضحاً أشد الوضوح أو مستتراً، إلا أنه يكاد يكشف عن نفسه ويعلن عن وجوده. وقد سارع فرويد يعلن عن اكتشافه أمام الجمعية الطبية العصبية في فيينا، ولم يقتنع الأعضاء ورفضوا ملحوظته واستنكروها، ووصفوها بأنها تفكير لا أخلاقي، الأمر الذي جعل فرويد يحفظ عليهم، ويسعى لتأكيد فكرته بأن يداوم البحث عن المرضى الذين تظهر الدوافع الجنسية في سلوكياتهم، ويكتب عنهم، ويتحدث عن الجنسية فيما يقولون ويفعلون ويحلمون، وهو ما يبرّر إصرار فرويد على صبغ نظريته في العلاج النفسي للعُصاب بالجنسية، والقول بنظرية في الجنسية. ولقد ألّف فرويد كتابه في تفسير الأحلام، وفيه يقارن بين الحلم الظاهر والحلم الكامن، أو بين ما يبدو عليه الحلم وما هو عليه في الواقع، وتفسير الحلم: هو عملية الكشف عن المعنى الحقيقي للحلم من السياق الظاهر لأحداثه.

ولكن ما الذي يجعل الحلم يتخفّى ولا يكون صريحاً؟ ويجيب فرويد بأن السبب: هو أن غالبية أحلامنا تدور حول موضوعات جنسية محرّمة لا ترضى عنها النفس، ومن ثم تحاول رغباتنا الجنسي

أن تستتر وتخرج من اللاشعور إلى الشعور عن طريق الرموز التي تشير ولا تفصح، وتنتهز فرصة النوم لتبين في شكلها الحلمي، بالتمويه على الرقابة النفسية التي تفرضها النفس على كل رغبات محرمة، ففي النوم تضعف الرقابة ولكنها لا تُرفَع نهائياً. والترميز الذي تلجأ إليه الرغبات في الأحلام هو إحدى الوسائل التي تستعين بها للتخفّي والتمويه، فمثلاً قد نحلم بالمياه تحيط بنا فيكون ذلك رمزاً للميلاد حيث أن الطفل وهو جنين يخرج من ماء الرحم المحيط. وتستخدم الأحلام ضمن ما تستخدم بخلاف الترميز - التكثيف والنقل، والأول أن يُبتَسر الحلم ويتكثّف ويتصاغر حتى لتستطيع أن تحكيه في كلمات أو سطور، مع أنه في الواقع يتحدث عن حوادث تستغرق ازماناً قد تبلغ السنوات. والحلم من أهم صفاته أنه مقتضب وهزيل ومليء بالثغرات إذا قارناه بسعة أفكار الحالم وغناها. وعندما نحكي الحلم نختصر الحديث، إلا أنه لو طلب منا أن نوضحه لزدنا الكلام حتى قد نملأ الصفحات، ونكشف بذلك أن وراء ما ابتُسر حياة وحكايات وذكريات وأفكاراً خاصة كثيرة لا تنتهي، وهو ما يجزم أن للحلم معنى آخر خلاف ما يبدو لنا. ثم إن حوادث الحلم قد تنقلنا إلى التفكير في أمور أخرى نهتم بها ونؤكّد عليها ونتريث عندها ويطول شرحنا لها، الأمر الذي قد يعني أنها هي المقصودة بالمعنى الحقيقي للحوادث وليس ما يظهر لنا منها، غير أن النفس تمهر في النقل من المعنى الحقيقي أو عقدة الحلم إلى الأحداث الظاهرة، وذلك ما يعنيه فرويد بالنقل. ومما يذكره أن ابن سيرين والنابلسي كلاهما يتحدث عن هذه الوسائل الحلمية للتخفي كما يتحدث عنها فرويد، إلا أن فرويد يقصدها لذاتها ويطوّرها، والعالمان العربيان يقتصران على ذكرها عابراً دون تطوير لما يقولان. وهذه الوسائل في الوسع التغلب على ما تستحدثه في الحلم من تحوير من قبل المفسّر المدرّب النابه عن طريق ما يطلق عليه فرويد إسم التداعي الحر، وهو أن يتحدث الحالم نفسه عما يراه من تفسير لحلمه، وعما تعنيه رموز

الحلم، وعما قد يكون معناه الحقيقي بصرف النظر عن المعنى الظاهر له والذي قد يبدو سخيفاً أحياناً. وهذه التداعيات الحلمية للحالم قد تُعين المفسّر على تفسير الحلم، وأن يضع يده على الأصول الحقيقية للحلم، وهي أصول من الرغبات والذكريات، والغالب أنها رغبات محرمة وذكريات حول مسائل تستثير الندم أو الشعور بالخجل، وذلك ما يقصد إليه فرويد عندما يقول إن للعُصاب أصولاً جنسية، وهو ما يراه العلماء قصوراً في نظرية فرويد، فمثلاً قد يحلم الحالم بأنه يصعد جبلاً، ويذهب فرويد إلى القول بأن الصعود رمز للعملية الجنسية، ونحن نقول في الجماع إن الذكر يعتلي الأنثى، أو قد يعني صعود الجبل أو أي ارتفاع صدر المرأة أو الفرج، ونحن نصف الأخير فنقول ارتفاع العانة وجبل الزهرة به. وفرويد يذكر ذلك دون أن يذهب به التفكير إلى أن حلم الصعود قد يكون رغبة حقيقية في صعود الجبل عندما تقصر الهمة عن ذلك عند طالب مثلاً يرى زملاءه ينجحون في الصعود.

ولقد نقل فرويد وجهة نظره إلى تلاميذه، فبعد أن نشر «تفسير الأحلام» إشتهر وتردّد عليه الحواريون يستزيدونه العلم باللاشعور، وبالتحليل النفسي، وموقف التحويل، والدوافع والرقابة، وصارت مصطلحات فرويد أبجدية من أبجديات العلاج النفسي لا يستغني عنها الطالب لعلم النفس أو الطب النفسي، ويعززها أنها مصطلحات لمظاهر واقعية كلينيكية، ولم يعد من السهل التخلص منها أو تحرير علم النفس من آثارها.

ولقد كان من أروع ما ذكر فرويد في كتابه العبقري قوله بالظاهر الحلمي والمعنى الباطن الذي للظاهر، وتفرقته بين ما يكون عليه الحلم، أو ما نذكره منه، أو نحكيه عنه، وبين حقيقة ما تمثله الأحداث أو الشخصيات أو الأشياء، أو بمعنى آخر قوله بعالَم مادي للحلم، وعالَم نفساني له، فالمحتوى الباطن يأخذ شكلاً ظاهراً بحسب الشخص نفسه وثقافته وعمره وجنسه. وعمل الحلم Dreamwork هو إلباس المحتويات الباطنة صورة تنكرية قبل إخراجها إلى المحتوى الظاهر حتى لا تقف الرقابة في

سبيل خروجها. والرقابة الكابتة تضعف بعض الشيء أثناء النوم، فتنتهز بعض المحتويات النفسية - من ذكريات وأماني ورغبات مكبوتة - الفرصة لتتسلل متنكرة إلى الحلم. ولا يعني ضعف الرقابة أنها تتعطل تماماً، ولذلك تضطر هذه المحتويات المكبوتة إلى التنكر حتى تستطيع الظهور ضمن مسرحية الحلم دون أن يوقفها الرقيب ويمنعها، ولذلك لا تظهر الذكريات وتتحقق الرغبات المكبوتة سافرة في الحلم، وإنما في صورة رمزية أو بديلة، وقد يحدث في الحلات النادرة أن تخرج بعض محتويات اللاشعور إلى مسرح الحلم سافرة وقد غافلت الرقيب، فتسبب للأنا اضطراباً شديداً يوقظ الحالم من نومه مذعوراً أو خائفاً، كأن يحلم أنه سقط من حالق، أو أنه قتل أباه، أو زنا بأمه أو بأخته أو اعتدى عليه صديقه.

والحالم قد يحلم بأحداث الأمس القريب، ولكن هذه الأحداث رغم أهميتها التي تظهرها في الحلم، إلا أنها أهمية ثانوية، وذلك لأن استغلالها لا يكون إلا كخلفية مسرحية للمحتوى الباطن.

وأحداث الأمس التي تكون على هامش الشعور أدعى أن يستدعيها الحالم من المادة التي يقبلها الأنا ويدخلها في تركيبه النسقي الذي يواجه به اليقظة، فمثلاً قد نستمع إلى واعظ يعجبنا قوله ونسرّ له ويستدمجه الأنا فيه فتكون أفكاره أفكارنا، وقد يحدث أن تكون للواعظ لوازم حركية أو قد يتصرف بطريقة معيّنة تلفت نظرنا ونعيها وعياً ليس بالكامل ولكننا نذكرها كالشيء بالشيء يذكر، وهو ما نعنيه أنها تكون على هامش الشعور، فإذا حلمنا فغالباً ما لا نحلم بما قبِله الأنا من الواعظ من أفكار، ولكننا قد نحلم بلوازمه أو قد نرى بعض تأثير تصرفاته التي استبقيناها على هامش الشعور. وقد أثبتت التجارب العملية أن ما يرد في الأحلام على أشخاص التجارب هو غالباً ما لم يكن مقصوداً أن يذكره الحالم من التجربة وهو يقظان، فما يمكن أن يمر عابراً هو الذي يمسرحه الحلم ويقصد إليه أكثر مما كان الأولى بالملاحظة. وإذن فالحلم كما يتناول الأحداث بالتحريف ليمرّرها على الأنا قد يُمسرح كلّ شيء ليستفيد مما هو مهم

وغير مهم للتعبير عن المحتوى الباطن، وذلك ما يصفه فرويد بأنه overdetermination، بمعنى أن أكثر من عامل يدخل في مسرحية الحلم، وأكثر من دافع، وأكثر من حدث، ومن ثم كان طبيعياً أن يكون هناك معنى جنسي للحلم مثلما يمكن أن تكون له أسباب فسيولوجية كسوء الهضم مثلاً، أو قد يكون له معنى جمالي كأن يدفع إلى اعجاب جمالي محض بموضوع من الطبيعة أو من غيرها. وما يحدث في الواقع هو أن كلاً منا يركز على ناحية دون سواها، وهذه الناحية هي التي يضعها تحت المجهر ويلاحظها ويهتم بها ويحاول أن يستكنه معناها. والمعنى أو المحتوى الجنسي للحلم شيء وارد طالما أن الجنس محور من المحاور الكبرى التي يدور عليها سلوكنا، والذي نعرف مدى ما يمكن أن يدفع إليه في مختلف نشاطاتنا المهنية، سواء كشعراء أو قصّاصين أو قضاة في المحاكم أو صحفيين إلخ. ولا اعتراض لنا على أن يحاول الفرويديون أن يستخرجوا معنى جنسياً مباشراً أو غير مباشر للحلم.. ولقد حاول فرويد باستمرار أن يذكّرنا إنه حتى في مجال الجمال الخالص فإن المعنى الجنسي موجود، والدافع الجنسي إليه، وكذلك من الناحية الأخرى فإن المعنى الجنسي خلف تصوير الجيوكنده، ومهما كان المستوى الجمالي للوجه فإننا قد نصل في تحليلنا للوضع الجمالي والملامح والتعابير بالوجه واليدين وشكل أعضاء الجسم إلى وجهة نظر جنسية، ومن ناحية أخرى فقد تُخفى النظرات الوديعة في العينين واسترخاء اليدين والأنامل وامتلاء الصدر والشفتين - وكلها إيحاءات جنسية - بمعنى جمالي للصورة ككل.

ولقد حاول تلاميذ فرويد الخروج عليه، فبمجرد أن تعلموا منه وأخذوا عنه صاروا يطلبون أن تكون لهم فلسفاتهم التي يصدرون عنها، فخالفوه الرأي، وأمعنوا في الخلاف وكانوا كأنما ينشدون الخلاف للخلاف، أو ليؤكدوا ذواتهم إلى جانب ذات الأستاذ. وتوجه نقضهم لنظرية فرويد إلى شيئين، الأول دور المفسّر، والثاني طريقة التعامل مع الأحلام وتقويمها وردّها إلى مصدرها.

والواقع أن فرويد كان قد قصر نفسه على تحرّي ميكانيزمات الأحلام، يحدوه في ذلك صلة الحلم بالاضطراب النفسي الذي يشكو منه الشخص، وهو يقول إن نظرنه إلى الأحلام نظرة عالم في الطب النفسي (مقدمة الكتاب)، وليست أي عالم، وهي نظرة فيها إبداع وينقصها التوثيق التاريخي، وما يعرضه من الصفحات الأولى تحت باب المصنفات العلمية في مشكلات الأحلام عرض شديد الايجاز ومتسرّع ، ويبدو منه أن فرويد لم يقرأ المراجع التي أشار إليها على الحقيقة ولكنه قرأ عنها، على عكس تلاميذه فقد كانوا أوسع منه أفقاً وأكثر ثقافة، فجاء خلافهم نتيجة قراءاتهم الموسوعية وبأكثر من لغة في باب الأحلام والأنثروبولوجيا والإثنرولوجيا والثقافات البدائية والأديان وغير ذلك، ونذكر على سبيل المثال ما كان يتمتع به يونج من أفق واسع يرجع إلى تنوع هائل في مصادره الثقافية. ونذكر أيضاً من أوجه القصر في علم فرويد أن يقول إن أرسطو أول من أعاد البحث في الأحلام من عالم الميتافيزيقا إلى دنيا الواقع، وجعل الحلم نشاطاً نفسياً يخص النائم، وان أرسطو أفرد لذلك صفحات من كتابين له يعرض فيهما للأحلام، وينتهي كلام فرويد دون ذكر لاسم أي من الكتابين، أو شرح لنظرية أرسطو، وتلك مغالطة لأن أرسطو قد أسهم في مجال الأحلام بثلاثة بحوث تضمنها كتابه Parva Naturalia، فإذا أضفنا إليها الملحوظات القليلة التي علق بها أفلاطون، مع صلة ذلك بما كان العالم القديم يعرفه من الفسيولوجيا، فإن النظرة التي يقدمها كل ذلك يمكن أن نصفها بحق أنها نظرة علمية عصرية. ومن رأي أرسطو أن مفتاح الأحلام هو النوم، وهو الذي يمهّد لأن نحلم بأن يجعل وعينا بالواقع أقل ويخفض من درجة إحساسنا به، فالعينان مغمضتان، وبقية الحواس شبه معطلة، وذلك دليل على تغيير يلم بالجسم ويتناول جهاز الوعي المركزي به، ألا وهو القلب، لانشغال القلب بعملية تغذية الجسم أثناء النوم، فيتوجه نشاطه إلى تلك العملية عن تهيئة أعضاء الحس لوظائفها السليمة، ومن ثم كانت الأحلام التي تأتي أثناء النوم

مرتبطة بتدنّي مستوى الإحساس لدى وظائف الجسم وتعطّل الوعي عن الحسي لانصرافه إلى وظائف أخرى أهمها تغذية القلب للجسم. والوعي الذي يغيب عن أعضاء الحس لا يغيب كاملاً، فهو وعي منقوص ومن ثم تكون الصور الحلمية مشوهة وناقصة التكوين، ومصدرها أن الحواس لبطء عملها تستبقي صور المُدرَكات أو المحسوسات أكثر من اللازم بعد أن تذهب هذه المدركات أو المحسوسات، ولطول بقائها وقصور الوعي يكون إدراكها أو الوعي بها مشوهاً، ويعيها الشخص على أنها حقائق أو وقائع في صورها المشوهة أو المحرّفة، والوعي بها يثير في الحالم انفعالات ويستحث أحكاماً، وتغلب الانفعالات على الأسس المشوهة أو المحرّفة فتجيء الأحكام مغلوطة. ويقول أرسطو ان ملكات الحالم التي تسيطر على الوعي أهمها ملكة التصور أو الفانتازيا، ولأن الحُكم أو القدرة عليه معطلة أثناء النوم فإن التصورات تشطح، وما كان الوعي به في اليقظة هو المهم والذي يتصل بالحُكم السليم فإنه يغيب في الحلم، وتجيء فقط الصور للأشياء غير المهمة التي كان يلحظها الحالم في اليقظة ولا يتوجه إليها اهتمامه، وتتلون بعواطف النائم وتكون بها انفعالاته التي تطبع الحلم. وأرسطو ينبه إلى أن ما نحلم به قد يكون نتيجة ما يعتمل داخلنا من تغيرات فسيولوجية، فلربما يكون الشخص في طريقه إلى أن يمرض، وعوامل المرض الداخلية تكون كالمنبهات تستحث الأحلام وتستبق التداعي بالمرض. ولربما إذن قد ينبئنا الحلم بشيء عن المستقبل من هذه الزاوية. ولربما أيضاً تكون الأحداث الماضية والحاضرة في حياة الشخص أو ما يعرفه منها عن الآخرين بمثابة الارهاصات بأحداث مستقبلية، فيكون الحلم من هذه الناحية بمثابة النبوءة ويحكي عن شيء من المستقبل. وإذن فأرسطو ربما يكون أول من تنكّر للتقسيم القديم الذي يقول بأحلام إلهية توصف بالصدق. وأحلام نفسية مصدرها أحوال الشخص البدنية والعامة وعواطفه. وقد يكون هو أول من ردّ تفسير الأحلام إلى المنبهات الفسيولوجية والنفسية للحالم دون سواها. وفرويد لا يدعي أنه قرأ

نظرية أرسطو بل يذكر صراحة أنه قرأ عنها في كتاب عن الأحلام!!

ولم يقرأ فرويد أفلاطون الذي تتلمذ عليه أرسطو، وأفلاطون كان إلهياً على عكس تلميذه المادي، ويذكر أفلاطون في محاورته «تيماوس Timaus» أن الأحلام تلهمها الآلهة، إلا أن ذلك يأتي عابراً. وأما في محاورته «الجمهورية» فهو يقول على لسان سقراط إن الأحلام تكشف ما يدور في خلد كل انسان من أفكار شريرة، وتبين عما في أعماقه من عواطف وانفعالات معادية للناس والمحيطين به. وإذا كان أرسطو قد نبّه إلى أن العواطف من مصادر الحلم، فهو يذكر ذلك عرضاً، ولكنه يركز على أحوال البدن وما يشكو منه من اضطرابات فسيولوجية كمصدر أصلي للأحلام، بينما نجد أفلاطون يركّز على العكس على أعماق النفس وما فيها من رغبات وعواطف محرّمة، ولا يذكر فرويد ذلك عن أفلاطون، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنه لم يقرأه. ونظرية أفلاطون مع ذلك تقرب من نظرية فرويد، إذ يذهب أفلاطون الى القول إنه عندما يغيب العقل عن الوعي خلال النوم، فإن عناصر النفس التي عمادها الرغبات والغضب تُستثار، وتسود الرغبات وتسيطر على الوعي العاطل بعض الشيء، ولولا أن الوعي غير معطّل تماماً لخرجت سافرة، إلا أن الوعي الموجود برغم أنه غير كامل يشوّهها ويحرّفها، ومن ثم نجد الشخص في المنام يقوم بما لا يجرؤ على القيام به في اليقظة، وقد يغتصب ويزني ويسرق ويعربد. وحتى أكثر الناس احتراماً لأنفسهم لن يعدموا أن يحلموا أحلاماً شريرة، وأن يفصحوا عن هذه الميول في أنفسهم. ومن رأي أفلاطون أن النفس تحلم أحلاماً أو رؤىً فيها سمو كما فيها انحطاط، والأحلام من النوع الفاضل تكون عندما لا تكون بالشخص رغبات شريرة، وتكون من النمط الوديع غير الغضوب، وبه إشراقات دائمة للتسامي، وعندئذ فرغم أن الوعي تعطل بالنوم إلا أن العقل عند الحالم يكون دائماً مستنفراً وفي وضع أقوى من وضع الرغبات والعواطف الشريرة أو المحرمة.

ورغم هذه النظرية في الأحلام عند أفلاطون وأرسطو فإن الفيلسوفين لم

يشغلا نفسيهما بالأحلام كما فعلا في مسائل النفس الأخرى. ولم يحدث أن شُغِل أي من الفلاسفة بالأحلام كانشغال أرتيميدوروس الإفسي Artemidorus. وحتى الفيثاغوريون لم يهتموا كثيراً بالأحلام، ولم يكن كتاب «عن الأشياء الطبيعية De Rerum Natura للوكريتيوس بذي بال في هذا الشأن، وكل ما قدّمه متهافت لولا قوله إن الأحلام انعكاس لتأثيرات العالم الخارجي على النفس، وان كل شخص له أحلامه التي تصنعها شخصيته أو تتوافق معها. وأرتيميدوروس السابق ذكره على العكس هو واضع معجم الأحلام Oneirocritica. وكان طبيباً يهتم بالاضطرابات النفسية والعقلية. وفرويد يذكر عنه أنه قسّم الأحلام إلى فئتين، الأولى: أحلام تتأثر بالحاضر أو الماضي وتخلو من دلالات المستقبل، ومنها المنامات التي تصور الأفكار وعكسها كالجوع والشبع تصويراً مباشراً، والخيالات التي تشطح في الخيال وتضخّم الفكرة مثل الكابوس. والثانية: أحلام مستقبلية ومنها النبوءة المباشرة في الحلم، والرؤيا التي تتحدث عن واقعة مستقبلة، والحلم الرمزي الذي يحتاج إلى تأويل.

ويبدو أن تقسيم النابلسي للأحلام هو تقسيم أرتيميدوروس مع تحريف يناسب الإسلام، وكذلك فعل الاسلاميون في الكثير من الأفكار القديمة. والنابلسي يقول بثلاث فئات من الأحلام، الأولى لرؤيا البُشرى من الله، والرؤيا الصادقة، والرؤيا المرموزة. ويفرع النابلسي على هذه الفئات الثلاث تفريعات أخرى يمكن أن يُدرَج فيها الحلم الذي يستوجب الغُسل (الحلم الجنسي)، والكابوس، والرؤيا النفسية كأن يشتهي الشخص أن يكون مع حبيبته فيراها في المنام ويحادثها، ورؤيا الصبيان.

ويميّز أرتيميدوروس لأول مرة بين الرؤيا Somnium وقد تكون مباشرة أو محذّرة وتتحدث عن أشياء في المستقبل، والمنام Insomnium الذي هو حلم بمجريات الحاضر وتأثيراتها: «فالمحب يحلم بحبيبته، والجائع يحلم بالطعام، والخائف يحلم بعدوه، والعطشان يحلم بالماء».

وأحلام عظماء الناس أصحاب الهِمّة

رؤى وليست منامات، لأن نفوسهم لا يعكرها ما يعكّر نفوس العامة من آمال ومخاوف ورغبات وشهوات. وأما العامة فأحلامهم من نوع المنامات.

وأحلام مفسري الأحلام وتفسيرها تتلون بما يقرأون أو يعرفون، بمعنى أنها تغرق في الرمزية وتوغل فيها، فإذا حلم الواحد منهم مثلاً بمعشوقته فإنه لا يراها صريحة وإنما قد يراها فرساً جميلة يمتطيها وينطلق بها، وربما يراها مرآة أو سفينة، أو قد تظهر بأحوالها النفسية فيرى البحر لجياً، أو قد يحلم بها كأنثى حيوان، أو قد يراها مَلبساً من ملابس النساء يشتريه أو أي شيء قد يرمز للمرأة. وربما يعني أرتيميدوروس من ملحوظته هذه عن الأحلام الرمزية أنها تحتاج إلى معبّر، وأن تعبير الأحلام علم يحتاج إلى موهبة وصقل بالقراءة، ومن ذلك أن المعبّر إذ يُعرض عليه الحلم ينظر فيه ويصنّفه بحسب نوعه وبحسب حوادثه، فهي إما طبيعية، أو مشروعة، أو اعتيادية بالنسبة للحالم، وأيضاً ينظر فيه بحسب ظروف الحلم وقت أن حلم الحالم، ويعرف صنعته، واسمه، وذلك ما يشير إليه أرتيميدوروس على أنه النقاط الست في الحلم: الطبيعة Natura، والشرعية Lex، والعادة Consuetudo والزمن Tempus، والصنعة Ars، والاسم Nomen.

ويسوق أرتيميدوروس نموذج حلم قد يرى فيه النائم أنه يحلق شعر رأسه، وحلاقة الرأس عادية بالنسبة لحلاّق، وعادية بالنسبة لمهرّج صناعته إضحاك الناس بأن يظهر على المسرح وقد يحلق رأسه، وعادية بالنسبة لبعض الديانات التي يحلق معتنقوها رؤوسهم إيماناً وتبركاً. ولكن هذه الحلاقة في الحلم لغيرهم فأل سيء، فإذا كان الحالم بحاراً غرقت سفينته، وإذا كان مريضاً انتكست حالته. ومن الغريب أن تفسير أرتيميدوروس لحلم من نوع حلمي صاحبي يوسف في السجن هو التفسير نفسه، فالطير تأكل الحَبّ وفي رأس أحدهما يعني موته، وعصر الخمر للمَلِك يعني الترقّي في المنصب. ويدرك أرتيميدوروس تأثير الرغبات والهشوات على تشكيل الأحلام، ولا يقبل الشروع في فك رموز الحلم إلا إذا ألمّ بحياة الحالم

وظروفه المعيشية والعائلية، ويحذر دائماً القارئ لكتابه من اللجوء إلى وسيلة التأويل بالضدّ، كالقول في البكاء أنه فرح.

والحق أننا لو قارنا النابلسي وابن سيرين بأرتيميدوروس لتفوّق كل من الاثنين عليه، ففي باب حيل الأحلام يقول ابن سيرين:

الرؤيا تأتي على ما مضى وخلا وفرط وانقضى، بغفلة عن الشكر قد سلفتْ، أو بمعصيةٍ فيه قد فرطتْ، أو بتوبةٍ منه قد تأخرتْ.

ويذكر ابن سيرين: أن الشيء الواحد يختلف التعبير عنه بحسب صنعة ومركز الرائي، فالكورة التي يمتلكها الحالم قد تعني مدينة يسيطر عليها ويحوزها لو كان ملكاً، تجارة يربحها لو كان تاجراً، وكتاباً يؤلفه لو كان عالماً، ولذلك يحتاج المعبّر إلى أن يكون أديباً ذكياً فطناً نقياً تقياً، عارفاً بحالات الناس وشمائلهم وأقدارهم وهيآتهم، والأزمنة وعادات البلدن وأهلها وخواصها، وما يناسب كل بلدة وما يجيء من ناحيتها، وعارفاً بتفاصيل المنامات الخاصية من العامية. وتأويل الرؤية مرة من لفظ الاسم ومرة من معناه، ومرة من ضده، ومرة من المَثَل السائر، فأما التأويل بالأسماء فيحمله على ظاهر اللفظ، وأما التأويل بالمعنى فأكثر التعويل عليه، وأما التأويل بالمثَل السائر واللفظ المبتذل كقولهم إن الصائغ كذوب لما جرى على الألسنة من قولهم فلان يصوغ الأحاديث أي يكذب فيها، وقولهم في المرض إنه نفاق، وقولهم في الناس إنهم الغوغاء لأن الغوغاء هي الجراد. وأما التأويل بالضد والمقلوب مِثل قولهم في الضحك إنه حُزن، وفي السيل إنه عدو. وأما تعبير الرؤيا بالزيادة والنقصان فكقولهم في الضحك إنه حُزن فإن كان تبسُّماً كان صالحاً.

ومن شروط المفسر عند ابن سيرين غير ما سبق أن يستوثق مما يَرد عليه من المسائل، وان يقدِر على تأليف الأجزاء ليخلص منها الكلام الصحيح.

وللحالم عند ابن سيرين آداب لتكون رؤياه أقرب إلى الصحة، فمنها أن يتعود الصدق في أقواله.

ولم يكن فرويد فيما يبدو قد قرأ ارتيميدوروس أو إبن سيرين أو النابلسي. وإننا لنجد كلام العرب في الأحلام قريباً

من مصادر مسيحية في الأحلام، والنظرية الإسلامية تناظر النظرية المسيحية وخاصة فيما يتعلق بالرؤيا المبشّرة، ويمكن أن نرد الكثير من أقوال إبن سيرين السابقة إلى ترتوليان (نحو ٢٠٣م)، وجريجوري النيساوي (٣٨٠م) والأخير له كتاب «عن صنع الانسان On the Making of Man» إلا أن جريجوري مادي ولا يذهب مذهب القائلين بأن الأحلام تعود إلى تجوال الروح أو النفس أثناء النوم، ولكن مصدرها عنده هي الرغبات والتغيرات في الجسم والبيئة وحياة الناس، وأما الأحلام المنبئة فهي ليست من الأحلام العادية ولكنها إلهامات. وعن محتوى الأحلام يقول جريجوري: إن الأحلام تقوم على ذكريات الماضي والحاضر القريب. وأهم ما يدفع إلى الأحلام الرغبة الجنسية وعاطفة الغضب أو العدوان، وكلاهما من الحيوان إلا أن الانسان يرقيهما وينظمهما.

وكل ما يذكره فرويد عن هؤلاء وعن نظرية العرب لا يعدو ملحوظات على هوامش كتابه، ويسمي ذلك كله نظرة قبل علمية. ويعتبر كتاب فرويد تفسير الأحلام أول محاولة علمية حقيقية في باب التأويل والتعبير، ويقدم تعليلاً سيكولوجياً للأحلام، وما يزال يواصله الفرويديون، وهؤلاء هم الوحيدون الذين يأخذون بتفسير الأحلام ككاشف لديناميات الشخصية ومساعد على العلاج بطريقة التحليل النفسي.

وفي الوسع تلخيص النظريات التي سبقت نظرية التحليل النفسي في الأحلام فنردها جميعاً إلى ثلاث نظريات يذكرها فرويد فيقول إن الأولى: نظريات تزعم أن النفس في الحلم لا تنام وجهازها يظل سليماً، ومع ذلك فهي تخضع لشروط حالة النوم بأن يختلف أداؤها لوظائفها خلال النوم عنه في يقظتها. ولا تقدم هذه النظريات أية وظيفة للحلم. والثانية على العكس من الأولى تنتقص من النشاط النفسي أثناء النوم الذي يسد عليها كل المنافذ إلى العالم الخارجي، وتجعل الحلم كأنه تفكير خلطي لشخص ضعيف العقل، أو أنه تفكير كالتفكير اليقظ إلا أنه أقل منه بالنظر إلى أن النوم هو في الحقيقة حالة

يقظة جزئية، ومن ثم فمع التيقظ الكامل وعودة الوعي تماماً تُنسى أحداث الحلم جزئياً أو يتناولها التحريف. والثالثة تلك التي تنسب إلى النفس الحالمة قدرة ونزوعاً إلى أنواع معينة من النشاط النفسي تعجز عن إتيانها في حياة اليقظة أو انها تأتيها بشكل ناقض.

ويبدو من أقوال فرويد أن التفسيرات الفسيولوجية للحلم لا يوافق عليها كثيراً، إلا إذا كانت لها ارتباطات نفسية، غير أن البحوث في الأحلام من هذه الوجهة ما تزال مستمرة وحقّقت نجاحات كثيرة، ولعل عالماً كبيراً في مجال الأحلام والعلاج بالتحليل النفسي مثل كالفن هول قد يرى أن البحوث الموضوعية في مجال صلة الأحلام بالحرمان البدني من وظيفة من الوظائف، أو بالحرمان إطلاقاً، لا تودّي إلى معرفة لماذا نحلم مثلما فعلت طريقة فرويد في تحليل الأحلام بواسطة التداعي الحر.

الباب الثاني
«التفسير الفسيولوجي للاحلام»

يعتمد المنهج الفسيولوجي على تحديد ارتباطات الحلم بالمتغيرات البدنية، فإذا أمكن رصد هذه المتغيرات بالارتباطات الحلمية فإنه يكون من السهل من ثم الإجابة على كثير من الأسئلة المتعلقة بالأحلام وبتفسيرها وردها إلى أصول من متغيرات البدن وليس من متغيرات النفس، أو لأمكن القول إنه حتى المتغيرات النفسية التي تسبّب الأحلام مباشرة هي رجع صدى غير مباشر للمتغيرات الفسيولوجية.

ويعيب طريقة التحليل النفسي من وجهة نظر الفسيولوجيين أنها تعتمد على تفسيرات يسوقها الحالم ولا يمكن التنبؤ بها أو بأثرها ولا يمكن التأكد منها، ومن ثم كان التحليل النفسي للأحلام طريقة غير علمية، وذاتية، وغير موضوعية. والمنهج العلمي منهج يعتمد على القياس الدقيق، وما لم تكن الطريقة المستخدمة تقيس الظاهرة الحلمية وتردها إلى أصولها فهي طريقة غير علمية.

ولقد أمكن رصد تحركات لمقلتي العينين عند أشخاص التجارب أثناء النوم، فإذا أوقظوا ذكروا أنهم كانوا يحلمون، وكان تذكرهم لأحلامهم قوياً، فإذا لم يوقظوا واستمروا في النوم تلاشت حركات العينين لتعود بعد فترة، فإذا استمر النائم إلى أن يصحو عادياً فقد لا يذكر أحلامه أو قد ينسى بعضها، فإذا افترضنا أن النائم ينام ثماني ساعات فإنه طبقاً لنتائج التجارب المختلفة قد يحلم ٢١٪ من الناس في الساعتين الأولتين من النوم، بينما قد يحلم ٢٩٪ في الساعتين التاليتين، و٢٨٪ في الساعتين اللتين تأتيان في الترتيب الثالث، ثم ٢٢٪ في الساعتين الأخيرتين من النوم. والنوم الذي تحدث فيه حركات لبؤبؤ العين هو النوم الخفيف، ويوصف بأنه النوم المرَمّش REM sleep، أو Rapid Eye - Movement Sleep باعتبار أنه النوم الذي فيه حركات Movements (M) سريعة Rapid (R) للعين (E) Eye، واختصاراً REM. وأما النوم العميق deep sleep فهو

نوم خالٍ من حركات العينين السريعة هذه NREM (No Rapid Eye Movements).

ويبدو أن فترة النوم المُرَمّش تتراوح بين ثلاث دقائق وخمسين دقيقة، وتكون في المتوسط عشرين دقيقة، وتطول لأكثر من ذلك في الهزيع الأخير من الليل. ولا تتحرك العين طوال الفترة ولكنها تنشط مرة أو مرتين نشاطاً مفاجئاً، وقد تتحرك حتى الخمسين حركة، وقد تتجاوز ذلك إلى المائة. وتختلف الحركات كمية وحجماً ونمطاً من فترة إلى الأخرى وتحدث فترات النوم المُرَمّش منتظمة طوال الليل بالنسبة للفرد الواحد، وقد رصدت حركات للعينين أثناء النوم كل سبعين دقيقة، وأحياناً كل خمس وسبعين دقيقة، وأحياناً كل مائة دقيقة وأربع، بمعنى أن فترات النوم المُرَمّش الذي تكون فيها الأحلام تأتي في المتوسط كل اثنتين وتسعين دقيقة. وأمكن الربط بين هذه الحركات في العينين والأحلام، فالحالم يحرك بؤبؤ العين وهو نائم مع حركة واتجاهات موضوعات الحلم، وتستمر الحركة مع استمرار الحلم، وتتوقف بانتهائه. وهكذا تتراوح الأحلام على النائم في الليلة الواحدة لأكثر من مرة، ويطول الحلم بطول فترة النوم المُرَمّش، وقد تكون هناك عدة أحلام في الفترة الواحدة، ولا يذكر الحالم عند الاستيقاظ إلا ما يستطيع أن يتذكره منها، وربما ظن لذلك أنه لم يحلم إلا لثوان، والتذكر يلعب دوره الكبير في استعادة الأحلام، وتكون حركة العينين كبيرة أو ضئيلة بحسب أهمية الموضوع الذي نحلم به، ويحدّد الموضوع اتجاه حركات البؤبؤ وسرعة الحركة، ومن ثم فهناك تماثل وارتباط بين الحركات ومحتوى الأحلام، فمثلاً قد يحلم الحالم بأنه يصعد درجاً ومن ثمّ فقد تكون حركة البؤبؤ إلى أعلى، وقد يتراءى له أثناء ذلك أن ينظر إلى أسفل فيتحرك البؤبؤ باتجاه سفلي، وقد ينظر الحالم من حوله بحثاً عن مخرج فيتحرك البؤبؤ حركة أفقية بانورامية. ولا تكون هناك حركة عند النظر إلى الأشياء عن بعد، بينما تزداد الحركة إذا قربت الأشياء. وثبت أيضاً من هذه التجارب أننا بحاجة إلى أن نحلم، فالحلم بالنسبة لنا

ضرورة كضرورة النوم، ويميل الجسم إلى أن يعوض نفسه من النوم المرمش والنوم غير المرمش إذا حُرِم من أيهما، غير أن الحاجة إلى النوم المُرَمّش - أي الذي تأتي فيه الأحلام - أكبر، وكأننا إذا لم نحلم نمرض، والغالب أن الفرد الذي يحرم لمدة طويلة من هذا النوم الحالم قد يصاب بالذهان ويلحقه الإعياء الشديد والنَهَك وقد يموت إذا استمر ذلك!!

وما تزال البحوث مستمرة حول الارتباط بين النوم والأحلام والاضطرابات الفسيولوجية أو الحركات غير العادية للجسم وأعضائه أثناء النوم. ولا شك أننا قد نحلم أحلاماً لها طابعها الذي يضايقنا أو يبهجنا خلال النوم، فاضطرابات المعدة والامعاء قد ترتبط بأحلام مزعجة، وقد ينثني القدم فنحلم بما له صلة من قريب أو بعيد بألم القدم.

ومن البحوث حول تذكّر الأحلام يكون التذكر أقوى ما يمكن للأحلام التي تأتينا في الهزيع الأخير من الليل، ويقل تذكرنا لما قد نحلم به في بواكير النوم. وليس هناك ما يدل على أن زمن الحلم لا يعدو الثواني أو الدقائق، بل العكس هو الصحيح فالزمن الذي يستغرقه الحلم هو الزمن نفسه الذي قد تستغرقه أحداثه في الواقع ونحن في اليقظة وإنما يكون مكثفاً، غير أن استدعاء الحلم Dream recalling لا يكون للوهلة الأولى إلا للعموميات دون التفاصيل، وتلك لا يستغرق سردها إلا الثواني، فإذا جلسنا إلى الحالم نسأله التفاصيل بدأ يتذكر ويحكي ما لم يكن قد ذكره، وقد يستغرق منه ذلك الدقائق الطوال وربما الساعات. وتذكّر الحلم عملية تخضع كذلك للكبت والتحريف والنسيان، وما لا نستطيع تذكّره قد نلفقه تلفيقاً.

ولقد كانت هناك أسئلة كثيرة حول الأحلام ما كانت الطريقة التحليلية تستطيع أن تزودنا بالجواب عنها، ولكن هذه الطريقة القاسية المعملية زودتنا بما نريد، فعرفنا مثلاً متى نحلم، ومتى نتذكر، ومَن يحلم، وعلمنا أن حركة الجسم أثناء النوم تقطع أحداث الحلم، وأن حركة العينين تتوقف أثناء تحرك الجسم أو تقلبه في النوم، ثم يُستأنَف الحلم من بعد، وربما لم يكن هو نفسه

الحلم قبل الحركة، بل ربما كان حلماً جديداً، وأن الوعي أثناء الحلم ربما يمكن تشبيهه بالوعي عند الطفل الصغير أو الشيخ الطاعن في السن، وان أغلب ما نحلم به لا نستطيع أن نتذكره لهذا السبب، وأن الصحيان مباشرة بعد فترة نوم مُرَمّش يمكّننا من التذكر برغم أنه تذكّر فج يجعلنا نشبّه الوعي لدى النائم بأنه كهذا الوعي عند الأطفال الصغار والشيوخ الطاعنين، وقد لا نستطيع أن نتذكر ما سردناه من الحلم حال اليقظة من النوم المُرمّش إذا طُلِب منا أن نتذكره في الصباح. وليس من شك أن الوعي في النوم يتدنّى إلى أقل الحدود ولكنه لا يتوقف تماماً، وهو في مرحلة النوم المُرمّش أو الخفيف أعلى منه في مرحلة النوم غير المرمش أو العميق. والحالم يتأثر بما يجري داخل جسمه من تغيّرات فسيولوجية ويستجيب لها ويستدمجها في أحلامه، وكذلك المؤثرات الخارجية من البيئة، فالأحلام ليست نفسية فقط. ولقد تبين أن استحداث صوت بجوار النائم خلال مرحلة النوم المرمّش قد يحيد بالحلم الذي يحلمه ويجعله يحلم بأشياء لها اتصال بهذا الصوت، فلربما يحلم بمركب عابرة أو قطار يمر أو سيارة تمرق، وإذا كان الصوت عالياً فقد يحلم بأن شيئاً يحترق، أو أن البرق يومض، أو أن نور الحجرة يتوهج فجأة، وإذا سكبنا نقاطاً من ماء بارد على مكان ما من جلده فقد يرى أن المطر ينهمر. وهذه الدراسات وأمثالها قد أكدت ما قاله الأوائل وذكرناه في المقدمة عن إبن سيرين والنابلسي من تأثير لأحوال الجسم وللبيئة على الأحلام فضلاً عن الأحوال النفسية.

الباب الثالث

«أحلام الأطفال»

يذكر القرآن، ومن قبله التوراة، أن سيدنا يوسف عليه السلام حلم حلمه المشهور وهو بعد لم يبلغ الرابعة، وأن أباه يعقوب عليه السلام صادقه على حلمه وطلب إليه أن لا يخبر إخوته ﴿إذ قالَ يوسف لأبيهِ يا أبتِ إني رأيتُ أحدَ عشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين. قال يا بُنيَّ لا تقصِصْ رؤياكَ على إخوتِكَ فيكيدوا لكَ كيداً﴾ يوسف ٤/٥.

والطفل يحلم كما يحلم الكبار، وينفّس الأطفال عن أنفسهم ما يعانون ويكابدون، ويصبون في الأحلام آمالهم ومخاوفهم، وتعكس الأحلام إحباطاتهم وفشلهم وعداواتهم، غير أن الفارق بين التركيب النفسي للطفل والتركيب النفسي للبالغ أن أحلام الأطفال تتسم بالمباشرة والبساطة والوضوح. ولقد قيل إن يوسف قد حلم وهو بعد صغير - يعني أصغر من أربع سنوات، وكان نائماً في حجر أحد إخوته، وله قضيب خفيف صغير يتوكأ عليه ويهش به على الغنم، فحلم أن قضيبه قد غرز في الأرض وغرزت حوله قضبان إخوته العشرة، فإذا قضيبه أصغرها وأقصرها، فلم يزل يترقّى ويطول حتى طال عصيّهم وتثبّت في الأرض وتفرَّشت عروقه من تحتها حتى أنه قلع عصيّهم وانتصب قائماً وسكنت عصيهم حوله، فلما استيقظ ذكر لإخوته حلمه فقالوا: يوشك إبن راحيل أن يقول أنتم عبيدي وأنا سيدكم - والحلم كما نرى رمزي، ولو أنه في التحليل النفسي نستطيع أن نفسر الحلم تفسيراً آخر بحسب ما يقال في هذا المجال من التنافس بين الإخوه Sibling Rivalry والإخصاء، فقضيب يوسف الصغير - وهو هنا بتعبير فرويد قضيبه على الحقيقة ورمز ذكورته - إن أُعطي الفرصة والوقت سيكبر حتى ليبز قضبان اخوته جميعهم، يعني ذكورته ستتفوّق على ذكورتهم، وعطاؤه ورجولته سيكونان أكبر من كل عطائهم ورجولتهم: حلم طموح، ورغبة في التفوق، وتعبير عن العجز، أو تعبير عن اعتبارات عالية

للذات. ورموز الحلم كلها من البيئة ومن أحوال العلاقات بين يوسف وإخوته من غير أمه، وبين يوسف وأخوته والأب وهو سيدنا يعقوب. ويوسف يعيش الموقف الأوديبي كأعمق ما يُعاش - وهو ما سنتناوله من بعد، وسيتعين بأبيه ويرى نفسه فيه، بل إنه ليعظّم أناه حتى ليرى هذا الأنا يطغى على أنا الوالد يعقوب، وهو ما عبّر عنه في الحلم الآخر الوارد في القرآن ﴿إذ قالَ يوسف لأبيهِ يا أبتِ إنّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجِدين﴾.

والحلمان للصغير يوسف فيهما كل الحيل التي تحتال بها الرغبات في الأحلام على الظهور برغم الرقابة النفسية، وكأن ما يستشعره يوسف ولا يستطيع أن يفصح به لسانه مباشرة يجد التعبير عنه تعبيراً غير مباشر في الحلم الذي تفسيره ما قاله إخوته «يوشك إبن راحيل أن يستعبدنا».

وإننا لنلاحظ أن الحلمين اللذين حلمهما يوسف يُكثر الأولاد في مثل ظروفه من الأحلام القريبة منهما، وخاصة في الريف حيث يعتاد الرجال الزواج بأكثر من واحدة، وتكون الغيرة بين الأبناء غير الأشقاء والتنافس على قلب الأب، وعجز الابن الأصغر الذي يأتي الأب وهو في سن طاعنة له أبناء كبار، فيوغر صدره على إخوته وعلى أبيه الذي له مثل هؤلاء الأولاد الكبار، وتكون أحلام القدرة المطلقة Omnipotence dreams هذه، وهي النقيض الخالص لوضع العجز الذي في هذه المرحلة من العمر للأطفال الصغار.

إذن فالأطفال يحلمون، وأحلامهم تتأثر بظروف معيشتهم وأحوالهم العائلية والاجتماعية والصحية وخبراتهم اليومية وذكائهم وأعمارهم وبناء شخصياتهم. وليس من السهل رصد هذه الأحلام بالنظر إلى حداثة عمر الصغير وقلة خبرته ودرايته وضآلة محصوله اللغوي. ويميل الطفل إلى إسقاط ما لا يفهمه ولا يحبّه من الحلم عند روايته، وقد تختلط عليه أحداث الحلم بالخيال وشطحاته، ومع ذلك أمكن رصد الكثير من الأحلام للأطفال وخاصة عقب الاستيقاظ من النوم. وكذلك أمكن رصد ظواهر حركية

وكلامية للأطفال الذين هم دون السن التي يقدرون فيها على التعبير عن أحلامهم بالنظر إلى ما يبدو منهم من ضحك أثناء النوم أو ابتسام أو تأوّه وبكاء وصياح، أو صرّ على الأسنان أو ركل بالأقدام، أو جولان أو كلام أو إيماءات. ويؤكّد كثيرون أن الأطفال في الشهر الثامن يحلمون (Erickson)، وكان فرويد يقول إن ابنته الصغرى في شهرها التاسع عشر تحلم. وأحلام الأطفال الذين يعانون من الحرمان العاطفي أو الذين يعيشون في عوز مادي أكثر من أحلام الأطفال الذين يعيشون في يُسر مادي وحضاري. وكذلك فإن الأطفال الذين ينامون في سرير وحدهم يحلمون أقل من الأطفال الذين يتشاركون وآخرين في سرير واحد، سواء كان هؤلاء الآخرون إخوة أو أحد الوالدين. وتختلف موضوعات الأحلام بحسب انتماءات الأطفال الطبقية، فالأطفال الفقراء يحلمون بامتلاك أشياء تعوزهم كالأكل والثياب والألعاب، وتغزر أحلامهم في الأعياد والمناسبات حيث يزداد شعورهم بالعوز والحاجة.

وغالباً ما تكون أحلام الأطفال عن حوادث اليوم السابق، ويقول فرويد إن أحلامهم تجعلنا لا نشك أن ما يستحثّها هو الرغبات التي لم تتحقق خلال اليوم الفائت. ويعوض الطفل عما فاته في ذلك اليوم بالحلم، فإن كان قد فشل في التغلب على مسألة تغلّب عليها في الحلم، وإن كان قد أهين فهو يرد الإهانة، وإن كان قد حُرم إحدى الألعاب فهو يلعب بها حتى يشبع. والطفل الذي يقرأ قبل النوم يتأثر بما يقرأ وقد يحلم به ويتقمص الشخصية من القصة التي أعجب بها ويرى نفسه فيها.

والطفل الصحيح البنية يحلم أقل من الطفل المعتلّ الصحة. والصحة والمرض يوثران في السلوك سواء في اليقظة أو في النوم. وإذا مرض الطفل وارتفعت درجة حرارته زادت أحلامه، ومع التغيّر الكمي في الأحلام يكون التغير الكيفي أيضاً، فتصبح الأحلام أوضح ولها طبيعة عصبية. وقد يذهب بتفكيره في الحلم إلى الموت، وتتنوع صور الموت، فإذا شفي الطفل وخفّت الحرارة عادت أحلامه إلى القلّة بعد

الكثرة واختلفت أيضاً في طبيعتها. والأطفال الذين يصابون بالانفلونزا والذين يتجاوزون سن الحادية عشرة تكون أحلامهم من نوع الكوابيس مع ارتفاع درجة الحرارة بشدّة والامتناع عن الأكل، وتكون الهلوسات في اليقظة مع الكوابيس في النوم.

ويرتبط الذكاء مع كثرة الأحلام وإتيانها، وكلما زاد الذكاء كثرت الأحلام غير المبهجة، إلا أنه مع ارتفاع الذكاء عن ١٢٠ فإن نوعية الأحلام تختلف فيحلم الأطفال بكائنات غير إنسانية، وبالسقوط وبالتواجد في أماكن عالية، وبالعجز، وعدم القدرة على الحركة، وبأماكن غريبة وأناس لا يعرفونهم. وأما الأطفال بحاصل ذكاء أقل من مئة فإن أحلامهم ترتبط بالأفلام والقصص والحكايات عن الجرائم. والأطفال الجانحون أكثر أحلاماً من الأسوياء. والطفل الذكي في ظروف اجتماعية وعائلية غير مؤاتية أكثر أحلاماً من مثيله في ظروف أفضل. وتكثر أحلام الأطفال غير المبهجة والمسببة للكدر إذا حُرِم الطفل من أمّه لمدة طويلة ولم يكن هناك من ينوب عنها ويعوضه عن غيابها. وأطفال الملاجئ والأطفال اليتامى والذين تُطلّق أمهاتهم أكثر أحلاماً من غيرهم..

وكلما تقدّم الطفل في السن تغايرت أحلامه، فإذا زادت خبراته وكبر وعيه زادت أحلامه تعقيداً. وتنضج أحلام الطفل مع نضوجه العاطفي. وتبيّن من تحليل أحلام الأطفال في السن بين الثانية والخامسة أنهم يتأثرون جداً بالحيوانات، وحتى ما هو أليف منها فإن الصور الحلمية عنها لا تكون مبهجة، ورغم أن المحيطين بالأطفال قد يكونون محبوبين منهم إلا انهم إذا رأوهم في الحلم فقد يرونهم من هيئة هذه الحيوانات من البيئة وفي أدوار مخيفة أو مكروهة. والحيوان في الحلم سادي بالنسبة للطفل، ومخرّب أو مدمّر، وكذلك بعض الناس.

والطفل بعد الخامسة يتحول إلى أناه هو نفسه ويرى نفسه في أحلامه. وهو بعد الخامسة يتوجّه إلى بيئته ويحلم بها ولا يكون هو مركز أحلامه ولكنه يكون أيضاً في الأحلام وإنما في دور المتفرج،

فهو لا يشارك ولكنه يشاهد، وأحلام الأطفال لذلك بعد الخامسة ليست أحلام حركة بقدر ما هي صور ومشاهد، ومعظمها أحلام مثيرة للخوف فيها العفاريت واللصوص ورجال العصابات والكلاب الضالة والقطط المؤذية. ومع بلوغ الثامنة أو نحوها حتى ما بعد البلوغ فإن الكوابيس تكثر، والأحلام فيها الهروب ومحاولاته، والمطاردة والعجز والهلع واليأس. والأطفال يخبرون فترات النوم المرمّش أقل في المراحل الأولى من النوم، ويكثر هذا النوم بعد الخمس ساعات الأولى، وعندئذ تكون الأحلام أكثر بعد هذه الساعات الخمس الأولى، وتأتي الكوابيس وهم نيام على الجنب، والنوم المفضّل بالنسبة للطفل على الجنب. ومعظم الخوف الذي تظهره أحلام الأطفال هو خوف لم يخبروه فعلاً ولكنهم استلهموه مما قيل لهم من قصص أو قرأوا عنه (Piaget). والأحلام قبل العاشرة أحلام من الخارج، أي أن موضوعاتها خارج ذوات الأطفال، وبعد العاشرة تكون الأحلام من الداخل، أي أن موضوعاتها أفكار داخل أذهانهم وإن رأوها بعيونهم، ويفسر بياجيه ذلك فيقول إن الفكرة تنطرح خارج الذهن في شكل حلم يراه الطفل وقائع يقينية.

ولا تبدأ أحلام الحركة إلا بعد العاشرة، ومع تقدم السن حتى الرابعة عشرة تكثر الحركة في الأحلام، وهي الظاهرة نفسها التي تُلاحَظ على الأطفال في اليقظة من حيث غلبة الحركة على نشاطاتهم.

والبنات يحلمن في سن البلوغ الجنسي بالحرام والحلال من ناحية الجنس، وتكون لأحلامهن طبيعة جنسية، وتكثر مشاهد الغيرة، وأحلام سندريللا، والرغبة في الظهور، والرومانسية، وامتلاك الملابس والمال.

والأطفال عموماً لا يقلقهم الموت إلا بعد البلوغ، وتأتيهم صور الموت بعد هذه السن. والموت ربما يتمثّل على أنه يلحق بالطفل، أو انه يحلم بشخص قريب منه أنه يموت أو مات. وهذه الموضوعات جميعها، وخاصة إذا صاحبتها الانفعالات الشديدة، تتحكم فيها طبيعة شخصية الطفل الحالم. ويحلم الطفل العُصابي بالموت أكثر من الطفل السوي.

والطفل العدواني أحلامه عدوانية. وإذا كانت للطفل تجارب صادمة في حياته الباكرة كثرت الأحلام التي يرى فيها نفسه يسقط من حالق أو التي يكون فيها موضوع عدوان من الآخرين. ولا يستحث القلق الأحلام عند الأطفال بقدر ما يستحثه الكبت أو القمع. والطفل القلق يكون نومه مضطرباً ولكنه لا يحلم أحلاماً مزعجة بالضرورة. وكذلك الطفل الذي يبول أثناء نومه فإن تبوله يشيع الاضطراب في نومه، فإذا عانى الطفل أثناء اليوم من خبرات إستثارته ولم يعبّر عما يجيش بصدره من انفعالات وكبته أو قمعه فإن هذا الكبت أو القمع هو الذي يجعله يحلم وتكون أحلامه مزعجة. وكلما شعر الطفل بعدم الأمان وبالخوف كلما زادت أحلامه المزعجة.

ويؤثر العمى والصمم على أحلام الأطفال، والطفل الأصم يحلم أحلاماً كلها بصرية وتخلو من الأصوات، وخاصة إذا كان هذا الصمم قد أصابه من الطفولة الباكرة، وأحلامه فيها التمنّي أن يسمع، بعكس أحلام الطفل الأعمى، فإذا كان العمى به قبل سن الخامسة فإنه لا يميل إلى الأحلام كثيراً لأنه لم ير من قبل ولا يستطيع أن يرى في الحلم، وإذا كان العمى به بعد السابعة فإنه يرى في أحلامه كالمبصر تماماً. وأحلام الأعمى هي أحلام فيها التمنّي، وهو يحلم بأنه يرى رأي العين أشخاص بيئته وأنه يتحرك بحرية، فإذا خاف أو زال عنه الشعور بالأمان يحلم بالنار، والنار هي أخوف ما يخافه الطفل الأعمى. وحركة الطفل الأعمى في الحلم محدودة رغم ذلك وأقل من حركة الطفل المبصر، والحركة في أحلام الأصم معدومة تماماً.

والأطفال الجانحون واليتامى، يحلمون بكثرة أحلاماً أكثر وضوحاً من أحلام الأسوياء، وذلك لأنها صادرة عن حاجات محدودة وملموسة. والطفل الجانح أو اليتيم يستشعر هذه الحاجات بقوة فتخرج في الأحلام أماني، والخوف هو السمة الغالبة على أحلامه، وليست فيها الحركة الكثيرة كالطفل العادي، ويقدر جوردون أحلام الأطفال من هذا النوع والتي مدارها العودة إلى البيت

بنحو ٨٠٪ من مجموع ما يحلمون (Gordon, H.L. A Comparative Study of Dream Analysis and the Thematic Apperception Test as Projective Techniques)، وأحلام البنات أقل حركة من الأولاد، ولا توجد فروقات في الموضوعات بحسب نوع الجناح الذي للطفل.

والفروق الجنسية بين الأطفال الذكور والإناث تستتبع فروقاً في نوعية الأحلام وكثرتها عند الجنسين، والبنات أكثر إتياناً للأحلام، والسبب أن الضغوط التي تقع على الأطفال البنات أكثر من التي تقع على الأولاد. وأكثر أحلام البنات أنهن مطاردات ومهددات. والولد في السن من الخامسة حتى السابعة يحلم بالحيوانات ويخافها أكثر من البنات. وهو في السن من السابعة حتى الثانية عشر معرّض لأحلام فيها الحوادث والسقوط والإصابة أكثر من البنات. ويتأثر الأولاد أكثر بالأحلام، وخاصة في سن السابعة، وتكثر أحلامهم بتأثيرها عن البنات. والبنات عموماً في السن من الثمانية حتى الرابعة عشرة أدق في سرد أحلامهن ويستطعن بمهارة وحذق أن يصفن أشخاص الحلم، إلا أنه لا فرق بين البنت والولد من حيث كمية الأحلام المفرحة أو المحزنة. وهناك فرق واضح بينهما في أحلام التمنّى، والبنات يحلمن أكثر بالهدايا والأطعمة والسفر والزيارات والضيافة والملاهي. والبنات يمارسن الكلام والثرثرة أكثر من الأولاد في الأحلام. وأحلام الأولاد عن الشجاعة والبطولة أكثر، إلا أن أحلام الخوف تأتيهم أكثر. وفي السن من ٨ إلى ١٤ يكون الخوف من الحيوانات متساوٍ عند الجنسين وعلى عكس ذلك في السن من الخامسة حتى السابعة. والحيوانات التي يخافها الأولاد هي الثور والحصان والحمار والكبش، أي الحيوانات كبيرة الحجم، وأما البنات فخوفهن من الحيوانات صغيرة الحجم كالقطط والكلاب والفئران والثعابين.

الباب الرابع
« مادة الأحلام »

كل حلم له حوادث، والحوادث يقوم بها أشخاص، وهي تقع في مكان، وكل حلم له طابع إنفعالي خاص به، والأحلام بوصفها تدور في مكان فلربما يكون المكان قارباً في بحر فيغلب اللون الأزرق، أو يكون المكان متنزهاً فتسود الخضرة، أي أن للحلم لوناً أو ألواناً.

وأغلب الأحلام مكانها البيوت لأن الناس في أغلب أوقاتهم في البيوت، ثم قد يكون مكان الحلم الشارع أو المنتزه أو السوق، وهي أكثر ما يؤم الناس من أماكن إذا خرجوا من بيوتهم. وتقل الأحلام التي مكان حدوثها العمل، أو الفصل الدراسي، أو المستشفى، أو الجامع.

وأكثر الأحلام في البيت تكون في الحجرات التي يتعايش فيها أهل البيت أغلب الوقت، وهي غرفة الجلوس، ثم غرفة النوم، ثم المطبخ، وقد يكون مكان الحلم بالقرب من الباب الخارجي للشقة، أو بسطة السلم المجاورة، أو السلم نفسه.

ولقد كان جل اهتمام علماء النفس تحليل أحلام المرضى بالعُصاب، ولم يهتموا كثيراً بأحلام الأسوياء، غير أن الاتجاه الحالي أن يكون التحليل لأحلام الأسوياء والمرضى بالعُصاب على القدر من الأهمية نفسها.

وأحلام العُصابيين ستكون مناقشتها لاحقاً، وما يهمنا هو أن نعرف عن أحلام الأسوياء، والأماكن التي تدور فيها أحلام الأسوياء عادية، وليس فيها شيء غريب، وذلك عكس أحلام العصابيين. والوقت الذي نقضيه في مكان ما ليس شرطاً أن يضفي الأهمية على هذا المكان، فالمكتب نقضي فيه وقتاً كبيراً إلا أنه نادراً ما يكون المكان الذي تقع فيه أحلامنا، وذلك لأن شرط المكان هو أن نشحنه انفعالياً بعواطفنا وتعلّقاتنا النفسية، وعلى ذلك يجيء البيت في المكانة الأولى من بين كل الأماكن التي نرتادها ونتردّد عليها في أحلامنا. وكذلك فإن المكتب أو الوظيفة مكان منفر، وإذا حلمنا بأيهما فإننا نحلم به أحلاماً مزعجة أو منفرة.

وأشخاص كل حلم بالنسبة للبالغ تتحدّد بحسب عمر هذا البالغ، والناس

إما أطفال أو شبّان أو شيوخ. ولقد تناولنا أحلام الأطفال وسنعود إليها لماماً، وأما أحلام الشبان فعادة ما تكون الشخصية الرئيسية في الحلم هي الحالم نفسه، وقليلاً ما يكون وحده في الحلم، والأغلب أن يكون مع آخرين، وربما كان هؤلاء الآخرون شخصاً أو شخصين أو أكثر من ذلك، إلا أنهم في المتوسط شخصان بالإضافة إليه، وفي ٤٣٪ من الحالات يكون الآخر أو الآخرون من الأصدقاء والمعارف، وفي ٤٩٪ منها يكونون أغراباً غير معروفين له، وفي ١٩٪ منها يكونون من الأقارب والأصهار، وفي ١٪ فقط قد يكون الآخر شخصية معروفة أو مشهورة إجتماعياً وذلك دليل أن الأحلام غالباً ما تدور حول موضوعات تهم الحالم نفسه وليست مجرد موضوعات إجتماعية، ولكن قد يحدث فيما ندر أن يكون الآخر هو الله أو الرسول، إلا أن المقصود رمزياً قد يكون الوالد أو المُرَبّي أو صاحب العمل، وربما كان المقصود به الضمير، أو أي شيء آخر بحسب سياق الحلم وشخصية الحالم وصناعته، وأغلب ما يكون الآخر من الأقارب هو الأم في ٣٤٪ من الأحلام، ثم الأب في ٢٧٪، ثم الأخ في ١٤٪، وأخيراً الأخت في ١٢٪.

وكذلك أمْكن تصنيف الآخرين في الأحلام بحسب الجنس والعمر، فالرجال يحلمون برجال مثلهم وبنساء ولكن الأحلام التي أشخاصها من الرجال ضِعْف الأحلام التي أشخاصها من النساء، بينما أشخاص أحلام النساء من الجنسين بالتساوي.

ويبين تحليل الأحلام أننا نحلم بأناس من سنِّنا، وفي أحلام الشباب في السن من ١٨ إلى ٢٨ فإن ٤٢٪ من أشخاص الأحلام يضاهون الحالم في العمر، و٢٠٪ أكبر منه، و٣٪ أصغر منه، و٣٥٪ لا تتضح حقيقة أعمارهم.

وليست هناك فروق كبيرة بين أشخاص أحلام الشبان والشيوخ، فالشيوخ يحلمون أكثر بأفراد العائلة والأقارب، وأقل أحلامهم بالأصدقاء والمعارف، ولعل ذلك يرجع إلى أن الشبان لا يكونون في السن قبل الثلاثين قد تزوجوا وصارت لهم عائلات. وكذلك يحلم الكبار في السن بأشخاص من الشباب، وأقل أحلامهم بأفراد من الكبار

المساوين لهم في العمر، وقد يعني ذلك بعبارة أخرى أنه بينما يحلم الأطفال بالأبوين، فإن الآباء يحلمون بالأطفال، وبينما يحلم الأزواج بزوجاتهم فإن الزوجات يحلمن بأزواجهن.

ولقد استطعنا موضوعياً أن نجيب على السؤال: بمن نحلم؟ والآن نجيب على السؤال: ماذا يفعل الناس في الأحلام؟ هل يمشون أو يركضون أو يتحدثون أو يشتغلون؟ والغالبية منهم يتحركون (٣٤٪)، أي يمشون ويركضون ويركبون... إلخ. وكان يقال إن أحلام السقوط وأحلام الطيران كثيرة، والواقع غير ذلك. ويأتي الكلام بعد الحركة في الترتيب (١١٪)، ثم الجلوس (٧٪)، والفرجة (٧٪)، والزيارات (٦٪)، واللعب (٥٪)، والشغل اليدوي (٤٪)، والتفكير (٤٪)، والمجاهدة أو المحاولة (٤٪)، والشجار (٣٪)، والاكتساب (٣٪). ويتبين من ذلك أن أغلب الأحلام سلبية، أو أن الحالم وأشخاص الحلم لا يفعلون شيئاً ذا بال، وأقل الأحلام يكون فيه عمل ما كالطبخ أو الحياكة أو التنظيف أو غسيل الصحون، والكثير من الأحلام فيها الترفيه كالسباحة والغطس ولعب الكرة والرقص إلخ. ونفهم من ذلك أن الحالمين يميلون إلى الترويح عن أنفسهم أكثر من ميلهم إلى العمل، ونشاطهم سلبي أكثر منه إيجابي.

فماذا عن العلاقات التفاعلية بين الحالم وأشخاص الحلم؟ كما نعرف فإن الناس إما ودودون أو معادون، والأحلام تأتي في الغالب عن تفاعلات عدوانية بين الحالم وأشخاص الحلم بأكثر من الضعف. والسلوك العدواني يتراوح بين: القتل (٢٪)، والتماسك بالأيدي والتضارب (٢٨٪)، والتنابذ والتشاتم (٢٧٪)، ومجرد الشعود المعادي (٨٪). وأما السلوك الودود فغالباً ما يتمثل في تقبّل أو إعطاء هدية، وكثيراً ما يكون مجرد شعور بالامتنان أو المحبة.

وتصنّف مشاعر الحالمين إلى مخاوف (ويتضمن ذلك القلق والحيرة)، وربما تكون مشاعر غضب (ويشتمل على الإحباط)، أو حزن، أو سعادة، أو استثارة (وتتضمن الدهشة أو المفاجأة). والشعور بالخوف وبالقلق والترقب يشمل ٤٠٪ من الأحلام، ثم يأتي الغضب والسعادة

والاستثارة (وكل منها ١٨٪)، ثم الحزن وهو أقلها (٦٪) فقط، بمعنى أن ٦٤٪ من إنفعالات الأحلام سلبي أو غير سار (الخوف والحذر والترقّب والقلق والغضب والحزن)، و١٨٪ فقط (سعادة) يكون إيجابياً ساراً.

ولو سألت الحالم: هل أحلامك من النوع السار؟ فإنه على عكس الإحصائية السابقة قد يقضي أقل من نصف الحالمين (٤١٪) بأن أحلامهم من النوع السار، وقد يحكم نحو الربع منهم (٢٥٪) بأنها غير سارة، وقد يقول نحو الثُمن (١١٪) إنها خليط من السارة وغير السارة، وقد يزعم نحو الربع (٢٣٪) أنهم لا يدرون ولم يفكروا في الأحلام من هذه الزاوية.

وأما بخصوص الألوان في الأحلام فالناس عادة لا ينتبهون للألوان إلا إذا كانت فاقعة كاللون الأحمر أو الأخضر أو الأزرق، وتذكّرهم لها أو إتيان الأحلام في هذه الألوان نتيجة الشحن الانفعالي للحلم. والحالم لا يمكن أن ينسى لون الدم أو النار، ويسعده أن يرى الخُضرة في الزرع وهو يتنبه إليه، وكذلك زرقة ماء البحر، واللون الأبيض في الغيوم، وسواد وجه البعض أو صفرته، وبشكل عام فإن الرُبع من الأحلام يأتي ملوناً، والغالبية تكون بلا لون، وأحلام النساء تكثر فيها الألوان عن أحلام الرجال، وتقل الألوان عند كبار السن عنها عند الشبان.

وهذه الخصائص السابقة عن الأحلام تجعل لمحتواها معان معيّنة وتصنع لها بما تضفيه عليها سمات يفسّرها بها المفسّرون. والحلم ضرب من التفكير، وإن يكن تفكيراً بدائياً، وهو تفكير يكون في النوم، وأدواته الصور البصرية بدلاً من الكلمات والخطوط كما في اليقظة، والأفكار فيه لا تكون مجرّدة ولكنها تتجسّد في أشكال مرئية. والحالم يرى في النوم أفكاره صوراً، فإذا استيقظ عاد يصوغ الصور أفكاراً في كلمات ينقلها للآخرين، سارداً ما رأى في الحلم. ولعله لهذا السبب كان تعبير العرب عن الحلم بأنه تعبير يفوق أي لفظ آخر بأي لغة من اللغات.

والحالم في الحلم يطرح مشاكله ومسائله ومخاوفه وآماله، لعله بهذا الطرح الثاني يجد الراحة والحل والطمأنينة. وهو في الحلم يعيد التفكير

في نفسه وفي شخصيته ويحكم على نفسه، وقد يكون حلمه تساؤلاً من نفسه لنفسه عن مدى قدرته على الاحتمال، أو على التصدّي لمخاوفه، أو على مواجهة أسباب القلق. وهو في الحلم يفكّر في الناس من حوله، ويسلّط عليهم مرآة نفسه، ويرى صورهم وأبرز ما فيهم مجسداً. ومن ثم كان تفسير الحلم أو تأويله بترجمة الصور الحلمية إلى كلمات وأفكار. وكان المصريون القدماء يرسمون الفكرة في صورة لطائر أو حيوان على وضع معيّن، فإذا رأى الناس الصورة فهموها وفسّروها. وهكذا تفسير الأحلام، هو عملية فك لطلاسم الصور الخاصة بالشخص، أو العامة التي تصطلح عليها الثقافة ويصور بها الناس أفكارهم في الأحلام، فإذا نجح المفسر في ذلك فإنه يكون قد أدرك أهداف الحالم ونفذ إلى شَفرته، وعرف أسرار ما يفكّر فيه ويشعر به ويدبّر له، وما يكمنه للناس وما يحسب أن الناس تكنّه له، وتصوُّره للدنيا، وفكرته عن الاجتماع والأسرة والزواج والطلاق، وكأنه في الحلم يتبلور كل شيء، وينكشف الشخص برمته، وهذا هو ما يجعل لتفسير الأحلام أهمية بالغة لعالم النفس.

وفي الحلم يلعب الحالم أدواراً، فقد يظهر فيه بمظهر الضحية، وقد يبدو كما لو كان هو المعتدي، وقد يرى في نفسه أنه المنتصِر برغم الظروف غير المؤاتية، أو قد يرى أنه يخسر مع أن لديه كل امكانات النصر. وقد يرتدي في الحلم مسوح الولي، أو يكون له زي الخاطئ الآثم، وقد يتصرّف على نحو مستقل، أو يركن في الحلم إلى آخرين، أو قد ينفق عن سعة، أو يكون مقتراً وبخيلاً. ويبدو أن إيمرسون بلغ أوج الحكمة عندما قال: إن الإنسان المحنك هو الذي يقرأ أحلامه ليعرف نفسه.

وقد تتعدّد أشخاص الحلم، إلا أنهم جميعاً - طالما أنهم ظهروا على مسرح الحالم - مترابطون بسبب، وهو علاقتهم بالحالم، وهم متورطون عاطفياً بحياته. وقد نسأل: ولكن لماذا نرى أغراباً في الحلم إذا كان كل من يظهر فيه لا بدّ أن تكون له بنا علاقة عاطفية؟ والجواب: إن من يبدو أنهم أغراب لا يمكن أن يكونوا أغراباً على الحقيقة، فهم الناس الذين نعرفهم ولكننا نراهم في الحلم كما

نتصورهم، وصورُهم قد لا تبين لنا للوهلة الأولى، ولكننا بالتمعن والتمحيص سرعان ما ندرك أن هذه الصور هي الناس الذين نعرفهم، فمثلاً قد يكون للحالم أب متزمت، أو صَلِف، أو قاسٍ، فيراه في الحلم على صورة ضابط شرطة، أو ضابط جيش، أو ناظر مدرسة ملتزم بالضبط والربط، وقد يرى من الأب سمات أخرى تبدو في صور تناسبها بحسب هذه الصور في ذهن الحالم وقت الحلم. وهذه الصور الحلمية للأب لا يعرفها الحالم لأبيه، وهو فيها يبدو غريباً عليه مع أن ما تمثله من صفات يعرفها الحالم جيداً له.

وبالمثل فإن العالَم يظهر للحالم في صورة ليست له في الواقع ولكنها في ذهن الحالم عنه، فلو أن العالَم بدا كئيباً فإن صورته التي ستظهر له في الحلم ستكون صورة كئيبة، كأن يرى الحالم نفسه يسير في خرابة أو بين القبور أو في طريق مقفر، فإذا كان الحالم يغلي من الداخل ويحتدم به الغضب فإنه لن يرى من العالَم كخلفية للحلم إلا بحراً لجياً وعواصف عاتية، وقد يرى نفسه في سوق مزدحم والمناكب فيه متلاصقة، وهو يشق طريقه بالكاد، أو قد يرى الدنيا ممطرة.

وفي الأحلام قد نشبع دوافعنا الجنسية ودوافع العدوان فينا، أو قد نحاول أن نشبعها، وتُطلعنا الأحلام على حقيقة الاعتبارات الجنسية والعدوانية عند الحالم، فالحالم الذي قد يتمنّى مضاجعة امرأة بعينها ولكن هذه الرغبة يكبتها لأن المرأة مثلاً زوجة لأخيه، ومن ثم فقد يراها في الحلم صراحةً ويضاجعها، أو قد يرى بديلةً لها باسمها، ولكنه عندما يضاجعها أو يحاول مضاجعتها يتلقى منها صفعة، أو تهدّده بإفشاء سرّه، وقد يهوله ذلك ويفزع له بشدّة، فنتعلم من الحلم أية رغبات تكون له، وكذلك نعرف إعتبارات هذه الرغبات عنده من حيث الحرام والحلال مما يناله من عقاب في الحلم.

وتكشف الأحلام عن مفهوم الحالم لصراعاته، فالحلم له نكهة درامية خاصة تتمثل في عُقدة الحلم، وفي الشدّ والجذب الذي يتعاور الشخصيات والحوار، والجو الدرامي الذي يخيّم على صوره من حيث توزيع الأضواء وظهور العتمة أو الظُلمة، والتخللات الضوئية والصوتية وكأننا

نشهد فيلماً حقيقياً له كل مقومات الأفلام. ومع انتهاء الحلم تكون نهاية الفيلم أو القصة، ولكن النهاية لا تكون حاسمة وإنما هي نهاية مفتوحة، لأن الصراعات التي هي محتوى الحلم، والتي يدور عليها، والتي تلونه بألوانها، وتصبغه بصبغتها، ما تزال لم تحل، لأنها صراعات أساسية كانت معه منذ الطفولة، وتظل معه دائماً تلاحقه وتتابع فصولها وكأنها خيط أريان الأسطوري يسير خلفها ويلاحقها عبر متاهة الحياة. وقد تبدو هذه الصراعات وكأنها اختفت لبعض الوقت، ولكنها تكون موجودة دائماً ومعلّقة، تعمل عملها وكأنها العدو الخفي، أو كأنها حروب داخلية لا يدري بها في حياة اليقظة، وتُستنفر إذا جنّ الليل، وتدور رحاها حامية الوطيس.

وهناك صراعات عامة يتشارك فيها الناس جميعاً وتتقاسمها أحلامهم كالصراع بين النضج والاستقلالية وبين الطفولة والاعتمادية والسلبية. ويظهر هذا الصراع محتدماً عند البلوغ وفي المراهقة المتأخرة وأوائل العشرينات، وقد يظل يعمل عمله عند بعض الناس إلى سنّ متأخّرة ويعود قوياً كما كان في الشيخوخة.

وهناك صراع داخلي آخر نخبره جميعاً بين قوى الخير وقوى الشر فينا ونطلق عليه لهذا السبب إسم الصراع الأدبي أو الأخلاقي Moral conflict، وصراع ثالث بين الميول البنّاءة والميول الهدّامة، ونعني بالأولى تلك التي من شأنها إعلاء قيم الحياة وتأكيد المحبة وتأصيلها في النفوس، ووصل الأرحام وإشاعة السلام (Tendencies of integration)، وأما الثانية فهي التي يكون بها قطع الأرحام واستحداث الانقسام والفُرقة والتخريب وبذر الكراهية وإعمال الموت (Tendencies of disintegration)، ويتمثل هذا الصراع في الكوابيس وأحلام القلق. ودراسة الأحلام تطلعنا على هذا الجانب وتزيد فهمنا لدوافع السلوك، لأن الإنسان يُصدر في سلوكه عن تصوّره للناس من حوله والحياة، وهذا التصور نتعرف عليه من دراسة الأحلام، فهي مجال واسع وهام ومصدر من مصادر المعرفة بالإنسان لا ينضب معينه ويعين بالتأكيد في العلاج.

الباب الخامس
«الفروق بين الجنسين في الأحلام»

يتخالف الناس فيما بينهم في الكثير ويتفقون في الكثير أيضاً، وينطبق ذلك على الذكور والإناث، وفي مجال الأحلام قد نعلم وجوه الاتفاق فالكل مثلاً يحلم سواء الطفل أو الشاب أو الشيخ، الذكر أو الأنثى، ولكن وجوه التباين مؤكّدة بين الجنسين. ولقد كان علماء النفس عندما يدرسون الأحلام عند المرضى لا يفرّقون بين الذكر والأنثى، وما يعنيهم هو الاضطراب الذي له مظاهره في الحلم ويمكن أن تشير إلى الأسباب، غير أن دراسة الفروق بين الجنسين في الأحلام تكشف لنا عن جانب جديد، قد لا نعتبر بمقتضاه مَن كنا نظنهم مرضى بالاضطراب من المرضى حقيقة. ثم إن الدراسة قد استمرت للمرضى دون سواهم وقد آن الأوان أن تتوجه الدراسة للأسوياء. والحق أن هناك الكثير من الأسئلة تحتاج إلى الجواب، فهل الذكور يحلمون أكثر من الإناث أو العكس، أم أنهما متساويان؟ وهل تلوّن الحياة العاطفية للإناث أحلامهن وتجعل لها طابعاً أنثوياً خاصاً؟ وهل الحياة العامة للذكور والعمل وأدرانه، وهموم إعالة الأسرة وغير ذلك، يمكن أن يجعل أحلام الذكور مختلفة عن أحلام الإناث؟ وما هي حقيقة الأحلام الجنسية عند كل من الجنسين؟ وأيهما يحلم أحلاماً جنسية أكثر؟ وما هي موضوعاتها وحقيقة الإشباع المتحصّل منها؟ وما هو عمل الكبت فيها وما يستحدثه من تحريفات؟ وما هي الأحلام التي يمكن أن نخجل منها أو لا نخجل منها؟ وما هي أحلام المتزوجين وأحلام المطلقين؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي يمكن أن تعيننا على فهم ديناميات الشخصية والسلوك الإنساني. والأحلام كما قلنا سلوك كالسلوك الذي لنا في اليقظة، وكلاهما يحتاج إلى فطنة للفهم.

وفي إحدى الدراسات حول هذا الموضوع (Husband, R.W.J., of Abn and Soc. Psych. 1963) تبين:

١ - إن الإناث تكون أحلامهن عاطفية، وهي أكثر وضوحاً في صورها ومعناها.

٢ - موضوعاتها تنحو أكثر إلى أن تكون موضوعات فيها الحُزن والشَجَن.

٣ - إن الإناث يكثرن من الأحلام التي يكون فيها لصوص ومجرمون، أو اغتصاب، أو التي فيها ضحايا للسقوط أو للمطاردة، أو التي يغلفها الخوف عموماً.

٤ - إن الكثير من أحلامهن ليس عن أشياء حدثت ولكن عن أشياء يتمنين أن تحدث لهن.

٥ - إن الأنثى تتعرض أكثر من الذكر لأن ترى مشاكلها اليومية في أحلامها، أو أن مشاكلها وهمومها اليومية تلاحقها في منامها أكثر من الذكر.

٦ - إن أحلام الإناث غالباً ما تأتي ملونة نتيجة العاطفية التي يشحن بها الأحلام، والخيال الذي يذهب بهن كل مذهب في الأحلام.

٧ - إن الأنثى مثلها في ذلك مثل الذكر تحلم، وحلمها يدور حول، نفسها، إلا أن أحلام الذكور الغالب فيها أن الذكر هو الفاعل، بينما أحلام الإناث يطبعها أن الأنثى سلبية واعتمادية وهي التي تقع لها الأحداث، أو تقع عليها، على عكس أحلام الذكور. والأنثى في كثير من أحلامها لا تصنع حياتها بل تُصنَع لها هذه الحياة.

٨ - إن الذكور يحلمون أحلاماً جنسية أكثر من الإناث، أو أن المحتوى الظاهر لأحلام الذكور هو في الغالب جنسي، والكثير من هذه الأحلام ينتهي بالإمناء، والكثير منها يدفع إليه التهيّج الجنسي الخالص وكأن الحلم الجنسي يأتي الذكور كحتمية فسيولوجية غالباً وذلك شيء لا يحدث للإناث، فالأنثى تحلم جنسياً لمجرد قُبلة تلقتها في اليقظة، وتُلهبها القُبلة عاطفياً فتحلم بالمزيد منها، ولكن الذكر ينتصب للقُبلة، وانتصابه إن لم ينته بالإمناء في اليقظة فغالباً ما تدفعه الناحية الفسيولوجية لأن يحلم ليُمني. وقد يحدث أن يستيقظ الذكر بعد الحلم الجنسي متهيّجاً وذلك نادر، في حين أن الأنثى قد يوقظها التهيج غالباً.

٩ - وكثيراً ما يلتقي الذكر بالصدفة بأنثى يعجبه قوامها وقد يحلم بها ويواقعها في الحلم، في حين أن الأنثى لا تحلم جنسياً إلا بمن تعرف من الذكور

معرفة جيدة ترقى إلى الصداقة أو المحبة. ويبدو أن الذكر يمكن أن يكون متعدّد العلاقات الجنسية، في حين أن الأنثى تميل إلى أن تكون لها علاقة جنسية بواحد فقط توثره بحبها وبجسمها. والجنس عند الأنثى لا بد أن تكون فيه العاطفة، في حين أنه عند الذكر يحتمل الحب ويحتمل أيضاً أن يكون مجرد عملية فسيولوجية.

١٠ - والأنثى لا تحلم جنسياً بالذكر في مواقعة جنسية إلا إذا كانت في قمة الحب له، في حين أن الذكر يمكن أن يواقع أية أنثى بدون حب.

١١ - والأنثى إذا غاب عنها ذكَرها تحلم به جنسياً، وذلك يستوي عند الذكور.

١٢ - وقلما يحلم الذكر المتزوج حلماً جنسياً، ولكن المرأة المتزوجة قد تحلم جنسياً إذا افتقدت الإثارة الجنسية في حياتها الزوجية.

١٣ - والإناث في الأحلام الجنسية الشاذة أكثر ما يحلمن بالاغتصاب، وأقل ما يحلمن بمواقعة الحيوانات كالكلاب مثلاً. وهن يمارسن كثيراً الاستعراض أو الاستعراء الجنسي، وذلك نادر عند الذكور. وأحلام اللواط عند الذكور أكثر، وأيضاً أحلام مواقعة المحارم. وقد يبدو أن المرأة وطبيعتها الجنسية سلبية، قد يرضي طبيعتها أن يغتصبها آخر بدلاً من أن تكون هي الفاعلة للجنس، وذلك رأي فرويد على أي حال. وأيضاً فإن الذكر الذي لا يجد الفرصة لتكون له علاقة بأنثى قد ينصرف بتفكيره إلى الممارسات الجنسية الشاذة كمواقعة الحيوانات والمحارم. وأكثر ما تكون أحلام مواقعة المحارم بالأم أو الأخت. ويناسب المرأة أن تكون إستعراضية أو إستعرائية وذلك يحدث كثيراً في اليقظة، ويحدث كثيراً أيضاً في الأحلام. وأما الاستعراء أو الاستعراض بالنسبة للذكر فهو قليل في اليقظة وأقل منه في الأحلام، ولا يأتيه النساء والرجال في الأحلام إلا إذا كانت بهم أو بهن ميول كامنة لا تتحقق في اليقظة فتتحقق في الأحلام.

١٤ - المرأة لا تحلم جنسياً وهي في الحيض وقد يحلم الرجل المتزوج أحلاماً جنسية وامرأته في الحيض.

الباب السادس
«الأحلام الجنسية والاحتلام»

تحتلم المرأة كاحتلام الرجل، والاحتلام Nocturnal dream هو أن يستثار الرجل أو المرأة إستثارة جنسية تؤدي به أو بها إلى الإنعاظ، وذلك شيء عادي نسمع به من المراهقين والمراهقات ومن نساء متزوجات ورجال متزوجين. والاحتلام يأتي عندما يكون هناك حلم جنسي من نوع ما، والكثير من كُتب الأدب تحكي عن الاحتلام عند المراهقين خصوصاً، وقلما هناك أدب نسائي فيه الاحتلام، ولكن الاحتلام واقع وحقيقة بالنسبة للإناث، واقعيته وحقيقته بالنسبة للذكور، والأنثى تشبق في الاحتلام وترتجف وترتعش وتتشدد عضلاتها وتتأوه وتتأود عندما تقارب الإنعاظ، تماماً مثلما تفعل عندما تنعظ وهي مستيقظة، وكثيراً ما يحدث في المدارس الداخلية أن تتحاكى البنات فيما بينهن عن زميلاتهن اللاتي يشاركنهن الأسِرّة وهن يُنعِظن احتلاماً.

وهذا الاحتلام مقياس حقيقي لقدرة الأنثى الجنسية لأنه يأتيها تلقائياً ومن داخلها بتأثير حاجاتها الجنسية ولا تُغصَب عليه كما في الجماع وهي مستيقظة، فقد لا تكون بالأنثى رغبة جنسية ولكنها تنصاع يومياً لممارسات زوجها، وهذا الجماع لهذا السبب مفروض عليها وليس دليلاً على شهوانيتها، وإنما نعرف شهوانيتها فقط من خلال الاحتلام من حيث أنه يأتيها عفوياً وبتأثير من الاهتياج الداخلي الذي يكون بجهازها العصبي المستقل عن طريق مناطق جسمها الشهوية ويشمل جهازها العصبي جميعه من بعد، وتستجيب له كل عضلات الجسم بحركات إيقاعية هي التي نميز بها حركات الجماع. فإذا بلغت شهوتها غايتها كان التشدّد الذي يشمل الجسم والرجفة، وذلك شيء معروف عند إنعاظ المرأة إذا جومعت في اليقظة، فكأن الاحتلام فيه إشباق وإنعاظ كما في الجماع في اليقظة مع فارق واحد هو أن جماع اليقظة فيه شريك، أو قد يُستحدَث إنعاظ اليقظة بالإهاجة الذاتية كما في الاستمناء باليد،

بينما إنعاظ الاحتلام يأتي والأنثى نائمة تحلم حلماً جنسياً.

والاحتلام أسرع في إنعاظه من الجماع العادي في اليقظة، فالأنثى التي قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي تنعظ يقظانة قد لا يستغرق إنعاظها في الاحتلام ثوان. وفي الاحتلام لا تخضع الأنثى ولا يخضع الذكر لضغوط الكبت والقمع والكف فكلاهما على سجيته ومن السهل عليه إذن أن ينعظ بسرعة. وثمة سمة أخرى للاحتلام هو أن الإهاجة الجنسية فيه قد تتم بطرق ملتوية شاذة قد لا يرضى بها في الواقع الذكر أو الأنثى، وقد تمارس فيه الأنشطة الجنسية المحرمة، وربما يكون موضوعه من محارم المحتلم كأن تكون أخته أو أمه، أو قد يكون شريك المحتلمة أباها أو أخاها. والحدث الصغير سواء كان بنتاً أو ولداً قد يخبر الاحتلام قبل أن يخبر الاستمناء باليد أو الجماع الحقيقي.

والاحتلام عند كل من الذكر والأنثى قد يبدو أنه فسيولوجي خالص، بمعنى أن الإثارة تكون فيه والشخص نائم على وضع معين من الجسم، بحيث تحتك أعضاؤه التناسلية بالحشيات أو يزيد بها الدفء فيكون الانتصاب أو الإشباق، بالإضافة إلى الحالة الصحية للمحتلم من حيث إفرازاته الهرمونية وما قد يكون به من تعب أو راحة أو حرارة الحجرة ونوع التغذية التي يتغذّى عليها، فذلك كله له تأثيره على المحتلم، ولكن هذه الظروف كلها متواجدة كل يوم ولا يحدث الاحتلام إلا في ليال دون أخرى، الأمر الذي يجعلنا ننحو إلى أن نقول إنه لا بد في الظروف السابقة من توافر عوامل نفسية تهيّج الشخص في اليقظة، ويستثار بها خياله ورغباته، وتلاحقه هذه الرغبات في منامه وقت أن تكون رقابته على نفسه متدنية مع تدنّي الوعي أثناء النوم، فيكون تأثيرها على الجهاز العصبي وتنبيهها للمراكز الحسية، فيكون الانتصاب والإشباق.

ولعل ما يدفعنا إلى القول بأن الاحتلام في أساسه نفسي وليس فسيولوجياً هو ندرة أن يحدث بدون أحلام، وحتى عند الإناث اللاتي قد يمارسن الاستمناء باليد بدون أن يصحب ذلك تخيّل جنسي من أي نوع ما، فإنه لم تعرف إلا حالات قليلة

للغاية لا يعتد بها انعظت فيها المحتلمة دون أحلام، الأمر الذي يكاد يجمع عليه أغلب علماء النفس بأنه لا احتلام بدون أحلام جنسية، والادعاء بغير ذلك قول مغلوط. غير أن بعض علماء النفس وقد لاحظوا أن الإناث لا يحتلمن بالكثرة التي يحتلم بها الذكور ذهبوا إلى القول بأن الأنثى التي يكثر احتلامها لا بد أن تكون مضطربة نفسياً وتعاني من اعتلال عُصابي ما، أو أنها غير ناضجة انفعالياً وتؤثر فيها المواقف الجنسية البسيطة والاحتكاك اليومي بالذكور، ويتابعها هذا التأثير في منامها. وعلى أي الأحوال فإن أغلب الإناث جرّبن الاحتلام ولو لمرة في حياتهن، ويذكر كينزي أن نحو ٦٥٪ من عينات النساء اللاتي أجري عليهن استقصاءه عرفن الأحلام الجنسية، وأن نحو ٢٠٪ منهن قد خبرن الاحتلام، بمعنى أنهن أنعظن، بينما ذكرت الباقيات (٤٥٪) أنهن لم يبلغن في أحلامهن حدّ الإنعاظ أبداً، وكان السبب دائماً أنه قد حدث في الحلم ما تسبّب في قطعه دون النهاية. وتقول إحصاءات كينزي أن ٣٧٪ من نساء عيناته دون الخامسة والأربعين جرّبن الاحتلام، ويعني ذلك أن نسبة ٦٣٪ من النساء دون سن الخامسة والأربعين لا يصلن إلى الإنعاظ في أحلامهن الجنسية. وأيضاً فإنه إجمالاً ولكل الأعمار يخبر ٧٠٪ من النساء الأحلام الجنسية سواء مع الاحتلام أو بدون الاحتلام (Kinsey: Sexual Behavour in the Human Female)، على أنه كانت هناك حالات ضمن العينة قد خبرت النساء فيها الاحتلام لثلاث أو أربع مرات في السنة كلها، وأخريات عرفنه بمعدل مرة أسبوعياً. وعندما تدمن المرأة المخدرات ثم تمتنع عنها فإنها غالباً ما تحتلم، ويبدو أن الاحتلام هنا من أعراض الامتناع عن التعاطي، بدليل أنه يزول بزوال الأعراض أو بالعودة إلى التعاطي.

ويحتلم الذكور أكثر من الإناث، حتى لقد يحتلم الذكر من أربع إلى سبع مرات في المتوسط أسبوعياً، وهناك حالات قد يحتلم فيها الذكر حتى أربع عشرة مرة في الأسبوع ولعدد من السنين، أي بمعدل مرتين في اليوم الواحد. وإذن فالفروق بين الذكور في مسألة الاحتلام كبيرة

جـداً، وهـو شـيء لا نـجـده بـيـن الإنـاث، فليست هناك هذه الفروق الكبيرة بينهن، وهـذه خـاصـة مـن خـواص الـنـسـاء حيث يتقاربن في مجال الاحتلام كمنصرف جنسي في حين أنهن يتباعدن جداً عن بعضهن البعض وتظهر الفروق الكبيرة بين آحادهن في مسألة الإنعاظ باليد، فالغالبية من النساء لا يفعلن ذلك سوى مرة أو ربما مرتين في العمر كله، بينما هناك أخريات قد يدمن الإنعاظ باليد لدرجة أنه كانت هناك حالات في عينة كينيزي لنساء يمكن أن يمارسن الإنعاظ باليد لمائة مرة في الساعة الواحدة، وهو شيء مذهل حقيقة!! وتفسير علماء النفس هذه الفروق الكبيرة في مجال الإنعاظ باليد بين النساء بأن الاستجابة فيه استجابة محسوسة، بمعنى أن الاستثارة تتم حسياً بدعك الفرج، وأن النساء فيما يبدو حسيّات ويلجأن من ثم إلى هذه الطريقة للإشباع الجنسي، وبعضهن متميزات في هذا المجال حتى ليمكن أن يفعلن الإنعاظ لمثل هذا العدد المهول في الساعة الواحدة، بينما الذكور فيهم الخيال أكبر، ولا بد لهم أن يصاحبوا الاستمناء باليد بأن يتخيّلوا معه موضوعات جنسية، ومن ثم فالاستمناء باليد لأنه حسي قد يكون وسيلة غير مطروقة مثل الاحتلام الذي يقوم على التخيّل، ولا بدّ أن تصاحبه الأحلام الجنسية، ومن ثم يكثر بين الذكور بالمقارنة إلى الإناث. ويذكر كينزي أنه كانت هناك امرأتان ضمن العينة النسائية التي يجري عليها استقصاءه تعتمدان على التخيّل في الإنعاظ باليد مما يدل على ارتفاع مستوى التجاوب النفسي عندهما، مما يجعلنا نقول إنه في حالة زيادة التجاوب النفسي عند النساء فإنه من الممكن أن يزيد عدد مرات الإنعاظ باليد.

والفروق في الاحتلام بين النساء إن وجدت فإنما بسبب السنّ، وأيضاً للعلاقة بين الاحتلام والزواج. والأنثى في المراهقة نادراً ما تحتلم، ولا تزيد نسبة المحتلمات في المراهقة عن ٢٪، فإذا تقدمت الأنثى في السن تزيد النسبة حتى تتراوح بين ٢٢٪ إلى ٣٨٪ في السن بين الأربعين إلى الخمسين، ثم تتدنى النسبة بعد هذه السن، وكانت هناك امرأة واحدة

في عينة كينزي تجاوزت السبعين وكانت تحتلم. والعكس تماماً عند الذكور، فقمَّة الاحتلام عندهم في المراهقة، فإذا قارنا ذلك بقمة الاحتلام عند النساء وهي في السن بين الأربعين والخمسين، فإننا سنجد أن هناك فرقاً زمنياً قد يصل إلى ثلاثين سنة.

والأنثى التي تحتلم تظل معدلات الاحتلام عندها ثابتة تقريباً من حيث عدد المرات في السنة، فإذا كانت تحتلم نحو أربع مرات في السنة فقد يظل هذا هو معدلها طوال حياتها ما لم تكن هناك مناسبات أو موانع تحول دون ذلك، كأن تتزوج المرأة فيقل هذا المعدل وربما يتوقف الاحتلام نهائياً، وربما تعود إليه المرأة المتزوجة في سن الخمسين، إذ ربما تقل كفاءة زوجها الجنسية في هذه السن بالنظر إلى أنه يكون أكبر منها سناً، وعندئذ تعود إلى الاحتلام كمنصرف جنسي، وفي هذه السن أيضاً تكون قمة الاحتلام عند المتزوجة. وأيضاً فإن المرأة العزبة والتي ظلت كذلك قد تزيد عندها مرات الاحتلام بعد سن الأربعين، وهي سن قمة الاحتلام عند العزبة، فأما المطلقة أو الأرملة فسن قمة الاحتلام عندها هو الخامسة والخمسين.

أما علاقة الاحتلام بالمستوى التعليمي لكل من الأنثى والذكر فقد ثبت أنه واحتلام الأنثى قليل فإن مستوى تحصيلها التعليمي لا يؤثر في كونها تحتلم أو لا تحتلم، وذلك لارتباط الاحتلام كما ذكرنا بالتجاوب النفسي وهو ضعيف عند الإناث، بينما يزكّي التعليم مخيلة الذكر فيتجاوب بسرعة مع المؤثرات الجنسية بتأثير من عواطفه ومن ثم تأتيه كثيراً الأحلام الجنسية ويحتلم. وبينما نجد أن طالب الجامعة يحتلم في المتوسط أضعاف مَن لم يحصل على قدر من التعليم، فإن طالبة الجامعة لا تأتيها الأحلام الجنسية التي تنتهي بالإنعاظ أكثر مما تأتي البنات اللاتي لم ينلن قسطاً من التعليم.

وللتدين علاقة بالاحتلام، فالبنت المتدينة لا تحتلم بالنظر إلى أن الحياة التي تحياها تخلو من الإثارة الجنسي ومن ثم يكون نومها هادئاً.

وهناك اعتقاد بأن الاحتلام يخفّف عن الذكور والإناث وطأة الجنس، وانه من

المفيد لهما أن يحتلما طالما أنه لا يوجد منصرف آخر للجنس، وكأن الاحتلام له وظيفة تعويضية. ولقد ثبت خطأ هذا الاعتقاد، وذلك لأنه بالرغم من أن عدد مرات الاحتلام يزيد مع الامتناع الجنسي أو مع التعفف، إلا أن هذه الزيادة لا تتناسب مع عدد مرات الجماع الذي كان يمارسه سجين قبل أن يسجن ويفرض عليه الامتناع الجنسي، أو الذي كان يمارسه صائم قبل أن يصوم عن الطعام والجنس وكل الشهوات، أو الذي كان لبغي قبل أن تتوب، وهو ما يثبت بطلان الزعم بأن الاحتلام منصرف جنسي تعويضي وإن كان بالقطع يزيد مع الامتناع.

وما يهمنا في الأحلام الجنسية عموماً، وأحلام الاحتلام خصوصاً، هو أن موضوعها جنسي، ولأن الحلم ينتهي عادة بالإنعاظ فلا بد أن يكون الدافع إليه جنسياً. ولقد ثبت كما رأينا أن الأغلب والأعم أن يكون الدافع إلى الحلم الجنسي دافعاً نفسياً. والحلم الجنسي دون بقية المنصرفات الجنسية لا تثريب على الحالم به أدبياً، وهو غير مسؤول عنه. وأكثر ما يكون موضوعه مشاهد غرامية وعلاقات جنسية. وبعض الأحلام الجنسية تأتي غير مزوّقة، بمعنى أنها تكون مضاجعة جنسية مباشرة دون رتوش، حتى أن الحالم قد يقص حلمه في الصباح فيقول حلمت أني أضاجع امرأة واستيقظت وأنا أمني، أو قد يقول حلمت أني أقبّل فتاتي وأحضنها فأمنيت. وتعكس الأحلام الجنسية تجارب الحالم الجنسية سواء كان أنثى أم ذكراً، ومن النادر أن نحلم أحلاماً ما لم تكن لها تجارب في حياتنا، ولربما تكون هذه التجارب سماعية فنحب أن نخبرها عملياً. ولا يتسنى لها ذلك فنخبرها في الحلم الجنسي، فكأنه يمثل رغبة في تجربة جنسية. ويذهب فرويد إلى القول بأن الحلم الجنسي يشير إلى وجود رغبة مكبوتة، وربما كان ذلك صحيحاً إلى حد ما، وخاصة أن معظم هذه الأحلام يكون الشريك فيها في الفعل الجنسي وكأنه مجهول وغير محدّد الهوية، أو كأنه صورة عامة لشريك غير محدّد الشخصية. ومن الممكن بتحليل الحلم وبمساعدة الحالم نفسه تحديد شخصية الشريك، غير أنه أحياناً ما يكون المطلوب هو الفعل

الجنسي نفسه بصرف النظر عن أنه مع شريك معيّن. والحلم بالصورة التي يأتي عليها يدل على حقيقة لا يمكن التنازع حولها، وهي أن الحالم يريد بالحلم إشباعاً جنسياً، ويندفع بتأثير قوي أكبر من أخلاقياته ومُثله لتفريغ الشحنة الجنسية عنده تفريغاً فسيولوجياً مباشراً. والحالم في الأحلام الجنسية المباشرة والتي يكون فيها احتلام لا يعنيه الشريك، ولا العواطف، بقدر ما يعنيه التفريغ، ولذلك قد يحلم الحالم بأنه يضاجع فرجاً، وكأن هذا العضو هو كل ما يعنيه من الأنثى. إلا أنه من ناحية أخرى فإن هذه الأحلام بالصورة الفجّة التي هي عليها نادرة. والحلم على أية حال يعكس نفسية وذهنية الحالم. والغالب أن الأحلام تأتي صورة للثقافة التي عليها الحالم، والأحلام الجنسية كثيراً ما تكون مبهجة، ونستطيع أن نعرف من خلفية الحلم ومن أحداثه المستوى الثقافي والانفعالي للحالم، وفكرته عن الجنس وعن الجنس الآخر، وتأثير ذلك على شخصيته وتفكيره وسلوكه. ولا شك أن الدافع الجنسي من الناحية البيولوجية دافع محوري تدور عليه الكثير من تصرفاتنا، وهو لذلك يوثر علينا نفسياً وفكرياً. وتأتي الأحلام الجنسية متوافقة مع نمط الشخصية.

وكثيراً ما تكون خلفية الحلم الجنسي حديقة أو ملهى أو شاطئ استحمام، ولربما تركب الحالمة لُعبة من ألعاب الملاهي أو حصاناً خشبياً أو حصاناً حقيقياً. ويأتي الاحتلام مع نسمات الحديقة، أو دفق ماء الشاطئ، أو اندفاع الحصان الخشبي في الملهى، أو إسراع الحصان الحقيقي، وذلك شيء يدل على أن الجنس غالباً هو متعة، كهذا الحلم لشاب:

- كنت على شاطئ البحر مرتدياً ملابس البحر، وكنت أسبح والماء يتدفق من حولي، ورصدت البنات إلى جواري، وقصدت واحدة ترمقني بنظراتها وحادثتها، فطلبت منها موعداً وابتسمت ولم أعول على ذلك كثيراً وابتعدتُ عنها، ولهوتُ بالماء قليلاً ثم عُدت إليها وابتسمتُ من جديد، فأخذت يدها في يدي وسبحنا سوياً.

وإننا لنلاحظ أن الشاب يتردّد في

إنشاء علاقة بالفتاة، فبعد أن يحادثها وتبتسم يبتعد، ولكن رغبته الجنسية تتصاعد بدليل أنه يحاول صرفها باللهو في الماء ولكنه لا يفلح، فيعود ويلامسها، وكأن لهما غاية واحدة أو رغبة واحدة، بدليل أنهما يسبحان معاً متلامسين، إلا أنه مع ذلك ما يزال متردّداً لأنه لا يقضي منها وطره.

وهذا الحلم لسيدة متزوجة كبيرة السن نوعاً ما، وزوجها أكبر منها سناً، وتحلم بأنها وزوجها يريدان سيارة، جديدة، فيذهبان إلى معرض سيارات، ولا ينبس الزوج ببنت شفة، والزوجة تطلب سيارة، والبائع يعرض عليها سيارة ذات طراز قديم، ولكنها تشير إلى سيارة صغيرة وحديثة لها شكل غريب، ويقول لها البائع إنها سيارة شبان، وتصر عليها ويرضخ البائع ويُركبها إلى جواره، فتنطلق بضجة عالية وسرعة فائقة، وتحلم بأنها «كانت تطير بالسيارة في شوارع فسيحة على جانبيها حفرة ولا يوجد فيها أحد سوى نفسها في السيارة وهذا البائع المجهول الذي لا تذكر شكله، وكانت تلهث من شد الفرح».

وواضح أن المرأة تتحسر على شبابها وتريد أن تعود إليه، وأن حياتها الجنسية مع زوجها غير مشبعة، وهي تركب سيارة اللذة أو سيارة الشبان مع بائع وكأنه بائع الهوى، مجهول، وتنطلق رغباتها متحرّرة مع السيارة، ولكنها رغبات محرمة فلا يراها أحد، وهي رغبات لا تقوى عليها لكبر سنها، ومن ثم فهي تلهث من شدّة الإشباق، ومع ذلك لا تنعظ، وربما كان لهاثها لهذا السبب، فهي تسعى للإشباع دون فائدة.

والسينما مكان يلهب الخيال ويرضي النزعات الحسيّة. وهي مكان يمكن أن يكون خلفية للممارسات الجنسية، وكثيراً ما يلتقي فيها العشاق، ويكون داخلها ووسط الظلام والموسيقى المصاحبة والأحداث المتفاعلة، التشابك بالأيدي، والأحضان والقُبَل، وكأنه مع هذه الملابسات تنحلّ الكوابت، وتختفي الزواجر، ولا تبقى سوى الشهوة الجنسية تطلب الإشباع، كهذا الحلم لرجل متوسط العمر.

– كنت في حيرة من أمري إلى أن أذهب، ورأيت السينما، وكانت أضواء

الإعلان تخطف بصري «الحرمان»، وقطعت تذكرة، وكانت البائعة صغيرة السن وتبتسم ابتسامة خاصة، ونقدتُها الثمن في يدها، وتناولت التذكرة وضغطت على يدها لتستبقي الباقي. ثم رأيت نفسي داخل السينما جالساً والفتاة البائعة إلى جواري، وأنا أضع ذراعي حول كتفها وأقبّلها بشدة، ويدي الأخرى بين فخذيها، واستيقظت وأنا أمني.

وفي الحفلات يكون الجنس، إذ الحفلات فيها الصخب، والجنس صخب، وصخب الجنس يقولون عن إنه Orgy، والكلمة أصلها سُرياني وتوجد في اليونانية واللاتينية واللغات الأوروبية، وهي في العربية الأرج، وتقول أرَج الناس اضطربوا وضجّوا، وأرَج بين الناس هيّجهم، كهذا الحلم لطالب جامعي:

– حلمت كأني في حفلة الكلية، وكان الطلبة والطالبات في أبهى ثياب، والزينات معلّقة في القاعة الكبيرة، والزحام شديد، والاحتكاك بيننا قائم، والدنيا حر، وخرجت إلى الهواء بالخارج وجلست على الخضرة، والضوء خافت، والموسيقى تأتيني بعيدة بعض الشيء، ثم رأيت كأن كلّ طالب أخذ طالبة وافترشا الحشيش يمارسان الحب.

وقد يستحث المناخ نفسه الأحلام الجنسية، أو تكون الأحلام الجنسية على خلفية من مناخ مثير جنسياً كهذا الحلم.

– وجدت نفسي في سريري، وكان الوقت الفجر، والدنيا برد، وأنا أشعر بالبرد فأغطي نفسي بالبطانية، وتتقارب أعضائي وأحسّ الدفء، وفجأة تشرق الشمس وتملأ الحجرة بالنور والدفء فأمنيت.

وهذا الحلم لفتاة يمثل التغيُّر في الطقس تغيراً في عواطفها:

– حلمتُ وكأن خطيبي جاءني وخرجنا للنزهة، وكان الوقت صيفاً والدنيا حر، ثم بدأ يغازلني وكنت أكره منه ذلك، وشعرت أن الحرارة بجسمي كله حتى ليكاد يلتهب، ثم أحسست برجفة تشملني، وكنت أهتز بشدة، وفجأة وجدت الدنيا تتغير، والشمس تختلفي، والريح تهب، والبرد يشملني.

والفتاة تتهيج، ورغم أنها تكره ما يعتريها في التهيج إلا أنها تستسلم له حتى ليكاد يقضي عليها وتنفعل به بشدة،

والهزة هي هزة الإنعاظ، وبعد أن تنعظ تشعر أن كل شيء قد تغيّر، ربما لأن شعور الكراهية لما فعلت هو الذي يسود الموقف برمته.

وإذا كان المناخ يرمز للشهوة مثلما ترمز لها الريح العاصفة، وهبّة النسيم، وغياب الشمس أو شروقها، وسقوط المطر والبَرَد، أو الاحترار بالجو، فإن الموقع أو المكان هو أيضاً من الرموز الحلمية الجنسية، فالشهوة العارمة قد تمثلها الطبيعة على سجيتها دون اعتمال من إنسان، كأن يقع الحلم بين الحقول أو عند شلاّل ماء. والحرمان الجنسي قد تناسبه الصحراء. والحبّ المتّقد قد ترمز إليه وردة حمراء، كهذا الحلم الذي لشاب مثقف تلعب الثقافة دوراً في ترقيق مشاعره بحيث يأتي الحلم رومانسياً:

- حلمتُ كأني وفتاتي نجتاز صحراء جرداء، ومن بعيد تمثلت لنا نخلات باسقات، واقتربنا منها، واخترت منها نخلة جلسنا تحتها، ومددتُ يدي وقطفت بَلَحة، وأعطيتها لحبيبتي، فكانت تلوكها وتقول إذن فنحن قد تزوجنا الآن، فأقول وستلدين حالاً بنتاً جميلة.

والحلم تختلط فيه الثقافة الدينية (مريم وميلاد النبي عيسى تحت النخلة والرطب والتقوِّي به) بالثقافة الجنسية حيث النخلة رمز للقضيب، فتسأل الفتاة وإذن فقد تزوجنا الآن، ولولا أنه انتصب في الحلم لما حلم بالنخلة. والصحراء التي اجتازها هي المعاناة من الحرمان في اليقظة، والحلم هذا بمثابة الفَرَج للحالم، أو الواحة لمن يجتاز الصحراء، وهو يحلم بأن تكون له فتاة جميلة ترفع عنه هذا الحرمان.

والحلم كالكاتب، فقد يريد أحياناً أن يضفي على الجو العام صفات تزيد من حدّة المشاعر، فمثلاً في قصة الملك لير عَمَدَ شكسبير إلى أن يجعل العاصفة تهب، فكأنه ينذر بما سيحدث من بعد، وكذلك الحلم فقد تصوّر العواطف الملتهبة أو الانفعالات المتأججة بمصاحبة العواصف المزمجرة، والشمس الحارقة، والفيضانات الجارفة، والزلازل المدمرة، وقد يرى الحالم نفسه في حلم وكأنه ينظر من حالق صخور مرتفعة إلى البحر المضطرب أسفله، وينتهي حلمه بالإنعاظ. والسيارة وسيلة احتلام، وهي

قد تصور فكرة الحالم عن القوة والقدرة لأن من يقودها ويسرع بها وكأنه صاحب سلطان يتحكم مطلقاً في هذه الآلة العجيبة، وقد ترمز السيارة إلى الطاقة الجنسية كما في هذا الحلم:

- كنت أقود سيارة أمريكية جديدة، ذات سقف متحرك، وأحاول أن أنزل السقف ولكني لم أستطع بسبب عطل في آلة الإنزال. وقدتُ السيارة في طريق عمومي ووجدتُ نفسي في زحام المدينة وتوقفت، وهنا شعرت أني أمنيت.

وقد يصوّر الحلم الدافع الجنسي باعتباره سيارة تشتعل فيها النار، أو تصطدم بإشارة مرور، أو تتعطل بها الفرامل، أو تنحرف عن الطريق وتصطدم بشيء. وقد يحلم الحالم المحتلم بأن غطاء الموتور قد ارتفع من تلقاء نفسه وتعرّت الماكينة، وكأنها ستطير منخلعة كهذا الحلم:

- عندما حدث ذلك قفزت إلى الغطاء، وحاولت إنزاله وأفلحت في أول الأمر، ثم خارت قوتي وغلبني الغطاء، وكنت أجاهد في معركة خاسرة وقبل أن تنخلع الماكينة إستيقظت.

ومن الواضح أن الحالم كان «يجاهد في معركة خاسرة» لئلا ينتصب ويُمنى. وكان يخشى الشهوة الجنسية وكان لا يريد أن يستحم فقد كان الوقت شتاء.

وأيضاً قد تكون الطائرة رمزاً للجنس، فهي بالإضافة إلى أنها وسيلة قوة وترمز للقوة والميل إلى السيطرة، فإنها تثير خيال الراكب وتستثيره جنسياً، والسرعة في الطائرة تماثل العملية الجنسية، وهي تبدأ وتتّقد، ثم تخبو وتنطفئ. وبالمثل فإن أية آلة قد ترمز إلى الجنس. ونحن نسمي عضو الذكورة في الرجل آلة الرجل.

والسلالم، والصعود عليها والهبوط، فيه تماثل مع الجنس، وفعل ذلك متعة بدليل أننا نلاحظ أن الأطفال يحبون ذلك كثيراً ويستمتعون بالصعود والهبوط ويتنافسون فيه وكأنهم يتنافسون وهم يجربون أنفسهم في الاستمناء باليد. وهناك الكثير من أحلام السلالم عند الكبار والشباب. وعند إبن سيرين السلم بخلاف ذلك فصعوده الترقّي في المنصب، وهبوطه فقدان منصب أو خسارة في تجارة.

ونحن هنا نتحدث عن الأحلام الجنسية التي تنتهي بالإنعاظ، وهذا الإنعاظ المترافق مع الصعود والهبوط هو الذي نفسره هذا التفسير الجنسي، وأما في الأحلام الأخرى غير المترافقة بالاحتلام فالحلم يفسّر على حسب تفاصيله وبالإحالة إلى أحلام أخرى للحالم، وبالنظر إلى الحالم نفسه وما يراه في حلمه أو ما يثيره فيه، وقد يكون من ذلك ما ذهب إليه إبن سيرين. وهذا الحلم الجنسي الذي نسوقه لا يمكن أن يفسر بطريقة إبن سيرين:

- حلمت أني أطارد فتاة وأقتفي أثرها صاعداً سلماً حلزونياً، ولحقت بها على بسطة عريضة فضاجعتها.

وفي أحلام أخرى من هذا القبيل قد يُمنى الحالم وهو يصعد الدرج، والمرأة قد تحلم بالسلالم يطول صعودها وترتفع بها وتنخفض وتصبح عندها رمزاً للجماع، وفي هذا الحلم فإن السلالم ترمز أيضاً لقضيب الذكر، وتتثبت عندها كرمز ذَكري.

وهذا حلم لشاب إكتشف أنه مريض بالقلب ولم يعد يمارس مضاجعة زوجته خوفاً على صحته فكان حلمه كالتالي:

- حلمت أني أصعد سلماً، وطال صعودي حتى تعبتُ وانتابني الخوف، وأخيراً وصلت، فوجدت حجرة بدت كأنها حجرة نوم، وعثرتُ على السرير برجل وامرأة يتضاجعان، فانصرفت وأنا أشعر شعوراً غريباً.

والرجل الذي يضاجع المرأة هو نفسه المريض وزوجته، ولكن لأنه يخشى الجنس فقد حلم بنفسه وكأنه شخص آخر، وكأنه يتأمل هذا الشخص ويشعر لذلك بالغرابة. ثم إنه يعلم أنه سيتعب، ولذلك يقول إن الصعود «أتعبني» وهو يريد بذلك أنه «يتعبه» ولذلك يكون المشهد التالي الذي يرى فيه الآخر يضاجع، وكأنه بذلك يرضي نوازعه بطريقة غير مباشرة تشبعها وتطامن من خوفه على نفسه.

ويتأثر الناس في البيئات المتدينة بما يقال عن الغرائز الجنسية أنها حيوانية، ويسلك الكثيرون بحيث يطامنون من هذه الغرائز الحيوانية، ومن ثم فقد يتدافعون شهواتهم، وتجعلهم الصراعات الجنسية يحلمون بحيوانات مسعورة جنسياً، وهذا

التصوير للشهوة الجنسية بالحيوانات يقال له التحويل الحيواني Theriomorphy، كما يقال للأحلام التي تشتمل على حيوانات من هذا النوع الشهواني أحلام الشهوة الحيوانية Theriomorphic dreams، ومنها نوعان، أحلام تشتمل الحيوانات المدجنة كالكلاب والقطط والخيل والحمير والخراف والماعز والبقر والجاموس، وأحلام موضوعاتها الحيوانات المفترسة. ويغلب في الأحلام أن تجيء الحيوانات مدجنة. وتكثر في الريف الأحلام التي فيها الحيوانات من نوع البقر والجاموس والخراف والماعز والحمير، كما تكثر في المدن أن يحلم المراهقون والمراهقات إلخ بالكلاب والخيل. وقد تكون هناك أحلام طيور. والحصان من أبرز الحيوانات التي يمكن أن تحلم بها النساء، خصوصاً بالنظر إلى شهوته من حيث القوة الجسدية والجنسية، وضخامة آلته الجنسية، وإشباقه العنيف الذي قد يرضي مخيلة البعض والهوس الجنسي عندهن. ولعل خير تشبيه لجموح الشهوة بالحصان ما ذكره أفلاطون في فيدروس Phaedrus حيث يقول إن عربة المحبة يجرها حصانان، أحدهما وديع لطيف والآخر شرير جامح، والجموح قد يعني أن ينزو المحب على الحبيبة ولو كان ذلك ضد الشرف والفضيلة وكل القيم. وليس أجمل من هذا الجزء من عبارات أفلاطون التي يصور بها الصراع بين الإقدام الشهواني والإحجام بدافع من الإرادة العاقلة. ونادراً ما يأتي الحصان في الأحلام ليصور الفضيلة أو العقل، ولكنه يأتي حيواناً جامحاً شهوانياً. والحصان يصور الذكورة بحجمه وطاقته وجرأته واندفاعه. ومن رأي البعض أنه يظهر في أحلام النساء ضعف ظهوره في أحلام الذكور. ولعل الإثارة للمناطق الجنسية عند الرجل والمرأة أثناء امتطاء الخيل هي إحدى مُتع ركوبها، وهناك شَبَه بين حركة الحصان الهابطة والصاعدة والعملية الجنسية، وهناك أحلام لمرضى بالفصام كان فيها المريض يصهل كالحصان وهو يُنعظ، وقد تحلم المرأة بأنها تركب الحصان من بطنه بدلاً من ظهره، بالنظر إلى وضع المرأة السفلي

أثناء الجماع. والنساء يحلمن كثيراً بالخيل باعتبار أن الحصان يهاجم المرأة في الحلم ويوحي ذلك بأنه يغتصبها، كهذا الحلم لفتاة:

- حلمت أني كنت أسير في حديقة، وكنت سعيدة كل السعادة ولكني كنت كمن يتوقع حدوث شيء، وفجأة ظهر حصان به بياض وسواد وتقدم نحوي وحطّم السور الذي أمامي ثم أركبني فوقه وانطلق.

والسور في الحلم قد يرمز لفكرة الفتاة عن غشاء البكارة، وأنه المعوق عن استمتاعها بالجنس. والحصان الذي به بياض وسواد يشير إلى المفهوم الذي عندها عن الجنس من أنه خير وشر، أو لذة وألم، ولعل افتضاض البكارة، وهو الافتضاض المتوقع، هو من ذلك، أي فيه اللذة والألم، ولعل وضعها العلوي على الحصان هو ميل ذكوري عندها يجعلها تقبل الجماع لو أنها كانت هي في الوضع العلوي.

والسباحة رياضة مثيرة جنسياً، ولذلك لن يكون غريباً أن ترتبط السباحة بالجنس في الأحلام الجنسية ارتباطهما في اليقظة. وقد تأتي أحلام السباحة جنسية صريحة أو قد تأتي رمزية. وقد تحلم المرأة أنها أضاعت خاتمها، وهي تسبح وذلك يسبب لها حزناً يكشف عن أنها فقدت بكارتها. وهذا حلم لشاب يشبه الحلم السابق سوى أن الفتاة تخشى أن تفقد حافظتها على الشاطئ.

والحلم يعكس رغبة الشاب وإنما يقلب ذلك ويجعلها مخاوف للفتاة، وهو يريد أن يفتض بكارتها على الشاطئ ولكنه يخاف المغبة فيجبن، ومن ثم ينسب نكوصه إليها ويقول على لسانها هي أنها تخشى أن تُسلَب عذريتها على الشاطئ.

وهناك فكرة أن العمال والفلاحين أكثر فحولة جنسياً بالنظر إلى أنهم ما يزالون على الفطرة، ومن ثم فقد تحلم السيدة من الطبقة الراقية أن سائقها أو الميكانيكي الذي تتعامل معه أو الحلاّق أو الطاهي أو البستاني قد اعتدى عليها واغتصبها، وشبيه بذلك الحلم المشهور في رواية «عشيق اللادي شاترلي» للورنس.

والأحلام من هذا النوع هي أحلام اغتصاب، تعكس رغبة الحالمة أن تعيش قصة حب جنسي عنيفة يكون فيها الرجل

هو المسيطر عليها، ويكون أخذه لها عنوة، وهي ميول ماسوشية عند بعض النساء تحب فيها المرأة أن تشعر أنها الضحية. وكثيراً ما نسمع في الواقع أن نساء من هذه الطبقة مات عنهن أزواجهن فتزوجن وكيل الأعمال أو خولي العزبة. والفكرة السائدة أن الرجل البسيط والبنت البسيطة من الطبقات الدنيا بهما فحولة جنسية ليست في رجال أو بنات الطبقات الموسرة، وهناك كثير من الأحلام لأناس من هذه الطبقة الأخيرة هي أحلام جنسية صريحة يكون فيها الخادم مضاجعاً للسيدة أو الفتاة، وقد يهولها ذلك في الصباح ولكنها لا تملك إلا أن تعترف بأنه كان يفعل ما يفعله بفن ودراية وقوة، وهذه الفكرة نفسها موجودة عند الرجال عموماً، وهناك العديد من النكات عن العمال والفلاحين تصور فحولتهم، ولربما يصور هذا الحلم ما سبق أن قلناه:

- حلمت أني جالس في حديقة وزوجتي، وكانت زوجتي تقرأ كتاباً، وغير بعيد بستاني صعيدي يعمل بجد في الأرض، وكان رافعاً لملابسه وينحني على نباتاته فتبين عورته وكانت ضخمة وخجلت وقلت: إن رفعت زوجتي عينيها عن الكتاب ونظرت ناحيته فسأنهض وأعلّمه الأدب، ولكنها لم تفعل وانتهى الرجل من عمله وانصرف.

وتحليل الحلم بسرد صاحبه يكشف عن أن الزوجين لم ينجبا، وكان السبب من الزوج، وكان يقول في نفسه إنه ناقص الرجولة وإلا لكان قد أثبت رجولته وأنجب.

والحلم الجنسي كما ذكرنا قد تدفع إليه حاجات بيولوجية تريد الإشباع، أو حاجات نفسية لها ارتباطاتها بديناميات شخصية الحالم. والفرق في المفاهيم الجنسية عند الناس يجعل هناك فروقاً في الأحلام من حيث الموضوع والأهداف والطريقة، كهذين الحلمين:

- حلمتُ بأن صديقة أختي جاءت إلى بيتنا ودقّت الجرس ففتحتُ لها وكنتُ وحدي، وابتسمت لي وسارت أمامي تتلفت خلفها نحوي، فتبعتُها، فتوجهت إلى الحمام، ودخلت وأغلقت الباب خلفها، ففتحته ودلفت فأمنيت، واستيقظت وأنا أمني.

وهو حلم كما نرى مباشر وجاف، وأن الجنس عبارة عن إمناء يحدث في مكان التصريف الفسيولوجي وهو الحمام، ولا شيء غير ذلك، وعلى عكس هذا الحلم الثاني:

- حلمت أني ورفيقاتي - وكنا نلهو - ذهبنا إلى الشاطئ، وكان الجو صحواً، والبحر ساجياً، والماء بارداً، وخلعنا ملابسنا فبقينا بأردية الاستحمام، وهرعنا إلى الماء، وكنا ننشر الماء على بعضنا ونضحك، وفجأة انقلب الجو، واختفت الشمس، وغامت السماء، وارتفع الموج، وسعينا إلى الشاطئ، ولكني كنت كأن الموج يقذفني إلى داخل البحر، وكدتُ أغرق، وصحتُ ولم أتبين إلا وشاب مفتول العضلات يحملني ويضرب الماء بقوة وأنا شبه مغمى عليّ ورأسي يدور، والشاب يسبح بقوّة ويحضنني إليه وكأنه قد فعل ذلك لساعات، وما عدت أخاف شيئاً وكأني أريد ذلك أن يطول للأبد، ثم استيقظت.

وهذا الحلم السالف يدل على خيال صاحبته وذوقها الفني، فالجنس لا يتم عندها في الحمام ولكنه على خلفية طبيعية كأنها بانوراما عريضة من مشاهد متعاقبة تصور في تتابع انفعالاتها وعواطفها وتعكس العملية الجنسية ولكنها تعكسها في تصوّر جمالي أخّاذ، وليس ذلك الاختلاف في الصورة الحلمية بين الحلم الأول والحلم الثاني إلا لأن مفهوم الجنس عند الحالمين مختلف. والجنس كأي موضوع آخر يمكن أن يأتي في الأحلام على أي صورة بخلاف ما ذكرنا، ولكننا بتحليله نستطيع أن نتبين توجهات الحالم وثقافته وميوله وأفكاره. والحلم الجنسي نتعرف منه كل ما سبق من مفاهيم وذلك يعيننا على أن نفهم سلوك الفرد في الحلم أو في الحياة، لأن مفهوم الجنس أو أي مفهوم هو الذي يحدّد السلوك وليس العكس.

الباب السابع
«كيف تفسّر الأحلام»

من المستحيل أن نتعرف إلى الكاتب من قصة وحيدة كتبها، أو مسرحية فريدة لم يكتب غيرها، ولكن من خلال قراءة عدّة قصص أو مسرحيات لهذا الكاتب نستطيع أن نلم باتجاهاته وأسلوبه والمفاهيم العامة عن الحياة، وأفكاره المختلفة وتصوره للإنسان في مختلف مواقفه. وهكذا الشأن في الأحلام، فبالإمكان أن نفسر الحلم بمساعدة صاحبه، ولكننا لو جمعنا عدداً من الأحلام للشخص نفسه سنتنبه إلى أن هناك أشياء بعينها تتكرر فيها، وجواً عاماً يسودها، وشخصيات لها صفاتها، وأماكن يتردّد عليها، ولو وصلنا بينها جميعاً فالأرجح أن يأتي تفسيرنا لأحلامه في هذه الحالة أقرب إلى الصحة مما لو اكتفينا بالحلم الواحد.

وعند وجود عدد من الأحلام للشخص يمكن عمل مقارنة بينها، وبيان المتماثلات فيها والمتغايرات، وأن نربط بينها، ونجرّب ذلك عدّة مرات حتى تتضح لنا مناسبة هذا الجزء من الحلم مع ذلك الجزء من حلم آخر، وكأننا أمام لوحة من القطع الصغيرة، تلصق القطعة من هنا مع القطعة من هناك لتصنع جميعاً صورة كليَّة، ونقارن تفسير كل حلم على حدة في ضوء الصورة الكلية المتحصلة، فما لم يكن التفسير متعارضاً معها فهو تفسير صحيح، وإذا تعارض معها نعتبره تفسيراً خاطئاً فنجرب تفسيراً غيره.

وبعض مجموعات هذه الأحلام من فرط تفسيرها لبعضها البعض لا تحتاج لكبير إعمال لتأويلها وتسمى لهذا السبب أحلاماً مكشوفة Bareface dreams فهي تفسر نفسها، ونبدأ بها لننفذ إلى عقل الحالم، وهي أحلام كاشفة Spotlight dreams لأنها تكشف غيرها من الأحلام العسيرة على الفهم والتفسير، وعندما نهم بتحليل أحلام أي شخص نبدأ بالبسيط منها ونسير إلى المركب بخطوات وئيدة إلى أن يكشف أشد الأحلام غموضاً عن لثامه ويفصح عما فيه من رسالة يضمها بين رموزه

وأحداثه. فمثلاً هذه السلسلة من الأحلام لفتى في الثامنة عشرة أحب بدون أمل لصغر سنة وعجزه عن أن يتزوج، وكانت تجربة الحب هذه هي الأولى له، وهو يفكّر في فتاته بالليل والنهار ويتخيلها إلى جواره فيما يسمى أحلام اليقظة، وفي الليل يحلم بها أحلام الليل هذه:

- حلمت أني في مكان فسيح والأضواء الغامرة من حولي، والناس في زحام وكأننا في عُرس، وكانت هناك الكثير من البنات، وكنت ألاطفهن وألاعبهن ونضحك، وانحنت واحدة وقبّلتني فسعيت خلفها، وتماسكت منا الأيدي، وكنا في غاية النشوة حتى أننا ما درينا بمن حولنا، وكأننا صرنا في السحاب، وكنا نقبّل بعضنا البعض ونحتضن بعضنا البعض.

والحلم كما هو واضح من الأحلام الراغبة التي تحقّق أمنية تجيش بنفس صاحبها وتدغدغ حواسه وترضي نزعته الجنسية، ولكنها تتوقف دون كمال الإشباع. وليس ذلك كل شيء، فلنلاحظ أن الفتاة هي التي تنحني وتقبّله، وكأنه يتلقى هو الحب، وهو سلبي كما نرى، ولولا أنها فعلت ذلك ما سعى خلفها. وإليك هذا الحلم الثاني:

- كنت أقود سيارتي في طريق مفتوح مسرعاً، وفجأة رأيت فتاة تقف مشيرة لكي تركب، وحاولت أن أوقف السيارة ولكن قدمي ما كانت تجد الفرامل، وبحثتُ عنها كالمجنون وكأنما اختفت، وفجأة رأيت فتاتي، نعم كانت فتاتي هذه المرة، وحاولت أن أوقف السيارة وفجأة وجدتُ الفرامل في مكانها ووقفت.

والسيارة في الحلم هي الطاقة الشهوية للحب، وقوتها من قوة هذا الحب، والفرامل ترمز للقدرة على السيطرة على الدوافع الجنسية. وعندما يرى الفتى الفتاة الأولى تدير رأسه ويندفع في اشتهائها حتى ليفقد القدرة على أن يتحكم في اندفاعه، ولكن فتاته تظهر له وظهورها ليس على الطريق ولكنه ظهور من فراغ، فكأنها ظهرت له في خواطره، أي أن خواطره اتجهت إليها وهو في قمة انفعالاته، وحينئذ فقط صارت الأمور في نصابها وعثر على الفرامل، أي أنه وجد نفسه بعد ضياع. والمعنى الذي يريد الحلم أن يقوله أن

فتاته كانت بمنزلة المرفأ له من حياة عابثة سابقة، وأنها ضميره، فهي المُنجي له من الانحدار الأخلاقي، وكلما همّ بفعل قبيح كان خاطر فتاته هو المنقذ له والكابح لجماح عواطفه.

وفي هذا الحلم يلعب الحالم دوراً إيجابياً أكبر من دوره في الحلم السابق، فهو يقود سيارة، ومع ذلك فالفتاة في الحلم هي بمنزلة الكابح لدوافعه الجنسية وليس الكابح من داخله هو. وفي هذا الحلم الثالث سنرى أن الجنس يظهر في رمز السباحة في حمام عميق:

- حلمت أني ذهبت أسبح في حمام له مغطس عميق لم يحدث أن سبحت فيه من قبل، وخلعت ملابسي ووضعتها على رصيف المغطس، وسبحت ما شئت من السباحة، وخرجت من الماء أبحث عن ملابسي فلا أجدها. ورأيت فجأة إحدى الفتيات تمسك بها وتشير إليّ لكي أسير إليها وآخذ ملابسي، وعندما توجهت إليها أخذت تعدو وأنا ألاحقها إلى أن بلغت كهفاً وضعت فيه الملابس واختفت.

والتجرّد من الملابس في الأحلام قد يعني التجرّد من الأخلاق وأن يبدو المرء مفضوح المقاصد. والفتى يتجرّد ويسبح ويعني ذلك أنه غارق في الجنس. فإذا سعى إلى ما يستره لم يجد الملابس ووجدها في يد فتاة تؤمئ إليه كالحلم السابق، أي انها البادئة وليس هو البادئ. وإننا لنلاحظ أن الكثير من الأحلام لأشخاص بعينهم تكون كأن الأنثى هي البادئة، وهي الغاوية كما في الحلم التالي:

- حلمت أني وخطيبتي نجلس متجاورين في بيتها. وفجأة مالت عليّ ومدّت يدها إلى جيبي وأخرجت منه مسدساً ناولتني إياه، طالبة أن أضربها بالرصاص، وفزعت، وكانت تلح، فنهضتُ متجهاً إلى الباب أهرب من الموقف، ولكنها سعت خلفي تستحلفني أن أقتلها بالمسدس، وكنت أعلم أن أمنيتها الوحيدة أن أقتلها بالمسدس فعلاً، فأمسكته مصوباً عليها وأطلقت رصاصة وبدأت أضحك.

وتبيّن من التحليل أنه لم يحدث أن طلبت منه فتاته أن يقتلها، ولم تكن تفكّر في الانتحار، وإنما الحلم من النوع الجنسي، والمسدس آلة تشبه ذكر

الرجل، والفتاة في رأيه من النوع اللعوب، وقولها اضربني بالرصاص يعني «غويني» أو «فض بكارتي». والحالم يفزع لقولها، ثم إذا أطلق الرصاصة ضحك، والفزع والضحك المتلازمان نوعان من التقلب بين درجات التلذّذ وليسا من القتل في شيء، والقاتل هنا يفزع ثم يضحك لأن فزعه غير حقيقي، والفزع الحقيقي في مشهد الغواية الحقيقي عن النبي يوسف حيث تحاول امرأة العزيز أن تغويه فيفزع. والضحك يلزم بعد الفزع عندما يكتشف المفزوع من بعد أنه لم يكن ثمة ما يفزع فيضحك من نفسه ومما كان منه. والمهم في هذا الحلم أيضاً أن الفتاة هي التي بيدها المبادرة وأنها التي تقوم بدور الغواية.

فماذا تقول هذه الأحلام المتتابعة والتي تتكرر فيها فكرة واحدة كما رأينا. التفسير أن هذا الحالم إنسان يشكو الجوع الجنسي ولكنه لا يستطيع أن يقوم بنفسه بإشباع جوعه الجنسي بأن يسلك السلوك الإيجابي الذي يحقّق له ذلك، فهو ينتظر دوماً الخطوة الأولى من الطرف الآخر، وكأنه يخشى تأنيب الضمير فيترك المسؤولية للطرف الآخر وكأنه هو نفسه المعتَدى عليه والضحية.

وفي الحلم التالي سنرى له مفهوماً آخر عن الجنس:

- كنت أسير على الشاطئ وأوغلتُ في السر، وفجأة إكتشفت أني وحيد ولم أدرِ أين أنا، ولم أعرف كيف أعود، كأني قد ضللتُ الطريق، وصرتُ متحيراً أضرب أخماساً في أسداس، وعندئذ وجدتُ قدميّ تغوصان في الرمال، وحاولت أن انتزعهما دون فائدة. وكنت أغوص بسرعة في الرمل، وفجأة ظهرت فتاتي ومدت إليّ يديها وانتزعتني من الحفرة وأنقذتني.

والجنس قد يراه بمنزلة السقطة والكبوة، وذلك يعني أن الجنس ضلال وخطيئة ومن عمل الشيطان. وفي هذا الحلم تلعب الفتاة دور المنقذة وهو عكس أدوارها السابقة كغاوية تغريه وتغويه فينصاع لها ويخضع لأهوائها، ومع ذلك فدور المنقذة مثله مثل دور الغاوية كلاهما يعني أن المبادأة في يد المرأة، لو شاءت لكانت المنجية ولو شاءت لكانت المضلة، وهي في كل الأحوال الفاعلة

وذات الشخصية القوية. والحالم هذا رأيه في المرأة أو في النِّساء أنهن صنف أقوى شخصية من الرجال. وهذا الحالم يشكو دائماً من أنه والغ في الجنس، وأنه قد ضلّ الطريق، فهو لا يعرف الطريق إلى بيته، فلقد باعد هذا الطريق الذي تنكبه بينه وبين أهله، أو أنه «ضل»، وتلك فكرته عن الجنس، وهي فكرة الكثيرين في هذه السن في المراهقة، وهي الفكرة التي تسبب للكثير آلاماً نفسية ويترتب عليها وهن نفسي وتهافت في الشخصية، وقد ينشأ عنها اضطرابات تُلحق أبلغ الضرر بأنا المراهق.

والقلق الذي يعيش فيه هذا الحالم، والذي يدفع عنده إلى كل هذا الزخم من الأحلام، يجعله في هذا الحلم المكمل يطلب العون، ولكنه في هذه المرة يطلبه من زميل وليس من امرأة:

- كنت كأني على الشاطئ، وكأنما شيء يشدني إلى الماء فأدخل فيه، حتى وجدت الماء يغمرني وأنا أحاول السباحة دون جدوى، والماء يكتنفني من كل مكان فأصرخ بكل قوتي طالباً النجدة، وألمح زميلاً لي من أيام الدراسة، وكان كثير المعاكسة لي ولم أكن أحبه حقيقة، ورجوته أن ينقذني ولكنه كان يضحك مني في شماته، وكلما صرخت كلما زادت ضحكته وجلجلت، وخارت قوتي وأحاط بين الماء، وكنت أسقط بسرعة والظلام يزداد، وكان آخر ما أعيه ضحكة هذا الزميل المنفرة الشامتة.

ولنا أن نتساءل: ينقذه من ماذا؟ لو عُرِض علينا هذا الحلم وحده دون بقية الأحلام ما خطر في بالنا الجواب، ولكن طريقة تفسير الحلم في ضوء الأحلام الأخرى، وبالربط بينه وبينها نعرف الجواب، فهذا الفتى يشكو من انغماسه في الجنس ويحاول أن يلقي بمسؤولية ضلاله على غيره. وهو في هذا الحلم يحاول أن يطلب النجدة من شخص يعرفه منذ زمن ولكن هذا الشخص يخذله، وهو رجل مثله ومع ذلك يخذله، والمرأة في الحلم السابق لم تخذله، وتطوعت لنجدته دون سؤال منه. وفكرة الحالم عن الذكور سيئة، وهو قد عانى منهم منذ أن وعى الحياة، فهذا الشخص زميل قديم من أيام الدراسة، وأيام الدراسة حافلة بالمشاجرات مع الأنداد،

وبالتحالفات والمخاصمات، ويبدو أن ذكرياته مريرة، وهو لا يثق في الرجال من نوعه، وعنده أنهم غلاظ القلوب حقراء، بينما الشهامة والنجدة في النساء. فماذا يحدث لو ظهر له في أحلامه أشخاص من النساء والرجال؟ ويجيب على ذلك هذا الحلم له أيضاً:

- حلمت أني أسير وخطيبتي في شارع خال، وكنا نتحدث وفي غاية الانسجام، وفجأة ظهر رجل وأخذت خطيبتي تتحدث معه وتركتني، وحاولت أن ألفت انتباهها إليّ ولكنها كانت منهمكة في الحديث معه فلم تعرني التفاتاً، وجزعت وركبني الهم، وفكرتُ أن الرجل سيسرق مني خطيبتي، فبحثت عن حجر أضربه به، ولكن هيهات. كان لا يتأثر بالضرب وأنا أحاول، ولكنه صامد، حتى شعرت بأني عاجز ولا حول لي ولا قوة، وعندئذ التفتت إليّ خطيبتي وأخذت بذراعي وانصرفنا.

وفي هذا الحلم يثبت الحالم أنه عاجز ولا حول له ولا قوة، وهو يضرب ذكورته بذكورة الآخر فيبرهن على أنه ليس رجلاً كالآخر، وأن ذكورته لا شيء، فضربه للآخر لا فائدة منه، فهل كان يشكو منه هذا الفتى العجز الجنسي؟ أو حتى النقص الجنسي بحيث لا يستطيع أن يدخل في منافسة على فتاة مع ذكر آخر؟ هذا هو ما سنحاول أن نلم بالإجابة عليه من الأحلام التالية:

- حلمت أني وفتاتي نجلس في بيتها، وقَدِم أبوها ورمقني طويلاً، وكانت معه سيجارة أحذ منها نَفَساً طويلاً نفخه في وجهي، ونفض السيجارة فوقي، فغضبتُ وصرختُ وهو يضحك ثم ركلني ومشى.

والفتى لأنه صغير السن لا يستطيع أن يتزوج ويعول أسرة، ويبدو أن الأب لا يحبه ويهزأ به، ونفخ السيجارة في الوجه من ذلك، وكذلك نفْضُها عليه، وهو لا يفعل إلا أن يصرخ كالأطفال بدلاً من أن يهب مدافعاً عن نفسه ويذود عن كرامته. ويبدو أن هذا الضعف يسيطر عليه ولكننا لا نجده في كل أحلامه:

- حلمت أني أوصِّل فتاتي إلى بيتها، وكنت أقبّلها مودعاً عندما ظهر أبوها وطلب مني بعنف أن أنصرف، ورفضت فدفعني بقوة، فما تمالكتُ نفسي ورفعت حجراً ضربتُه به، فسقط على الأرض وهربتُ مع فتاتي.

وفي هذا الحلم نجده يضرب والد الفتاة التي يريد أن يتزوجها، ولا يمكن أن تكون كل هذه الأحلام حول والد الفتاة إلا لأن الحالم قد اتخذ موقفاً معادياً منه، وهو موقف يتصرف فيه كالطفل وليس تصرف الرجال المسؤولين، وواضح أن «أناه» ضعيف وطفولي، ورغم ذلك فضربه للرجل يَفلح، لأنه يشعر برغم ذلك أن موقفه أفضل، لأن الفتاة تحبّه وتريده زوجها، وهي نقطة محسوبة له على الرجل، إلا أنه يهرب بعدها.

وفي الحلم التالي يتعرّض للاعتداء من والد الفتاة، إلا أنه يحتمي فيها وتموت الفتاة دفاعاً عنه:

- كنت مع فتاتي وظهر الأب وكان بيده مسدس، وطلب مني الانصراف فثارت إبنته عليه، ووقفت بيني وبينه، وهدّدني الرجل، فتعلّقت به ابنته تحميني، وأطلق الرصاص فسقطت الابنة بين ذراعيّ.

وفكرة هذا الحالم عن النساء أنهن لسن فقط الأقوى شخصية من حيث أنهن يخترن الرجل المناسب لهن ويبدأن العلاقة ويحافظن عليها أو ينهينها، بل إن المرأة لتدافع عن اختيارها وتذود عنه حتى الموت، ولا يملك الرجل الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه حيال عدوان الرجال الأقوى منه إلا أن يجد الحماية تحت مظلة إمرأة كفتاته التي يحبها، وكأنها تقوم بدور الأم بالنسبة له. وهذا المفهوم المزدوج لدور المرأة: إنها تستطيع أن تغوي، وهي التي تعطي الجنس والتي بها تكون المتعة في الحياة، وهي أيضاً الأم الرؤوم الحانية التي تحمي طفلها، هذا المفهوم المزدوج للمرأة ودورها نجده عند غالبية الرجال.

ويحيرنا من هذا الفتى موقفه من والد الفتاة وهذه المدافعة المستمرة له، والتي يظهر فيها الأب دائماً في دور المعتدي، ويجعلنا ذلك نسأل الحالم حول علاقته بأبيه، فلربما تكون هذه العلاقة السيئة له بوالد الفتاة نتيجة لعلاقته السيئة بوالده هو، ولربما يكون قد أحل والد الفتاة محل والده هو ويعامله على هذا الأساس لا شعورياً. وهو يذكر هذا الحلم عن أبيه:

- حلمت أني تسللت إلى حديقة جارنا وقطفتُ إحدى ثمار المانجو، وكانت كبيرة ومغرية، ولكن صاحب الحديقة ضبطني وأخذني إلى أبي الذي غضب

بشدّة وعاقبني بأن دفعني إلى المطبخ وفتح دولاباً كان مخزناً للمانجو الذي يسقط من شجرة بيتنا، وأمرني أن آكل كل المانجو به، ولم أستطع حتى كدتُ أن أتقيأ فبكيت، وهو مُصِرّ، فعَلا صوتي، فأمسك والدي بثمار المانجو وضربني بها الواحدة بعد الآخر على وجهي ورأسي وجسمي.

والصورة التي يقدمها هذا الحالم لأبيه مشابهة للصورة الحلمية لوالد الفتاة التي يحبها وللصورة الحلمية لزميل الدراسة الذي تركه في الحلم يغرق ولم يمد له يد المساعدة، وكان يضحك وهو يغرق. وهي صورة متكرّرة لفكرة مسيطرة عنده عن عالَم الذكور، ولم تتحصل له هذه الفكرة إلا نتيجة معاملة والده له معاملة نفّرته منه ومن كل الذكور.

وهو في الحلم السابق يسرق الثمار، ونحن نقول ثمار الحب، وطالما أن الذي يعاقبه على سرقة الثمار هو أبوه فلا بد أن ثمار الحب هذه هي ثمار حب أمه لأنها المقابل للأب، والأب قاس والأم المقابلة له لا بد حانية، وأبوه لا يريد أن يتركه يهنأ بثمار حبه لأمه أو حب أمه له، وهو يعاقبه، ويبدو أن هذا الفتى قد خرج من مرحلة الصراع الأوديبي، وهو الصراع الذي أطرافه ثلاثة كما سنشرح ذلك من بعد هم الأب والطفل والأم، وقد خرج بنتائج استمرت معه من بعد ولاحقته وهو شاب وطبعت تفكيره عن دور الرجل (الأب)، وهو هنا دور المودّب القاسي السادي ودور المرأة (الأم)، وهي هنا دور الحامية الحانية المضحية بنفسها (لأولادها)، ولكنها من جهة أخرى اللعوب التي تغوي الرجل (علاقة أمه الجنسية بأبيه). وهذا الحلم الذي نسوقه للفتى ويشتمل على الموضوعات السابقة نفسها بطريقة أخرى:

- حلمت أني رأيت رجلاً يتسلق النوافذ إلى دكان بقالة قريب، فزعقتُ عليه وطاردته وأمسكت به واقتدتُه إلى المخفر، ولكنه قال للضابط إنه صاحب الدكان، وأخرج بطاقته يثبت بها ذلك، ولامني الضابط وخجلتُ من نفسي حتى بكيت، وخرج الرجل من المخفر يضحك.

لقد ظن الحالم أن مالك الدكان لص، ولكن أي دكان؟ وأي لص هذا الذي يتسلل

ليلاً إلى دكانه ويعتلي النوافذ إليه؟ وما هي حكاية المخفر أو الضابط؟ ولماذا يبكي؟

والجواب، هو: إن المالك هو الأب، والأم تمثل الدكان الذي يملكه، والدكان أو المحل أو الشقة كلها رموز للمرأة، والأب يملكها، والحلم من ذكريات الطفولة، فلقد كان الأب يتسلل ليلاً إلى مخدع زوجته ويعتليها مجامعاً (كان يعتلي النافذة). ولقد أظهر الطفل في إحدى المرات أنه يراهما فعاقبه الأب وأفهمه أن هذه العلاقة بينه وبين أمه مشروعة لأنها زوجته، وكان الأب يضحك وهو يفهمه ذلك. والفتى يحلم بهذا الحلم الآن لأنه يرى كما أفهمه أبوه مشروعية دفاع الأب عن ابنته، وأنه لا حق له في هذه اللقاءات بفتاته طالما أن الأب غير راض عنها، وهو ينقل موقف أبيه منه في علاقته بأمه إلى موقفه وفتاته وأبيها. وفي الحلم التالي سنرى المعاملة التي عاملها له أبوه والتي يتوقعها من كل أب يحله محل الأب:

- رأيت نفسي ألعب الكرة، ولعبت كثيراً وقذفت الكرة بشدة فجاءت في نافذة كسرت زجاجها، وجاء صاحب البيت وكان شيخاً عجوزاً يعمل ناظر مدرسة، فنزع مضرب الكرة مني وضربني به علقة بكيتُ منها.

وتحطيم النافذة بالكرة كلاهما رمز جنسي للفعل الجنسي، والعجوز ينتزع المضرب رمز الذكورة منه ويضربه به عقاباً له على الفعل الجنسي. وكان والد الفتى يعمل ناظر المدرسة فعلاً عندما كبر في السن.

وكل هذه الأحلام السابقة لا معنى لها بمفردها، ولكننا عندما نربط بينها جميعاً تنسجم مع بعضها وتعطينا المعنى الباطن الذي تحتويه وتفصح رموزها عن دلالاتها، وتسلمنا صورة عامة لصراعات محتدمة لفتى في مقتبل العمر وهو في المرحلة الحرجة من عمره المستشرفة لمرحلة ماضية من الطفولة، والمرحلة القادمة من الرجولة. وهو فتى يرى أنه انسان ضعيف وعاجز من جهة الرجولة. ولقد كان يحب أمه وأحب النساء اللاتي على شاكلتها من بعد، وهي أم حامية لطفلها وتعيش في علاقة جنسية قوية مع زوجها، ولذلك فهو يطلب في النساء هذا النوع، وكره أباه لأنه قاس، وقسوة أبيه

كانت لعلاقة الطفل بأمه، وهو لا يستطيع أن يزاحم الرجال الأقوى على فتاته، وأبوه هو الذي أحاله هذا الانسان العاجز، وكان يكرهه ويكره كل الرجال على منواله. وكان لفتاته أب قاس أو هكذا هو يراه، وهذا الأب لفتاته هو الذي يحول بينه وبينها، مثلما كان أبوه الحائل بينه وبين أمه. وعلاقة البنت بأبيها هي التي تزعجه وتقلقه. ودائماً يحول الأب بينه وبين ما يتمنى. ودائماً هو يتمنى إنسانة يمتلكها رجل قوي وبدلاً من أن يصارع أباه على أمه فإنه يُسلم نفسه للبكاء في الطفولة، وفي شبابه ها هوذا لا يستطيع شيئاً أمام الأب فيسلم نفسه للصراخ في أحلامه، وهو يصرخ كلما استشعر الظلم من الرجال. ويتلخص صراعه في رغبته أن تمتلكه امرأة ولكنه يخشى من انتقام رجل ما منه، وهناك دائماً رجل ما ينتظره في الظلام ويهبط عليه من حيث لا يدري يريد أن يضربه، والثالوث الذي يعيشه حالياً هو نفسه والفتاة وأبوها، وكان ثالوث طفولته هو نفسه وأباه وأمه. وهذا الصراع الأوديبي الثلاثي الذي تحدثنا عنه من شأنه أن ينحلّ مع الأولاد حلاً مُرضياً بأن يتعيّن الولد بأبيه ويتسامى بحبّه لأمّه، ولكن مع هذا الفتى لم ينحل الصراع لمصلحته، ولم يتعيّن بأبيه، وامتلأ قلبه من ناحيته بالكراهية، وهكذا شبّ عن الطوق ليجد نفسه من جديد في مواجهة صراعاته الأوديبية بتأثير وجود الأب للفتاة التي يحبها. وليس شرطاً أن يكون هذا الأب الجديد قاسياً ولكنه هكذا يسقط مشاعره القديمة لأبيه على هذا الأب، وتلعب البنت دور الأم بينما يحل الأب محل الأب القديم. وهو لسبب ما لم يستطع أن يصوغ نفسه كأبيه وعلى نمط شخصيته ليحوز مثله الثقة في النفس والقوة اللازمتين لتجعلا منه المحب الناجح المسيطر.

وهذا الشعور بالنقص لا يأتيه مع الرجال كبار السن وحدهم، ولكن مع كل الذكور حتى وإن كانوا شباباً في مثل سنه، ولقد رأينا ذلك في علاقته بزميل الدراسة الذي تركه يغرق وأخذ منه فتاته. وهذا الوضع يزيد موقفه سوءاً لأننا لو حاولنا تغيير فكرته عن الرجال كبار السن لكان ما يزال أمامنا أن نساعده على مجاهدة صورته عن نفسه كلما وجد

نفسه حيال منافسين له أقوياء من سنّه. وهو جبان أمام كل الذكور من جنسه إذن، وذكورته من أوهن ضروب الذكورة في مراتبها من الأضعف إلى الأقوى. وليست له وسيلة دفاع حيال تهجّمهم عليه سوى أن يبكي أو يصرخ كطفل أو يهرب، ولا عجب أن نراه يحلم هذا الحلم الأخير في هذه السلسلة التي رتبناها بحسب أحداثها ترتيباً منطقياً.

- حلمت كأنما كنت مسافراً بالقطار إلى جهة لا أعلمها. وكنت كلما اقترب القطار من إحدى المحطات أخرج إلى الممر وأنظر من النافذة. وفي إحدى المحطات أشار إليّ رجل وتأملته فأشار مرة أخرى وهو يبتعد، ووجدتني مشدوداً إليه وكأنما قوة داخلية تدفعني دفعاً لملاحقته، وتركت القطار ونزلت وتبعت الرجل فوجدتني أطير في اتجاه السماء، ووجدتني أمام جدّي الذي كان قد مات منذ سنتين، وبكى جدّي عندما لاقاني فرحاً بي.

والقطار في هذا الحلم هو رحلة الحياة، تهديها - خصوصاً عند الشباب - غريزة بقاء قوية، ولكن هذا الفتى يرغب في الموت، ورغبته في الموت قوية شديدة «كأنما قوة داخلية تدفعني دفعاً لملاحقته»، والرغبة في الموت عنده أصبحت غالبة على الرغبة في الحياة، وذلك شيء لا يحدث في الشباب إلا إذا تمكن منه الاكتئاب نتيجة اليأس القاتل، وهذا الفتى أحلامه يغلّفها الأكتئاب، ويؤكدها هذا الحلم الأخير. ولولا أننا لم تتح لنا هذه الفرصة لتتبع هذه الحلقة المترابطة من الأحلام لما استطعنا أن نلم بحالته ونحللها هذا التحليل الذي يقوم عليه استبصاره من بعد وعلاجه من وهدته هذه. وهذه الطريقة في الربط بين الأحلام واستقرائها بناء على ما يتكرر فيها، ينبه هذا التكرار إلى أهمية المادة المكرّرة ويصل بين أجزائها ويلقي الأضواء على المعاني الخبيئة بحيث لا يتبقى للمحلل إلا أقل جهد من التأويل والتفسير. وهذا التأويل أو التفسير يمكن أن يتم بالطريقة العلمية وحدها ويمكن أن يمد المحلل بعدد هائل من المعلومات الأساسية عن الحالم. وليس تفسير الأحلام أو تأويلها بالشيء العسير، لأن الأحلام ليست بلاغات تهبط على الحالم أثناء نومه،

وإنما هي لغة يفكّر بها العقل في شكل صور لها منطقها الخاص وتحتاج فقط لمن يتعلم هذه اللغة ويتدرب على فك شفرتها وتحويلها إلى أفكار منطقية مترابطة. وليس المهم أن نعلم عن الأحلام ولكن المهم أن نستقرئ الحلم نفسه. ومعنى الحلم ليس في نظرية نحيط بها عن الأحلام، ولكن معناه فيه هو نفسه. والمهم في فهم الحلم أن ندرك هذه الحقيقة الأولى عن الأحلام: إنها من وضع عقل الحالم، ومن اختراعه. والحالم كالمؤلف والمسرحي والمنتج والمخرج ومصمّم المشاهد ومدير المسرح والملقّن والممثّل الرئيسي والمتفرجين، فهو هؤلاء جميعاً وهو يؤلّف ويعدّ الحلم للإخراج، ويجهّز المسرح، ويصمّم الأزياء، ويحضّر المؤثرات الصوتية والموسيقى المصاحبة، ويدرّب الممثلين مفسراً لهم أدوارهم، ثم هو يلعب الدور الرئيسي، ويشاهد نفسه وكل ما حوله، ويستمتع بما يجري على المسرح، أو يتأسى لما يتفرج عليه، أي أن الحلم، أي حلم، هو إسقاط لما يفكّر فيه الحالم عن نفسه والناس من حوله والعالَم الذي يعيش فيه.

وليس الحلم صورة طبق الأصل للواقع الموضوعي ولا ينبغي النظر إليه من هذا الاعتبار، ولكنه من ناحية أخرى أو بمعنى ما صورة طبق الأصل للواقع كما يبدو للحالم. وهو لذلك واقع نسميه الواقع الذاتي. والواقع الذاتي ليس في الأحلام وحدها، فلكل منا واقع ذاتي للواقع الموضوعي الذي يعيشه، وهو رؤيته لهذا الواقع الموضوعي. والواقع الذاتي في الأحلام قد يقرُب من التطابق مع الواقع الموضوعي بدرجة أو بأخرى، وقد يتباعد الواقعان جداً بحسب الحالم، ونحن لا نستطيع أن نقضي برأي بخصوص الحد الذي قد يقترب منه الواقعان، فمثلاً في مجموعة الأحلام السابقة لا نستطيع أن نجزم ما إذا كان والد الفتى ووالد الفتاة قد عاملاه بقسوة في اليقظة أم لا، إذ ربما قد تخيّل هو ذلك، ثم إن الفتى لا يمكن أن يصحو من النوم بعد الحلم فيكره والد الفتاة لأنه عامله في الحلم بقسوة، وإذن فهذا واقع وذاك واقع وبينهما إتصال لا شك فيه، وعلى المحلل أن يتفهم حدود هذا الاتصال وانعكاسات كل على الآخر.

والحقيقة الثانية عن الأحلام التي يجب أن نفهمها ونضعها في الاعتبار عند تفسيرها أنه ما من شيء يظهر في الحلم إلا وللحالم فيه يد وهدف. والحالم هو الذي يؤلف الحلم وهو المسؤول عن كل ما فيه، وطالما أنه قد حلم به فهو قد فكّر فيه. ولقد قيل إن عملية الحلم تعني أننا نفكّر في أنفسنا، وليس معنى أننا نفكّر في نفسنا أن أفكارنا تقتصر على ما يخصّنا، فنحن نفكّر أيضاً في الآخرين، والأشياء من حولنا. والحلم بلغة الاقتصاد مُنتج من عمل الحالم، وهذه حقيقة، مثلما أفكارنا في اليقظة تخصّنا فلا يوجد أحد يفكّر عنا أفكارنا، فنحن نفكّر لأنفسنا إلا إذا كنا واقعين تحت إيحاء أحد، أو كنا مرضى نحسب أن غيرنا يؤثّر في أفكارنا، وما سوى ذلك فكل ما نقول ونفعل سواء في النوم أو في اليقظة هو من وحي أفكارنا وتفكيرنا. وهذا هو ما نقصد إليه عندما نقول إن كل شخص مسؤول عن أحلامه، وان تفسيرها أو تأويلها أو تحليلها عملية تقود إلى عقلية الحالم وشخصيته، والعالَم الذي تعكسه الأحلام والأشخاص التي بها هي صور الحالم عن العالَم الموضوعي والأشخاص الحقيقيين، ومن ثم فإنه لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن من نتعامل معهم من أشخاص الحلم ليسوا الأشخاص في الواقع الموضوعي ولكنهم تصورات الحالم عنهم، وإذن فنحن أولاً وأخيراً في نطاق أفكار الحالم، وهذا هو ما يجب أن يعيه الحالم حتى لا يتعامل مع أفكاره هو باعتبارها واقعاً موضوعياً.

والحقيقة الثالثة عن الأحلام أن الحالم قد يكشف في الحلم الواحد عن تصور واحد أو أكثر من تصور للشخص نفسه، وقد يكشف أيضاً في أحلامه المتعددة عن الشخص نفسه تصوراً واحداً أيضاً أو عدداً من التصورات. والأحلام عادة للحالم الواحد تعرض عدة تصورات أو أفكار لا ينبغي بحال من الأحوال اختزالها إلى تصور واحد أو فكرة واحدة، فكل تصور أو فكرة قد تكون لجانب من جوانب الشخص موضوع الحلم أو لناحية من نواحي المشكلة، فمثلاً قد يتصور الحالم أمه كريمة فيحلم بها كذلك، ثم يحلم أيضاً أنها غيورة، أو أنها متزمتة، أو أنها حاسمة إلخ. وكلها جوانب لا تختلف ولكنها تأتلف وتصنع كلاً هو الشخص موضوع

الحلم أو هي بعضه، ونحن نطلق عليها إسم النسق الحلمي، لأنها تنتظم في نسق هو الصورة الحلمية للواقع الموضوعي للشخص أو لغيره. والمشكلة في الأحلام أن الصور الحليمة فيها لا تأتي مترابطة ترابطاً منطقياً، ولا تتابع تتابعاً منطقياً، ولكنها كأجزاء إنتزعت من صورة كلية ووضعها الحالم بدون ترتيب وفي غير انتظام بحيث قد نرى الشخص هنا يبكي وفي صورة أخرى يضحك فلا ندري أيهما نصدق. والمحلّل أو المفسّر هو الذي يرصد الأحلام للحالم وينظمها في مجموعة ويرتبها بحيث تتابع في منظومة من التصورات تلقي الضوء على بعضها البعض، وتفسّر بعضها البعض، وهو عمل شاق يحتاج إلى سعة فهم ودراية ودربة وعلم غزير لا يتوافر لكل إنسان ولا لكل مفسّر. وما قد يبدو لنا متناقضات في الصور الحلمية ليس في الحقيقة من المتناقضات، فالتصور في هذا الحلم أو ذاك نفسّره من داخل السياق الحلمي، وكل تصوّر له مبرّراته في السياق الحلمي، فالأم الحانية في حلم هي كذلك لأن حوادث الحلم كانت تقتضي أن تظهر الأم هكذا، فإذا حلم بها غيورة أو غضوبة في الحلم نفسه أو في حلم غيره فإنما لأن السياق كان يتطلب ذلك في كل مرة، وكل تصور هو تصور منطقي مع سياقه ويتّفق معه فلا تناقضات هناك.

والحقيقة الرابعة التي ينبغي أن نراعيها في تفسير الأحلام أن الحلم كل عضوي، فلا يجوز أن نعزل جزئية من الحلم عن السياق ونفسرها وحدها، ولا تفسير إلا للحلم ككل، لأنه يعكس مجموعة متشابكة متصلة فيما بينها من الأفكار للحالم، ولا تفسير للحلم وحده بمعزل عن أحلام الشخص الآخر المتقاربة الموضوع أو الطابع أو الفترة الزمنية، لأنه كما تفسر الجزئيات الحلم ككل، كذلك تفسر الأحلام المفردة مجموعة الأحلام المتقاربة بانتسابها إلى الشخص الحالم نفسه، وبتقارب موضوعاتها أو طابعها أو زمانها. والتصدي بالتفسير للأحلام المتقاربة والمترابطة في مجموعة يكشف لنا النسق التصوري لشخص الحالم. وفي كل حلم نواجه دائماً بصعوبة تأويل الرموز وهو ما سنعالجه حالاً (Hall, S., The Meaning of Dreams).

الباب الثامن
«الرمزية في الأحلام»

تحفل الأحلام بأشياء نركز عليها أو قد نعجب لأمرها، كأن نرى مثلاً أننا نطير في منطاد، أو أننا نركب حصاناً يتكلم، أو كحلم سيدنا يوسف حيث رأى القمر والشمس ساجدين له. فكيف نفسّر هذه الأشياء؟ وماذا نسميها في الأحلام؟ ومن قديم الزمان ذكرها الحكماء وقالوا إنها رموز، بمعنى أننا لا ينبغي أن نأخذها على الحقيقة ولكن على المجاز، إذ كيف يمكن أن نصدّق أن الشمس والقمر قد يسجدان للإنسان؟ والتفسير العلمي للأحلام بدأ بفرويد، وتأويل الرموز ركن من أركان نظرية فرويد في تفسير الأحلام، ولكن تأويل الرموز أقدم من ذلك، فيروي فرويد أن شتيكل قد سبقه إلى مثل تأويلاته للرموز. والرمزية لغة أولى أو أنها لغة فطرية هي أبسط ما يمكن أن يعبّر به الإنسان عن نفسه، فيربط بين مجموعة من الأفكار بينها شيء مشترك، كأن يربط بين الجرأة والجسارة والأسد وأحد الناس، وبدلاً من أن يقول بالكلام أو الكتابة هذا كله «فلان جريء وجسور جرأة وجسارة الأسد» فإنه يرى في الحلم الأسد فقط مثلما في اللغة المصرية القديمة التي كانت تستغني بالصور عن الأفكار. وتمثل الرموز الأفكار التي تستمد منها معناها، أو التي تضفي عليها هذا المعنى أو المغزى، ونستخلص هذا المعنى من الصور المترافقة مع الرمز والتي يثيرها فينا، والصور المستثارة يقوم بها فينا لا العقل البالغ أو الواعي ولكن الذي يتمثلها ويراها فينا هو الذهن اللاواعي أو الفطري والذي يسوّي بين الأشياء التي بينها شيء مشترك. وهذا العقل الطفولي البسيط فينا لا يأخذ إلا بالمحسوس وبالمادي، ولذلك فاللغة التي يتحدث بها هي لغة رمزية تستخدم الوسائل الأولية البدائية للتعرف الإدراكي التي يأتي الطفل بها إلى الحياة، وذلك نفسه ما نراه أيضاً عند المرضى بالذُهان بخلاف الأطفال، وفيما يستخدمه الفنانون. وقد يستعصى حالياً أن نفهم المقصود بالرمز وليس ذلك إلا لأننا بَعُدنا كثيراً بالحضارة عن لغة الطفولة

ونسينا كيف نفكّر كأطفال وإن يكن الترميز حتى الآن من بواقي هذه المرحلة أو من بواقي اللغة الطفولية أو الأولية. ونحن عندما ننام يغفل الوعي أو العقل الواعي ونرتد في الزمن إلى ما كنا في الطفولة الباكرة، عقولاً فطرية أولية تربط بين الأشياء بما فيها من عناصر مشتركة وتختزل الحديث عنها بأن تورد الكلام بالصور أو الرموز.

والرموز كانت دائماً وسيلة من وسائل التعبير عبر العصور، وحيثما كان الإنسان كان للرمز وسائله في الإدراك والتواصل والتعبير، سواء في الحياة أو في الأدب أو في الفن أو في الدين أو في الفولكلور والأساطير. وكذلك كان الرمز في الأحلام، غير أن التصدّي للرموز في الأحلام كان مثار الخلاف الكثير والجدل. وتأويل الرموز لا يسهّل مهمة تفسير الأحلام، بل يزيدها صعوبة كما يقول فرويد. وقَبْل فرويد كان من الصعب أن نركن إلى مشيئة المفسّر لعدم وجود منهج علمي نحتكم إليه، وذلك جعل فرويد يصطنع منهجه في التفسير فيستند من ناحية إلى مستدعيات الحالم ويكمل المفسّر الثغرات في هذه المستدعيات Associations بما يعرفه عن دلالات هذه الرموز، ويقتضي ذلك منه أن يكون واسع المعرفة - كما يقول إبن سيرين - باللغة ودلالاتها والفولكلور، وأن يكون حذراً فلا ينساق وراء الهوى في التفسير، لأن الرموز تملك في كثير من الأحيان أكثر من معنى واحد بحيث لا يمكن فهمها في كل مرة فهماً صحيحاً إلا من السياق الحلمي وحده كما هو الشأن في الكتابة الصينية مثلاً. وقد نسأل: أليس من الممكن أن تكون للرموز دلالات ثابتة مثل علامات الاختزال، وعندئذ فقد يسّهل مهمة التفسير أن يوضع كتاب في تفسير الأحلام كأنه المعجم وفق منهج الشفرة بحيث يمكن فوراً أن نترجم رموز الحالم إلى لغة عصرية؟

والجواب أن الرموز بسبب أنها ليست خاصة بالأحلام وحدها، بل هي من خواص التفكير اللاشعوري والتفكير الشعبي بنوع خاص، حتى لنجدها في الأغاني الشعبية، والأساطير، والروايات المتوارثة، والتعابير الدارجة، والحِكَم المأثورة، والنكات بأكثر مما نجدها في

الأحلام، فليس أمامنا إذن أن نشط بعيداً عن مشكلة تفسير الحلم إذا كان علينا أن نستوفي الرموز معانيها. والمشكلة في التصوير الحلمي بواسطة الرموز أن هذا المنهج الحلمي لا يمكن مع ذلك أن ندرجه ضمن أنواع التصوير غير المباشر، فالجامع المشترك بين الرمز والمرموز في الحلم قد يكون واضحاً أحياناً وخفياً في كثير من الأحيان، حتى ليبدو اختيار هذا الرمز في الحلم شيئاً محيّراً. ومصدر الحيرة أن الرمز بدلالته ربما يكون قديماً وموغلاً في القدم من اللغة العينية القديمة للإنسانية، حتى ليمكن أن نكون قد نسينا ملابساته. وبعض الرموز ترجع إلى تاريخ ما وراء الجماعات اللغوية المختلفة، وبعضها قديم قِدَم الكلام نفسه، وبعضها حديث حداثة المخترعات الجديدة.

ومن رأي فرويد أن الرمز يستخدم في الحلم من أجل تصوير أفكار كامنة تصويراً مقنّعاً. ومن رأيه أن عدداً كبيراً من الرموز يُستخدم ليعني دائماً الشيء نفسه، ولكن من الممكن أن يستخدم الحالم هذا الرمز ذي المعنى الثابت إستخداماً خاصاً حسب المحتوى الموضوعي لأفكار الحلم. ولدينا الآن مدرستان في التفسير، إحداهما تقول بالتفسير المادي للرمز، فالرمز له معنى ثابت، كرمز الثعبان، فقد يتصل في الحلم بالمعنى الجنسي بالنظر إلى التشابه بين الثعبان وبين القضيب، وقد يكون للثعبان معنى وظيفي، أي ان وجوده في الحلم له وظيفة يخدمها، وقد يمكن أن نعرفها من استخداماتنا الأخرى للثعبان في اللغات التصويرية الأولى، فقد يرمز للغواية، وقد يرمز للحكمة، وما نزال في الصيدلة نستخدم الثعبان رمزاً للحكمة، وما زلنا في اللغة الدارجة نختزل صورة الشرير فنقول إنه ثعبان. وهذه المدرسة لذلك تسمى بالمدرسة الوظيفية، وتفسيرها هو التفسير الوظيفي.

ولنتناول التفسير المادي للأحلام، وهنا قد يبدو للمفسر المحنك أن يعتمد على ما في الأحلام من رموز واضحة نمطية معروف تأويلها مقدماً، ويقول بتفسيرها على هذا الأساس دون أن يستهدي بمستدعيات الحالم ولا أن يحيط

بظروفه المادية وأحواله النفسية، وذلك شيء قد يحاوله البعض عندما يبدو لهم أن ظاهر الحلم من الوضوح بحيث لا يستدعي سؤال الحالم، ثم إن المحلل قد يغريه على ذلك أن اتّباع هذه الطريقة محك لقدرته الفكرية، غير أن هذا المنهج فيه من المخاطرة ما يجعل من الأفضل تنكّبه، وكذلك فإنه منهج غير علمي ويعتمد تماماً على المفسّر، وربما يذهب في ذلك إلى شطحات تجعله محل نقد شديد. وهذا المنهج هو في الواقع منهج الأوائل كابن سيرين، وما يزال منهج غير المشتغلين بالتحليل النفسي.

ونحن لا ينبغي أن نغامر بتفسير الحلم إعتماداً على الرموز وحدها، فالرموز جزء من الحلم ولا يجب أن نعزلها عنه. ثم إن الرموز تحيل إلى أشياء محدودة العدد إذا حاولنا أن نجعل لكل رمز مرموزه العام والمطلق، وسننتهي إلى ما يشبه قاموس الأحلام ككتاب «تعطير الأنام في تفسير الأحلام» أو كتاب «تأويل الأحلام لأرتيميدورس». وغالباً إذا اتبعنا هذا المنهج نجد أن الرموز كلها تدور حول موضوعات أساسية هي الميلاد، والموت، والجسم وأعضاؤه ووظائفه، والأعضاء الجنسية، والناس وخاصة أفراد العائلة. ورغم أننا قد نجد كماً هائلاً من الرموز يختلف باختلاف ثقافة الحالم، إلا أن المرموزات هي تلك الموضوعات القليلة السابقة. ولا بد لدارس الأحلام أن يحيط علماً بأكبر قدر من الرموز، وما يمكن أن تعنيه حتى وإن تضاربت المعاني الشعبية للرمز مع مستدعيات الأحلام والمنهج العلمي، كما في تأويل العامة لخلع السن في الحلم، بأن الحالم سيموت، أو أن له قريباً لصيقاً به سيموت، مع أنه لو استمعنا إلى مستدعيات الحالم فلربما يكون الحلم جنسياً محضاً أو أن له تفسيراً مختلفاً تماماً.

وكما قلنا إن الأحلام تدور حول أشياء بعينها مثل الميلاد، فمثلاً الحلم بالماء، وخصوصاً الغمر في الماء، قد يشير إلى الحمل والولادة. ومن ناحية أخرى فللماء صلة بالتبوّل وخبراته وتصورات الحالم له. والعدوى بالحشرات ربما تشير إلى المني والإخصاب. ولربما يكون النوم، والصمت، والنزول إلى الأرض، والتضاؤل

في الحجم، والسَفَر خصوصاً إلى ناحية الغرب، والتدثّر ببطانية رموزاً مختلفة للموت.

وأما الجسم وأعضاؤه فقد كانا دائماً مصدر إلهام رمزي للفنان القديم والحديث، وأبدع الإغريق أيما إبداع في تصوير الجسم البشري رمزياً بالنحت، فمن الممكن أن نصوره في شكل المباني، وأن نرمز بالنوافذ والأبواب إلى فتحات الجسم. وقد نرمز لأعضاء الجسم بأشياء من الطبيعة كالجبال والوديان والغابات والزهور. والكهوف قد ترمز لتجاويف الجسم، والشرفة تصلح كرمز للثديين، والفم قد يكون بديلاً عن الفرج، ولربما ترمز المجوهرات لأعضاء المرأة الجنسية، وكذلك قد ترمز الأدراج والمحلات والدواليب للمهبل، وخصوصيات المرأة من ملابس داخلية قد تحل محل أعضائها الجنسية. وأيضاً قد تأتي السلالم والممرات والدهاليز والأنفاق معبّرة عن المهبل. والشارع أيضاً هو رمز جنسي. واللون الأحمر قد يوحي بالحيض. والسقوط قد يعني للبنات الدورة الشهرية. والعينان ربما تشيران إلى الفرج، وكذلك المصاعد والطائرات والطيور والمقذوفات والسهام والأقلام كلها يمكن أن تكون رموزاً للقضيب. والرجل الذي يحلم بأن سيارته قد عطبت وأنه حاول أن يصلح ماكينتها ربما يكون مصاباً بالعجز الجنسي. وتبين أن العدد ٣ في كثير من بلاد العالم والثقافات المختلفة يمكن أن يرمز لعورة الرجل. وترمز الحيوانات للأعضاء التناسية عند المرأة أو الرجل، فالثعبان رمز للقضيب، وبالمثل الحبل والخرطوم. والمرأة التي تحكي عن «صغيرها» ربما تشير إلى عورتها، وكذلك الرجل الذي يحكي عن «صغيره» وأيضاً أربطة العنق المدلاة لا يخفي مدلولها. وربما تقول المرأة انها ولدت طفلاً وأنه نزل يتكلم ويمشي، كبديل في تصورها للقضيب الذي ترى أنه رغم صغره فهو يفعل الأعاجيب في الجماع المشبع. والشمس رمز للذكورة وأيضاً النار، والقمر رمز للأنوثة. وأحياناً يرمز الذراع الممتد أو الساق المرفوعة أو الأنف أو الذيل للقضيب. وللأسنان عموماً معنى

جنسي، وفقدان الأسنان بالنسبة للرجل قد يعني قلقه من أن يصاب بالعنّة. وإذا كان الحالم قد حلم بأن أسنانه كلها قد انخلعت فربما هو مصاب بقلق الخصاء. ذلك بعض مما تعنيه الرموز في إطار التفسير المادي للأحلام.

وهذه عينات من أحلام من هذا القبيل ويمكن تفسيرها هذا التفسير:

١ - كنت ألعب الكرة مع أبي ثم تبين لي أنه صديقي، ورمينا الكرة لبعضنا عدة مرات، ثم تراءى لي أن أضربها بقوة ففعلت ورأيت وجه صديقي وقد اصفر، ثم رأيته يبصق ويستخرج من فمه ثلاثة أسنان قد انخلعت بسبب الكرة.

٢ - حلمت أني كنت نائماً ثم تذكرت موعدي مع طبيب الأسنان وقمت قليلاً ولكن أدركت أني قد جئت من عنده تواً بعد أن حشا لي ضرسين واحداً إلى اليمين وواحداً إلى اليسار، وعندئذ استيقظت فوجدت أني قد استحلمت.

٣ - حلمت أني أشدّ شعرة من أنفي فإذا بكتلة شَعر تخرج بدلاً من الشعرة الواحدة.

وأحلام الأنف كثيراً ما تأتي كبديل للاستمناء كالحلم السابق، فعندما يخشى الشخص في اليقظة أن يمارس الاستمناء مخافة أن يصبح عادة عنده فإنه قد يصرف الطاقة المتوجهة للاستمناء إلى أنفه ويرفع يده إلى الأنف بدلاً من أن تتوجه للقضيب ويحكها بها، وقد تصبح لازمة عنده، وحكّ الأنف كلازمة هو من بدائل الاستمناء.

وقد يمثل الرقص الإيقاعي أو أي فعل توقيعي العملية الجنسية، وكذلك الصعود والهبوط، والدخول والخروج. وقد ترمز أحلام الطيران للانتصاب. وقد تُمثّل الشهوة العارمة في الحلم بالمآدب الحافلة والولائم الفاخرة وأكوام الفاكهة أو الحلوى.

والتلذّذ ذاتياً قد تمثّله كل الأنشطة كاللعب، أو الحركة بأية أنواعها، كأن يدفعنا شخص في الحلم، أو أن نحلم بأننا محمولون. وهذا المثال لحلم يرمز للاستمناء:

- حلمت أني أدخل مصعداً وكنت ألهث، ثم بدأ لهثي يزيد. واشتغل المصعد، وبدأت سرعته تزيد وبلغت الدور الأخير، ولكن المصعد لم يتوقف بل

اندفع في الهواء وانقذفت خارجه.

والسوائل الملونة كأن تكون صفراء ربما تعني المني، وقد يعني إعطاء المال النعوظ. والبراز إذا حلمت به فالمعنى يختلف باختلاف اللون، فاللون البني يعني الشيء يخرج مني لا قيمة له، وإن كان لونه أصفر كالذهب فالخروج يعني الخروج عن المال القيّم.

وهذا الرجل إستشعر الإمساك، فأعطى نفسه حقنة شرجية هيّجته جنسياً، فضاجع امرأته ونام فحلم كالآتي:

– عثرت على كومة ضخمة من النقود الذهبية فأخذتُ أكيلها مبتهجاً وفي حماس كبير. وكانت تبدو كأنها في كل مكان.

وكما يقول إبن سيرين قد نحلم بشخصيات كبيرة فترمز للأبوين. والحُجرة امرأة وأيضاً القطة، والملكة هي الأم، وقد نرمز لها بالساحرة أو العنكبوت. والنساء يمكن أن يشار إليهن في الحلم كأقمشة وخشب وورق أو أشياء تصنع منها. والحيوانات ترمز للناس عموماً والوالدين خصوصاً. وتظهر الأطفال في الأحلام كالنمل أو القمل أو الحشرات أو الحيوانات الصغير جداً.

وهذا الحلم لرجل بدأ يرى زوجته بمنظار جديد:

– نظرت إلى السجادة في حجرة نومي فلم تعجبني. كانت بها أشياء كأنما قد تغيّرت في الشكل فصارت أقبح، وتآكلت وتفلطحت من أماكن. وطمأنني صديقي فقال يمكنك أن تستبدلها بسجادة جديدة.

وكما رأينا فالأحلام طبقاً للنظرية المادية في التفسير لا يمكن أن تكون كلها جنسية، وفرويد نفسه يقول إنه من العجيب أن يوجه خصومه إلى نظريته النقد بأنها نظرية في الأحلام ترى أن كل الرموز جنسية لا غير، ويذكر فرويد أنه لم يحدث أن قال مثل ذلك أبداً في أي من طبعات كتابه «تفسير الأحلام»، بالإضافة إلى أن القول بأن كل الرموز جنسية هو قول يتناقض مع النظرية (Freud, S.: Interpretation of Dreams).

والنظرية المقابلة لنظرية فرويد هي التي تقول بأن للرموز وظيفة في الحلم كما أسلفنا القول، ولذا نطلق عليها إسم

النظرية الوظيفية، وهي تعيب على النظرية المادية السابقة أن الرموز معناها ثابت وتصلح أن تُضَم في كتاب لتصنع مرجعاً في تفسير الأحلام يستقي منه الجميع، وهذا خطأ برغم أن فرويد يذكر أنه من الأوفق أن يكتمل ذلك بالرجوع إلى مستدعيات الحالم عن الحلم. وأصحاب النظرية الوظيفية يقولون أن الرموز ذات المعنى الثابت يسهل تفسيرها ويتاح لآحاد الناس. وكان فرويد يرى أن سبب ظهور الرموز في الأحلام في شكلها كرموز هو أنها تشير إلى أشياء كريهة لا يحب الحالم أن يواجهها في الواقع وهو يقظ، وإذا جاءه التفكير فيها وهو يقظ صرف ذهنه عنها وغيّبها عن وعيه، ومن ثم كان لا بد لهذه الأشياء الكريهة أن تستخفي وتتقنّع وتظهر في أشكال رمزية تفوت على الرقيب باعتبار أنها رموز لا ضرر منها. ولذلك يذهب أصحاب النظرية الوظيفية إلى أن الرمز في الحلم هو قناع لتفكير لا يرضى عنه الحالم، كأن يحلم الحالم مثلاً أنه يتسلق شجرة بدلاً من أن يستمني، لأنه إذ يحلم بتسلق الشجرة فإن ذلك لا يجد الغضاضة من نفسه، في حين أن رغبته في أن يستمنى بيده تُقابَل منه بالرفض الشديد. وبالنظر إلى أن فرويد كان يرى أن الأحلام يدفع إليها غالباً رغبات أو أفكار جنسية، فالرموز تأتي في الغالب جنسية أيضاً وإن تقنّعت، ومن ثم فإن ركوب الخيل مثلاً، أو حرث الأرض، أو صعود السلالم، أو إطلاق بندقية، هو رمز للجماع الجنسي. فلماذا يقول فرويد إن البندقية ترمز للقضيب والنافذة للفرج؟ لماذا يكون الرمز رمزاً؟ والجواب عند فرويد أن الرمز يرمز للمرموز لأنه يشبهه، فالمحراث ينفذ في الأرض كما ينفذ القضيب في الفرج، وصعود السلالم يشبه تزايد الرغبة الجنسية، وكل شيء مدبب كالقلم أو الحقنة يمكن أن يشبه عضو الذكورة، والتشابه في الألوان قد يجعل أشياء تشبه أشياء كَشَبه اللون الأصفر بالبول، واللبن بالمني، وكذلك التشابه في القيمة يفسر لنا لماذا يمكن أحياناً أن نشبه أعضاء المرأة التناسلية بأنها كنوز تملكها، والتشابه في الكيف قد يجعلنا نحلم بالحيوانات كرموز للشهوة.

والتحليل النفسي لا يكتفي بالشَبَه

ولكنه يضيف إليه العكس، كأن نحلم بأننا نسير في زحام شديد فيكون الزحام رمزاً للوحدة التي نعيشها، أو أن نحلم بأننا نموت والموت عكس الحياة، أو أن نحلم بأننا مرتدون لثيابنا فتكون الثياب رمزاً للعكس وهو العري، ومبدأ التأويل بالضد قال به أيضاً إبن سيرين من قبل فرويد بنحو ألف سنة، فالبكاء قد يرمز عند إبن سيرين للفرح، والضحك قد يرمز للحزن، والسيل قد يعني العدو. والاعتراض الموجّه لنظرية فرويد ليس استخدامها للرموز في الأحلام ولكنه للسبب الذي من أجله يلجأ الجهاز النفسي لاستخدام الرموز، فهو عند فرويد لإخفاء شيء كريه، بمعنى أن هناك أمراً بغيضاً على النفس لا ترضى عنه وتحاول إخفاءه فلا يظهر في التفكير ولا يبين في السلوك، فإذا نام الشخص وقلّت رقابته الواعية على تفكيره استطاعت هذه الأمور البغيضة أن تظهر في التفكير والوعي مرة أخرى، ولكن بشكل مقنّع تموّه به على رقابة الشخص على نفسه وتفكيره. والنقد الموجّه لنظرية فرويد هو الآتي: إذا كان الأمر أمر رقابة وتمويه عليها فلماذا نحلم يوماً بفعل جنسي محظور فعله ومحرم، كأن نحلم بأننا نضاجع أحد والدينا في ليلة من الليالي، ونحلم في ليلة أخرى بالفعل نفسه ولكنه مقنّع؟ ولماذا تقول جوكاستا لأوديب «إن الكثير من الشبان يحلمون بأنهم ينامون مع أمهاتهم»، أي يحلمون ذلك بصراحة مرة، ويحلمون مرة أخرى أحلاماً غير مباشرة فيها رموز ويمكن تأويلها أيضاً على المنوال نفسه؟ ثم لماذا يسهل على العامة أحياناً أن يفسروا الرمز بسهولة ويشق ذلك عليهم مرة أخرى؟ وكيف يتسنى تأويل الرمز بسهولة إذا كان المقصود أن يكون رمزاً ولا يكون من السهل تفسيره حتى يمكن أن تنطلي حيلته على رقابة الحالم على نفسه؟ وتعتمد نظرية فرويد على التشابه في اللغة العامية بين الفعل أو العضو الجنسي والشيء المرموز به، فمثلاً المني يقول عنه العامة صراحة اللبن، فلماذا يتخفّى المني في الحلم الجنسي فيرمز له باللبن، وذلك شيء معروف وعادي وليس فيه تخفٍّ وكأنه لا وجود للرمز؟ ثم هناك اعتراض آخر حول القول بأن الرمز جاء

ليخفي شيئاً، فلماذا هناك عشرات من الرموز للشيء الواحد؟ ما الداعي إلى ذلك؟ هل يخدم قضية التخفي أن يكون هناك كل هذا العدد من الرموز للشيء الواحد؟ أي تخف هذا؟ لقد أمكن إحصاء الرموز التي يمكن أن ترمز للقضيب في أدب الأحلام فبلغت ١٠٢ رمزاً، وللفرج فبلغت ٩٥، وللجماع فبلغت ٥٥، فهل من المعقول أن يكون القصد من الرمز إخفاء المرموز إليه وهناك هذا الثراء الذي ما بعده ثراء في التعبير عن معناه؟ أو أن المقصود بالرمز لا يمكن أن يكون التمويه على الحالم وتمرير شيء مكروه إليه وبغيض عنده ما كان يمر وهو في اليقظة؟ وإذن فما هو إن لم يكن هو التخفّي والتمويه؟ وهنا تقدم النظرية الوظيفية في تفسير الأحلام سبباً تقول إنه أكثر إقناعاً، وهو أن الرموز توجد في الأحلام حقاً لا لكي تخفي أموراً ولكن لتخدم وظيفة، وهي ليست وظيفة الإخفاء والتمويه، ولكنها وظيفة التعبير عن الشيء وليس إخفاء الشيء.

إن الحلم نوع من التفكير، وفي التفكير تكون الأفكار، وعندما نحلم فإن عملية الحلم هي عملية تفكير بالصور، والحلم يحيل الأفكار إلى صور، والصور الحلمية تجسّد أفكار الحالم، والتفكير في الأحلام هو تفكير بالصور، أو أن وسيلته هي الصور. والرمز في الحلم لا يشير إلى شيء في الواقع، وليس بديلاً عن الشيء في الواقع، ولكنه يشير إلى فكرة الحالم عن الشيء الذي في الواقع، فمثلاً البندقية، وهي شيء منظور ومحسوس، لا يمكن أن ترمز إلى القضيب وهو شيء منظور ومحسوس آخر، وإنما البندقية قد ترمز لفكرة أو تصوّر الحالم للقضيب إذا كانت فكرة الحالم عن القضيب أنه خطير خطورة البندقية، ويمكن في الوقت نفسه أيضاً أن تكون البندقية رمزاً لفكرة أو معنى في تصور الحالم ليس منها القضيب على الإطلاق، وإنه لمن الخطأ البين إذن أن نقول في كل مرة يحلم فيها الحالم بالبندقية أن البندقية هي عضو الذكورة عنده.

ولنفترض أن حالماً حلم عن بقرة، وأن مقتضى الحلم كان تفسير رمز البقرة بأنه أمه، فلماذا يحلم بها على أنها بقرة؟ والجواب طبقاً للنظرية الوظيفية في

التفسير أن الحالم لديه الانطباع أن أمه فيها الكثير من البقرة، فهي تهتم بغذائه وتمدّه به كالبقرة الحلوب. وليست هذه هي الصورة الوحيدة لأمه عنده، ولكنه في هذا الحلم لأمر ما يركز على هذه الصفة فيها دون غيرها. وكان الممكن أن يرى أمه في الحلم في أشكال أخرى خلاف أن تكون بقرة، كأن يراها في شكلها الإنساني العادي تخدمه وتحنو عليه وتفيض عليه من رعايتها، وذلك أكثر احتراماً لها وأليق بها بدلاً من أن يراها كحيوان، إلا أن اللغة في الأحلام بسيطة وعلى الفطرة، ولو طلبت من طفل أن يرسم مثل هذه الأم الحنون فلن يجد أبلغ من أن يصورها كبقرة، وستكون الصورة بليغة بلاغة العبارة التي قد نقول بها مجازاً إن أمي بقرة حلوب.

والشيء نفسه لو طلبناه من فنان مثل بيكاسو فلن يكون أبلغ من أن يصورها أيضاً كبقرة، إذ كيف يمكن تصوير صفة في إنسان إن لم تكن هناك استعارات وكنايات في التصوير كوجودها في اللغة؟ والعبارة البليغة في الأدب تقابلها صورة بليغة في التصوير، والحلم تصويري، وليس أبلغ من أن يأتي التعبير عن الصفة على الصورة التي تأتي بها في الحلم. واللغة التصويرية في الأحلام لغة اختزالية عقلية كاللغة التي نستخدمها في اليقظة، فنحن في اليقظة عندما نريد أن نصف شجاعة إنسان نقول له إنك أسد، فالأسد رمز للشجاعة، والثعلب رمز للخداع، والبومة للشر، والمسيحيون يرمزون للمسيحية بالصليب، والاتحاد السوفياتي كان يرمز للشيوعية بالمطرقة والمنجل. وكل هذه الرموز تصوّر المرموز تصويراً مختصراً ودقيقاً ومستوفياً لمعانيه بحيث يمكن أن تستحضر الصورة كل معانيها وتستوفيها.

ولا بد أن تكون فكرة الحالم عن الرمز متمشية مع فكرته عن المرموز إليه، فإذا كان الحالم سيحلم أن أمه كالبقرة فلا بد أن تكون صورة البقرة في ذهنه متمشية مع صورة أمه في ذهنه، وسيرى في البقرة وأمه تشابهاً من حيث أن كلاً منهما حلوب، وأما إذا كانت صورة البقرة في ذهنه صورة حيوان مفترس فلن يختار البقرة لتصوير أمه في الحلم.

وتفسر هذه النظرة للرمز السبب في

كثرة وجود رموز متعددة للشيء الواحد، ولا يعني ذلك أن الشيء الواحد يمكن تصويره بطرق مختلفة، وإنما يعني أن الشيء الواحد يمكن أن تكون له صور مختلفة في الذهن بحسب منظورنا لهذا الشيء، فقد نرى أن الجماع وسيلتنا للتكاثر والتوالد فتكون صورته عندنا هي صورة حرث الأرض وبذرها، وقد لا ترى إحدى الفتيات في الجماع إلا أنه وسيلة بربرية في الحب، فيها العنف والتعدّي على الأنثى، وعندئذ فقد تأتي صورة الجماع عندها في شكل إطلاق بندقية أو الطعن بالخنجر.

وقد تكون الصورة المتحصلة عن المرموز جامعة لعدد من الجوانب فيه، فمن الممكن أن يرمز القمر لصورة المرأة في أذهاننا، فأولاً ينظّم القمر الدورة الشهرية، ولقد كانت تسميتها بالدورة الشهرية لأنها تأتي كل شهر قمري، وكأنما للقمر تأثير في الحيض وبالتالي له تأثير في رغبات الأنثى الجنسية من حيث الفترات التي يشتد فيها إشباقها فسيولوجياً. وقد نقول عن المرأة الحامل إنها استدارت واكتمل حملها من حيث تكامل استدارة بطنها مع قرب الولادة بالنظر إلى أن القمر هو أيضاً يكبر وتتم استدارته بتمام وقته. والقمر أوهن من الشمس، والشمس قد تصور الذكورة من حيث قوتها وعنفها بينما قد يصور القمر الأنوثة من حيث ثباتها ورسوخها، بينما القمر قد تصوّر به عواطف الإناث من حيث سرعة تغييرها، وهو يبدأ وليداً ضعيفاً كالحب ويكبر إلى أن يصبح بدراً، وكل ذلك في شهر، وبعد الشهر يعود إلى الأفول، وما أسرع ما تتقلب المرأة في عواطفها وكأنها القمر، بل وما أكثر ما تتقلب المرأة في أحوالها فهي أولاً صبية، ثم شابة تحيض، ثم عروس تُفَض بكارتها، وحامل تتراوحها ظروف الحمل والولادة والإرضاع، وأمّ ترى وجوداً لها جديداً ووافداً في ابنها الصغير الذي تحمله بين ذراعيها أو يحبو إلى جوارها، وكأن للمرأة إيقاعاً منتظماً كالإيقاع الذي يستحدثه القمر مداً وجزراً في مياه البحار، فهي المحبة لأبويها والتي تنقل حبّها لزوجها، وهي المُطيعة والمستسلمة التي تستكين للحب ودغدغاته، وهي الحامل الوالهة بحملها،

والأم المُغرمة بأولادها. وكل هذه الأحوال والأفكار والصور للمرأة تُختَزل جميعها في صورة واحدة هي صورة القمر!

ويبدو أننا بما قدّمنا من أفكار حول الرمز قد زدنا الأمر صعوبة عمّا كان يراه فرويد فيه، ففرويد كان يرى أن الرمز يرمز للشيء مباشرة ولذلك كان يرى أن الرمز ثابت غالباً، فكل ما هو مشقوق مثلاً قد يصلح رمزاً للفرج، وأما في النظرية الوظيفية في تفسير الأحلام فالرمز صورة ذهنية عند الحالم هي تصوّره للمرموز، ولا تنفصل هذه الصورة عن الحالم وتعكس ديناميات شخصيته، ولذلك فحلّ شفرة الرمز مسألة صعبة تحتاج إلى الإحاطة بتصوّرات الحالم عن العَالم المحيط به، واستقراء النصّ الحلمي الذي ترد فيه الصورة المرموز بها عن الشيء. ولو كنا نحلم بالأشياء مباشرة لرأينا الأم في حلم الأم البقرة مثلاً وهي في شكلها الانساني تقوم بواجباتها الغذائية للأسرة في صبر وأناة ورضا دون أن نراها في صورة البقرة. وأما ونحن نراها كبقرة فلا بد أن نقوم بعملية ترجمة بحيث ندرك أن المقصود بالبقرة هي الأم في حالة من حالاتها وهي أنها الحلوب للأسرة، وعلينا أن تتحصل لنا المعرفة بتصورات الحالم عن البقر لكي يتحصل لنا العلم بتصوراته عن أمه.

والآن كيف يتسنى لنا أن نفسر الحلم؟ وما هي الطرق التي ينبغي أن نتبعها ليسهل علينا تفسيره؟

هناك عدّة طرق لذلك لعل أولاها أن نرى رأينا في الحلم فلعله يكون بسيطاً لا يستدعي إعمال فكر، وهناك أحلام من هذا النوع الذي لا يحتاج إلى تأويل، وليس لهذا النوع ظاهر وباطن، فإن كان الحلم لا يبدو أنه بسيط ومباشر وهو غالباً كذلك، فعلى المفسّر أن يحلل الحلم ويجزّئه ويرى ما فيه من أشخاص وأشياء كحلم البقرة، فأن يحلم الحالم ببقرة فهذا شيء ليس بالبسيط لأنه لا دخل للحالم بالبقرة حتى تتابعه في منامه ويحلم بها، وإذن يتبقى أن يحاول المفسر فك طلسم الرمز فيجد له المرموز، فإن توافق الحلم مع التفسير وصار له معنى فالتفسير غالباً صحيح. ولنضرب المثل بهذا الحلم وهو لامرأة:

- حلمت أني أركب حصاناً، وكان كل

شيء على ما يرام، وفجأة أفلت مني الزمام وانفك السرج، وكان الحصان ضخماً وقوياً. وقال الحصان إنه سيحاول أن يلقي بي، وأجبته اني لن أنزل مهما كان السبب، ورفس الحصان وجرى بين الأشجار كأقصى ما يمكنه، وبقيت فوقه واستيقظت.

ولعل أول ما يُبده المفسر لهذا الحلم الرمز فيه حيث الحصان يتكلم، وما دام أنه يتكلم فالحصان رمز لإنسان، ولأننا نشير إلى الحصان بقولنا «هو» فلا بد أن هذا الإنسان ذكر، ولأن الحصان ضخم وقوي فلا بد أن هذا الإنسان الذكر بالغ، وإذن فالحلم يحكي عن علاقة الحالمة برجل. والحلم يقول إنها كانت في علاقتها به على خير حال، إلا أن الأمور ساءت بينهما، فاللجام انفلت والسرج انفك، إلا أنها ظلّت متشبثة بالحصان أو بالرجل برغم أنه يحاول أن يلقيها عنه ويقطع صلته بها، وهي تجرب شطارتها بشطارته، وكلاهما يحاول، وتنتصر المرأة.

فمن يكون هذا الرجل؟ لا يقول لنا الحلم بالضبط، فهذه العلاقة بين الحصان والراكبة لا يمكن أن يكون إلا علاقة أب بابنته، أو علاقة شقيق أكبر بشقيقته، أو علاقة زوج بزوجته، أو علاقة غرامية لرجل بامرأة. ولا يمكن تحديد هذه العلاقة بالضبط من هذا الحلم وحده، ولا بد أن نستمع لهذه المرأة في أحلام أخرى، أو أن نسألها هي نفسها عن تفسيرها لهذا الحصان - من يكون؟ أو أن نستمع إلى مستدعياتها ونطلب إليها أن تقول لنا ما يخطر على بالها من خواطر حول الخيل عموماً - تصوراتها وربما ذكرياتها، وهكذا.

وهذه الطرق السابقة سنتناولها الآن واحدةً واحدة. وإليك هذا الحلم لامرأة تحتفل بالعيد الأول لزواجها، بأن تستعيد وزوجها ليلة العرس ويمثلانها، وتبحث عن فستان الزفاف دون جدوى:

- وأخيراً وجدتُه إلا أنه كان متسخاً وممزقاً، ولكني أخذته وأسرعت إلى زوجي فسألني عن سبب استحضاري للثوب، وحرت جواباً وشعرت أني أتصرف بغباء، وزاد إحساسي بأني وحيدة.

فلو فرضنا أن الفستان يرمز لتصوّر الحالمة لزواجها فما هي الشواهد التي

تجعلنا نقول بهذا التفسير؟ نعرف ذلك من جملة أحلامها الأخرى المترافقة لهذا الحلم إما في الموضوعات أو الجو العام أو الزمن. ولقد حلمت هذه السيدة أيضاً بزميلة لها قد تركت بيت الزوجية وطلبت الطلاق، وهذا دليل على أن فكرة الطلاق عندها هي نفسها كذلك. وفي حلم آخر رأت نفسها وقد ضلّت د' يقها إلى بيت الزوجية وتاهت. وهذا الحلم يبين أنها لا تريد أن تعود إلى بيت الزوجية وتتمنى لو تتركه لغير عودة. وحلمت أيضاً أن خاتم الزواج ضاع منها ولم تجده، وذلك قد يكون رغبة منها أن تنهي هذا الزواج الذي يرمز إليه الخاتم. وهذه الأحلام المترافقة في الموضوع والزمن تقوّي من احتمال صحة افتراضنا أن هذه المرأة تعاني من زواجها وتريد الطلاق، وأن فستان الزفاف الممزق والمتّسخ رمز لحياتها الزوجية المهترئة والفاسدة. ويتبين منها أن الأفضل دائماً النظر في جملة أحلام وليس حلماً واحداً لفك طلاسم الرموز لدى الحالم، ولقد فعل فرويد ذلك كما في حلم القبعة عنده ضمن باب الرمزية في الأحلام، فهو يقول إنه استطاع أن يفسّر هذا الحلم بناء على أحلام أخرى لها طبيعة مادة هذا الحلم للحالم نفسه.

وأيضاً فمن الممكن أن نسأل الحالم عما يعنيه عنده هذا الرمز أو ذاك. وغالباً ما يعطينا الحالم تفسيراً يكاد يقرب من الصحة، ولقد فعلت المرأة السابقة ذلك، فإذا وجدنا أن تفسيرها يعطينا تأويلاً معقولاً للحلم فقد نأخذ به، وخاصة إذا توافق مع الاتجاه الذي نراه للحلم. والطريقة الأخيرة هي أن نسأل هذه السيدة أن تذكر لنا أية مستدعيات يثيرها عندها الفستان أو الحلم عموماً، وذلك منهج التداعي الحر المشهور عند فرويد الذي يتوخّى أن يميط اللثام عن المخبوء من الأمور والحوادث والعلاقات، وييسر بلوغ اللاشعور وأعماق المكبوت.

وفي التحليل النفسي بمقتضى منهج التداعي الحر يتناول المحلّل كل كلمة، وأحياناً كل عبارة في الحلم، بالمناقشة مع الحالم، ثم يركّب كل المعاني على بعضها لتصنع معنى كلياً للحلم. وهذا الحلم التالي يمثل طريقة العمل بمنهج التداعي الحر في تفسير الأحلام:

- حلمت أني أعمل في محطة خدمة سيارات، وكان على صديقي أن يكشف على زيت السيارات، وكان يستخرج مسطرة قياس الزيت من عُلبتها وينظر إليها ثم يعيدها، ولم يعجبني ذلك، فتوجهت إليه وقلت له يا صديقي إنك تفعل الخطأ، فعندما تسحب المسطرة إمسح الزيت الذي عليها ثم أعدها إلى العلبة، وأخرجها من جديد لتقرأ علامة الزيت. وشكرني صديقي وانتهى الحلم.

وعندما سألنا الحلم عما يظنّه بمسألة الكشف على الزيت قال إن ذلك يذكّره بالمسائل الجنسية، وكأن إيلاج المسطرة وسحبها من عُلبة الكشف على الزيت هي العملية الجنسية، وصديقي هذا يهوى جماع البغايا وذلك خطأ حاولت كثيراً أن أثنيه عنه. والطريقة التي يكشف بها صديقي على الزيت طريقة ميكانيكية بحتة كالجنس الذي يفعله، بلا حرفية ولا علم.

وحلم آخر لفتى كان فيه يعزف لبعض الوقت ثم انتهى وقام إلى المايسترو وقبّل يده، فلما سألناه عما يعنيه له تقبيل يد المايسترو قال إنه يخيل له إن هذا المايسترو هو أبوه، وكان منضبطاً شديد الانضباط ولكنه لم يكن متعسفاً معه، بل يحاول أن ينظم له حياته ويرشده ويعلمه كما يفعل المايسترو. وحياته الآن ناجحة نجاحه في العزف في الحلم، ولأنه يرى الآن ثمرة انضباط والده وتعليمه له فهو يشكره، ويتمثل هذا الشكر له في تقبيله ليده، وهكذا تكثفت تصورات الحالم لأبيه كمرشد وقدوة ومعلّم في صورة واحدة أو رمز واحد هو المايسترو.

والتداعي الحر يمكن أن يأتيه الحالم وحده إذا رغب بصدق في ذلك ولم يحاول أن يكبح جماح اعترافاته، أو يحاول أن يحذف منها، أو يزيّف فيها، أو يقمع ما يظهر منها على تيار الشعور. وأفضل ما يكون ذلك والشخص مسترخ وقد اعتزل كل ما يمكن أن يصرفه عما هو فيه، ويستحسن أن يستلقي على سرير أو كنبة في حجرة هادئة. وعليه أن يستحضر صور الحلم في ذهنه كلها مرة واحدة، ثم يبدأ يسرد مستدعياته عن كل صورة وكل جزئية في ترتيب، ويستوفيها بأن يذكر كل ما عنده عنها وحولها، ثم ينتقل إلى الأخرى، وبهذه الطريقة فقد

يحصل فعلاً على تفسير للحلم، وقد يفضي الحلم له بما فيه من أسرار. ولا ينبغي أن ننسى أن: هناك أحلاماً لا تستدعي منهج التداعي الحر لبساطتها وتفسيرها لنفسها كهذا الحلم لزوجة:

- حلمت أني في بيتي وكان زوجي يتحدث مع أمّه، وكلّما اقتربت منهما سكتا، فإذا ابتعدتُ عادا إلى الحديث وعيونهما عليّ. وزوجي وحماتي اعتادا أن لا يقولا لي أحسنت إذا أحسنت، فإذا أخطأت وجّها لي اللوم الشديد. وشعرت بأني وحيدة وأنه ليس لي صديق، وأنه لا أحد يفهمني، وأنه لا لزوم لأذكر ذلك لأحد حتى لزوجي.

ألا يقول لنا هذا الحلم كل شيء عن الزوجة وحياتها مع زوجها وحماتها أو بالأحرى تصورها لعلاقتها بهما؟ فإذا طلبنا إليها أن تذكر ما عندها عن زوجها وحماتها ولا تتحرج من الإفصاح عن شيء، وأن تقول كل ما يعنّ لها من خواطر، فبالقطع ستعطينا صورة مكملة توضيحية للحلم الذي كثّف كل ذلك في هذه الصورة الحلمية المفردة شديدة التركيز، وبالرغم من ذلك فلن نفهم من المستدعيات أكثر مما أفهمنا إياه الحلم. وقد نصل حقيقة من المستدعيات إلى ذكريات أبعد للحالمة، وربما كان ما تراه انعكاساً لمعاملات سابقة مع أمها أو مع أبويها معاً، أو ربما كان لاتجاهات الحالمة دخل في تصوراتها هذه عن معاملة زوجها وأمه، وعلى كل فالطريقة ستحدّدها الغاية من اللقاء بين الحالم وبين المحلّل وبين المفسّر، ومجرد التفسير قد يكفي فيه الطريقة الأولى البسيطة مع الحلم البسيط، ولكن مع التحليل بقصد العلاج فلا بد من استخدام طريقة التداعي الحر وهو ما سنعود إليه من بعد.

والآن وقد أتينا على المدرستين بخصوص الرموز الحلمية، فماذا بشأن المدرسة القديمة التي ترى أن جانباً من الأحلام منبئ؟ ونحن من القائلين إن الإنباء في الأحلام هو محصلة ما نعرف، وهو النتيجة لمقدمات موجودة في واقعنا، فإذا حلمنا مثلاً بأن مريضاً قد سافر فطبقاً لابن سيرين وغيره فإن هذا المريض سيموت لأن الرحيل بالنسبة للمريض هو موته، فهل هناك إنباء بالمستقبل إذا كان هذا المريض مريضاً

مرض الموت ثم مات فعلاً؟ وقد يحتج المحتج بحلم فرعون بالسبع بقرات العجاف التي تأكل السبع بقرات السمان، وتفسير يوسف للحلم، والاحتياطات الاقتصادية التي اتخذها بناءً على التفسير، وابن سيرين نفسه يقول إن الملك إذا حلم بالبقر فتفسير ذلك يختلف عما إذا كان الحالم فلاحاً مثلاً، وحلم الملك بالبقر يعني أنه مهتم بمسائل إقتصادية لبلده، وإنه لأمر لا إعمال ذهن كثير فيه أن نقول لهذا الملك إنه سيعاني من ضائقة بعد يسر، والملك وقت الحلم يعيش هذا اليسر، والعسر سيتلوه، ومن ثم يتوجب على الملوك في هذه الحالة ما لا يتوجب على غيرهم، وهو أن يعملوا لتلافي هذه الضائقة القادمة. والحلم بملابساته يعرب عن قلق ملك بأمور هي من صميم عمله اليومي. ولا بد أنه كانت هناك إرهاصات بالعَسر الوافد استشعرها الملك ولاحقته في منامه فكان هذا الحلم وغيره، وذلك ما نقول به أن الأحلام صدى للواقع الذي نعيشه، فإذا قمنا بتفسيرها وبناءً على التفسير إتخذنا سلوكاً معيناً إزاء بعض الناس من حولنا، بمعنى أن الحلم يتسبّب في تعديل سلوكنا، فهذا من شأننا وليس لأن الأحلام منبئة.

والناس قد تعتقد أن الأحلام قد تبشّر وقد تنذر ولذلك يهمهم كثيراً أن يقرأوا كُتب التفسير ويستشيرونها، إلا أن ذلك منهم ليس سلوكاً علمياً وليس له ما يبرزه. ومن كُتب التفسير ما لا يقدم بشارات أو انذارات كتفسير للأحلام ولكنه أيضاً غير علمي، لأنه يذهب إلى عموميات في تفسير الرمز، ويجعل مدلول الرموز ثابتاً في كل الأحوال. ولغة الأحلام لغة خاصة جداً، برغم أنها أيضاً لغة عالمية، فإذا قيل مثلاً إن الرحيل قد يعني الموت بالنسبة للمريض فذلك لأن هذا القول شائع بين الناس، وهو من الأدب الشعبي الذي يتثقف به الجميع وينشأون عليه، والأحلام تترجم عن الشخص وتصدر عن ثقافته، وقد يكون للرحيل معنىً خاص عند الحالم بالإضافة إلى المعنى الشعبي، ويصح أن يكون الرمز في الحلم هو بهذا المعنى الخاص وليس بالمعنى الشعبي. وعلينا كمفسرين أن لا نعول على معرفتنا بالمعنى الشعبي كثيراً، وعلينا أن

نستشير الحالم نفسه في كل الأحوال، ولقد ثبت أنه رغم أننا جميعاً لنا إطار مرجعي ثقافي واحد، أو حتى إطار مرجعي حضاري إنساني، إلا أن لكل فرد تصوراته ومعانيه التي لا يمكن أن يجتمع عليها اثنان من الأفراد ولو كانا من دائرة الثقافة الواحدة. والرموز في الأحلام شخصية ولا يمكن أن نجعل لها معان عامة نسجلها في قاموس نرجع إليه، غير أنه يفيدنا أن نحيط علماً بما قد يتشارك فيه الناس من تصورات ومعان، ولا تعارض بين التصورات والمعاني العامة والخاصة، وحتى التصورات والمعاني العامة لا تظل لمدة طويلة عامة، وهناك دائماً العام والخاص في كل شيء، وينبغي الحذر من استخدام هذا المنهج الذي نطلق عليه إسم المنهج الميكانيكي في تفسير الأحلام، والذي مؤداه الرجوع الى كتب التفسير لتأويلها، سواء كانت كتب قديمة صفراء أو كتب حديثة مصقولة الورق والأغلفة، وليكن جديدنا دائماً أن نترك الحلم نفسه أو جُملة الأحلام تُفضي بأسرارها ومكنوناتها وتفسّر رموزها دون أن نفرض معنى معيناً عليها نعثر عليه في كتاب وهو ليس منها في قليل أو كثير.

والآن وبعد كل ما أسلفنا لنا أن نتساءل من جديد - لماذا توجد رموز في الأحلام؟ والجواب: إن الرموز لازمة للأحلام لزوم الاستعارة والكناية والبيان والبديع للشعر، ولزوم اللغة الدارجة في الحديث اليوم، والإنسان في كل الأحوال يريد أن يعبر عن أفكاره بأكبر قدر من الوضع بأي لغة، ينقل بها معانيه بدقة وإيجاز. وهو يُلبس تصوراته ما يناسبها من ثياب، وربما كان ما يهدف إليه هو أن يجمّل أفكاره ويزيّنها، ولعله لهذا السبب كانت الرموز لازمة في لغة النوم لزومها في لغة اليقظة (Hall, C.: The Meaning of Dreams).

الباب التاسع

«نظريةٌ في الأحلام أنها صور عقلية»

تتوالى المشاهد في الحلم كأننا نشهد دراماً، والحلم قد يتكون من مشهد واحد أو عدّة مشاهد، وقد يقوم الحلم على شخصية واحدة أو عدّة أشخاص بالإضافة إلى الحالم، وقد يتضمن الحلم حدثاً واحداً أو سلسلة من الأحداث. والحلم يشبه الهلوسة، فنحن في الهلاوس نتوهم أننا نرى أو نسمع أشياء، وكذلك في الحلم نتوهم أشياء كما لو كنا نحسّها بحواسنا وتؤثّر فينا كإحساسنا بالعالم الخارجي. والحلم إسقاط كامل، أي أن ما يكون بأذهاننا يخرج أو يسقط خارجاً فنتوهَم أنه حقيقي، وتتجسد أفكارنا في شكل الصور الحلمية، فكأن ما كان مجرد أفكار يصبح محسوساً في الأحلام، مثلما أن اللغة تجسّد الأفكار في اليقظة فكذلك الصور تجسّدها في الأحلام، وتجسيد الأفكار هو الوسيلة لنقلها أو توصيلها، غير أن توصيل الأفكار في اليقظة يصل للناس وأحياناً يكونون بالملايين، وأما في الحلم فالتوصيل يكون للشخص نفسه، ولذلك كانت الأحلام مَعْرَضاً شخصياً جداً لأفكار الحالم طالما أنه الوحيد الذي يتاح له أن يستعرضها من خلالها.

والتفكير عملية تصوّر، وغاية التفكير أن نتحصل على تصوّر ما، والتصوّر فكرة، والفكرة معرفة، وفي الفكرة نصوغ الخبرة صياغة عقلية نفهمهما بها ونعرفها من خلالها. ومع أن الفكرة تقوم أساساً على مدركات حسيّة مصدرها العالم الخارجي أو الجسم، إلا أن الفكرة يمكن أن تكون بالعقل دون أن تكون لها صلة بالمدركات الحسية ودون أن يكون للجسم دخل في تأسيسها، ومعنى ذلك أن الصورة الذهنية بخلاف الصورة الحسية، والإدراك الذهني شيء والإدراك الحسّي شيء آخر، فإذا كانت الصورة المُدرَكة أساسها جسم المُدرِك أو العالم الخارجي قيل إنها صورة حسيّة وإن إدراكها كان حسياً، وإذا كانت الصورة المطروحة في الذهن قد استقت وجودها من الذهن وحده وقامت به دون اتصال

بالأحاسيس فهي صورة ذهنية وإدراكها كان ذهنياً، فمثلاً قد يتحصل لنا الإدراك الحسي لمنظر طبيعي بأن نراه بأعيننا وينطبع به حسّ البصر، وقد نبصر منظراً طبيعياً ونكون في مكان أبعد ما يكون عن المناظر الطبيعية ثم يسألنا سائل عن المناظر الطبيعية فتتحصل في أذهاننا صورة لما هي عليه ونبدأ في وصفها وصفاً ليس مصدره رؤية واقعية ولكنها رؤية ذهنية خالصة، وهذا هو الفرق بين الإدراك الحسي Perception والإدراك الذهني Conception. وربما صارت لنا الكثير من المعرفة بأمور الإدراك الحسي، ولكن الإدراك الذهني ما يزال يحتاج إلى البحث المستفيض، ونحن نعرفه من خلال معرفتنا للصور الذهنية التي يستحدثها عندما تصبح صوراً حسية سواء في اليقظة فيما نتحدث من لغة، أو في النوم في شكل الأحلام. والفنان يصنع تصوراته الذهنية لوحات نبصرها إبصاراً، والشاعر يطرحها صوراً شعرية يقرأها الناس وتصل إلى وجدانهم، والكاتب يصوغها عبارات يخاطب بها العقل، وعلماء الرياضة يكتبونها معادلات رياضية وأرقاماً، والموسيقيون يستخدمون للتعبير عنها الأنغام والأصوات، والراقصون ينظمونها إيقاعات وحركات، والنحّاتون يشكّلونها أبعاداً ثلاثية، والمهندسون يشيدونها بنايات وعمارات. وإذن فجوهر كل إبداع هو توصيل هذه الأفكار، أي تحويلها من مدركات ذهنية إلى مدركات حسية بحسب نوع مجال المبدع.

وفي عالم الأحلام يحدث الشيء نفسه، ففي الحلم يكون استيلاد الأفكار أو التصورات، والحلم إذن عملية تصوّر تنطرح فيه الأفكار في صور تجسّدها، وما لا يُرى وهو الفكرة يصبح مرئياً في الحلم، والصور الحلمية هي صور ذهنية. والحلم عمل فني غير أنه لا يتطلب من الحالم مهارة خاصة، فالجميع يمكن أن يحلموا وأن تكون لهم إبداعاتهم الحلمية. فإذا كان الحلم عبارة عن عملية تحويل الصور الذهنية إلى صورة محسوسة، فإن عملية تفسير الأحلام هي عملية عكسية، بمعنى أنها تعيد الصورة الحسية إلى أصلها التصوّري، أي تعيدها كما كانت

فكرة، فيكون بوسعنا عندئذ فهمها والتعامل معها، ونحن نقول عندئذ إننا نُأوّل أو نترجم الصورة الحسية لكي نحصل على الصورة الأصل، ويتم ذلك بشواهد من الحلم نفسه ومن تفسيرات الحالم المختلفة، وبمضاهاة أحلام الحالم ببعضها البعض، أو بتحليلها من واقع ما نعرفه عن الحالم. وعملية تفسير الأحلام هي عملية اكتشاف تصورات الحالم أو أفكاره، أو عملية كشف عن أنساقه التصورية الذهنية، ويمكن أن نستخلصها من عدة مصادر، منها:

١ - سلوك وحالات الحالم في الحلم أي ما يقوم به من أدوار.

٢ - ما يكون في الحلم من شخصيات وأنماط هذه الشخصيات وما يصدر منها، وتفاعلاتها مع الحالم والأدوار المنوطة بها.

٣ - التفاعلات المختلفة بين هذه الشخصيات بعضها ببعض.

٤ - المشهد الحلمي.

٥ - النقلات بين أجزاء الحلم.

٦ - نتيجة الحلم أو الخاتمة فيه.

وينبغي أن ننبّه إلى أن الغاية من تفسير كل حلم ليست هي معرفة الحلم ولكنها معرفة الحالم.

فما هو نوع هذه التصورات الحلمية التي نتحدث عنها؟

لربما تغرينا الأحوال الحلمية إلى أن نقول إن الحلم يمكن أن يضم كل أنواع التصورات الذهنية، إلا أن ذلك ليس صحيحاً تماماً، فلم يحدث أن حلم أحد بقضايا سياسية أو اقتصادية لا صلة لها به وليس لها مردود عليه، فما ليس يعنيني لا أحلم به، وحتى حلم فرعون يوسف وقد قلنا إنه حلم اقتصادي، فإنه ما كان يمكن أن يحلم به يوسف للملك، لأن يوسف ليس وظيفته الحُكم، وإنما الملك هو الذي كان لا بد أن يحلم به، لأنه مهتم بالظروف الاقتصادية والسياسية، فهو يحلم بها، وهي تعنيه، وهي من الأمور الشخصية من هذه الزاوية. وأما أن أحلم بفضيحة ريجان، أو ووترجيت، أو الحرب العراقية الإيرانية، أو مشكلة الشرق الأوسط، وأنا مثلاً موظف في وزارة الصحة وليست لي مصلحة أو علاقة شخصية بأي منها فهذا لا يكون. والأحلام تستبعد كل هذه القضايا أو الاهتمامات من مجالها. وحتى

ما يظهر في الأحلام من الشخصيات المهمة أو المرموقة أو المعروفة هو أمر نادر الحدوث. وقد يحلم شخص بأنه سلّم على الرسول (ﷺ)، أو أن الله كلّمه، أو أنه التقى بجمال عبد الناصر، ولكن ذلك لا يحدث طوال عمره إلا مرة واحدة في الأغلب. ولا تتناول الأحلام مسائل من الفلسفة أو الرياضيات أو الكيمياء أو التجارة والمال. وكما قلنا ما لم تكن هذه المسائل لها صلة مباشرة بالشخص فلن يحلم بها، وحتى إذا حلم بها فحلمه لا يتعدى زاوية الاتصال بها وليس المسألة أو المشكلة نفسها. ولم يحدث أن استيقظ شخص فجأة ليقول: «وجدتُها وجدتُها» مثلما فعل نيوتن عندما سقطت التفاحة من الشجرة فاستوعب من سقوطها الدرس الرياضي في الجاذبية أقول: لم يحدث أن استوعبنا من الحلم درساً أو خرجنا بحلٍّ لمشكلة.

وإذن فما الذي نحلم به؟

الجواب: إننا نحلم بكل شيء شخصي له علاقة مباشرة بنا ونتصل به وجدانياً لأنه لصيق بنا. ونحلم بما يتصل بصراعاتنا اليومية الظاهرة أو الخفية، التي نعيها أو لا نعيها وتعمل عملها فينا لا شعورياً. وذلك هو ما يأتينا في الأحلام لأنه يزعجنا أو يقلقنا أو يهمنا، أي نصاب منه بالهم.

ونحن أولاً نرى في أحلامنا صوراً عن أنفسنا. فالحلم مرآة تعكس الصور الذهنية للحالم عن نفسه، أي تعكس أفكاره عن نفسه، وهو يراها فيما يقوم به من أدوار في الأحلام المختلفة، ولكل حالم مخزون أدوار Repertoire كمخزون أدوار الممثل المسرحي، ولربما يكون هذا المخزون بسيطاً جداً وليس فيه إلا عدد محدود من الأدوار، وربما يكون مخزوناً كبيراً يضم عدداً ضخماً منها.

وقد يحلم الحالم في المجموعة أو السلسلة الواحدة من الأحلام المتشابهة أو المترابطة موضوعياً أو زمانياً أنه يقوم بدور القائد، أو الرجل الإداري الحصيف، أو الرأسمالي الواسع الإمكانيات، أو السياسي المحنّك، وفي كل مرة ربما يحلم بأنه ينتهي بتأثير قوة أكبر منه وظروف تطيح به، وهنا سنجد أن هذا الحالم لديه فكرة راسخة عن نفسه بأنه عظيم، إلا أنه يشعر أن عظمته أو سلطته

أو قوته من أي نوع لن تستمر للأبد، وأن مآلها للزوال بتأثير قوى أو ظروف أكبر منه. وهذا حلم نمطي عن القوة التي تستحيل إلى ضعف:

حلمت أني أجلس وأمامي كل ثروتي، والناس تدخل فرادى تحاول أن تسطو عليها، وأنا أذود عما أملك وأطاردهم الواحد بعد الآخر، إلا أنهم دخلوا جميعاً مرة واحدة، وأعملوا النهب في الحجرة كلها وأنا كالعاجز لا أستطيع لهم دفعاً وهم بهذه الكثرة وقد تكالبوا جميعاً عليّ، فأخذت أبكي وارتميت على الأرض لا حول لي ولا قوّة.

وهذا الحالم إنسان يتراوحه الضعف والقوة، وتصوراته عن نفسه متناقضة، وتغلب فيها تصورات الضعف على تصورات القوة.

ولربما لا يوجد مجال يمكن أن يقدّم لنا تصور الشخص عن نفسه بمثل هذا الوضوح كالأحلام، ولربما كان أوعى قول في الأحلام هو هذا القول الحكيم لإمرسون: إن الحكيم هو من يستقرئ أحلامه ليعرف نفسه.

ونحن ثانياً نرى في أحلامنا صوراً للآخرين، وهي تكشف لنا ما نفكّر فيه عن أمهاتنا وآبائنا، واخواتنا وأطفالنا، ومختلف أنواع الناس من حولنا. وهذه التصورات الحلمية تكون عنهم في شكل أدوار تناط بهم في الأحلام، فإذا كان الحالم يرى في الواقع أن أباه إنسان متزمت، صعب، شديد المراس، آمر، فإنه سيراه في أحلامه يمثل أدواراً تتفق مع ما يراه فيه، وإذا كان يرى في الواقع أن أمه إنسانة صبورة تتحمل الكثير من أجل أولادها فإنه سيراها في الحلم أيضاً في أدوار تثبت هذه النظرة أو الفكرة التي لديه عن أمه. وكثيراً ما يشكو الشباب من أحلام تأتيهم وفيها الآخرون يعتدون عليهم وينالهم منهم الأذى، وذلك تصوير لواقع الحال حيث تكثر المشاجرات والمساجلات بين الشبان في أعمارهم الباكرة. وتقل الأحلام التي يتودّدون فيها لبعضهم ويبدون لطفاً وأدباً، وذلك لأن المنافسة والمجاهدة هي الأكثر شيوعاً عند الشباب. وأيضاً يحلم النساء بالرجال في أدوار المعتدين والغاصبين، ولو أن هناك أحلاماً غير ذلك فيها تصورات أخرى عن الرجال

بخلاف أنهم على ما سبق. وعموماً فإن الحالم في الأغلب لا يحلم بالشخص الآخر في دور واحد، وقد يحلم به في أحلام متوالية في أدوار عدة أو تصورات مختلفة وإن كانت، لو ترجمناها إلى أصولها الفكرية، تستقي من مصدر واحد هو الفكرة التي لدينا عن هذا الشخص أو ذاك، والتي تظهر وقد تدثّرت بمختلف الثياب في مختلف الأدوار، فإذا نزعنا عنها ثياب الدور لظهرت الفكرة الوحيدة التي لدينا عن الشخص. وهذه التصورات تشكل معاً إذن نسقاً System واحداً لأنها في جوهرها واحدة وإن تعدّدت شكلاً، ومهمة تحليل الأحلام أن نكشف عن هذا الفحوى أو الفكرة الواحدة التي خلف النسق الواحد من التصورات المختلفة.

ونحن ثالثاً نرى في أحلامنا صوراً للعالَم، والعالَم الذي نقصد إليه هو البيئة الكلية للحالم، وهي كل ما ليس من نفسه. ونحن في الشعر مثلاً قد ننفخ في الأشياء من خيالنا حتى لتكون كأنها أشخاص تفكر وتشعر وتنفعل، فنقول مثلاً إن الطبيعة قاسية، أو كان البحر رحيماً، أو عطفت السماء على أحوالنا، أو دثّرنا الليل بردائه، أو تنفّس الصبح، وذلك كله بحسب المزاج النفسي للشاعر وما يكون لديه من تصورات عن الأشياء. وهو يطرح في تصوراته أفكاره عنها ويجسّدها، وذلك ما يحدث أيضاً في الأحلام، فالحالة المزاجية قد تتجسد في الحلم باللونين الأسود والأبيض، أو قد تصبغه بطيف من الألوان، والطبيعة قد تظهر في الحلم مؤاتية أو تكون ثائرة أو غاضبة إلخ.

ونحن نرى رابعاً في أحلامنا صوراً للمحظورات وللعقوبات وللدوافع، وتمتلئ الأحلام بالأحداث التي غايتها أن تشبع ما يكون لدينا من دوافع مختلفة، وخاصة ما كان يتعلق منها بالجنس والعدوان، والله سبحانه وتعالى قد جعل هذين الدافعين أقوى الدوافع فينا وربط بينهما برباط متين، فالجنس لازم لاستمرار الحياة، والله سبحانه وتعالى زيّن لنا الجنس وجعله من المحاور الكبرى التي ينبني عليها السلوك، وكذلك العدوان لأننا بالقدرة عليه ندفع عن أنفسنا، وما يبنيه الجنس يحميه العدوان، غير أن هذين الدافعين كانا أيضاً من أكثر الدوافع

إساءة للاستخدام، ولذلك كان التقنين الشديد من قبل المجتمعات لمنصرفاتهما، وأي انحراف في السلوك الجنسي غير مقبول اجتماعياً، والعدوان غير مباح بشكله الصريح إلا في الحروب. وتأتي الأحلام وفيها الكثير من الجنس، والكثير من وجوه العدوان. ولم يكن غريباً إذن أن يقول فرويد في باب الرموز في الأحلام «كلما زاد اشتغالنا بحل مشكلة الأحلام زاد استعدادنا للتسليم بأن غالبية أحلام الراشدين تعالج مادة جنسية وتعرب عن رغبات شهوية :Freud) The Interpretation of Dreams). وانتهى فرويد إلى أن الأحلام تحقق الرغبات التي لم تتحقق في اليقظة والتي تطلب الإشباع، ويتم هذا التحقّق أو الإشباع بطريقة غير مباشرة أو مباشرة. ويروي فرويد أمثلة لذلك فقد قال له صديق يوماً «سألتني زوجتي أن أخبرك أنها حلمت بالأمس أن الحيض قد جاءها»، ويعلّق فرويد أن هذه الزوجة الشابة إذ تحلم بأن الحيض قد جاءها معناه بالمقلوب أن الحيض قد انقطع عندها أي أنها قد حملت، وكأن الحلم كان طريقتها الماهرة لكي تنبئ عن حملها. وهناك هذا المثل أيضاً لفرويد فقد كتب إليه صديق أن زوجته قد حلمت بأنها تلحظ بقعاً من اللبن على صدارها، والحلم ينبئ بالحمل وكان هذا الحمل هو حملها الثاني، والأم تريد أن تقول في الحلم إنها تأمل أن يدر صدرها لبناً أكثر لوليدها الثاني، عما كان يدرّه لوليدها الأول. ولعله لهذا السبب ذهب فرويد إلى القول إن لب الأحلام هو أنها تحقّق الرغبات، وأن هدف تحليل الأحلام هو الكشف عن الرغبة أو الرغبات التي يحقّقها الحلم، غير أننا نزيد على ما قاله فرويد أن الحلم لا يقول لنا فقط عن أن هناك رغبة تريد أن تتحقق، ولكنه يكشف عن تصورات الحالم لدوافعه ورغباته، وطالما أن أغلب الأحلام تدور حول الجنس والعدوان فإنها تقريباً واحدة عند الجميع بهذا المعنى، إلا أن الأحلام تختلف من شخص لآخر باختلاف تصوراته لهذه الدوافع، وما يعنينا عند تحليل الحلم هو أن نكشف عن هذه التصورات فنتبين الدوافع إليها، ونحن جميعاً نحب ونشتهي جنسياً، ونحلم أحلاماً جنسية، ولكن اعتبارات الجنس

تختلف عند كل واحد منا، فلربما نعدّ الجنس نعمة من الله، وربما نعتبره نقمة، وربما نسلكه في عداد ما هو نجس، وربما الجنس عندنا شهوة حيوانية، وربما هو مسألة فسيولوجية محضة بهدف الإنسال والتكاثر، وقد يكون الجنس من أرق مجالات النشاط الإنساني، فيه الحنان واللطف والحب، وقد يلهمنا الجنس التضحية من أجل من نحب، وقد يدفعنا إلى أخس السلوكيات وتقوم بسببه الحروب، ولنذكر أن الكوميديا الإلهية ألهمها الحب، وأن حرب طروادة اشتعلت بسبب الحب. والكثير من الأحلام الجنسية التي تنتهي بالاحتلام الجنس فيها عملية بيولوجية محضة كالتبول، مثل هذا الحلم:

- حلمت أني نهضت من سريري وتوجهت إلى الحمام، وفتحت الحنفية فلم ينزل ماء، وحاولت مراراً بدون فائدة، فقررت أن أستدعي السبّاك، ثم فُتح الباب ودخل السبّاك وتأملته فوجدته لدهشتي شابة. واستغربت أن تعمل النساء في السباكة، وتهكمتُ على ذلك ولكنها لم تبال، وتوجهت إلى الحنفية وأخرجت أشياء من حقيبتها وجرّبتها في الحنفية، ثم فتحتها فنزل الماء، واحتلمت.

وتكشف الأحلام عن تصورات الحالم للعراقيل التي تقف دون تحقيق رغباته أو إشباع دوافعه. وهذه العراقيل كثيراً ما يكون مصدرها داخلياً، أي يكون السبب فيها ضميره، فيرى الحالم أن الحوائط تقوم بينه وبين ما يريد، وقد يجد الأبواب مغلقة، وقد يحاول أن يسير بسيارته ولكن الفرامل تمنعه، أو قد يمنعه ظهور شخصية تمثل السلطة كأن يكون الأب أو ناظر المدرسة أو مدير الشركة إلخ، فإذا أشبع حاجته في الحلم وتحققت به رغبته فإنه من المحتمل أن يحلم في الوقت نفسه بعقاب ينزل به نتيجة ذلك، ولربما يكون العقاب مباشراً كأن يضربه أحد الناس، أو تحل به كارثة فتنقلب به السيارة أو يصطدم بشيء. ونحتاج دائماً إلى أن يرى المفسر في أمر العقاب ووسيلته، والعقبات التي قد تحول بين الحالم وما يتمنى، ليحلل تصورات الحالم وينفذ إلى طبيعة الأنا الأعلى عنده. ولكل منا أنساقه الحلمية التي

تكون بها تصوراته لهذه الأمور، ومع أنها أنساق لا تتصل بالأنا وسيكولوجيته وإنما نستقي من الأنا الأعلى إلا أنها على أي الأحوال تشكل الأيديولوجية الأخلاقية للحالم.

وتقدم الأحلام خامساً تصوراتنا للمشاكل والصراعات، ولعل أهم ما يمكن أن تزودنا به الأحلام من معلومات هي تلك المتعلقة بما نعانيه من أزمات، والأزمات كالحب والعنف كلنا نخبرها، ولكن في الأحلام تبين الاختلافات بين الناس فيما يتصورونه لمشاكلهم. والحلم يكشف داخليات المشاكل دون مواربة، ويلقي الضوء على الجانب الشخصي جداً للمشاكل، وما يقدمه من تصورات هو طرح تجسيدي لها يختلف عما يمكن أن نقرأه عنها من تقارير في اليقظة. والصورة أبلغ في تعبيرها من الكتابة فإن الإطلاع على ما نتصوره داخلياً للمشكلة ضروري لفهم تصرفات الإنسان. ومن الممكن أن نرسم هيكلاً تخطيطياً لصراعاتنا بتحليل جملة أحلام أو مجموعة منها لنفس الحالم. ومعرفتنا لتصورات الشخص الحلمية تساعد الأخصائي النفسي على فهم الشخص ومن ثم التنبؤ بسلوكه في المستقبل، كما انها تساعد المحلل النفسي على السيطرة على سلوك الشخص المراد السيطرة على سلوكه وينبغي أن لا نفهم من اصطلاح التصورات الحلمية أنها الأفكار التي لدينا عن الواقع وأنها أفكار تتطابق لذلك مع الواقع، فالواقع شيء وما نتصوره عنه شيء آخر، فقد تكون صورة الأب مثلاً عند الابن صورة لإنسان متزمت وقاس وعنيف في حين أن الأب ليس كذلك في الواقع طبقاً لرواية آخرين منصفين ولا مصلحة لهم في التحيّز للأب أو ضده. وبناءً عليه لا ينبغي أن تلتبس علينا التصورات التي نتحصل عليها من الأحلام بالواقع الموضوعي فنتعامل مع الناس بحسب ما نراه لهم من تصورات في أحلامنا. وليست الأحلام إلا مصدراً للمعرفة يمدّنا بالمعلومات عن واقع ليس هو الواقع الموضوعي وإنما هو واقع ذاتي، والإحاطة بهذا الواقع الذاتي تفيدنا في معرفة سلوك الناس لأن هذا الواقع الذاتي يؤثر في السلوك ويصنعه،

فإذا كان الحالم يرى أن أباه مسيطر فسيكون رد فعل هذه الرؤية تعامله مع الأب باعتباره كذلك، وإذن فهذه الأفكار الخاصة التي تدور عنها الأحلام بمثابة معارف شخصية أو ذاتية للسلوك، وهي المقدمات التي يكون السلوك نتيجة لها.
ونحب أن نؤكد هنا ما نقول به من تأثير للمعارف الذاتية على السلوك، ونحسب أن تجاهل ذلك من علماء النفس يضر بمسيرة علم النفس، ولربما يكون العامل الحاسم الدافع إلى السلوك هو هذه المعارف الشخصية وليس ما اصطلحنا على دراسته ووصفناه بأنه الدوافع الموضوعية من ملابسات الشخص أو بيئته. والناس قد يستجيبون استجابات مختلفة لأن ما لديهم من تصورات لنفس المثير ليس واحداً، وربما تتشابه تصوراتهم فيستجيبون للمؤثرات المختلفة بالطريقة نفسها. ونحن نعتقد أن لكل منا تصوراته الخاصة التي تتزامل كالأمشاج بحيث تتكون في مجموعات تتصل ببعضها البعض، فمثلاً لدينا تصوراتنا عن أفراد عائلتنا، ولربما تتصل هذه المجموعة المتشابكة مع مجموعة تصورات أخرى متشابكة تكون لنا عن نظام الحكم أو عن الدين أو عن النظام التعليمي. وتثبت الدراسات النفسية والاجتماعية على الأقليات أن أفكارهم عن الأسرة ترتبط بأفكارهم عن الحكومة والدين والاقتصاد.
ونرى أن من مهام علم النفس دراسة هذه الأنساق من الأفكار أو هذه الإيديولوجيات الخاصة ليكشف عن طريقة ترابطها وتطورها وتأثيرها في السلوك وتنظيمه والتحكم فيه، ولإماطة اللثام عن تغيرها إذا تغيرت وشروط هذا التغيير. ولكي يحقق علم النفس ذلك لا بد أن يؤلف الطرق التي يستطيع بها أن يكشف عن تصورات الناس. وعندنا طرق إستفتائية لقياس الاتجاهات والآراء بلغت شأوا عظيماً من الدقة والتطور ويمكن بها أن نتعرف على معتقدات الناس مهما كانت، ورغم القيمة الهائلة التي لهذه الطرق إلا أنها محدودة بسبب عوامل داخلية فيها، فلربما لا يجيب المقدم إليه الاستفتاء على أحد الأسئلة لأنه لا يريد أن يجيب، أو لأنه لا يعرف الجواب، أو ربما يجيب عليه إجابة لا تعبّر عن رأيه فعلاً

ويتعمد فيها أن لا يصدق، أو ربما هو يتعمد الكذب. وأيضاً فإن صياغة الاستفتاء مهمة، وأقصى ما نحصل عليه من معلومات هي معلومات عن التصورات الواعية للشخص التي تقبل التعبير عنها بالكلام. فإذا كانت هناك تصورات لاشعورية أو أنها قبل شعورية فإنه يتوجب اصطناع طرق تفيد في هذا المجال، ومن ذلك الطرق الإسقاطية وخاصة ذلك النوع الذي يطلب من المفحوص أن يعطينا قصة عن الصورة، إلا أن هذا النوع من اختبارات القصة الصورة لم يستخدم في هذا المجال للكشف عن التصورات الشخصية، وحتى إذا استعمل لهذا الغرض فإن مجموع الصور التي يمكن تقديمها للمفحوص مهما كان هذا المجموع يستحيل أن يستوفي كل تصورات الشخص. وأوجه القصور هذه في أية من الوسائل السابقة يجعل الأحلام هي الوسيلة الوحيدة المثلى في هذا المجال، فالحالم يصنع صوره الحلمية لتصوراته الذهنية، وهو دائماً يعلي التصورات الأهم ويقدمها على غيرها بعكس أي وسيلة اختبار أخرى من الوسائل الموضوعية. علاوة على أن الأحلام تكشف عن اللاشعور وتدفع ما فيه من أفكار أو رغبات أو صراعات إلى السطح في شكل الصور الحلمية. وهذه التصورات المختزنة في اللاشعور هي تصورات لأشياء جرت للحالم في الماضي البعيد - في الطفولة - ومن الصعب أن تطفو إلى سطح الشعور إلا في الأحلام. ودفعها إلى السطح يأتي في الأحلام عفوياً. وإذن فالأحلام هي أنسب وأفضل ما يمكن أن تكون به دراسة انساق الأفكار أو التصورات التي لكل شخص، وهذه الدراسة أو المعرفة تلزم للإحاطة بسلوك الناس وفهم الدوافع إليه. فكيف يكون ذلك؟ سنحاول في الحلم التالي أن نستخدم المنهج السابق لتحليله، وصاحب هذا الحلم من الشباب:

- حلمت أني في المدرسة أقف قبالة السبورة وأحاول أن أحل مسألة رياضة دون جدوى، وكدت أضع الطباشير يائساً، وإذا بفتاة تتقدم نحوي وتأخذ بيدي وتدور بي، وكانت هناك موسيقى

رقيقة إلا أنها أحياناً تسرع وأحياناً تبطئ فتكون نشازاً، إلا أني كنت منسجماً تماماً مع الفتاة، وكانت رائعة. وعندما توقفت الموسيقى وجدت أني وهي في الحمام نأخذ حماماً بملابسنا، وحاولت أن أقنعها أن تخلع ملابسها وغمزت لها بعيني، ولم أكن من قبل قد ارتكبت أي فعل من أفعال الزنا، ف.قلت لها ذلك وضحكنا وكنا نتراشق برذاذ الماء. ثم رأيت نفسي خارج المدرسة، والدنيا ليل والنوافذ من حولي مضاءة، وهناك حفلة صاخبة قائمة على قدم وساق. وأحسست بالوحدة، وأردت أن أدخل المدرسة ولكن شيئاً كان يشدني بعيداً، ثم سمعت الموذن يوذن للصلاة.

في هذا الحلم نرى الحالم في البداية يحاول أن يحل مسألة، وصورته عن نفسه أنه طالب مُجِدّ ولكن المواد التي يدرسها صعبة عليه. وتأتي الفتاة وتمسك بيده وتدور به، والفتاة هي التي تفعل ذلك، والمبادأة بيدها فهي الغاوية وهو الضحية، وهي التي تصرفه عن دراسته فيترك النشاط الفكري الذي كان يمارسه والذي لم يكن مؤهلاً له ذاتياً إلى نشاط آخر فيه الفتاة والموسيقى والدنيا من حوله غارقة في الملذات والحفلات الصاخبة، ويستفيق من الفرجة على صوت المؤذن يدعوه للفضيلة والواجب، وكأن المؤذن هو تصوره للأخلاق، وهو تصور ديني كما نرى.

ويكشف الحلم عن نسقين من الأفكار يتعارضان، أحدهما النسق الذي يشتمل على تصور الحالم لنفسه كإنسان يتعلم ويجهد أن يعرف، والآخر النسق الذي فيه تصوره لنفسه شخصياً يطلب الملذات. والتصوران منفصلان كلاهما يلغي الآخر، فهو لا يستطيع أن يعيش كالناس غارقاً في الملذات، فإذا حاول أن يرتكب الخطأ فالواجب والأخلاق والدين يدعونه دونه، وكأن الشاب لديه تصور عن نفسه أنه غير كفوء للمذاكرة، وأيضاً لأن يعيش حياة شهوانية. ونرى من الحلم أن الجنس في ذاته لا يعني شيئاً بالنسبة إليه، ولكن تصوره للجنس هو الذي يجعل إتيانه له محرماً.

وتُكمل أحلام أخرى الصورة العامة للشاب، ففي حلم ثانٍ يمارس الجماع فعلاً ولكن ذلك لأن الفتاة جهدت أن

توقعه في الخطأ، ويعني ذلك أن هذا الفتى يمكن أن يتنازل عن مبادئه إذا وقع تحت الضغوط. وهو يبدي الندم على فعله ويأسف لأنه خضع لامرأة لعوب، وكأنه يريد أن يقول إنه كان الأولى به أن تكون علاقته بفتاة شريفة، فكأن النساء عنده صنفان: فهن إما المرأة اللعوب أو الفتاة الشريفة. وهو في حلم ثالث يمزج العمل بالجنس وتلتبس تصوراته الخاصة الأخلاقية باللاأخلاقية:

- حلمت أني أذاكر مع زميلة في بيتها وكنا نجلس على سريرها، فكلما ثارت مشكلة علمية تحول نقاشنا لها إلى ملاعبة، ومع كل سؤال علمي تكون ملاطفة جديدة، غير أني لم أزد إطلاقاً على التقبيل.

الباب العاشر
«أحلام العنف»

لقد كان حديثنا حتى الآن عن الأحلام الجنسية، والكثير من أحلامنا جنسي الطابع فعلاً، لكن الجنس ليس وحده محور الأحلام، فلئن كان الدافع الجنسي دافعاً أساسياً في الإنسان فإن الدافع الثاني هو العدوان. والناس يخشون أكثر الجنس إذا انفلت أمره ولذلك كانت القيود والأوامر والزواجر والنواهي بخصوصه. وأيضاً فإن الناس يكرهون العدوان ويبغضون العنف ويفرضون أنواع العقاب على من يمارسهما. ولقد سبق أن قلنا إن الجنس والعدوان من نعم الله سبحانه وتعالى علينا، فلكي تستمر الحياة لا بد من الجنس، ولكي يكون إعمار الدنيا لا بد من العدوان، فالنحّات يعتدي على الحجر ليصوغه تمثالاً، والمهندس يستغل العدوان عنده ليدمّر الجبال ويصنع نفقاً فيها، والجندي يدفع عن وطنه بالعدوان، والأب عن بيته. وهم جميعاً يستخدمون العدوان لأنه فيهم وفي طبيعة تكوينهم.

والجنس لا بد من تنظيمه وإلا استحال فوضى اجتماعية، والعدوان ينبغي تقنينه وإلا نزل القوي على الضعيف. وتتوجه التربية إلى التسامي بالجنس والعدوان وصرفهما في منصرفات مشروعة تفيد الفرد والأسرة والمجتمع. ويمارس الناس مضطرين القمع والكبت لهذين الدافعين الأساسيين، فتكون الأحلام من ثم منصرفاً لما نكبته أو نقمعه منهما في اليقظة. وإننا لنتأمل ما يعتمل فينا في النهار من رغبات وما تذهب إليه توهماتنا وتخيلاتنا الجنسية والعدوانية ولكننا نمسك أنفسنا عن الإفصاح عمّا يجيش داخلنا، وتظل العواطف مع ذلك في بواطننا تعمل عملها وتفور وتغلي، فإذا جنّ الليل واضطجعنا لننام وخفّت رقابتنا على أنفسنا ظهر كل ما أفلحنا في قمعه أو كبته إلى السطح من الأعماق، ومسرحته الأحلام مشاهد وشخصيات وحوادث، ومن ثم كان الكثير من أحلامنا عدوانياً أو له طابع العنف، طالما أن الكثير مما يواجهنا في الحياة قد يثير حفيظتنا ونغضب له أو نثور، ونود لو نطلق لغضبنا العنان ونعمل في الأشياء أيدينا أو حتى

أسناننا، وقد يتراءى لنا أن نقتل أو ندمر. وقد يكون ما يثيرنا لا يثير غيرنا وذلك لأننا لا نثور للفعل نفسه ولكن ثورتنا تكون لما نتصوره عن هذا الفعل، فالمثير هو ما يتحصل عندنا من انطباع.

والموقف العدواني له مكونات ثلاثة رئيسية، وهي الشخص الذي يقوم بالعدوان ونطلق عليه اسم المعتديAggressor، والشخص الذي يتوجّه إليه العدوان ونطلق عليه اسم الضحية، ثم هناك فعل العدوان نفسه. وتناولت العديد من الدراسات الأحلام من هذه الزاوية، وتبين أن العنف في الأحلام يأخذ إما شكل عدوان مادي أو عدوان بالكلام أو أنه فيه الاثنان. والقتل نادر في الأحلام، وكذلك السرقة، وتخريب الممتلكات، والتمرد. والعدوان في أحلام الذكور العنيفة مادي أو بدني، بينما أحلام الإناث العدوان فيها بالكلام. والذكور أعنف من الإناث في أحلامهم، ويكثر إتيانهم للعنف، ويتمشى ذلك مع القول المأثور أن الذكور أعنف عموماً من الإناث سواء بتأثير من تكوينهم العضلي والعظمي واتجاهاتهم الطبيعية أو المتعلمة أو بتأثير البيئة والتربية والثقافة.

وقد نتساءل عمّن يقع عليه أكثر العدوان سواء من الذكور أو الإناث؟ والجواب أنه أكثر ما يتوجّه إلى الحالم نفسه فهو في الغالب الضحية، وسنعرف أن من الحيل المتبعة في الأحلام حيلة القلب أو العكس، فبدلاً من أن يعترف الحالم بأنه يعتدي على الناس فإنه يصور نفسه أنه كثير الأعداء، يتربصون به الدوائر لأنه أخطأ في حقّهم فطلب أن يؤكد ذاته وتكون له نفسه، وأن لا يكون لأحد سلطان عليه، أو لأنهم يغارون منه لأنه متميز كما يرى بينما هم عاديون.

والذَّكَر عندما يحلم أحلاماً عنيفة يتلقى الاعتداء عليه من ذكور مثله غالباً، وكثيراً ما يكونون أكبر سناً، والكبير السن في حلم الذكور غالباً ما يكون الوالد، فإذا كان الطرف الآخر في الحلم في سن الحالم فالعدوان يتبادله الطرفان، ولا يكون الحالم في دور الضحية كما في الأحلام التي يكون الطرف الآخر أكبر منه سناً. ومثل ذلك في أحلام الإناث مع اختلاف بسيط، فأحلام الإناث فيها

الطرف الآخر قد يكون أنثى وقد يكون ذكراً، والأنثى كبيرة السن تعني الأم، والبنت تكون الضحية، بينما إذا كانت الأنثى في سن الحالمة فالعدوان يتبادلاه على قدم المساواة. والأنثى في الحلم قد تحلم بأن العالَم كله ضدها ذكوراً وإناثاً، بينما الذكر لا يتلقى العدوان إلا من الذكور. ومن هذه الزاوية تعاني الإناث في أحلامهن حيث الجميع معتدون إناثاً وذكوراً.

وقد يحلم الناس بالأغراب، ونحن نميل إلى أن ننسب العدوان إلى الأغراب أكثر مما ننسبه إلى الأهل أو الأصدقاء أو حتى المعارف، ويتوجه عدوان الحالم إلى الغريب ولا يجد تثريباً في ذلك طالما أنه غريب، ولا إثم على أن يتشاجر الحالم مع الغريب. وكثيراً ما يمثل الغريب جوانب من شخصية الحالم غريبة عليه، وأحياناً يرمز إلى أناس يعرفهم، ومن ثم فالشجار مع الغريب قد يكون في الحقيقة شجاراً مع النفس أو مع الأهل أو الأصدقاء.

ويتفاوت العنف في الأحلام، فبعض الناس يحلمون دائماً بأحلام عنيفة، والبعض قد لا يحلم بها، والبعض قد يكون العنف فيها عدواناً عليه، والبعض قد تكون أحلامه العنيفة عدواناً على الآخرين، وبعضهم العنف من أحلامهم مجرد تقطيبة حاجبين أو عبوس وجه، والبعض يتمثلون العنف ضرباً ولكماً. ويختلف الناس فيما بينهم في مقدار العنف في أحلامهم، والمدى الذي يصل إليه العنف عندهم سواء كان موجهاً إليهم أو يمارسونه هم أنفسهم على الآخرين. وإليك هذين المثلين من أحلام شخصين من البيئة والمستوى الثقافي نفسه وينتميان إلى أسرتين متشابهتين تقريباً في كل الظروف ويدرسان في الكلية نفسها، ولنرمز للأول بالرمز «س» وللثاني بالرمز «ص». وفي عدد من أحلام «س» بلغ عشرة لم يكن هناك عنف على الإطلاق، وكانت كل أحلامه مبهجة ولطيفة من هذا النوع:

- كنت مع فتاتي نسير في حديقة، وكانت مهمومة وتحسب أن أهلها صاروا يعلمون بعلاقتها معي، ويبدو أن حالتها انعكست على الجو فكانت الدنيا غائمة والهواء به لسعة، ولكني سارعت فقلت لها لماذا كل هذا الحزن. سأسوس المسألة

معهم وسترين، وملت عليها وقبلتها طويلاً، وفجأة ارتفع الغمام، وأشرقت الشمس، وشاع الدفء، وابتسمت ثم ضحكت، وضحكت معها.

وكما نرى فاتجاهات «س» سليمة، ويميل إلى المهادنة وإرضاء الناس، وحل مشاكله بالتفاهم، ومن يعرفه يسعد ولا يعرف الحزن.

وأما «ص» فعلى العكس تماماً فهو مشاكس ونكد، ولا يحلم بالحب، وهو إما معتدٍ أثيم أو معتدَى عليه وضحية، والجميع ضده أطفال وشيوخ وشبان ونساء، وهو يتشاجر مع طوب الأرض ولأسباب تافهة، وعنده أن الناس إما سمك ضعيف أو حيتان وغيلان، والمثل الذي يردّده دائماً «اتغدّى بعدوِك قبل أن يتعشى بك». وإذا خلت أحلامه من العدوان فهناك العنف، ويتمثل في حوادث تقع له أو لمعارفه، أو انه مجرد أن يرى جنازة في الحلم أو طائرة تسقط. وتحليل أحلام «ص» تبين أنه يعاني من صراعات داخلية هائلة بين شهواته وبين ضميره. ولقد تمثلت هذه الصراعات في حلم من أحلامه، فقد رأى نفسه في الكلية وهناك مظاهرة، وكانت هناك جماعتان، الأولى أفرادها ملتحون ويبدو أنهم من الجماعات الإسلامية، والثانية كان واضحاً أن أفرادها أفضل في لباسهم وأقوى في أجسامهم، والجميع يتراشقون بالطوب. وقوات الشرطة تقف غير بعيد بالعصي والخوذات على رؤوسهم، واحتار إلى أي فئة ينضم، على أنه كانت هوية الجماعة الأولى واضحة فهم من الإسلاميين المتزمتين، بينما الثانية تعلن عنهم ملابسهم وأجسامهم، وأنهم أناس يعيشون في بحبوحة وترف. وهكذا كان يرى العالم الكبير خارج الجامعة رؤيته للعالم الصغير داخل الجامعة، فئات متناجزة ومتناحرة وحرباً تشمل الجميع كأنها حرب أهلية.

وإذن فالشخصية «س» نقيض الشخصية «ص»، والشخصية «س» بميله إلى المهادنة يتصرف كالإناث، وهو فعلاً يتمتع برقة كالإناث، وتعبيراته منتقاة ولباسه فيه ذوق، وبه لمسات فنية فهو يحب الرسم ويعشق الطبيعة ويهوى أن يطلق شعره ويسرحه كالبنات، وأما «ص»

فهو جلف ومتوحش سواء في خلقه أو لباسه أو طريقته في التعبير أو حتى عباراته، ويهوى الأفلام البوليسية وأفلام الحروب، ولم يكن في أحلامه وعددها مماثل لأحلام «س» سوى حلم واحد رأى فيه نفسه كأنه يطير سابحاً في الهواء مبتعداً في الفضاء، ولم يكن له تفسير سوى أنه في هذا الحلم يتمنى لو يموت فتنتهي متاعبه، وأحلام الطيران من هذا النوع تعبير عن العجز عن التعامل مع ظروفه ورغبته في أن يهرب منها، بل ومن الحياة كلها، ولكن هيهات فلا منجاة له حتى بالهرب، لأن الحرب الأهلية ليست بين جماعتين أو ثلاث جماعات في الخارج ولكنها نفسه، حرب داخل وبين ضميره (الجماعة الإسلامية) ونوازعه (الجماعة المقابلة) وأسرته (المتمثلة في الشرطة).

والعنف في الأحلام قد يأتي صريحاً كالشجار والسباب والضرب وما أشبه، وقد يكون حوادث عنيفة تجري للحالم أو لإحدى الشخصيات في الحلم. ولا يحدث كثيراً أن يكون هناك موت أو مرض خطير أو مصائب، والغالب في الأحلام وخاصة ما تعلق منها بالحالم نفسه أن تكون الأحداث العنيفة من النوع التافه، فإذا كان هناك مرض فهو مرض خفيف، وإن كانت هناك مخاطر فهي ليست مهلكة.

ولقد فسرنا الأحلام العنيفة بأنها التي يكون فيها عدوان، ولكننا قلنا إن الحوادث تعبير غير مباشر عن العدوان، والحوادث لا تشكل عدواناً في الظاهر ولكنها كذلك في الأحلام، لأن الأحلام كما سبق أن قلنا تعبير عما يجري في ذهن الحالم، ولأن الحالم يحلم فلا بد أن هناك فكرة ما في ذهنه تخرج في الحلم في صورة ما، فلو فرضنا أن شخصاً حلم أن أباه قد مات فما الذي يجعله يحلم هذا الحلم؟ هل هناك حقاً قوة خارجية ألهمته بالحلم وأنذرته بأن أباه سيموت؟ نحن لا نذهب إلى هذا الرأي، ويمثل بدلاً من ذلك إلى أن نقول إن فكرة موت الأب نبتت في ذهن الابن، والابن يكره أباه ويتمنى له الموت، وهو لا يستطيع أن يقتله بنفسه، ولكنه لو رآه يموت في حادث، أو لو سمع بموته في طائرة فإن المسؤولية لن تقع عليه وسيكون مرتاح الضمير لأنه لم يقتله بيديه، وتسجل الأحلام الكثير من

المضمون السابق، وفي أحد الأحلام حلمت زوجة بأن أسرتها كلها بما فيها زوجها وأولادها غرقوا في البحر وجرفتهم أمواجه، وبهذه الحيلة تخلّصت منهم دون أن ترتكب جرماً، وأتاحت لها الحادثة أن تستشعر الشفقة على نفسها وترثي لحالها لأنها صارت وحيدة في الدنيا. وكم يذكرنا ذلك بحال الفتى الذي قتل أباه الطبيب وأمه المذيعة في مصر منذ سنوات، بدعوى أنه كان يرثي لحالهما ويشفق عليهما ويطلب لهما الراحة من عناء العيش، أو حال الفتى الذي فعل الجرم نفسه وقتل والديه ثم طلب من القاضي الرحمة لأنه يتيم!!!

وإذن هل أحلام العنف المتمثلة في أحلام الموت هي أحلام رغبة تريد أن تتحقق؟ ألا يمكن أن تكون تعبيراً عن الخوف أكثر منها تعبيراً عن رغبة؟ ألا يمكن أن نحب أهلنا فنخاف عليهم من الموت؟ وهل نحن دائماً نكره أهلنا حتى نتمنى لهم الموت؟ إن فكرة أننا نخشى على أحبائنا من الموت فكرة بعيدة، وذلك لأننا لو فكرنا على هذا النحو فإن معنى ذلك أن فكرة الموت تتملكنا وتلاحقنا وأننا مرضى بها فيما يسمى خواف الموت، وهذا الخواف من الاضطرابات النفسية من نوع العُصاب. والموت حقيقة بسيطة، ونحن نتقبله ونتوقعه دائماً في كل حين، وفي كل شارع، وعندما نركب الطائرة أو نقود السيارة، أو نقف أمام آلة في المصنع، أو نُمسك بموسى، ولكنا نعيش مع ذلك وننسى حكاية الموت هذه، ونستمتع بحياتنا. إذن فأحلام الموت ليست لأننا نخاف على أحبائنا، وليست أيضاً لأننا نتوقع لهم الموت إذا كانوا مرضى، فالمريض الذي يموت لا نحلم قبل موته بأنه مات، لأن معنى ذلك أن قوة خارجية تطلعنا على الغيب وذلك موقف غير علمي. ولم يتبق إذن إلا أن تكون فكرة الموت فكرة منبثقة عن تفكير الحالم، وهو يحلم بأن أباه مثلاً قد مات، ويصحو من النوم متكدراً ومنزعجاً بشدة، والسبب أنه في الواقع كان يتمنى لأبيه الموت، وليس صحيحاً أن هذا الأب المريض وقد طال مرضه وأتعب من حوله حتى صاروا يتمنون له الموت ولكنهم لم يستطيعوا أن يفصحوا عن

ذلك، وإنما الصحيح أن الحالم كان يكره أباه أصلاً وكان يتمنى له الموت حتى قبل المرض، ولنقل أن تكدره وانزعاجه ليسا في الحقيقة لأنه قد ضايقه أن يموت أبوه في الحلم، ولكن لأنه قد جرؤ وأسقط رغبته الشريرة في الحلم الذي حلمه، لدرجة أنه قد يلوم نفسه متسائلاً لماذا أحلم مثل هذا الحلم الفظيع؟...

ولربما نسأل أنفسنا: لماذا لا نحلم للمريض المشرف على الموت بأنه يشفى بدلاً من أن نحلم بأنه يموت؟ والجواب أن كل شخص يحلم بما لديه من أفكار، ولو كانت فكرة تمنّي الشفاء له موجودة لتجسّدت في الحلم، ولكن الموجود هو فكرة تمني الموت. وفي الكثير من الأحلام نحلم فعلاً بأن المريض يشفى، وقد نحلم بأنه عاد إلى الحياة وبُعِث من جديد.

وقد يمكن أن نذهب في تفسير أحلام الموت مذهباً آخر بخلاف أننا نتمنى الموت لشخص ما، فلربما يعني الموتُ الموتَ الأدبي للشخص وليس الموت على الحقيقة، كأن يكون قد فعل جُرماً فنحلم بأنه مات، كقولنا في اليقظة إن فلاناً من الناس قد انتهى أمره ومات. ولربما يعني الموت أن علاقتنا بالشخص الذي نحلم بموته قد انقطعت عاطفياً، وقد نحلم به ميتاً ثم بُعِث حياً، ومعنى ذلك أنه قد كانت بيننا القطيعة وبينه ثم عادت المياه إلى مجاريها وصار منا في المنزلة التي كانت له، كهذا الحلم لفتاة أحبت بعد مدة من موت أخيها وكانت لهذا الأخ منزلة كبيرة عندها.

- حلمت بأخي يقول لي إنه يريد أن يقابل خطيبي، واني لا يمكن أن أتزوج دون أن يتعرف به. وقلت له إنك ميت فكيف تريد أن تتعرف به؟ فقال إنه لم يمت حقيقةً!!.

ويكشف تحليل الحلم أن الفتاة كانت متعلقة بأخيها، ولا تعقد أمراً دون أن تشاوره، وهي تتمنى لو كان حياً فيقضي برأيه في خطيبها، وأنها رغم موت الأخ وانقضاء مدة طويلة على ذلك فإنها ما تزال تحت تأثيره فهو الذي كان يخطط لها حياتها، والزواج حدث ضخم جعلها تحلم بأخيها في هذا الوقت بالذات لحاجتها إلى الأخ ونُصحه، وكان ارتباطها

بأخيها قوياً لم يفلح الموت وانقضاء زمن كبير بين موته والحلم في زعزعته، وهي لذلك تقول على لسان أخيها إن هذا الأخ لم يمت حقيقة، بما يعني أنه وإن كان قد مات فعلاً فإنه لم يمت بالنسبة لها.

ولربما ذهب إبن سيرين إلى شيء من هذا التفسير السالف لولا أن إبن سيرين يجعل أحلامه كلها من النوع النذيري أو التبشيري الذي يهتم بالإخبار فيها عن شيء سيحدث وذلك ما نخالفه فيه، والموت عنده قد يعني أيضاً الموت الأخلاقي، وقد يعني الموت الأدبي أو الاجتماعي، وربما الموت الديني. ونزول الموت بساحة العالم قد يعني أن تحل به مصيبة، ونذهب نحن إلى القول إن المصائب ومنها الموت عندما تنزل بالحالم أو بشخصية من شخصيات حلمه قد يكون استنزالاً منه للعقاب لنفسه كما تقول في اليقظة إني أستحق العقاب، وكذلك يفعل الحالم أحياناً وكأنه يعاقب نفسه لأنه يستشعر الذنب على أنه ارتكب فعلاً شرّاً، أو فكّر في ارتكابه، أو طاف به مجرد خاطر شرير. والجدير بالذكر أن الأشرار لا يحلمون هذا النوع من الأحلام بل يحلم به الطيبون، فهؤلاء بهم حساسية شديدة لما يفكرون فيه أو يفعلونه، ويلاحقهم الشعور بالذنب والندم باستمرار. وهذا المثل لسيدة كثيرة الأحلام بالمصائب والأمراض، وهي متزوجة وسعيدة ولكنها ترى أنها لسبب من الأسباب لا تستحق كل هذه السعادة، وتخاف من المستقبل وتحلم أحلامها تلك. وسيدة أخرى نشأت في بيت دين وتصلي كثيراً ولكنها تطاوع زوجها على الفعل الجنسي وتحس لذلك بالذنب، وتعاقب نفسها على شهوانيتها في الليل عندما تنام بأن تحلم بمثل ما سبق لدرجة أنها تنهض من نومها متعبة ومجهدة وجسمها يوجعها، مع أن المصائب التي تحلم بها تحلم بها لغيرها وليس لنفسها.

- حلمت أن زوجي كان ينام بجواري، ثم جاءني أبي الذي مات منذ زمن بعيد وابتسم لي وقال سآخذ زوجك معي أفضل. ومددت يدي أمنع ذلك وقمت من نومي مفزوعة.

والحالمة ترى أن شهوانيتها السبب فيها زوجها، وأبوها أو ضميرها يقول لها إن الأفضل لها لو أن زوجها مات، وكانت

هي تحب أباها، وهي أيضاً تحب زوجها، ولكن الحل الذي تراه أن يموت هذا الزوج برغم حبها له، ولِمَ لا وأبوها قد مات!

وهذا حلم ثانٍ لها:

- حلمت أني مدعوة لوليمة وجلست، وكانت المائدة حافلة، وأكلت كأني لم آكل في حياتي. وقلت لنفسي إني دائماً أقول كأني لم آكل في حياتي. وكنت سعيدة غاية السعادة، والبهجة في وجهي، وأخذت ورك ديك رومي وقضمت عدة قضمات وبلعت، وفجأة أحسستُ كأن عظمة دخلت زوري وأني أختنق بها، وحاولت أن أصرخ وشعرت أني سأموت ولم يكن أحد إلى جواري.

والوليمة الحافلة هي اللذة الجنسية التي تستمتع بها يومياً تقريباً مع زوجها، والرومي هو زوجها، والعظمة التي دخلت فمها تكاد تغص بها رمز جنسي للقضيب أو لفحولة زوجها، ولذتها مترعة حتى لتكاد تغص بها، وعلاقتها الحميمة بزوجها أنستها الناس، وهي تخاف أن يتركها هذا الزوج، وخوفها هو عقابها لنفسها على استمتاعها، ولو تركها فلن تجد أحداً حولها يواسيها.

وهذا الحلم لها أيضاً:

- حلمت بأني أسير أمام بيتنا وأدخل النادي المواجه لنا وأنظر من حديقة النادي على شقتنا، وكانت مظلمة ولا أحد في نوافذها وشعرت بالوحدة، ونظرت إلى كل العمارات المجاورة فوجدتها مظلمة والسواد يلفها جميعاً، وشعرت اني أريد أن أركض ولكني خفت لو أفعل ذلك أن تؤلمني ساقيَّ فأنا أشكو وجعاً بهما مستمراً وقلت لو تحركت ربما انتهي تماماً.

والركض يعني عندها أنها تريد أن لا تُسلم نفسها لشهواتها، وعندها أن الأفضل أن تجد نفسها وحدها على أن ترضخ لنزوات زوجها، وهي نزوات شريرة «سوداء» ولكن بيتها القائم عليها ليس وحده في ذلك فكل البيوت هكذا، والشهوة السوداء تلفها جميعاً، لو فعلت وهربت من بيتها أو زوجها فإنها تخشى أن تتألم، وربما قد يعني انفصالها عن زوجها نهايتها بالكلية، وهي لا تخشى في بيتها إلا عندما يأتي الليل لأنه زمن الاستسلام للشهوات! والمهم أن هذه السيدة لا تعاني من رغباتها الجنسية

ولكن من أفكارها عن الجنس، فتصوراتها نتيجة التربية المتزمتة، ونتيجة التعيّن بالأم التي كانت قوية الشخصية ومسيطرة على بيتها وأولادها، وكانت الأم تقرّب منها هذه البنت بالذات - هذه التصورات هي مرضها الحقيقي - وكما نقول إن الفضيلة ليست تمثالاً منطرحاً في الخارج نتعبّد له ولكنها تصوّر داخل أذهاننا نقيس إليه الأشياء، ويسعدنا أو يشقينا أن لا نجد ما نحب منسجماً مع تصوراتنا. واللذات البدنية، بما أنها لذات مبهجة، ولكن ما يوجع منها هو الضمير، فالجرح ليس في البدن ولكنه في الضمير الذي ينكأ جرحه كلما أتينا ما فيه لذة للجسم، ويأتينا منه الألم في الضمير.

ومن العلماء من يقول إن الحلم لا يعرف الالتزامات الخلقية، وانه لا مكان للضمير فيه، واننا في الأحلام قد نرتكب أبشع الجرائم ونسرق ونقتل ونغتصب دون أن يلحقنا من ذلك ندم، وهذا صحيح إلى حد ما، لأنه لا يستشعر الندم، ولا تزوره المصائب في الأحلام كعقاب على فعل أو خاطرة آثمة في اليقظة إلا من له ضمير. والأحلام مرايا النفوس حتى لقد قال قائل: خبِّرني بأحلامك أخبرك ما دخيلتك. ولا يهم ما نظهر عليه في اليقظة فقد نملك أنفسنا سلوكياً ونزني بخواطرنا، فإذا نمنا وجاءت الأحلام إنطلقت مستدعيات الخواطر واتصلت دون التفات إلى العقل أو الضمير أو الذوق أو الحكم الخلقي أو الديني، وكما قيل إن مَلَكة الحُكم تضعف حتى التهافت في الأحلام. ونحن نسلك في الأحلام ونتحدث بما يتفق وطباعنا، فالفاضل يبقى فاضلاً في أحلامه، والأثيم لا يرى سوى صور سبق أن خطرت له في يقظته. وفي الأحلام نرى أنفسنا على ما نحن عليه في الحقيقة، والفاضل إن فكر أو ارتكب إثماً نزل به العقاب في الحلم لأنه يستفظع الإثم في اليقظة. ولم يخطئ الإمبراطور الروماني الذي أمر بموت أحد أفراد حاشيته لأنه رأى في المنام أنه يطيح برأس الامبراطور، وبرّر الامبراطور قوله بأن مثل هذه الرؤيا لا تأتي إلا مَن كانت له في يقظته مثل هذه الخواطر، إلا أن الامبراطور من جهة أخرى ربما كان خطؤه أنه لا يستطيع تفسير الأحلام،

وربما كان الامبراطور المعني ليس هذا الامبراطور على الحقيقة بل أبو الحالم نفسه!!

والأحلام إذن قد تأتينا عنيفة أو جنسية، بحسب ما تكون السيطرة على الحالم من تصورات تتوارد كنشاط نفسي لاإرادي تُستثار باندفاعات باطنة، فينكشف الانسان لنفسه ويكون كالعاجز تماماً أمام انفعالاته التي قد ينهانا عنها وهو متيقظ الضمير ولا يبدي الخوف من شيء. والذي ينكشف في الحلم على الأخص هو الإنسان الغريزي كما يقول البعض، فالإنسان حين يحلم يعود إلى الفطرة إن جاز التعبير، وكلما قلّ تأصل الأفكار المكتسبة في نفسه زاد احتفاظ النوازع المخالفة لها بسلطانها عليه في الحلم (فرويد: تفسير الأحلام باب الحاسة الخلقية في الحلم).

والعنف وثيق الصلة بالجنس، وهكذا كانا في الأدوار الأولى من التخلق عند الجنين، فلم تكن النوازع الجنسية والعدوانية قد اكتمل انفصالهما، ولذلك فالحلم العدواني يحمل في طياته غالباً جنساً، والحلم الجنسي قد يكون العدوان أو العنف من مكوناته الأصيلة. والتبادل الذي يحدث بين الجنس والعنف هو الذي يصنع محتوى الحلم الكامن ويحتاج إلى التفسير. وتذهب نظرية التحليل النفسي إلى القول بأن العدوان يطبع الجهاز النفسي جميعه، فهو موجود في اللاشعور ويحركه كلما نام المرء أو غفل الرقيب عنده، والعدوان يحرك دفاعات الأنا، وهو الذي يبدو على السطح كلما مارس الأنا الأعلى أو الضمير وظائفه. وتفسير الأحلام هو الذي يكشف عن الصور في مخزون العقل نتيجة الأطوار الأولى من النمو النفسي، فقد تأتينا أحلام عنيفة فيها الغرق مثلاً أو الفيضانات، وقد تكون أحلاماً بحرائق، وذلك من مخلفات الأطوار الاحليلية والقضيبية التي يكون فيها التبول وتنشأ الصور أو الأفكار عنه وتبقى من مخزون التصورات أو الأفكار القديمة في الذهن. وربما يكون أصل صور العض والبلع أو الالتهام والتسمم من مخلفات المرحلة الفموية، وكذلك ربما ترجع أفكار التلوث وتصورات الوسخ والتبقع وغيرها من مخلفات الطور الشرجي. وقد ترجع أحلام العنف مع

الأبوين أو كبار السن إلى تصورات من المرحلة الأوديبية. وقد تقوم التصورات للعلاقة بين الجنسين على العلاقة بين النوازع الجنسية والعدوانية في أي من المراحل السابقة، بحيث تأتي أحلام الاغتصاب وأحلام أعمال التشويه أو الثلم بإحدى الضحايا كنتيجة لها. ويحول عمل الحلم Dream work العدوان ويغير منه كماً وكيفاً، ويجعل المعتدي ضحية أو يصنع منه متفرجاً بريئاً، وقد يصنع من العنف سَكينة، ومن الحقد محبة ورقة. وما يزال التحريف يعمل عمله في الحلم مخفياً الأفكار العدوانية والمشاعر العدائية خلف قناع من البراءة. ولربما يكون الحلم الظاهر الذي فيه المطاردة والهجوم والتعدّي مضللاً للغاية لو أخذناه على وضعه وقوّمناه كما يبدو، ولربما يشتمل المحتوى الباطن للحلم على أشياء تذهلنا للتناقض بينها وبين المحتوى الظاهر. وقد يحدث أن تتخفى الكراهية خلف قناع الحب، أو يتخفى الحب خلف مظاهر الكراهية. ومرة أخرى لا ينبغي أن يغيب عن بالنا للحظة واحدة أن الحلم له محتوى ظاهر ومحتوى باطن، وان المحتوى الظاهر يحتاج دائما إلى تأويل. ونحن كمفسرين أو محلّلين للحلم نختار التفسير الذي يتلاءم مع السياق الحلمي، فإذا توجهنا إلى عنصر من عناصر الحلم دون عنصر فإننا نضع في الاعتبار الأهمية النسبية لهذا العنصر ووزنه النسبي داخل المحتوى ككل، ونقارن بين ما هو قبل شعوري وما هو لاشعوري، وبين ما هو من الماضي وما هو من المستقبل، وبين ما هو دفاعي وما هو دافع، وبين ما هو شهوي وما هو عدواني، ونختار أكثر ما يمكن أن يكون له معنى عند الحالم ونؤكد عليه.

الباب الحادي عشر
«أحلام الصراع الخُلُقي»

شغلت مشكلة الخير والشر، والحلال والحرام، والحقّ والباطل، والجمال والقُبح، والصحيح والخطأ كل تاريخ البشرة، وكانت محور الكتب السماوية وكتابات الفلاسفة والشعراء والمسرحيين والقصاصين، ودار عليها التعليم كله، واحتوتها الحكمة، ونهض بها أفذاذ إستشعروها قوية فيهم فتوفروا عليها بحثاً ودراسة وتفكيراً ودعوة، وسُجن بسببها من سُجِن، وقُتِل مَن قُتِل، واستشهد مَن استشهد، وبدا كأنه ما كانت لتكون هناك مشكلة لو أن الإنسان كان له سلوك معيّن تلخّصه سطور قليلة سهلة الحفظ والفهم تضمنتها الوصايا العشر في التوراة، ثم كانت لها شروح في الإنجيل وطوّرها القرآن، ومع ذلك ظلت على بساطتها وبلاغتها هي نفسها الوصايا العشر أو اللاءات العشر، وظل الإنسان أيضاً في الحضيض الذي هو فيه فلا هو عمل بالوصايا ولا هو ارتفع من وهدته، واستمر يهين والديه، ويقتل، ويزني، ويكذب، ويسرق، ويشهد الزور، ويحسد جاره على بيته وعلى امرأته وعلى خدمه وحشمه والنِعَم التي هو فيها. والسبب أن الانسان له غرائز أو نوازع أقواها جميعاً النزوع الجنسي والنزوع العدواني، وغرائزه أو نوازعه أقوى من كل نواة أو زواجر، وعندما تشتد به فإنه يسقط ويأثم وهو واع تماماً بما يفعل. وتتآمر عليه ظروفه والضغوط الواقعة عليه من الخارج مع نوازعه الداخلية فلا يملك إلا أن يخرج على العرف الأخلاقي. والنتيجة أنه يستشعر الذنب لما فَعَل، ويندم بعد كل فعل، ويقسم أن يصلح من نفسه، وقد يفي بقسمه، إلى أن تلح عليه غرائزه أو نوازعه من جديد وتحاصره الإغراءات، وحينئذ ينهزم أمامها ويتجاوز القواعد الأخلاقية ويعود إلى مشاعر الذنب والندم من جديد وهكذا، وكأننا يتعاورنا الليل والنهار، وكأن الإنسان يتراوح بين قطبي الشر والخير.

ونحن نستشعر الذنب عندما نصنع الشر بسبب الضمير أو الأنا الأعلى الذي يستحدث الرضى فينا فنرضى عن

أنفسنا إذا فعلنا الخير، ويعذبنا بمشاعر الذنب إذا فعلنا الشر. وعذاب الضمير هو قلق أخلاقي يكون بنا كلما هممنا بالشر. والضمير أو الأنا الأعلى هو صوت المجتمع وقد استدخلناه فينا بالتعيّن بالوالدين، فالوالدان يأمران وينهيان بحسب العُرف الأخلاقي، ونحن نستدمج أوامرهما. ويعرف الأطفال الصواب والخطأ، والخير والشر، والقبيح والجميل، والحق والباطل، من الأبوين، والأبوان يثيبان على الصواب والخير بالاستحسان والمكافأة، ويعاقبان على الخطأ والشر بالاستهجان والتأنيب والضرب أحياناً، ومن ثم يتنامى الضمير بما يستدمج من النواهي والزواجر، وتكون له أيضاً القدرة على الثواب والعقاب، وثواب الضمير هو حالة الرضا التي يستحدثها في فاعل الخير والصواب كما قلنا، وعقابه هو مشاعر الذنب.

ونحن لا نستشعر الذنب إذا فعلنا الشر فقط ولكن لمجرد التفكير فيه، والتفكير في الشر هو شر، ومن يفكر في الشر ولا يفعله قد يستشعر عذاب الضمير أكثر من الذي يفكر فيه ويفعله. فالذي يفعل الشر قد يجد المبررات لفعلته، ولكن الذي يفكر فيه لا يجد لتفكيره الشرير أي عذر، وهكذا نجد أن الخطّائين أقل معاناة لعذاب الضمير من أصحاب الضمائر المرهفة من الصالحين أو من أولياء الله.

ونحن جميعاً بلا استثناء خطّاؤون في أحلامنا، فعندما ننام تغفل رقابتنا الأخلاقية على أنفسنا فتأتينا الأفكار والتصورات في شكل أحلام نحقق فيها ما يُشبع رغبات النوازع أو الغرائز، وما لم نستطع أن نحقّقه في اليقظة، وننفّس عما قمعناه منها وما كبتناه فينا من توجهاتها. وأقوى النوازع أو الغرائز - كما سبق أن أفضنا - هي ما يلح علينا في أحلامنا بكثرة، وليس أكثر من الجنس والعدوان في هذه الأحلام. ونحن نأتي في أحلامنا بما لا نتصور أن نأتيه في اليقظة. والأحلام صور تتجسد مشاهد وشخصيات وأحداثاً لتصورات أو أفكار تحتشد في العقل، وما نحلم به كأننا نخبره في الواقع، فإذا كان شراً إستشعرنا بالذنب له، وإذا كان خيراً رضيت نفوسنا.

وما يُستحدَث فينا من مشاعر الذنب

أكثر مما نستشعر له الرضا النفسي. وما كان من المفروض أن تتحقق به الرغبات المكبوتة والنزوعات المقموعة، يصير بما يسببه لنا من عذابات نفسية كابوساً. وليس هناك ما هو أكثر شهوداً للصراع بين نوازع أو غرائز الجنس والعدوان وبين الضمير من مجال الأحلام، لأنه في الأحلام تخرج النوازع أ الغرائز تريد التحقّق والإشباع كأنها العفريت يخرج من القمقم، ويستثار الضمير. ومع الحرية في الأحلام تجول الغرائز أو النوازع وتصول، ويكون الإرهاف الأشد للضمير عما هو في اليقظة، وتكون معاناته الأكثر، والعذابات الأحد. وفي الأحلام تكون الجريمة سبباً والعقاب نتيجة أكثر مما في اليقظة، كما في هذا الحلم:

- حلمت أني قتلت شخصاً واكتشفت أن بواب عمارة مجاورة رآني أقتله فقتلته هو الآخر حتى لا يبلّغ عني. ورأيت نفسي في النيابة والحجرة التي يستجوبونني فيها كأنها المستشفى وكل الناس الذين أعرفهم رقود على أسِرّة كأنهم المرضى. وكان هناك أبي وإخوتي وأمي. وكان هناك شهود شهدوا ضدّي. وكنت آخر من استدعاه وكيل النيابة ولم يسألني السؤال المباشر هل ارتكبت الجريمتين، وكانت أسئلته بحيث يسهُل عليّ التخلّص من الجُرم. ولما انتهى من استجوابي ذهبت إلى سريري مثل الآخرين واضطجعت عليه أفكر: لماذا لم يسألني مباشرة رغم أني أنا القاتل؟ وهل سيتركني أفلت بجلدي؟ ولكن الشخصين اللذين قتلتهما - هل يذهب دمهما هدراً؟ وشعرت بفظاعة الجرم واستبد بي عذاب لم أعد أحتمله فقمت من فوري وتوجهت إلى وكيل النيابة وطلبت الكلام واعترفت واسترحت. وعدت لسريري ولكني أخذت أفكر: ماذا بشأن خطيبتي وأهلها والناس من الجيران، ماذا سيقولون عني؟ واخوتي ما الذي سيقولونه للناس وما تأثير ذلك عليهم؟ وعدتُ أتعذب. ونظرت إلى أهلي فوجدت الجميع وقد أشاحوا بوجوههم عني، وقلت: هل كنتم لا تريدونني أن أعترف؟ واستيقظتُ وكلي عرق وخوف.

والتحقيق مع الحالم كما نرى في مستشفى، ويعني ذلك أنه يرى نفسه وقد

ارتكب هذا الجُرم كأنه مريض، وتصوّره للجريمة هو تصوّر المريض، ولا مسؤولية على المريض، وعائلته كلها مرضى مثله، وذلك يبين أن فكرته عن الجريمة الاجتماعية أن المجتمع كله مسؤول عنها، ولا يعجبه هذا التصور أو هذه الفكرة، ورغم أنه يزوغ من المحقق ويهرب من المسؤولية التي يريده أهله أيضاً أن يهرب منها (الجميع مرضى) إلا أنه يعاني العذاب، ويقرّر الاعتراف ويرتاح، وعندئذ يبدأ عذاب جديد وهو وضعه كمجرم في المجتمع، والأذى الذي يلحق بأحبائه نتيجة اعترافه، وكأن الحالم يتراوحه عذابان: عذاب الضمير لما ارتكب، والمعاناة التي تستتبع تصنيفه كمجرم، ولربما يستطيع كل مرتكب لجُرم أن يحتمل عذاب الضمير لأنه معاناة داخلية، ولكنه لن يستطيع احتمال ازدراء المجتمع له (المتمثّل في إشاحة أهله بوجوههم عنه)، وهذا هو الصراع الأبدي بين القلق الذي يسببه ارتكاب الجرم (القلق الأخلاقي Moral anxiety) والقلق الذي يسببه سقوط المجرم إجتماعياً (القلق الواقعي Reality anxiety).

ويمثل الشرطي في الحلم الضمير، لأنه يجسّد القانون والنظام، ولأنه يقبض على الناس إذا أساءوا السلوك. وهذا حلم نمطي من هذا النوع:

- كنت أتحدث مع زميل وكان معي مسدس أمسكه بيدي، وكان زميلي قد ناولني إياه، وكان يضحك مني لأن شرطياً كان قادماً نحونا ولا بد أنه كان سيقبض عليّ لأني أحمل سلاحاً بدون ترخيص.

والحالم يرى في الحلم أنه سيُقبض عليه لحمله سلاحاً بدون ترخيص. والمسدس في الحلم بخلاف أنه سلاح عدواني فإنه رمز للذكورة، والحالم يشعر بالذنب لمسألتين عنده وهما نوازعه الجنسية ونوازعه العدوانية.

وهناك أحلام يرى فيها الحالم نفسه يخالف قواعد المرور ويُقبَض عليه إما للسرعة أو لكسر إشارة المرور إلخ. وترمز السيارة غالباً للقوة من أي نوع، وللفحول الجنسية، وبصفة خاصة للفورة الجنسية، ومن ثم كانت المخالفة المرورية عبارة عن تصور الحالم لإساءة السلوك جنسياً، وهو ما يجعله يحلم كعقاب له أنهم قبضوا عليه.

وقد يظهر الشرطي في الحلم بوصفه حامي الآداب وليس مَن يُنزِل العقاب بالمخالفين. وفي أمثال هذا الحلم فإن المعنى أن الحالم يستنجد بضمير ويستحثه أن يمنعه من ارتكاب عمل لا أخلاقي، كهذا الحلم لفتى:

- حلمت أن رفاقي استدرجوني معهم وخرجنا سوياً وفعلنا شيئاً لا أذكره ولكننا كنا نجري معاً وهربنا. وكنت شديد الغضب وتركتهم وتوجهت إلى الشرطة وأبلغت عنهم.

والتفسير لهذا الحلم أن الحالم غير راض عن نفسه وعما يعتمل فيه من أحاسيس جنسية ولم يكن يعجبه سلوكه، وهو يستنجد بضميره كي يخلّصه من هذا كله.

وهذا حلم مماثل لفتاة:

- كنت مع أترابي، وكنا ليلة العيد، وكان حديث قريتنا هروب سجين من أبناء القرية كان قد قُبِض عليه سياسياً. وفجأة رأينا هذا الفتى أمامنا وركضنا مذعورات وهو يطاردنا وأفلحنا أن نحبسه في إحدى الحجرات ونستدعي الشرطة.

والسجين هو تصوير الفتاة لنوازعها، وهي تشعر أنها محبوسة، وحبسها ليس لجريمة حقيقية ولكن لأسباب اجتماعية، وهي تخشى على نفسها أن تصطدم بالمجتمع إذا تمردت وتكون مطارَدة من المجتمع كهذا السجين، وهي لا تستطيع شيئاً حيال نوازعها التي تطاردها وتستنجد بضميرها.

وهذا حلم لفتى يحل فيه شرطي المطافئ محل الشرطي العادي:

- حلمت أني كنت أقف متأملاً، فجاءت سيارة المطافئ ووقفت قُبالتي، وطلب مني الشرطي أن أتوجه معه إلى مركز الشرطة لتحرير محضر عن بلاغ كاذب بحريق.

والحريق رمز للعواطف الجنسية المشبوبة، والحريق الكاذب بديل عن الإشباع الحقيقي للجنس، كأن يكون الحالم مستغرقاً في العادة السرية وهي مُنصرَف جنسي كاذب، وهو متهم بهذه التهمة، وشرطي المطافئ هنا هو الضمير الذي إن استيقظ فسيحول بينه وبين أن تستغرقه هذه العادة.

وقد يُرمَز للضمير في الأحلام بضابط الجيش، وبالمدرسين، والقضاة،

والوزراء، وكل من يمكن أن يمثل السلطة.

وهذا حلم لفتى رَمَز فيه لضميره بفرامل السيارة:

- رأيتني أقود سيارتي بسرعة وأحاول أن أوقفها دون جدوى، وكنت أعلم أنه لا نجاة لي إلا إذا ضغطت على الفرامل وعثرت عليها قدمي، وضغطت ولكن دون جدوى فقد كانت السيارة مسرعة رغم ذلك.

ورغم أن الفتى ذكر ضمن مستدعياته عن الحلم عند تحليله أنه في اليوم السابق على الحلم كان على موعد مع فتاته وكانا منخرطين في الحب، وظل يردّد على نفسه أنه لا ينبغي أن ينسى نفسه معها ويرتكب شيئاً يندم عليه، وقد أفلح أن يتوقف، إلا أن الحلم كان يقول بنهاية غير التي أوردها هو، فكأنه كان يكذب عن واقعة الحب، لأن الحلم يقول إنه لم يتوقف واندفع بسرعة السيارة إلى ارتكاب ما كان يحذر أن يندم عليه.

وقد يرمز درابزين السلم أو سور أي شيء للضمير يحجز الحالم عن إتيان ما يحذره، وللغُسل عقب الاحتلام، أو عقب جماعه مع زوجته، ويستوي في ذلك الرجل والمرأة، بالإضافة إلى أنه ينبغي أن يتوضأ قبل كل صلاة، فالوضوء والغُسل لازمان لرفع النجاسة وللنظافة. والنجاسة تكون بالجسم ويمكن أن تلحق بالقلب والعقل، والتطهُّر يكون جسماً على الحقيقة، ومجازاً بالقلب والعقل، بأن لا يستشعر المُسلم الغلّ للناس، ولا يفكر في الشر، وأكثر الشر هو الجنس يفسد الجسم والقلب والعقل، والتطهُّر وسيلته الماء، وهو في الأحلام له هذه الرمزية، وله معنى الولادة الجديدة:

- حلمت أني أستحم، وكنت أقف في البانيو والماء ينزل فوقي حاراً، ولكني سمعت أصواتاً من خلف ستارة الحمام وأزحتها قليلاً ورأيت الكثير من الناس رجالاً ونساء لم أكن أعرفهم، وكلهم يشيرون إليّ ويتكلمون بقرف، وكانوا يقولون إني لا أستحم وإني نجس. وفزعت وأحكمت الستارة وتخفّيت خلفها، وسمعتهم ينصرفون فأكملت حمامي ونظرت إلى نفسي فوجدتني نظيفاً، وظللت أشتُم في الناس الذين اعتقدوا في نجاستي.

ومشاعر الذنب عند الحالم تتمثل في

أقوال الناس عنه واتهامهم له بالنجاسة، وهو ما يفكّر فيه في نفسه ويُسقطه خارجه وينسبه إلى الناس. والاستحمام يعني تطهّره من الشر الذي رمزُه العُري، وشتْمُه للناس بعد الاستحمام بمنزلة التعبير عن استيائه من ضميره المتزمّت خلقياً الذي يحاكمه بهذه القسوة ويقضي في أمره على لسان الناس أنه نجس، ومع ذلك فهو يرضخ لهذا الضمير ويكمل الاستحمام.

وتكوين الضمير يبدأ من الطفولة باستدماج أوامر وزواجر الوالدين، ويظل الضمير يعمل عمله حتى وإن بدا أن الشخص قد أسقط من حسابه كل ما استدمجه أو تعلّمه أو تلقّاه من تربية دينية أو خُلقية. وما كان الوالدان يزجران طفلهما بشأنه وينهيانه عن إتيانه ويأمرانه أن يتصرف بوحي منه يبقى يلاحق الشخص فيما بعد ويشكّل بالنسبة إليه قيوداً تحول بينه وأن يفعل ما يخالف ضميره. والكبير من مشاكل الزواج سببها هذه القيود، فكم من زوجة يشكو زوجها من برودها الجنسي، وكم من زوج لا يتهايأ مع زوجته وقد يصاب بالعُنّة نتيجة استبقائهما تصورات الطفولة عن قذارة الجنس أو نجاسته أو انحطاط من تأتيه مشاعره. وهذا الحلم لفتى تزوّج وعاد من شهر العسل وكان يسكن مع والديه:

– حلمت أني في حجرة نومي وبجانبي زوجتي، وكنت أبتعد عنها، فقالت إقترب مني، فقلت لها عيب، وشدّتني إليها فنازعتها نفسي، وكنت شديد الخوف أن يدخل علينا والدي أو والدتي، وفجأة دخلت والدتي فلملمتُ ملابسي وابتعدتُ بسرعة، ونظرتْ إلينا أمي نظرة فيها غضب شديد ولكني أقسمت لها إني ما كنت أفعل شيئاً. وأشرت إلى زوجتي وقلت هي السبب. ودخل والدي فتمنيت لو أن الأرض انشقت وابتلعتني. وردّت زوجتي على نظراتهما قائلة «إنه ملكي وأنا حرة أفعل به ما أشاء»، وأسرعت إليَّ أمي واحتضنتني، وأمسك أبي بيدي وقال اصمد، ثم خرجا واستيقظت.

والحالم ما يزال يستشعر الذنب من الجنس حتى بعد أن تزوج، وما يزال واقعاً تحت تأثير نواهي وزواجر الوالدين، وهما هنا ضميره، وضميره يؤنبه أنه قد انخرط في الجنس بمجرد الزواج، وكان قبل ذلك

يعتبره شراً، إلا أنه يتحلّل من الإثم ويبرّر سقوطه بغواية المرأة له وهي هنا زوجته، ويحمّلها مسؤولية ما آل إليه أمره. وينقسم الحالم على نفسه ويحتمل الصراع بين ضميره متمثلاً في الأبوين، وبين نوازعه متمثلة في زوجته. والزوجة عندما تتحدث إنما تتحدث باسمه، ويظهر هو في دور الزوجة التي تدافع عما يخصها منه. وهو لم يعد حراً كالسابق، وارتباطه بزوجة تترتب عليه واجبات لها، وهو موزّع بين واجبته تجاهها وواجباته تجاه والديه، أي بين مقتضيات الشهوة ومقتضيات الضمير، فإذا نازعته شهواته فإن ضميره يشدّه ناحية الأبوين لتمسك به الأم ويأمره الأب أن يصمد، أي لا ينهار أمام مطالب الجنس.

وعندما يظهر الضمير في الحلم فإن ظهوره يعني أن عقاباً ما سيوقع على الحالم نتيجة فعلٍ ما، أو تفكيرٍ في فعل لا يرضى عنه. ويتفاوت العقاب بحسب تصورات الحالم عن الجُرم وعن العقاب. وقد يكتفي الضمير بتأنيب الحالم، وقد يحكم عليه بعقاب شديد. وهذا الحلم لشاب يبدو أنه ارتكب ما يؤثّم عليه، برغم تأكيده هو نفسه لدى تحليل الحلم أنه لم يفعل ما يؤاخذ عليه:

- حلمت أنهم حكموا عليّ بالإعدام، فلما أردتُ أن أجلس رفعني الشرطي وقال إنك لا تستحق حتى أن تجلس، ثم صوبوا البنادق ناحيتي وأطلقوا الرصاص فاستيقظت مفزوعاً أتحسّس نفسي وكنت لدهشتي منتصباً.

والعقاب في الحلم لا بد كما قلنا أن يتناسب مع الجرم كما يتصوره الحالم، وما كان من الممكن أن يحكم هو على نفسه بالإعدام لو لم يكن قد أتى كبيرة من الكبائر، وليس أكبر من الزنا، وهو أشد ما يكون إيغالاً في الإثم عندما يكون زنا بالمحارم، وبعض الناس يستوي لديهم الإحساس بالذنب إذا اشتهوا محارمهم أو زنوا بهم، ويبدو أن هذا الفتى يعاني من هواجس تتعلق بمحارمه، وتحتدم به رغبات لأمه أو أخته، تعتمل في باطنه ولا يدري بها، أو أنه يحسّها ولكنه يبعدها عنه، وتأتيه الأحلام ليلاً عقاباً له على أفكاره أو رغباته وهو ما كشف عنه التحليل النفسي، فقد كانت أمه صغيرة السن وتزوجت بآخر وتركته في رعاية

جدّته، وكان يزورها وهو طفل لماماً، وكان يبيت عندها إذا كان زوجها في سفر فكانت تنيمه في سريرها وتحتضنه طوال الليل وتقبّله، فتفجّرت به رغبات جنسية تجاهها ظلت تلاحقه طوال حياته، وكان ينازعها باستمرار وخاصة بعد أن طُلّقت من زوجها وجاءت لتعيش معه وهو فتى، وكانت ما تزال شابة وقوية وجميلة وتلعب معه لعبة الجنس البريئة في مظهرها والتي كانت تهزه هزاً عنيفاً من داخله، فكانت تكثر من تدليله وتقبيله وتأخذه إلى حضنها وهو ما لم يكن يرضى عنه.

ولقد عالجنا حتى الآن الصراع الأخلاقي الذي يتمثل في أحلامنا في مختلف الأشكال والصور، نتيجة ما تتراوحنا من رغبات وأفكار جنسية أو عدوانية تصادم ما نشأنا عليه من تربية واعتقادات، فيكون الصراع بين النوازع وبين الضمير أو الأنا الأعلى وهو محصلة التربية. ولعل القارئ قد لاحظ أن أكثر ما أوردنا من أحلام في علاجنا للصراع الأخلاقي هي لذكور، والسبب أن الذكور أكثر معاناة للقلق الخُلُقي وللصراع بين النوازع والضمير. والفروق بين الجنسين في هذا الأمر لا ترجع إلى أن الذكور نفوسهم أمّارة بالسوء أكثر من الإناث، بل لأن الذكور يعانون أكثر من الإناث أن تستبد بهم الرغبات الجنسية أو الميول العدوانية. ويبدو أن الإناث أكثر واقعية من الذكور وأقل معاناة لتأنيب الضمير، فهل ذلك لأن الضمير عند الأنثى أقل تطوراً وأضعف بناء؟ لا ندري سوى أن التاريخ يُظهر الذكر كصانع للقِيَم، وهو مناط التكليف السماوي والأخلاقي، بينما الأنثى مناطها الزواج وإنجاب الولد، وهي لذلك أقل اهتماماً بالقيم وأحرص على الناحية المادية التي بها تكون أسرتها ورعاية الولد.

ولقد رأينا أن الجنس والعدوان تدور حولهما أغلب مشاعر الذنب إن لم تكن جميعها، والتي تأتي الناس في أحلامهم في مختلف الصور فتقضُّ مضاجعهم وتفزعهم وتلاحقهم في يقظتهم، وتحكم تصرفاتهم وسلوكهم اليومي حيال أنفسهم ومع الناس، فإذا كان هذا هو واقعنا الذي نعيشه فإننا نكون إزاء مشكلة عويصة لا ندري لها حلاً، فمن ناحية نحن نعيش هذه النوازع الجنسية والعدوانية،

وهي جزء من طبيعتنا، وإن لم نوجد لها المنصرفات فإنها ستجد لنفسها هذه المنصرفات شئنا أم أبينا. ومن ناحية أخرى فإن هذه النوازع إذ تأخذ طريقها إلى التعبير عن نفسها فإنها قد تأخذ شكل تعبيرات مباشرة، وقد تتخفى وتتقنع وتكون لها المنصرفات غير المباشرة، وربما تكون الأخيرة أشد ضرراً لنا وللمجتمع من الأولى، ولنا أن نتصور شخصاً يغضب لأن غيره لم يوله اعتباره فينبري بالعدوان المباشر على هذا الغير بأن يسبّه أو يضربه، وشخصاً آخر مريضاً بالسادية ويهوى ضرب النساء وإيذاءهن ويبرّر ذلك بأن ذلك ما يُردنه، أو أن المرأة تحب من يضربها، ولنا أن نحكم أيهما أشد إيذاءً وأكثر ضرراً لنفسه وللناس؟ ومن هذا النوع الأخير نصادف الكثير من الأمثلة، ولعل أظهرها لنا في هذه السنوات الحكومات الديكتاتورية التي يرأسها أفراد ساديون والغون في العدوان يغرقون بلادهم في متاهات الحروب ويجرّون العالم إليها.

الباب الثاني عشر
أحلام صراع الأدوار الجنسيّة

قدّر الله سبحانه وتعالى أن يأتي الناس ذكوراً وإناثاً، وأن تكون الطيور والحيوانات والنباتات ذكوراً وإناثاً. والإنسان منذ أن يكون جنيناً تتحدّد هويته الذكورية أو الأنوثية فلا الإناث تصبح ذكوراً، ولا الذكور تصبح إناثاً. وهذه الضرورة التي لا تتغير هي ما نطلق عليه إسم الدور الجنسي البيولوجي Biological sex role.

ودور الأنثى البيولوجي أو الحيوي أن تحمل وتُرضع وليدها، ولكي تتوفر على هذا الدور خلق الله لها الرحم والمبيضين والفرج والثديين، كي تنتج البويضات فإذا خصبت تكوّن الجنين فترعاه تسعة أشهر في الرحم، وتلده ثم تُرضعه من صدرها وليداً حتى يصبح في استطاعته أن يأكل ويهضم الطعام الصلب. وهذا الجهاز التناسلي الأنثوي يخص الإناث، إلا أنه لا بد للأنثى من ذكر كي يكون لها الجنين والولد، وعلاقتها بالذكر وبالولد تمليها حاجاتها النفسية، وتتحكم فيها إفرازاتها الهرمونية الأنثوية، وهي المسؤولة عن

رغبة الأنثى أن تعرف الذكور وتتزوج، ومن هذه الإفرازات الهرمونية هرمون الأمومة، وهو المسؤول عن هذا الوله الذي يكون بالأم حيال طفلها.

وأما الدور الجنسي للذكر فهو أقل تعقيداً وأهمية من الدور الجنسي للأنثى، وليس على الذكر إلا أن يعطي الأنثى الحيوان المنوي الذي يلزم لتخصيب البويضة، فإذا فعل ذلك فقد قام بدوره الذكوري البيولوجي، إلا أنه يلزمه لهذا الدور الخصيتان ليفرزا المني، والقضيب ليوصله إلى رحم الأنثى من خلال الفرج. والذكر لا بد أيضاً أن يستشعر هذه الحاجة إلى الأنثى، ونزوعه لها يدفع إليه هرمون جنسي ذكوري. وليس عند الذكر هرمون أبوّة كما عند الأنثى هرمون أمومة، وذلك أن دور الأب - لرعاية الطفل بيولوجياً - غير ضروري.

وللجنسين مظاهر جنسية جسمية ونفسية أخرى، فالذكور أطول وأثقل وزناً وأمتن عضلاً من الإناث. والأنثى تكون ممتلئة ورقيقة، والذكر مربع وخشن. وجلد الذكور أسمك، وشعر الجسم عندهم أغرز، وأصواتهم أعمق. وتتصرف الأنثى بخنوع بينما الذكر عدواني. وتتناسب عدوانيته مع حجمه الأكبر وقوته العضلية وقُدرته على الانتصاب والإيلاج. ويتفق خنوع الأنثى واستسلاميتها مع صغر حجمها ورقتها وطبيعة جهازها الجنسي المستقبِل. ومن سمات الإناث والذكور أنهما يتجاذبان جنسياً لبعضهما البعض، ولو لم تكن هذه الجاذبية الجنسية تشدهما إلى بعضهما لما كان هناك حب ولا زواج ولا إنجاب، ولنَضَب البشر. ولو كان الذكور ينجذبون جنسياً للذكور، والإناث للإناث، لما كان هناك حَمّل ولا تكاثر، فالطبيعي أن تكون الجنسية بالذكور والإناث غيرية، ومن غير الطبيعي أن تكون الجنسية بينهم للجنس ذاته فيما يسمى اللواط.

إذن فالأنوثة تعني أن يكون للأنثى جهاز تناسل أنثوي، ورغبة في التزاوج مع ذكر لكي تحمل وتنجب. والأنوثة تعني أيضاً أن تكون الأنثى رقيقة ومُستقبِلة وتابعة للذكر.

والذكورة هي أن يكون للذكر جهاز تناسل ذكوري ورغبة جنسية تدفعه إلى

مضاجعة الإناث، وهو بدنياً قوي وعدواني وفعّال.

وللثقافة دورها في تشكيل معاني الذكورة والأنوثة، بحيث تختلف مفاهيم الدور الأنثوي والدور الذكوري من ثقافة إلى ثقافة، وأيضاً تختلف هذه المفاهيم في الثقافة الواحدة بحسب الطبقات والعائلات والفئات والطوائف، وتختلف في الأسرة الواحدة بحسب تصورات الأبوين للدور الجنسي الذي يرجوانه لطفلهما. ولا ينبغي أن نعمِّم متناسين أن هناك دائماً حالات فردية، ومن الواجب أن نكون على وعي بما يمكن أن يُفرَض ثقافياً على الأفراد من أدوار معيّنة برغم السمات الجنسية التي تخصّهم.

وينصرف معنى صراع الأدوار الجنسية إلى المحاولات داخل كل منا لتتغلب فيه السمات الجنسية التي تخصّه، لأن فينا جميعاً من سمات الجنسين، فالذكر فيه سمات أنثوية وإن غلبت السمات الذكورية، والأنثى فيها سمات ذكورية وإن غلبت السمات الأنثوية. والسمات الأغلب تحاول أن تطبع الفرد بطابعها، والمفروض أن تساعدها الثقافة والتربية على ذلك، فالأنثى تنتصر فيها الأنوثة وتنشأ بوصفها أنثى، والذكر تنتصر ذكورته وينمو كذكر.

والصراع الذي ندخله جميعاً داخلي، يدور دون أن ندري به وتستغرقه السنوات، فإذا حدث مثلاً أن وُلِد لأسرة ولَد، وكانت الأم تريده بنتاً، فقد تعامله على أنه أنثى، فكأن التربية تذكي الصراع البيولوجي لكي تتحدّد هوية دور الطفل على عكس ما يغلب عليه بيولوجياً. وبالمثل قد تسخّف الأسرة أن تكون البنات إناثاً، وتنشأ البنت لترى أن وضعها أدنى من الولد، وقد تستحث الأسرة البنت أن تتصرف كولد ويلبسونها كولد فيعجلون بظهور الصراع حول دور البنت كأنثى. وفي البلاد الإسلامية وخاصة في الريف، وعند البدو، وبين الطبقة المتوسطة، للذكر حظ أكبر من حظ الأنثى، وتنشأ البنات وبهن الرغبة أن تكون لهن أدوار الذكور، ومن ثم كانت مظاهر الصراع على الدور الجنسي أبلغ عند الإناث المسلمات. والمجتمع الذي يذكي سمات جنسية في أي من الجنسين ليست له، يذكي من صراع الأدوار الجنسية، وعليه أن يتحمل

مسؤولية هذا العمل من بعد عندما يشب الصغار ويصبحون رجال ونساء الغد. ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أنه لا وجود للذكر المطلق ولا للأنثى المطلقة، فكل منا به من هرمونات الإناث قدر يختلف من ذكر إلى ذكر، وكل أنثى بها قدر من هرمونات الذكور، بحيث يمكن أن نقول إننا جميعاً مزدوجو الجنسية Bisexual، فالقاعدة أن ازدواج الجنسية هو الأصل، وإن كان ما يبدو على السطح أننا إما ذكور أو إناث. ولو قارنا بين رجل ورجل لوجدنا أن هذا الرجل به قدر أكبر من هرمونات الذكورة، وقدر أقل من هرمونات الأنوثة، بينما ذاك الرجل به قدر أقل من الآخر من هرمونات الذكورة، وقدر أكبر من هرمونات الأنوثة. والذكر الذي تزيد به هرمونات الأنوثة يكون شكله أميل إلى الإناث، وكذلك صوته ومزاجه النفسي. وإذا زادت نسبة الهرمونات الذكورية عند أنثى من الإناث فإنها تأتي شبيهة للرجال في البِنْية والتصرفات. واختلاف هذه النسب في الذكور والإناث يجعل من الذكورة والأنوثة في الجميع مراتب ودرجات، فهناك الرجل الرخو المُستأنَس، صغير الحجم، ضعيف الصوت، واهن العزم، سلبي الإرادة من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك الرجل متين التركيب، قوي العصب، حاد الطبع، عدواني السلوك، يفرض إرادته على الآخرين. وحتى في هذا الرجل الأخير لن نعدم أن نجد قدراً من الأنوثة تصارع الذكورة فيه بحكم ما به من إفرازات هرمونية أنثوية ولو كانت ضئيلة القدر للغاية، وقد تتمثل هذه الأنوثة فيه في لحظات ضعف العزم وغلبة رقة المشاعر. إذن نحن جميعاً نعاني هذا الصراع بين الجانبين الأنثوي والذكوري فينا، سواء كنا ذكوراً أو إناثاً، فجزء فينا يحاول أن يتشدّد ويعتدي وينزو، وجزء يميل إلى السلوك برقة، وأن ينتظر وأن يوافق ويركن إلى الدعة، ويحب أن يترك المبادأة للآخرين، وأن لا يفعل شيئاً. وجزء فينا ينجذب إلى الجنس الآخر ويكون غيري الجنسية، وجزء يجذب الجنس نفسه ويريد أن يكون مثلي الجنسية. وهذان الجانبان من طبيعة الإنسان في حرب مستمرة، وصراعهما هو ما نطلق عليه إسم صراع الأدوار

الجنسية، أو هو صراع ازدواج الجنسية Bisexual conflict.

وتكشف الأحلام هذا الصراع، وهي مجال يظهر فيه واضحاً جلياً بحيث تنطبع به أحلام كثيرة نحار في تفسيرها لغلوها في الرمزية. ولعل هذا النوع من الأحلام يحتاج فيه تفسير الرموز وتأويلها إلى جهد فكري لا يحتاجه تفسير الأحلام الأخرى، فمثلاً قد يرى الشخص نفسه في الحلم في دور عكس دوره الجنسي كهذا الحلم:

- حلمت أني نائم وكنت أبسط يدي أتحسس بها نفسي فوجدت أن صدري كبير، ووجدتني في ثياب حريرية ملونة جميلة، ثم رأيت نفسي أنتصب واقفاً وتأكدت أنه قد صار لي ثديان.

وتحليل هذا الحلم يتم من داخل تحليل أحلام أخرى، ومن مستدعيات الحالم حول حلمه، ونعرف أن به ميولاً أنثوية، ويحسد البنات أنهن بنات، ويقول إن نصيب البنات في الحياة أفضل من نصيب الذكور، ويعجب بجسم المرأة ويأنف من التركيب الجسمي للرجل، وهذا الحلم يحقّق رغبته في التحوّل إلى أنثى.

وهذا حلم لفتاة من النوع المسترجل حيث تلبس كالذكور وبها خشونتهم، وتركيبها عضلي، وصدرها يخلو من الثديين، وأعرض من الحوض:

- كنا نلعب، بناتاً وصبياناً، وخيّل إليّ أن البنات صارت صبياناً والصبيان صاروا بنات.

التفسير: الحالمة لا تتمنى فقط أن تصير ولداً ولكنها تريد أن تنتقم من كل الأولاد بأن يتحولوا إناثاً أي يكونوا الجنس الأضعف.

وقد ترمز الأحلام إلى فقدان الرجولة بأن يفقد الحالم ساقه أو يصاب في ذراعه في حادث. وفي أحد الأحلام رأى الحالم أنه كان مُلقَى على الأرض لا حول له ولا قوة والفئران تنهش في ساقه، وقد نرى في الأحلام أن قطاً يعض في الساق أو الذراع.

ويرمز الشَعْر إلى الرجولة، وفقدان الشعر يعني إصابة الحالم بالعجز الجنسي، وإننا لنعرف أن شمشون في قصة التوراة قد قصّت له دليلة شَعْرَه، فذهبت عنه قوته وفحولته، ولم تعودا إليه إلا بعد أن طال شعره من جديد. وفي هذا

الحلم سنرى قلق الحالم على شعره، وهو بعد التحليل يتبين أنه قلق على رجولته، إذ انه كان سيتزوج قريباً، وكلما اقترب موعد الزفاف زاد قلقه:

- حلمت أني كنت أغسل رأسي، ولما ذهب عني الصابون أحسست أن هناك شيئاً غريباً في رأسي كأني فقدت شعري، وركضت إلى المرآة ولدهشتي وجدتني أصلع إلا من خصلة تتدلى نحو بوصة ونصف على جبهتي ولا شيء أكثر من ذلك.

وترمز الخصلة المدلاة إلى قضيبه رمز رجولته، وليس هناك من هذه الرجولة سواه، وأما هو في حقيقته فليس رجلاً فبرغم وجود القضيب فهو لا ينتصب لأنه «أصلع».

وحلمت امرأة أنها قد نبتت لها لحية وشارب ليرمزا إلى رغبتها في أن تتحول رجلاً. وقد يحلم الرجل بأنه كُسِر قلمه، يعني فقد رجولته. وقد يحلم بالعاصفة وقد كسرت الأشجار وألقت بها، والعاصفة قد ترمز لعواطفه المشبوبة وتهافته على الجنس، وقد يستبد به القلق نتيجة انشغاله الجنسي فيخشى أن يفقد رجولته لهذا السبب. والمرأة عندما تحلم بأنها فقدت سناً فقد يعني ذلك أنها مقبلة على الإياس، وأن حيضها سينقطع، وفقد السِن بالنسبة للرجل هو إخصاؤه. وربما يُرمَز للإخصاء بالرصاص الفشنك كهذا الحلم:

- هاجمنا اللصوص وخشيت على أسرتي وكنت أكثر خشية على زوجتي، وكنت أقول لها سيهاجمونك أنت، فتقول ولماذا أنا، فأقول بسبب الذهب في صدرك، إخلعي هذا الذهب، فترفض. وأمسك مسدسي وأضرب في الهواء ولكن الرصاص الخارج لدهشتي ما كان يتعدى السنتيمترات وكان يسقط لا حول ولا قوّة.

ومسدسه الذي هو قضيبه لم يعد قادراً على القذف إلا لسنتيمترات، والمني يخرج منه لا قوّة فيه ولا نفع كالرصاص الفشنك. واللصوص هم عالم الرجال يخشى منهم على زوجته الفاتنة، والذهب الذي يبرر به خوفه هو الذهب على صدرها وهو أنوثتها. والتحليل يكشف أنه أراد من زوجته أن تتحجب بسبب ما يرى من جمالها فرفضت وهذا هو معنى طلبه

منها أن تخلع الذهب أي تتخلى عن فتنتها بالحجاب.

وهذا الحلم للرجل نفسه:

- كنت أطارد ديكاً كبيراً طلبت مني زوجتي أن أحضره لها، وجاهدتُ والديك يزوغ مني. ثم رأيت أني أحمل حربة وتابعت الديك إلى أن حاصرته تماماً في زاوية، وصوبت الحربة أحاول أن أقذفها ولكني تبينت أن ذراعي غير قادر وعاجز عن القذف.

والحلم جنسي خالص ورموزه واضحة ويكشف عن قلق جنسي هائل، والديك هو فحولته أو رجولته يحاول أن يحضرها لزوجته، ويفعل المستحيل وعندما يكاد ينجح يتبين أنه غير قادر على الإيلاج لأنه يصوب ولكنه لا يصيب، وهو يقول صراحة أن ذراعه - أي قضيبه عاجز عن القذف.

وهذا الشخص نفسه يعوّض عن رجولته بأن يدخل في معارك مع كل أنثى يحاول أن يُفقدها هي أيضاً أنوثتها ويجرّدها من أسبابها.

- حلمت أني دخلت البيت فوجدت زوجتي وعدداً من صديقاتها، وكان معهن شيء يحاولن إخفاءه، ويدارين ما يفعلن باصطناع أن تذهب أيديهن على صدورهن وأردافهن ولكني أدركت اللعبة وضحكت هازئاً، وتوجهت فوراً فانتزعت ما يخفين، وكان مسدساً كبيراً لا يناسب الإناث، فأخذته أصوبه على أشياء وليس على حيوانات أو بشر، وأطلِق حتى انتهى منه الرصاص.

وهو يريد أن يقول إن القوة الجنسية للرجل وليست للمرأة، وإن النساء لا حديث لهن سوى الجنس، وإن هذا شيء لا يمهر فيه إلا الرجال - المسدس لا يناسبهن - لكنه في حالته بدلاً من أن يصيب برجولته النساء، الطالحات منهن والصالحات يعني سواء كن بغايا أو سيدات مجتمع، فإنه يطلق قذائفه على غيرهن، إذ يبدو أن هذا الرجل كان يكثر من العادة السرية ويظن أن ذلك دمّره تماماً وأفقده فحولته.

وقد تكشف الأحلام عن خوف مرضي يصيب المتخنّث من الخنوثة برغم أنها تغلبه على أمره:

- حلمت أني أركب دراجة مسرعة. وقيل لي هناك صرخات إنسانة تلد،

وصعدت الدرج مسرعاً فوجدت رجلاً يطلق كأنه سيلد، وغضبت جداً لأنه رجل وأخرجت مسدسي وقتلته.

والحالم غاضب لأن الميول الأنثوية توجد في ذكر، ويرديه قتيلاً يريد أن يقتل فيه التعبير الخنثي. وهذا العمل منه كأنه يريد أن يغلّب فيه التعبير الذكوري على التعبير الأنثوي، وإذن فالحالم يريد لو تسود ذكورته على ميوله الأنثوية وتلغيها، وبدلاً من أن يقول إنه هو المصاب بالتخنّث يحلم به لآخر، بينما دوره هو أن يعبّر عن رغباته في أن يكون ذكراً كاملاً.

وهذا الحالم نفسه يحلم بأنه متهافت وينقذه صديقه:

- شعرت كأني مريض وتخذلني ساقاي، وأسرعَ إليّ صديقي وحملني بين ذراعيه القويتين، وكانت عيناه تدمعان من أجلي ويقبّلني محموماً.

والحالم وهو يستدعي أفكاره عن الحلم يقول إن صديقه في الحلم بديل عن فتاته التي هجرها منذ زمن لانشغاله مع هذا الصديق. وطبعاً هو مشغول مع صديقه أكثر من فتاته لأنه يميل جنسياً إليه، ولقد رأيناه يجعل هذا الصديق يحمله كأنه أنثى ويقبّله محموماً كأنه يقبل أنثى، وهذه الميول اللواطية إن لم يتسنَ لها أن تظهر في اليقظة فذلك بسبب قمعها، وهو ما يجعله ينفّس عن رغباته في الحلم. وفي الحلم التالي يرى شيئاً مشابهاً وينسب لغيره ميوله الجنسية المثلية، وتلك حيلة دفاعية يدفع بها عن نفسه ما لا يعجبه فيها:

- كان لي زميل يحاصرني بنظراته، وخفت منه فذهبت إلى زملائنا الواحد بعد الآخر أشكو أمره وأقسم لهم أنه مريض باللواط، وأنه يريدني لنفسه، ويضحكون. ووجدتني أنصرف مبتئساً، وإذا بي أجده جالساً غير بعيد يقرأ فتولاّني الخوف منه، لكني سرت ومررت به، ولدهشتي لم يرفع عينيه عن الكتاب وانصرفت.

وزميله المصاب باللواط هو نفسه، وميوله حتى الآن كامنة لا يعلم بها أحد، وهو يتّهم نفسه باللواط، ويُفشي سرّه، أي انه يخشى أن ينفضح حاله، أو أنه يتمنى لو يُعرَف عنه ذلك، ويبدو أن المحيطين به لا يعاملونه باعتبار ميوله الكامنة، وذلك يضايقه لأنهم منصرفون عنه، ويا

ليتهم يعرفون.

ومع ذلك فأحلام الفتيان تكثر فيها أن يروا زملاء لهم يصاحبونهم، والأمر ليس أكثر من ذلك غالباً ولا يعني وجود انحرافات جنسية، وكثيراً ما لا تظهر خلافات الشبان في الأحلام، وإنما الذي يظهر توددهم لبعضهم البعض فيلعبون ويسبحون ويتسابقون ركضاً ويضحكون، وإذن فليس شرطاً أن يكون لأحلام الشباب معنى جنسي مثلي، أو أن ترمز إلى الجنسية المثلية، وكما قلنا لا بد لتفسير الحلم من أحلام أخرى لنعرف نَسَق تصورات الحالم، ولا بد أن يساعدنا الحالم بمستدعياته حول الحلم. وبعض الحالمين الشبان كانوا مجندين سابقين، وللزمالة في الجندية ذكريات عزيزة، فإذا حلم مجند سابق بزملائه السابقين وكان له معهم لهو فلن يكون هناك معنى جنسي شاذ لهذا اللهو معهم. والشبان غالباً عندما يكونون في معسكرات لا يعايشون فيها إناثاً تكثر أحلامهم وتتكون شخصياتهم من زملائهم أي من الذكور. وقد تعني النظرة الخاصة للشاب بزميله، أو للفتاة بفتاة زميلة لها، تصعيداً وتسامياً للجنسية المثلية تتحول به الرغبة الجنسية لامثلية إلى وُدّ حقيقي وحب وإخلاص وولاء. وقد تتعانق المرأة والمرأة في الحلم وفي اليقظة، وقد تتماسكان بالأيدي. وكانت بأفلاطون ميول مثلية ولكنها متسامية، واستطاع أن يحولها إلى عواطف جميلة تجاه أصدقائه الذكور، وذلك شيء لم يستطعه أبو نواس، على عكس الشاعر الأمريكي والت هويتمان الذي يرى أسمى الحب بين الذكور، ولكنه الحب الذي يلهمه التفاهم والمشاركة الفكرية. ومن الملاحظ أن أحلام النساء حول صديقاتهن أكثر من أحلام الذكور حول أصدقائهم، بتأثير الثقافة التي تبيح للنساء أن يتعانقن وأن يتساررن بعكس الذكور. والرقة هي جوهر الأنوثة. بالإضافة إلى أن النساء قد يُؤذَن لهن بأن يسلكن مسلك الرجال ولا يُسمَح للرجال بأن يسلكوا أبداً كالإناث. وعندما تلبس الفتاة أو المرأة قميصاً وبنطلوناً لا ينتقدها أحد، ولا يُسمَح للفتى أو الرجل بأي حال من الأحوال أن

يرتدي فستاناً. ولعل هذه التفرقة في المعاملة من الثقافة هي التي تجعل الذكور يعانون في أحلامهم من القلق نتيجة الصراعات المزدوجة الجنسية أكثر مما تعاني النساء في أحلامهن.

وقد يُرى الرجل يترقق للرجل، وعندئذ قد يُقابَل من الآخر بالضرب واللّكم والسباب. وقد يتصرف الذكور برقة ولكنها الرقة المؤقتة التي سرعان ما يحل الغضب والجدية مكانها، والثورة لأي شيء وعلى أي شيء. وتتمثل هذه الأدوار المتراوحة في الأحلام كالحلم التالي:

- حلمت أني في رحلة مع زملاء لنا إلى الفيوم، ووصلنا إلى هناك وكنا نستمتع بوقتنا، ومررنا على جماعة مثلنا يقفون بسيارتهم، وكانوا يمسكون بخرطوم طويل يغسلون به سيارتهم، وضحكوا عندما رأونا وضحكنا منهم، وقال واحد منا نحتاج إلى خرطوم كهذا لنغسل سيارتنا.

وهذا الحلم أيضاً للشخص نفسه:

- حلمت أني كنت مع صديق لي ثم جاء موعد النوم فقال لي ألن تنام؟ وأعددنا سريرنا سوياً وكان عليّ أن أنام معه، ثم فجأة جاءت فتاتان لتلقيا علينا تحية المساء، فقام صديقي وحيّاهما ودعا إحداهما إليه فاستجابت، وبدأ يغازلها ويلاطفها ولكني لم أستطع ذلك لأني كنت خجلاً من ملابسي التحية.

وفي الحلم الأول يجد الحالم لذّته وسعادته في صُحبة رفاقه، ويقول إن الكل في صحبة رفاق، والسيارة هي الطاقة الجنسية، ومن رأيه أن طاقة زملائهم أفضل من طاقاتهم، بما يعني أن ذكورته هو أقل من سائر الذكورات. وفي الحلم الثاني يذهب لينام مع رفيقه، ثم تجيء الفتاتان، وتختبر ذكورته فيرفض أن تكون له علاقة غيرية بإحداهما مع أنه كان سينام مع رفيقه، وهو حائر بين ميوله الجنسية المثلية وبين ميوله الجنسية الغيرية، ومستعد أن يمارس اللواط مع صديقه ولكنه غير مستعد لأداء الجماع مع فتاة، ويخجل من ملابسه الداخلية وهي رمز لباطنه اللوطي. وصراعات هذا الحالم حول جنسيته المزدوجة هي التي تسبب له القلق في يقظته ومنامه.

الباب الثالث عشر

«التشخيص بتحليل الأحلام»

إنفرد التحليل النفسي منذ صدور كتاب فرويد «تفسير الأحلام» بالتفسير أو التأويل للأحلام كطريقة من طرق التحليل النفسي. ولم يدخل تفسير الأحلام مجال علم النفس إلا مؤخراً بعد أن امتدَّ هذا المجال ليشمل البحث في الشخصية، وفي الخُلق والمزاج، وخاصة أن الحلم يمكن فعلاً أن يخضع للبحث العلمي بالنظر إلى أنه سجل للشخصية، وهو أيضاً وسيلة إسقاطية. والحلم باعتباره سجلاً للشخصية أصدق إنباءً من المذكرات التي قد يدونها الشخص عن نفسه، وباعتباره وسيلة إسقاطية فإنه أفضل من كل الوسائل الإسقاطية لاختبار الشخصية، وذلك لأننا فيه لا نحتاج لبقع الحبر ولا للصور كي نُخرج ما بداخلنا فنستعرضه أمامنا. والحلم شخصي جداً، وإسقاطي جداً، أكثر من أي شيء آخر يمكن أن تتيحه لنا الدراسات في الشخصية.

ويضم كتاب فرويد «تفسير الأحلام» أغنى ما يمكن أن تقدمه أية نظرية يشتمل عليها كتاب من الكُتب النفسية؛ كما ان ما كتبه وليام شتيكل في مجال تفسير الأحلام يجعل القارئ على يقين من أن الأحلام تكشف عن كل شيء، وعن كل صغيرة وكبيرة، ولا تترك شيئاً إلا وتتناوله، وتغوص في أعماق الشخصية وتُخرج الخبئ منها. ولم يحدث أن كانت هناك كتابات في التنظير لعلم النفس كالتي قدّمها علماء التحليل النفسي، وكانوا فعلاً منظّرين أكثر منهم عمليين، وكانت بهم قدرة عجيبة على التأمل والاستنباط، ولم يكن ينقص نظرية التحليل النفسي إلا أن يصدقها التطبيق، وأن تخضع للمعايير العلمية وللإختبار المقنن. وهذا ما تصدّى له بعض علماء النفس فحاولوا سدّ هذا النقص ليجعلوا من تفسير الأحلام طريقة صادقة علمياً من طرق التشخيص للشخصية نستطيع بها أن نحصل من الأحلام على الكثير جداً من المعلومات ذات المغزى والمفيدة في تحليل الشخصية والإحاطة بديناميتها.

والطريقة لتحقيق ذلك هي اختبار سلسلة من الأحلام للشخص نفسه كما سبق أن نوهنا إلى ذلك، وقد تبين جدوى تلك الطريقة. ولقد أجريت تجارب من هذا القبيل على طلبة الجامعات على وجه الخصوص وخاصة في أوائل السنة الدراسية وقبل امتحانات النقل وأثناءها، والطالب يكتب ما يحلم به يومياً عقب الاستيقاظ من النوم، ويُفهَم أن أحلامه سرية. ومن غير المطلوب معرفة اسمه. ولا يعطى لمحلل الأحلام أية معلومات عن أي من الطلبة حتى لا يقع المحلل في خطأ توهم صدق تفسيراته Fallacy of pseudo-validity. وهو الخطأ الذي يكثر في تفسيرات الكثيرين من المحللين عندما يتأكدون من أن الشخصية المطلوب تفسير أحلامها تعاني من صراعات معينة فيميل المحلل إلى تفسير سلسلة الأحلام في ضوء ما يعرفه من هذه الصراعات.

ويبدأ تفسير الأحلام كخطوة تالية، وهنا تبدأ الصعوبة حيث يتوقف التفسير لأجزاء الحلم على المدرسة أو النظرية التي يتبعها المفسر أو المحلل، فمثلاً قد تحلم طالبة جامعية أنها أصيبت بشلل أطفال وأن عليها أن تترك الدراسة، ولربما يذهب المفسّر إلى القول - تفسير الحلم - بأن الفتاة تتمنى لو تصاب بمرض يقعدها عن تكملة تعليمها؛ وقد يُفسّر الحلم بأنها مصابة بما يسمى خواف الإصابة بشلل الأطفال؛ وقد يحسب أن الإصابة بالمرض في الحلم هو شعور بالذنب على جُرم أو إثم اقترفته الفتاة، وليس المرض سوى عقاب تُنزله بنفسها على ما اقترفت؛ ولربما يذهب في التفسير إلى أن الحلم نكوص إلى الطفولة التي كانت فيها مشلولة الإرادة لا تُحقّق لها رغبة وتقصُر إمكانياتها فيها عن أن تعيش حياتها كما تحب؛ ولربما يكون المحلل من الذين يفسرون ظاهرة الحلم بالمرض بأنها انعكاس للشعور بإرهاصات مرض يعتمل في الجسم داخلياً ولم يتضح بعد، والمريض به يحلم بما يداخله منه أو بما يشعر بإرهاصاته؛ وقد يقول المفسر ببساطة العامة إن الحلم انعكاس لشيء أكلت وتعبت منه؛ وقد يكون المفسر ممن يرجعون لكتاب إبن سيرين فيقول إن الشلل عن الحركة معناه العجز نتيجة ذنب عظيم. وكل تفسير من هذه

التفسيرات يقوم على افتراضات، والسبيل لتجاوزها جميعاً هو أن نفسر الحلم بأجزائه، وبما فيه، ونترك هذه الأجزاء تتحدث عن نفسها. وما تقوله كل الأحلام هو أنها طريقة يحاول بها الشخص الحالم أن يحلّ صراعاته، وقد تكون هذه الصراعات بين نوازع متعارضة متناقضة، كأن يتعارض الجنس والعُرف السائد، وقد تكون الصراعات بين عواطف متناقضة، كأن يتناقض الحب والكراهية، أو بين دافع وعائق، كأن يكون هناك الدافع للنجاح ككاتب ولكن القدرة المحدودة للشخص تحول دون تحقيق الدافع. وربما يكون الصراع بين عاطفة وعائق، كالسيدة المتزوجة من رجل تكرهه ولا تستطيع أن تفصح عن كراهيتها لحاجتها إليه مادياً. وقد يشتمل الصراع على قطاعات عريضة من التركيب الوجداني والنزوعي للشخص لدرجة أن يقسم الشخصية كلها، كحالة الدكتور فاوست في رائعة جوته، أو حالة الدكتور جيكل والمستر هايد، فيحتدم الصراع بين أجزاء الشخصية وتأخذ بتلابيب بعضها البعض. ومن النادر أن يقدم الحلم حلاً للصراع، وفي الغالب أن الحلم يعكس القلق الذي يستحدثه الصراع. وأحلام القلق قد لا تقول شيئاً، أو انها قد تقول القليل عن أسباب القلق، وربما كانت مجرد بلاغ بأن الحالم يعاني من الصراع. ولما كانت الصراعات تقوم بين الدوافع والعواطف فإن رواية الحلم وتحليله بالتفسير والتأويل يكشف عن مكوناته الفاعلة وديناميباته الباطنة، وينبّه إلى حاجات الحالم وقيمه ودفاعاته وإحباطاته ومشاعره ومجاهداته. والنظرية التي تقول بذلك تذهب إلى أن الأحلام إسقاطات لكل ديناميات الشخص الباطنة، ومن رأي أصحابها أن تفسير الأحلام مسألة قد استحالت صعبة بتأثير مقولات فرويد في ميكانيزمات الحلم أو الحيل التي يلجأ إليها، والتي تخفي مضمونه وتموّه على محتواه الباطن. وهذه الحِيَل التي نقصد إليها والتي سنتناولها من بعد هي التكثيف والإبدال والإسقاط والتعويض والقلب والتصوير المسرحي، فإذا كانت هذه العمليات تُجري تغييراتها على المضمون الباطن فتُحيله شيئاً آخر يمكن أن يفلت

من الرقيب ويخرج في شكله الظاهر وهو الحلم، أفلا يكون من المنطقي أن لا نعتمد على حلم واحد لنغامر بتفسيره، إلا إذا كنّا نعرف من حياة الحالم ما يجعلنا نفهم ما يقصد إليه الحلم بالإحالة إلى ما نعرفه من حياته؟ ولعل ذلك هو ما قصد إلى بيانه فرويد عندما توجه بتحليله لأحلامه هو لأنه أدرى بحياته الخاصة ويعرف ما تعنيه رموزها أو ما خفي من أمرها بما استُحدث فيها من تحريف وتشويه وقلب وإبدال إلخ. وإذا كنا نعرف ديناميات الشخصية للحالم قبل أن تفسّر أحلام، فعلام إذن يكون تفسيرنا لهذه الأحلام؟ ولهذا كان منطقياً أن نفترض أننا لا نعلم شيئاً عن الحالم من بواطن حياته وشخصيته، وأن لا نغامر بأن نقول إننا سنكشف ذلك من تفسير حلم واحد، أو أن من الممكن أن يكشف لنا الحلم الواحد عن ديناميات الشخصية، وأن نعوّل على أن نتناول لأسباب السابقة عدة أحلام، أو كما نعبر عن ذلك «زُمْلة أحلام»، ونستقرئ جوها العام، ونتبين رموزها من السياق ومن تردّدها داخل السياقات المختلفة، ونكشف الصراع الذي يشملها جميعاً والذي ينفرد به الحالم؛ ومع ذلك فإنه كثيراً ما يكون الحلم الواحد مستكفياً بنفسه بحيث نستغني بما يقوله - إذا كان يقول الكثير - عن أن نطلب المزيد من أحلام الحالم، وغالباً ما يكون هناك حلم يتوسط كل زُملة الأحلام كواسطة العِقد، يلقي الضوء على سائر الأحلام، وينبّه إلى الصراع الذي يجمع بينها جميعاً بحيث يمكن أن نقول إن سائر الأحلام تكون تكراراً لهذا الحلم الوسطي. ولكن كيف نجمع بين المجموعة أو الزملة الواحدة من الأحلام وسط طوفان أحلام الحالم؟ الطريقة أننا نرى رأينا في كل حلم، فإن رأينا الخط العام فيه يتمشى مع غيره ضممناه إليه حتى تجتمع لنا مجموعة مترابطة منها. والغالب أن تتميز زُملة الأحلام بأن بها صراعاً واحداً رئيساً، إلا أنها قد تجمع فيها أيضاً عدة صراعات رئيسة.

وعلينا أن نجرّب التفسير الذي نغامر به للحلم على بقية الأحلام الزملة، فإن وافقها فالأغلب أنه تفسير صحيح، وإلا

فعلينا أن نجرّب تفسيراً آخر حتى نجد التفسير الذي يوافقها جميعاً، وعندئذ فعلنا أن ندخل أجزاء ومكونات كل حلم في تركيب جديد كأننا نركب معاً أجزاء متناثرة من لعبة واحدة، فنضع جزءاً من هذا الحلم مع جزء من حلم آخر، إلى جوار جزء ثالث من حلم ثالث وهكذا، إلى أن تعطينا الأجزاء التركيب الذي له المعنى. وإليك هذا المَثَل:

الحالة لفتاة طالبة جامعية عمرها عشرون سنة، الصراع الأساسي عندها رغبتها في أن تكون لها حياتها المستقلة، إما بأن تتخرج وتعمل أو بأن تتزوج، وهي تفضل الزواج، إلا أنها إن فعلت ذلك لا تدري النتيجة، وهل ستنجح أو تفشل، وستكلفها مغامرتها الأمان الذي تعيش فيه في كنف أسرتها.

الحلم الرئيس: حلمت أني تقدمت بطلب للعمل في الكويت مدرسة، وكان عليّ أن أترك أهلي، ولقد سافرت وبدأت حياة جديدة، حدث أن تعرفت إلى أسرة مصرية هناك كان لهم إبن يريدون له زوجة، وأعجبوا بي وخطبوني من نفسي، وقد قبلت فقد كانت الأسرة كأسرتي، إلا أني ما زلت أعاني من جرّاء فراق أسرتي.

التفسير: الصراع الأساسي قد تمّ إسقاطه في الحلم بوضوح. والحالمة تترك بيتها، بل وتغادر مصر كلها، ورغم أنها تجد بديلاً عن أسرتها وتتزوج بسرعة، فإن ذلك لم يعوّضها عن أسرتها، والحالمة واعية بمشكلتها، وبالصراع الذي تعانيه. ولقد قالت هي نفسها في محاولة تفسير الحلم إنها لم يحدث من قبل أن فارقت أسرتها لأكثر من أسبوع.

الحلم الثاني: حلمت أني وأختي في محطة سكة حديد وكان علينا أن نسافر إلى مكان ما، وينبغي أن نأخذ القطار المتجه إليه، ولكننا كنا نبحث عنه بلا جدوى، وكنا نجري هنا وهناك، ونسأل ونفتش عن قطارنا بينما القطارات كثيرة، والدنيا زحام، والمحطة واسعة، والضجيج عال.

التفسير: تريد الفتاة أن تترك بيتها ولكنها لا تدري إلى أين تتجه، وقد عمي عليها القصد، واحتارت، والدنيا واسعة خارج بيتها. والخروج من البيت معناه اللاأمان مع أنها في رفقة أختها. ويبدو

أنها وأختها هذا قدرهما، ويبدو أنها تريد الزواج، ونحن نقول بالعامية فاتها قطار الزواج لمن تتجاوز سن الزواج، وهي تريد أن تلحق وأختها بهذا القطار.

الحلم الثالث: حلمت أني عدت لأيام زمان، أيام المدرسة الثانوية، ولكن الغريب أن الموضوعات التي كنا ندرسها هي موضوعات الجامعة. وكنت أجتمع مع رفيقاتي كأيام زمان ونتناقش ونتواعد.

التفسير: هذا الحلم نكوصي يرجع بالحالمة إلى أيام لم تكن بها حاجة أن تفاضل بين الزواج وبين الأمان النفسي والمادي الذي تحسه الفتاة بالإقامة بين ذويها، وضرورة أن تختار تدخلها في صراع، والعودة هذه تخلّصلها من هذا الصراع، ولو أنها من الناحية الدراسية تفضّل الدراسة الجامعية، ولكنها يا ليت تكون من غير أن تكبر في السن وتفكّر في الزواج وتَقلق أنها لم تتزوج، وتخاف من الزواج مع ذلك، وتؤثر أن تظل مع أسرتها، وتعاني من الصراع بين الاختيارين.

الحلم الرابع: حلمت أنه قد وقع لي حادث وكُسرت ساقي فصنعوا لها جبيرة وكان عليّ أن ألازم الفراش، وكانوا يعنون بي ويحيطونني بالرعاية. والغريب اني ما كنت أشعر بألم الكسر، وكنت استمرئ البقاء في الفراش.

التفسير: التداعي بالمرض يخلّصها من حيرتها ومن الصراع الذي تعانيه والقلق أنها لم تتزوج، ثم الخوف من أنها لو تزوجت افتقدت أسرتها والأمان في البيت. وهي تؤكّد هذا العنصر - الرعاية والعناية اللتان يحيطانها بهما في البيت.

الحلم الخامس: حلمت حلماً غريباً. وكان هناك ابن خالتي الضابط، وحاولت أن أكلّمه ولكنه قال لي إنه يخاصمني، وسألته عن السبب فأشاح بوجهه، ثم كان هناك صديق أخي، وكان قد تحدث مع أسرتي بشأن خطبتي وترك أبي الأمر لي تماماً، وقد أشار بيده إلى حيث ذهب إبن خالتي، وأدار لي ظهره وسار في طريقه، وأصبحت وحدي ولم يكن هناك آخرون. وهززت كتفي فلم أكن أفهم لماذا يقاطعونني.

التفسير: تتضارب مشاعرها حيال الزواج، وهي تريده ولا تريده. وتحاول أن تستجلب لنفسها زوجاً، ولكن ابن خالتها

أولاً يخاصمها ثم يتابعه الآخر، وتسأل لماذا تقلق ولكنها تهز كتفيها، وكأنها تقول لو أن المسألة جاءت من هذين لا منّي لكان أفضل، فهي إذن تفضّل ألا تتزوج لأن في الزواج أن تخرج من بيتها إلى المجهول.

الحلم السادس: حلمت أني والأسرة سافرنا إلى الاسكندرية.

التفسير: هذا الحلم فيه الحل البسيط لأزمتها، فلا مانع عندها أن ترحل عن البيت، لكن بشرط أن تصحبها أسرتها.

الحلم السابع: حلمت أن أمي مرضت مرضاً مؤلماً وكانت تتوجع وماتت، وحزنتُ حزناً هائلاً وكانت تجربة فظيعة.

التفسير: الحلم إسقاط للصراع بينها وبين أمها، وهي لا تحبها لأنها تريدها أن تتزوج وتفارقهم إلى حياتها الخاصة، ودائماً تذكّرها بالزواج وتعود إليه المرة بعد الأخرى، والزواج عندها أهم من الدراسة، وهي لذلك في أعماقها لا تريد دوام الأم، وموتها يخلصها من عذابها، وبقدر بُغضها للأم بقدر الألم الذي ينزله حلمها بالأم في مرضها، والألم وحجمه يعكسان حجم الصراع الذي تعانيه، وموت الأم هو حل جزئي للموقف، لأنها لو ماتت فستكون هي حرّة، وتستطيع أن تبقى بلا زواج وتلازم إخوتها وأباها.

الحلم الثامن: حلمت أني في أول السنة الدراسية بعد أن نجحت وانتقلت إلى السنة الأخيرة، لكني كنت تعيسة لأني لم أعثر على الكتب المطلوبة لدراستي، ولم أفهم ما يقال في المحاضرات. واستيقظت من نومي وأنا أستشعر كآبة وهزيمة لا أدري كنههما.

التفسير: القلق الذي تعانيه هو القلق الذي يشكو منه كل طالب أو طالبة في أول يوم من الدراسة، ومعنى أنها في السنة الأخيرة أن تخرّجها قد اقترب وذلك يقلقها، فالتخرّج سيجبرها أن تترك البيت لتبحث عن عمل، وتتحمل مسؤوليات الكسب وربما تتزوج. وعليها إذن أن تختار بين الوظائف المتاحة والأزواج الموعودين، ولا مفر وقتها من حسم الاختيار، ولا سبيل إلى التسويف والتأجيل إذا خرجت فعلاً، وإذن فهي تخشى المستقبل وتخاف أن تشب عن الطوق. لكن لماذا هذا الخوف؟ أتكون هذه الفتاة من النوع الجبان غير الناضج،

والذي يرهب الدخول في تجارب جديدة وأن يتحمل المسؤولية، وأن تكون لها أعباء النساء، وتفضل أن ترتبط بعائلتها لأنهم يكفونها كل شيء ويؤمنون حياتها؟ أو ربما كان موقفها هذا هو تكرار لمواقف مشابهة سابقة فيها الفراق وعذابه وإحباطاته. والحلم الأخير من زُملة الأحلام هذه يعطينا الحل:

الحلم التاسع: حلمت بالأمس أني كنت وأختي أيام الطفولة، وكنا نمثل تمثيلية دوري فيها أن أقوم بالغناء لدقائق. وكنت أحاول أن أشترك ورفضوني ولم يقبلوا أن يعطوني هذا الدور الغنائي إلا في آخر لحظة، وتعثرت بروفاتي ولم أكن أعرف كيف أحفظ، وكانت أختي هي كل شيء، وهي الأولى، ولسبب لا أدري ما هو كنت أدخل وأظهر أمام الناس في غير وقتي وكانوا يسحبونني ويخرجونني بينما أختي تغني ويصفقون لها، وأخيراً أدخلوني فغنيت سطوري القليلة ومثّلت بيديّ ومِلت مع الأغنية فصفقوا لي كثيراً وكنت مندهشة فقد نجحت.

التفسير: يلقي الحلم الضوء على ما يُسمَّى التنافس بين الأشقاء والشقيقات، والحالمة تتنافس مع أختها على المركز الأول عند الأبوين، إلا أن الأبوين يؤثران الأخت عليها، فهي الأولى، وهي كل شيء، ودورها هي ثانوي، وما كانوا سيعطونها دوراً إلا في آخر لحظة وذلك أن بينها وبين أختها فارقاً في العمر الزمني، وما كان الأبوان سينجبانها إلا أنهما لظروف خاصة بهما أنجباها، وهي تحاول باستمرار أن تقول لهما إنها موجودة بين الأسرة، وتدخل في غير وقتها فيسحبانها للخارج، وأخيراً كبرت ودخلت الجامعة وقاربت أن يكون لها دور وإن كان صغيراً، وهي كما توحي نهاية الحلم يبدو أنها قد نضجت أخيراً وستقوم بدورها حتى لتنتزع من الجميع التصفيق لها، وبذلك تكون قد حسمت مشكلتها، فهي لم تعد بحاجة إلى أن تلتصق بأهلها وستشق طريقها معتمدة على نفسها، وتكون أيضاً قد حسمت الصراع بين الزواج والاستقلال لأنها في هذه المرحلة على الأقل تفضل أن يكون لها دور على مسرح الحياة، ولقد كانت تخشى أن تنفصل عن أهلها لأنها لا تأمن على نفسها بدونهم وغير مستعدة أن تضحي بالأمان لقاء

الزواج، أما وقد شعرت بالأمان فإنها تتقبل مسؤولية التخرّج وأنها قد صارت ناضجة.

ولنتحدث الآن عن مدى صدق هذا المنهج السابق، فلقد رأينا أنّا قد استطعنا أن نتحصل عن طريق زُملة الأحلام للشخص، على تشخيص للصراعات التي يعانيها وديناميات شخصيته، بمساعدة التفسيرات التي يقدمها هو نفسه لهذه الأحلام، ولكننا في الحقيقة لا ندري مدى صحة ما تذهب إليه تفسيراتنا، وربما كان ما تطوع به الحالم بإلقاء الضوء عليه ليس إلا شطحات من عنده، وربما هو قد يذهب إليه ما يذهب إلى غرض في نفسه، وقد يكون ما نذهب إليه أيضاً هو مذهب خاطئ، إلا أننا بالقطع نستطيع التحقق من صحة تفسيراتنا بما تعارفنا عليه من وسائل التحقيق من صحة أي رأي شخصي.

فأولاً: لو اتفق اثنان أو أكثر على تفسير لظاهرة فإن اتفاقهما قد يغري على التأمين على صحة ما ذهبا إليه، وطبقاً لهذا المنهج «منهج الاتفاق بين آحاد الناس» فإن الفيصل النهائي على صحة التفسير ليس هو مطابقته للحقيقة، ولكنه أن هذا الرأي هو رأي أناس خبراء أو أنه رأي الثقات، وثقات الناس يتحققون من صحة آرائهم بأن يبسطوا هذه الآراء للبحث مع زملائهم فإن وافقوهم فهو رأي صحيح. وثقات الناس يجتمعون على الرأي الواحد بأن يبحثوا أمره معاً، يتداولون الأفكار حوله ليمحّصوه ويصلوا بشأنه إلى قرار. والناس الثقات قد يصل آحادهم إلى الرأي نفسه كلٌّ على حدة، ثم يقارنوا ما توصلوا إليه ببعضه البعض ليتبينوا اتفاقهم، وهذه الطريقة الأخيرة هي أفضل طرق الاتفاق.

وثانياً: فإن الرأي الذي يذهب إليه أحد الناس إذا كان يصلح للتطبيق على أكبر عدد من الحالات فهو رأي يغلب فيه الصواب، وكلما زاد عدد الظواهر التي يمكن تفسيرها بالنظرية فإن الاحتمال يقوى بأن النظرية صحيحة، فمثلاً إذا كانت معاني زُملة الأحلام منفصلة تتوافق ويمكن أن تندرج بسبب هذا التوافق تحت افتراض واحد يجمع بينها جميعاً بحيث لا يكون هناك تعارض ما في

التفسيرات المختلفة، فإن الغالب أن تفسيراتها صحيحة. وهذا المبدأ هو «مبدأ التوافق الداخلي»، واختبار توافق البواطن أو الدخائل يجد أوسع تطبيق له في استبيانات الشخصية التي صُممت على أساسه.

وثالثاً: فإنه إذا اتفقت نتيجة اختبار مع نتيجة اختبار آخر أو مع نتائج أكثر من اختبار، فالغالب أن نتيجة الاختبار الأول صحيحة. و«مبدأ التوافق الخارجي» هذا لو طبّقناه على التفسيرات المختلفة والواحدة من جهة أخرى، لزملة الأحلام، فإن مضاهاة التفسيرات بتفسيرات أخرى، نحصل عليها من معطيات اختبارات تشخيصية مماثلة، كاختبار تفهّم الموضوع TAT، واختبار رورشاخ، واختبار التداعي الحر إزاء الكلمات، واستبيانات الشخصية، وملاحظة الحالم في مواقف محكومة أو مواقف حرة، واللقاءات معه، ورصد سلوكه المعبّر، والمعلومات التي نجمعها عنه، يجعلنا نميل بالقطع إلى الحكم على التفسيرات التي نذهب إليها للأحلام والمتفقة مع نتائج الاختبارات السابقة بأنها صحيحة.

ورابعاً: فإذا صدقت الأحداث المستقبلة مع ما تذهب إليه التفسيرات التي تقول بها النظرية، فإن ذلك لدليل على صدق النظرية. وهذا المبدأ نسميه «مبدأ الإنباء» في النظرية.

وخامساً: فإنه إذا كان الإنباء هو التنبؤ بالمستقبل، فإن هناك ما يجعلنا نستقرئ الحاضر لنتنبأ بما كان عليه الماضي. والإنباء بالمستقبل Prediction، والتنبؤ بالماضي Postdiction هو مبدأ قال به أول مرة توماس هكلسي، ووصفه بأنه «منهج صدّيق Zadig، عن شخصية ڤولتير في إحدى روائعه وهي رواية «صدّيق»، وصدّيق هذا يستخلص أشياء من الحاضر يفهم بها الماضي ويستعيده في ذهنه، وهذه الطريقة التنبؤية التي يعود الإنباء فيها القهقرى للماضي Retrospective prophecy يسميها أولبورت عالم النفس الأشهر «منهج التنبؤ بالماضي»، ولهذا المنهج ميزة على «منهج الإنباء بالمستقبل»، وذلك أن الباحث يستطيع به أن يتحقق من شيء حدث فعلاً في الماضي، وذلك أيسر وأوقع من التحقق من حدوث شيء قد يقع

في المستقبل.

وطرق التحقّق من صحة النظرية أو الرأي أو التفسير السابقة الخمس تقوم جميعاً على قاسم مشترك بينها، وهي أنها جميعاً تشترط الاتفاق، وهو اتفاق نستطيع أن نجمله على حسب ترتيبها السابق بأنه:

أولاً: إتفاق جماعي.

ثانياً: إتفاق باطن.

ثالثاً: إتفاق ظاهر.

رابعاً: إتفاق زمانه المستقبل.

وخامساً: إتفاق زمانه الماضي.

فأما الاتفاق الجماعي: فلو أننا استقدمنا عدداً من خريجي أقسام علم النفس بكليات الآداب وأعطيناهم زُملة أحلام، وطلبنا منهم إعطاء تفسيرات لها، فإن تفسيراتهم لتتشابه ويندر بها الاختلاف، فمع القدر الكافي من العلم بديناميات الشخصية وسيكولوجية تحليل الأحلام فإن المتوقع أن تكون التفسيرات على قدر من التماثل مهما تعدد المفسّرون، وذلك شيء يقوّي صحة ما نذهب إليه من أنه حيث يكون هناك اتفاق جماعي حول تفسير الأحلام فإن ذلك لدليل على صحة الأخذ بهذا المَنْهج - منهج الاتفاق الجماعي - كمعيار لقياس صحة التحليل.

وأما التوافق الباطن: فهو ما يجمع زُملة الأحلام للشخص الواحد حول فكرة تتكرر فيها جميعاً بطريقة أو بأخرى، وذلك دليل على أن كل شخص وإن كانت له صراعاته التي تظهرها أحلامه، وذلك لأنَّ هناك دائماً صراعاً أساسياً يجمع بينها جميعاً كالخيط الذي يصل بعضها ببعض. وحيث تتكرر الفكرة فإن الشخص يجرّب معها في كل حلم حلاً جديداً لعله عن طريق المحاولة والخطأ يصل فيها إلى حلٍّ يرضيه وينسجم معها. وهذا الاتفاق أو التوافق بين زملة الأحلام هو ما نصفه بأنه باطن، أي يعمل عمله من داخلها، فهو سمة باطنة فيها، والمَثَل على ذلك زُملة الأحلام التي للفتاة التي تعاني من الصراع بين النضج وما يتبعه من تحمّل للمسؤولية، والرضى بأن تتزوج وبين أن تستمر في كنف أسرتها ترعاها الأسرة بدون مسؤوليات عليها، فإنْ كانت الفتاة تحلم كل مرة حلماً مختلفاً فإن باطن هذه الأحلام يقوم على الفكرة الرئيسة التي توحّد بينها.

ويدعم هذا الاتجاه في تفسير الأحلام أن نظريات الشخصية تقول بهذا أيضاً، فمن المفروض أن كل شخص تتنوع سلوكياته وتتباين تصرفاته إلا أنها جميعاً تستقي من مصدر واحد، ولا بد أن يكون هناك ما يجمع بينها وهذه الزملة من الأحلام التي نقدمها كمثال لما نقول.

الحالة: طالبة في السنة الثانية الجامعية وعمرها عشرون سنة، مخطوبة، وخطيبها متعاقد للعمل في إحدى البلاد العربية وله سنتان غائب عنها، وهي ضَجِرة من وضعها لأنها مخطوبة وليست مخطوبة، فليس هناك ما يشير إلى قرب زواجها، فلا هي تلتقي بخطيبها كالبنات فيغازلها ويرضي حاجاتها العاطفية والجنسية، ولا هي حرة تتصرف مع زملائها بوصفها غير مرتبطة فتستمع إلى مغازلاتهم وتتجاوز عن ملاطفاتهم وربما تقع في الحب وتعيش هذه التجربة الثرية مثل رفيقاتها، وربما يتقدم أحد لخطبتها فتتزوج بسرعة وهي تعاني هذا الصراع وتحلم أحلامها من حوله.

الحلم الرئيس: دخلتُ مطعماً وكنت وحدي أبحث عن طاولة ولاحظت أن الطاولات جميعاً مشغولة. وكان على كل طاولة عريس وعروسة. ولم أجد إلا طاولة منعزلة رضيت بها، إلا أني انتظرت أن يخدمني أحد ولكن عبثاً، وأخيراً نفد صبري فخرجت، وكان عليّ أن أنزل سلماً حلزونياً لأتوجه إلى موعد، فقد تقدمت بطلب لأعمل، وكنت مرشحة لهذه الوظيفة، وبدأت أنزل إلا أن الهواء كان يطيّر فستاني فيتعرّى فخذاي، وجهدتُ أن أستر نفسي إلا أن محاولاتي ذهبت أدراج الرياح فأسرعت أنزل وقد تملكني التعب.

التفسير: يشرح الحلم حالة الحالمة، ويقول إن البنت قد عيل صبرها، ولقد قررت أن تتصرف وتتولى أمرها بنفسها. وتعكس حيرتها وتعبها ووضعها النفسي المجهد، وما يكلفها كبتها لعواطفها ونوازعها الجنسية.

الحلم الثاني: حلمت أن خطيبي قد عاد، وقد أحضر معه سيارة جميلة أخذني بها، وكنت غير مصدقة لنفسي، وظللت أقول هل أنا أحلم واستيقظت لأتبين لخيبة أملي أني كنت أحلم فعلاً.

التفسير: يصوّر الحلم ما تراه من حلّ

أمثل لمشكلتها، وهو أن يعود خطيبها فلا تكون هناك صراعات.

الحلم الثالث: حلمت أني مع خطيبي، ولكني لاحظت أنه لا يضع دبلة الخطوبة، فسألته فقال إنه لم يعد يلبسها، وقلت له غاضبة وهل تريد أن تتحرر من الخطبة؟

التفسير: الحالمة تقلب المسألة وتعكسها وتجعل خطيبها هو الذي يخلع الدبلة وتُسقط ما تنويه عليه.

الحلم الرابع: حلمت أن خطيبي مات، وكانت جثته في حقيبة سفر في غرفة نومي، وأصابني الفزع لما اكتشفت ذلك. وجاء الحانوتي وأخذه كما هو في الحقيبة، ووضعه على مسرح، وكانت الأنوار باهرة، وهناك زفاف، وكانت العروس ترتدي فستاناً أخضر، وهو اللون الذي أحبّه في فساتين الزفاف. وكنت أبكي، وفجأة خرج خطيبي من الحقيبة وضحك كثيراً لدهشتي، وكان يقول كنت أمثّل عليك! كنت أهزل معك! وبالمناسبة كثيراً ما أحلم بأن خطيبي قد مات.

التفسير: إن أية فتاة في مثل ظروفها لا بد أن ترى الحل لمشكلتها المعلّقة أن تفسخ الخطبة، وهو ما يعني أن خطيبها مات، أي أنه مات بالنسبة لها، وهي تعلّق على ذلك بأنها كثيراً ما تراه في الحلم وقد مات. وربما يعني كونه في حقيبة سفر أنها تذكر سبب فسخ الخطبة، أنه إنسان دائماً غائب في سفر، فسفره هو سبب موته بالنسبة لها. وأما الزفاف على المسرح فهو زفافها هي العلني الذي تحب أن تحتفل به، والفستان أخضر لأنها تحب لون فستان الزفاف أن يكون أخضر، وموت خطيبها على المسرح هو نهاية الخطبة علناً ليعرف عنها الجميع وبذلك تتحرر من خطيبها وتستطيع أن تتزوج بآخر. وهذا الحل أن يموت خطيبها، على الحقيقة مرفوض منها، فإن موته المطلوب هو موته بالنسبة لها، يعني فسخ الخطبة، أما أن يموت على الحقيقة فهي تقول إنه تمثيل.

الحلم الخامس: حلمت أني كنت أجلس مع شقيق خطيبي نتحدث عنه وعن غيابه الذي طال، ثم فجأة وجدته هو نفسه خطيبي وضحكنا.

الحلم السادس: كنت مع ابن خالتي نسير في شارع طويل. وجاءت سيارة أجرة فأشرنا إليها، وأخذتنا إلى جهة لا أعرفها.

الحلم السابع: حلمت أني وأخي نسير في حديقة، واكتشفت أن ابن الجيران جالس غير بعيد، وكان طالباً في السنة النهائية بكلية الطب، وكانت معه فتاة، وتقدمنا منه وسلّمنا عليه، وكان الارتباك عليه واضحاً، فقلت له هل هي قريبتك؟ قال نعم، ولكني أذكر أني رأيت هذه الفتاة في الجامعة، وكان هناك لغط كثير حول سلوكها، والولد كان عندي محترماً.

التفسير: الأحلام الثلاثة تشير إلى رغبة الفتاة أن تتعرف إلى الجنس الآخر، وأن تقع في الحب، ولكنها لا تريد أن تكون سيئة السلوك وأن يكثر اللغط حول تصرفاتها. وهي ترى نفسها مع شقيق خطيبها الذي يحل محله، ومع ابن خالتها، ومع ابن الجيران، وكلهم شخصيات محترمة يمكن أن يكونوا بدائل للخطيب الغائب، وهي تريد علاقة حب محترمة وليس علاقة جنسية. وربما يعني الحلم الأخير أنها تريد أن تبرّر رغبتها في الوقوع في الحب، وإن يكن علاقة يدور حولها اللغط، بأن تنسب لابن الجيران «المحترم» انه يحب فتاة غير محترمة.

وأما «الاتفاق الظاهر»: فهو الذي يكون بين النتائج التي نتوصل إليها عن طريق الأحلام والنتائج الأخرى التي قد نبلغها بالطرق السيكولوجية الأخرى لدراسة الشخصية، فإن الدراسات الحديثة، وخاصة في مجال اللقاءات الشخصية، تؤكده. وما نتحصل عليه من معلومات عن الحالم وبيئته وظروفه، وما نسأل عنه من المحيطين به، ومستدعيات الحالم نفسه حول حلمه، وذكرياته، كلها تتفق مع تفسيرات الأحلام التي تتماشى مع أحداثها.

وأما «الاتفاق الذي زمانه المستقبل»: فنعني به أن نختبر صدق التفسير بما يصدق منه مستقبلاً، أو تنذر به، وكانوا يسمونها الرؤيا الصادقة، وتفسيرات أحلام صاحبيّ يوسف، وفرعون يوسف، كلها صدقت. وهذا الصدق المستقبلي دليل على صحة التفسير الذي يذهب إليه المفسر. والإنباء Prediction إذن يمكن أن يكون طريقة من طرق التحقّق من صدق التفسير، ولقد جرّبه العلماء، وصدق في الغالبية العظمى من

التفسيرات. فإذا كانت الأحلام السابقة للفتاة المخطوبة لخطيب مسافر وطال سفره على ما هي عليه، أفلا نتنبأ منها أن هذه الخطبة لا محالة مفسوخة؟ فإذا صدق من بعد أن الخطبة فُسخت فعلاً فإن هذه النتيجة قد يمكن أن تستخلصها من مقدماتها السليمة. وفي زملة أحلام البنت التي تعاني من مشكلة الاختيار بين التخرّج والحرية والمسؤولية، وبين أن تتخلف دراسياً لتظل مع أهلها وترفض لهذا السبب أن تتزوج، لأن الزواج يعني أن مسؤوليتها صارت إلى نفسها - رأينا في آخر حلم لها أنها نجحت في أن تفعل ما لم تكن تتوقعه من نفسها، وما أثار إعجاب المحيطين بها، وتنبأنا بأنها ستنجح فعلاً بعد أن استبصرت حالتها من خلال التفسيرات المقدّمة لأحلامها، وقد حدث ذلك فعلاً مما أجريناه من تحقيقات حولها من بعد.

وبالمثل في التنبؤ بالماضي Postdiction فقد أمكن أن نعرف من الأحلام أحداثاً هامة من الماضي أمكن التحرّي عنها ووُجِدت صحيحة. والحالم نفسه قد لا يؤكّدها لسبب في نفسه، ولكن اللقاءات التي تتم مع أهله ومعارفه والكبار في السن من المحيطين به، قد نتعرف من خلالها على معلومات كانت دائماً متفقة مع التفسيرات الصحيحة للأحلام، والتي يذهب إليها خبراؤها من محللين ومفسرين.

إذن فأنْ نعتبر الأحلام معطيات سيكولوجية نعوّل عليها لدراسة الشخصية مسألة سليمة، ووجهة نظرنا في ذلك أن الأحلام مصدر معلومات هائل عن الشخصية، وأنها وسيلة إسقاطية، ربما كانت أثرى وأصدق الوسائل الإسقاطية إطلاقاً. والأحلام من وجهة نظرنا محاولات من الحالم لحل صراعاته الحالية. ونحن نعتمد في منهجنا في تفسير الأحلام على الأخذ بمجموعة من الأحلام للحالم الواحد، وليس التعويل على حلم واحد، فأحلام المجموعة الواحدة تفسر بعضها البعض، وتلقي الأضواء على معاني الرموز في بعضها البعض. وما نذهب إليه هو نظرية علمية يمكن تطبيق طرق التحقق من صدقها علمياً، ولقد أجملنا

هــذه الــطــرق فــي خــمس هــي الاتــفــاق الـجـمـاعـي، والاتـفـاق الـبـاطـن، والاتـفـاق الظاهر، والإنباء والتنبؤ، على اعتبار أن أسـاسـهـا الـمشـتـرك جميعاً هو الاتفاق، وكـانـت كـمـنـهـج لـتـفسـيـر الأحـلام. وطريقتنا إن بدت متباينة عن طريقة فرويد في تفسير الأحلام التي تقوم على التداعي الحر، إلا أنها مع ذلك تدور فـي إطـار مـن الـرؤيـة الـفـرويـديـة الـعـامـة. وسـنـحـاول أن نـطـرح طـريـقـة فـرويـد ونـقـارن بـيـنـهـا وبـيـن الـطـرق السابقة.

الباب الرابع عشر
«تفسير الأحلام بالتداعي الحر»

كان المنهج الشعبي في تفسير الأحلام هو المنهج السائد قبل فرويد، فمنهج فرويد هو أول منهج علمي. وقبل فرويد كان الناس يعتمدون في أول الأمر على طريقة التفسير الرمزي للأحلام، فكل شيء يعني شيئاً، فمثلاً في حلم فرعون السبع بقرات العجاف تعني سبع سنين عجاف، والسبع بقرات السمان تعني سبع سنوات من الخير، وان تأكل البقرات العجاف أخواتها السمان يعني أن يأتي القحط عقب الشبع، وما نلاحظ فإن هذا المنهج يعتمد على ثقافة المفسّر وسعة اطلاعه وحذقه، وقد يتراءى له أن الرمز له معنى معين قد لا يراه مفسر حاذق آخر مثله، ومن ثم فالتفسير كان ذاتياً، وهذا ما حذا بابن سيرين أن يضع شروطاً خاصة لا بد أن تتوافر في المفسر بهذه الطريقة.

وأخذ الناس من بعد بمنهج آخر في التفسير، يعتمد على الرجوع إلى كتاب في التفسير أو ما يشبه القاموس، فإذا رأى الواحد منهم أنه على سفر، يفتح كتاب التفسير على بند السفر، ويقرأ ما يعنيه الرمز، ثم يفك شفرة الحلم بأن يترجم رموزه وفق ما يقوله الكتاب. والطريقة لذلك تسمى طريقة التفسير بفك الشفرة أو تسمى منهج الشفرة.

وجاء فرويد، وكان قد تتلمذ على أستاذ نابه هو بروير، وكان بروير يعالج المرضى بالعُصاب، ولاحظ أنه وهو يتحدث مع المريض ويتناول أعراضه، فإن المريض يستطرد منها إلى أفكار له حولها، ومن ضمن هذه الأفكار ما يحلم به المريض، وتعلّم بروير أن يتناول كل فكرة عند المريض، ويتابعها في تفكيره بمناقشتها معه جزءاً جزءاً، إلى أن يصل إلى جذورها التي هي مصدر الخطأ في الفكرة، فإذا استبصرها المريض فإن العَرَض الذي يمثل الفكرة يزول عنه.

وأخذ فرويد بمنهج بروير، واعتبر الحلم ظاهرة نفسية، وعَرَض من أعراض الاضطراب العُصابي، ومثلما كان يناقش المريض حول أفكاره فكان أيضاً يناقشه في أحلامه، وتعلّم أن يعدّ

المريض قبل هذه المناقشة إعداداً نفسياً، بأن ينبّهه إلى طريقته وما يهدف إليه منها، وهو أن يزيد إدراك المريض لحالته، ويقتضي منه ذلك أن يقول أثناء جلسة العلاج كل ما يعنّ لذهنه من خواطر وذكريات، ومهما كانت، دون أن يحاول أن يخفي شيئاً. ولاحظ فرويد أن مَلَكة النقد تكون عند المرضى قوية كلما تواردت إلى أذهانهم خواطر «ممنوعة» أو «خطيرة»، وكان عليه أن ينبه المريض قبل العلاج أن يحاول أن يلغي مَلَكة النقد هذه، أو يعطلها أثناء توارد خواطره. وتوارد الخواطر هذا يسميه فرويد ملاحظة ذاتية، حيث تفكير الشخص يكون متوجهاً لما يرد على ذهنه، وهو ضرب من التفكير ولكنه يختلف عن التفكير، أن الأفكار هنا تأتي متحرّرة من أية قيود، وبدون قمع أو كبت، في حين أنها في التفكير العادي تغربلها ملكة النقد، فتستبعد بعضها أو توجز بعضها أو تقوم بتحريف بعضها. والمريض في الملاحظة الذاتية إذ يأخذ بمنهج التداعي الحر يكون حيادياً مع أفكاره، فلا ينحاز لبعضها ولا يعارض بعضها، وهذا هو الشرط الأساسي لإتمام العلاج. والأحلام ضرب من الأفكار، وإنما هي أفكار مصوّرة، والشخص عندما ينام يسترخي فتكون هذه الأحلام التي تنبعث أفكاراً لا إرادية. والمريض تحت العلاج بطريقة التداعي الحر يسترخي أيضاً بحيث تتوارد مستدعياته، إلا أنها لا تتوارد لا إرادياً كما في الأحلام ولكن إرادياً، ويفيده جداً ما يوفره له الاسترخاء من طاقة، فيوجهها لعملية إبتعاث الأفكار الإرادية.

وقد يسهُل التداعي الحر عند بعض الناس، لأنه من اليسير عليهم أن يفتعلوا الحيادية مع أفكارهم إذا طلبنا منهم ذلك، إلا أن البعض يشق عليهم ذلك لاعتيادهم ممارسة النقد على أنفسهم وتمحيص أفكارهم، والنتيجة أن الأفكار اللاإرادية في الحلم يقاومونها فتقل أحلامهم، كما أن الأفكار الإرادية في التداعي الحر تحرك فيهم مقاومة عنيفة تحول دون ابتعاثها. وكان فرويد من الناس الذين يسهل عليهم ابتعاث الأفكار بالتداعي الحر، فطبق المنهج على نفسه، وأورد الكثير من الأحلام في كتابه

«تفسير الأحلام»، ناقش فيها خواطر الحلم، وأحداثه وذكرياته، عن كل كلمة، أو إشارة وردت به.

وتقوم طريقة فرويد في الاسترخاء على توفير جلسة مريحة للمريض بحيث يستلقي على أريكة، ثم يبدأ المريض بسرد خواطره حرة، بما فيها أحلامه، وعند تناول الأحلام يكون تناولها جزءاً جزءاً، والحالم لا تَرِدُ على ذهنه أية خواطر لو حاول أن يعلّق على الحلم ككل، فإذا قسمناه يستطيع أن يتحدث عن كل جزء بسيل من المستدعيات، بحيث تمسك الفكرة بتلابيب الفكرة، وتنهال الأفكار التي كانت مخبوءة ومجهولة منه عن هذا الجزء أو ذاك.

إذن فوظيفة المحتوى الظاهر للحلم عند فرويد هو أن هذا الظاهر بمثابة العلامات على الطريق المؤدية للمحتوى الباطن. والمحلل يقف من الحالم وهو يستدعي خواطره موقفاً حيادياً ومشاركاً، فهو حيادي بمعنى أنه يستبقي نفسه خلف عملية التذكّر أو عملية التداعي، حتى أنه ليتخذ مجلسه خلف الحالم وهو مستلق في استرخاء على الأريكة. ويكون مجلسه الخلفي، مع الإضاءة الخلفية، بحيث لا يشغل الحالم بأيهما وينهمك في عملية ملاحظة ذاته، واستدعاء خواطره. ويسجل المحلل ما يراه مهماً، وقد يستوقف الحالم ليستزيده توضيحاً لنقطة، أو يوجّه عملية التداعي. وبقدر ما يكون الحالم وقد استغرقته خواطره، بقدر ما يكون استغراق المحلل تفكيراً في هذه الخواطر. وهذا هو ما نعنيه بالمشاركة من طرف المحلل. وتقتضي هذه المشاركة أن يكون متقبلاً للحالم ولخواطره، فلا يستثقل دمه مثلاً، أو لا يكون في مزاج بحيث يتجاوب سلبياً معه. ويُحذر المحلل أن يفرض نظرياته مقدّما على ما يسمعه، ويغصب مستدعيات الحالم في قوالب نظرياته، فتتوه منه الحقيقة، ويجانبه التفسير الصحيح والتشخيص الصادق. وليس هناك حلم سخيف، وحلم مهم، ورؤيا صادقة، فكل الأحلام سواء، وكلها منبئة، بمعنى أنها تفصح عن شيء وتكشف مستوراً. والحلم هو عمل الحالم، وإبداعه الذي يتوفر عليه بكل مكوناته الثقافية والذهنية والنفسية والحياتية، والمحلل إذ يستمع إلى الحلم،

ثم ينصت لمستدعيات الحالم، إنما يستشرف العالَم الباطن للحالم، ويستمع إليه في حوار مع نفسه، ويشاهده على الطبيعة وعفوياً يتعامل مع أجزاء الحلم فيكتشف اتجاهاته ودفاعاته واضطراباته. وأسلوب الحالم في الحلم هو أسلوبه نفسه في الحياة والحلم مفتاح شخصية الحالم، وسؤال الحالم عما يعنيه الحلم قد يكون مباشرة وقد نستقصي فيه كل جزء، وقد نتحرى عن نشاطاته في اليوم السابق على الحلم، والأمر متروك لكل محلل على حدة، ففي تفسير الأحلام طبقاً لمنهج التداعي الحر يكون لكل شيخ طريقته كما يقول المَثَل. وقد يحدث أن لا يستجيب الحالم للتداعي، ولا يتحدث بشيء ويقف موقفاً سلبياً، وقد يفيد في هذه الحالة أن يبدأ المحلل الكلام بما يعرفه من حياة الحالم، وما قد ينعكس من هذه المعرفة على الحلم من تفسيرات. وقد يدرك المحلل تفسير الحلم دفعة واحدة ولكنه لا يعلنه للحالم. وقد لا يفيد الحالم ما نعرفه عن الحلم، وقد نتريث في التفسير، وقد نؤثر أن نتأكد أنه مستعد لتلقي ما نقول. وتحتوي أحلام المرضى بالقلق على معلومات لا يفيدهم أن يعرفوها. وبعض تفاصيل الأحلام تقودنا مباشرة إلى المعنى المخبوء، وبعضها يحتاج إلى جهد كبير لتفسيره، وبعضها الغاية منه التمويه على الحالم وصرف انتباهه تماماً عن دوافعه. وقد يضطر المحلل أن يستعيد الحالم أجزاء من الحلم، أو يستعيد الحلم برمته، وقد ينتقي من الحلم شذرات يركز عليها، وهو إذ يسأل عن شيء يبدأ من المعروف وينتهي إلى المجهول، أو من المألوف ويتوقف عند الشاذ. والتفسير الذي هو الغاية والهدف من كل ما سبق ينبغي أن يكون بلغة مفهومة من الحالم، تناسب ثقافته، وتلائم ذكاءه وقدرته على الاستيعاب.

وطريقة التداعي الحر في تفسير الأحلام برغم أن فرويد طرحها في كتابه سنة ١٩٠٠م إلا أنه لم يحدث أن جُرِّبت «معملياً»، ولكن تطبيقاتها الكلينيكية كانت إيجابية في نطاق التشخيص المرضي. والتداعي الحر في تفسير الأحلام يقصر عن الوفاء بأهدافه في مجال تشخيص الشخصية، وبغاية

الكشف عن ديناميـاتهـا، فنحن مع غير المرضى نتعجل المعلومات، ومنهج التداعي يتطلب وقتاً ويستلزم الانتظار إلـى أن يحلم الحالم مجموعة من الأحلام، ويتطلب تجميع المستدعيات وكتابتها وفحصها والمقارنة بينها، وذلك يستغرق زمناً نحن لا نستطيع إهداره، ولدينا مناهج أخرى أسرع. وأوفر مثل اختبار رورشاخ لقياس الشخصية المسمى «اختبار بقع الحبر Ink-blot test». وليس الناس سواء فيما يتعلق بالقدرة على استدعاء الخواطر والأفكار ومعايشة المشاعر، وبعضهم قد يقدّم مادة غنية جداً ويكون ثرياً في الكلام، وبعضهم قد لا تكون لديه موهبة الكلام ويكون شحيحاً فيما يقول، قاصراً في تعبيراته، وبعضهم قد تحول المقارنة دون أن يستطرد في السرد. وأيضاً يتمايز المحللون، فبعضهم موهوب وله البصيرة الحادة، ويمهر في استدراج الحالم واستقراء المستدعيات، ويتقن المناورة، فإذا واجهته المقاومة فقد يبدأ من جديد، أو يصوغ السؤال بطريقة مختلفة، وبعضهم ليست لديه هذه الدراية أو البراعة أو الموهبة، ومن ثمّ فقد تكون طريقة تفسير الأحلام بتحليلها أيسر في التطبيق من طريقة تفسير الأحلام بالتداعي الحر. مع الأخذ في الاعتبار أن منهج فرويد يتوجه من المحتوى الظاهر للحلم إلى محتواه الباطن، في حين أن طريقة تحليل الأحلام تقوم على التعامل مباشرة مع المحتوى الظاهر، وإن كان ذلك يتم في إطار من المقولات الفرويدية كما سبق أن نوهنا (Erikson, H.: The Dream Specimen of Psychoanalysis).

الباب الخامس عشر
«الإسقاط في تفسير الأحلام»

الإسقاط هو أن ننسب أفكاراً أو مشاعر لنا إلى غيرنا، ومن الأمور المألوفة أن يسارع الناس إلى تفسير أحلام غيرهم بمجرد سماعها مع أنهم ربما لا يعرفون شيئاً البتة عن ذلك، أو قد يعرفون النزر اليسير الذي لا يؤهلهم لأن يدلوا برأيهم فيما يسمعون. وربما كان مرد هذه العادة أننا جميعاً نخبر الأحلام وأنها قد تتشابه في محتواها، وأن منها مجموعة نمطية قد تغرينا أن نضع تفسيرات متشابهة للرموز الواحدة، أو ربما كانت عملية التفسير سهلة لأنها عملية إسقاطية يُخرج فيها المفسِّر ما يشعر هو به أو يفكر فيه حيال محتوى الحلم ويعرضه كتفسير. والواقع أن الإسقاط هو ما نحذره دائماً عند التعرّض لتفسير الأحلام. ولا يمارس المحلل تفسير الأحلام إذا تدرّب على تجنّب الإسقاط بحيث لا يُنسب ما عنده إلى مكونات الحالم ويعطيها تأويلات هي إسقاطاته عليها، ولعله لهذا السبب قرن فرويد وتلاميده تفسير الأحلام بالتداعي الحر الذي يقوم به الحالم نفسه، وشرطوا أن يشارك الحالم في تفسير أحلامه، ولا يسارع المحلل إلى إلقاء التفسير في وجه الحالم، ولكنه يستدرجه إلى هذا التفسير بحيث يصنعه والحالم نفسه، ويقول به في لحظات الاستنارة والاستبصار بمعاني الرموز في الحلم وإحالاتها على حياته في الحاضر والماضي.

والمعوّل عليه في تفسير الأحلام بتحليلها بدون التداعي الحر أن المحلل لا بد أن يعرف بعض المعلومات عن الحالم، ولا بد أن يلتقي الحالم ويجلس إليه ويعاينه بنفسه، ويسمع منه. والحلم كما قلنا هو إبداع الحالم، ولا ينفصل عنه، وهو تفكيره مطروحاً إلى الخارج، وهناك دائماً عملية إحالة بين الحلم والحالم، وقد يدأب بعض الناس على أن يرسلوا أحلامهم في خطابات ليفسرها لهم آخرون، وقد يحملها إليهم مَن يطلب منهم تفسيرها، وهو ما نسميه تفسير الأحلام الكاذب Pseudo - oneiromancy. وتثبت البحوث على الأحلام أن دراسة

تاريخ حياة المفسّر تبين أن ما يقدمه من تفسيرات ترتبط بوجهة نظره وثقافته وإطاراته المرجعية واتجاهاته واهتماماته. ويستدخل المفسر عواطفه وما يحب وما يكره وخبراته وأفكاره. ولذلك فإن الأحلام التي يكون مضمونها المشاعر والعواطف قد يصيب المفسر في تفسيراتها متكهناً الحالة النفسية السائدة فيها.

وهذه الأحلام العشرة أعطيت لخمسة وعشرين مفسراً فجاءت تفسيراتهم لها كما سنبين من بعد:

الحلم ١ - كانت الحالمة تتحدث إلى شخص عندما أخذ هذا الشخص يتضاءل إلى أن تحول إلى حشرة ثم طار.

الحلم ٢ - كانت السماء ممتلئة بالطائرات التي تسقط باراشوتات. وأدرك الحالم أن أحد الباراشوتات معلق وبه طفل وأخذت المدفعية الأرضية تصوب ناحيته، والحالم قلق على مصير الطفل.

الحلم ٣ - كانت هناك دقّات على الباب، وفَتحت الحالمة فوجدت رجلاً لم تتبينه، ولكنها متأكدة أنها تعرفه.

الحلم ٤ - كلب صغير وكلب كبير عثرا على بيضة فرخة، وأخذ الكلب الصغير يساعد الكلب الكبير على رفعها من الأرض، ولكنها تقع من فم الكلب الكبير على الأرض وتتكسر.

الحلم ٥ - عندما عاد الحالم ليلاً إلى حجرته، وجد إلى جوار سريره سريراً كبيراً قد نُصب ينام فيه رجل وزوجته لا يعرفهما.

الحلم ٦ - يذهب الحالم إلى البقّال لكنه يجد مكانه الشركة التي يعمل بها، فيعود إلى البيت ويجد مكانه مكتب البريد.

الحلم ٧ - كان على الأسرة أن تخرج للنزهة، ويبحث الحالم عن أمه فلا يجدها ويتوجه سؤاله إلى الأب والإخوة والأخوات فلا يعطيه أحد جواباً.

الحلم ٨ - حلمت الحالمة أن صاحبتها وكانت جميلة ولعوباً، تقدمت للانتقال إلى مدرسة أخرى معروفة بجديتها وبرامجها الدراسية القوية.

الحلم ٩ - ينزل الحالم وأمه في محطة السكة الحديد، ويبحث عن حقيبة سفر ويعثر عليها مفتوحة، ويحاول أن يضع على

نفسه بعض الملابس فقد كان عارياً، ولكنه لا يستطيع فيستر نفسه بالجلوس، ويضع طفلاً على حجره.

الحلم ١٠ - كانت هناك مخالب كثيرة تقترب منه حثيثاً ولم يستطع أن يهرب الحالم منها.

تحليل التفسيرات:

١ - إختلفت تفسيرات الحلم الأول إلا أن نصفها تحدث عن قطيعة عاطفية مثل: «الحالمة تخشى أن تفقد عزيزاً عليها»، أو «الحالمة تحب من طرف واحد»، أو «الحبيب سيبتعد إلى أن يطير من حياتها»، أو «الحالمة لا تريد هذا الرجل وتتمنى لو ينتهي من حياتها»، أو «هذا الشخص غير مهم لحياتها». وغير ذلك من التفسيرات مثل: «إنها لا تثق بنفسها»، و«الحلم تعبير عن الشعور بالنقص»، و«الحالمة لا تشعر بالأمان».

٢ - كانت هناك تفسيرات متباينة للحلم الثاني حول امتلاك طفل مثل «رغبة في الإنجاب»، أو «الخوف من الإنجاب»، أو «القلق على طفل»، أو «الحلم صدى لوجود مشكلة معلّقة لم تُحَل عند الحالم».

٣ - دارت التفسيرات للحلم الثالث حول التعرّف على رجل، أو أن يكون للحالمة رجل أو زوج، أو الشوق إلى لقاء شخص مهم.

٤ - الحلم الرابع قالوا فيه إن الكلب الصغير هو إبن، والكلب الكبير أب، أو أنهما أخان صغير وكبير، أو صديقان، والصغير به عقدة نقص أن يقدم يد المساعدة ولكنه يفشل، أو الكبير فاشل والصغير يقوم بواجبة، أو أنهما شخصان أحدهما كفوء والآخر فاشل.

٥ - تباينت التفسيرات فمن قائل إن الحالم هو نفسه الغريب، وهو في حالة خصام مع زوجته، أو الحالم يتمنى مضاجعة امرأة غيره، أو الحالم متضايق أن آخرين قد زاحموه ويضايقونه في عيشته، أو الحالم يعاني من إحباط جنسي.

٦ - أجمع المفسرون على أن انتقال المباني من أماكنها هو اضطراب في حياة الحالم، واختلفوا حول السبب مثل «لأنه يشعر بعدم الاستقرار»، أو «لأنه كثير المشغوليات»، أو «لأنه يسيء توجهاته»، أو «لأنه لا يعرف أين يذهب»، أو «لأنه يخشى

أن يتعطل عن العمل».

٧ - ذهب المفسرون مذاهب شتى في تعليل غياب الأم، فمن قائل إن الحالم قلق على أمه التي يحبها، إلى قائل إن الحالم لا يستشعر الأمان، أو إنه لا يثق في أمه، أو إنه يكرهها أو إن الأم ماتت من زمن غير بعيد.

٨ - الحلم الثامن فسّروه بأنه حلم غيرة، وقال أحد المفسرين إن الحلم يعني أن الجمال وحده لا يكفي بل يلزم أيضاً الذكاء، وقال آخر إن الحالمة زهدت أن يمتدحها الناس لجمالها وتريدهم أن يمتدحوها أيضاً لذكائها.

٩ - قال أحد المفسرين عن حلم التعرّي إنه حلم حلماً كهذا، وقالت واحدة إنه تعبير عن الخوف من التعرّي، وقالوا بل هو الخوف من عتاب الأم.

١٠ - وفسّروا الحلم العاشر بأنه مخاوف من موقف متأزم، ربما هو الزواج، أو ربما وظيفة جديدة، أو ربما الحالم متضايق من ملابس النوم الضيقة، أو ربما هو خوف عام تملّكه من كل شيء ولا شيء.

ولقد تبين من تحليل الاستجابات أن المفسّرين ينفعلون في الحياة في المواقف التي يتخيّلونها للأحلام بالانفعالات نفسها في تفسيراتهم، وأنهم كانوا يعانون من مشاكل قريبة مما وصفوه كتفسيرات، كأن تكون مشاكل عائلية مع الأبوين أو مع الإخوة، أو مشاكل في العمل. وكانت تفسيرات الذين قالوا بعدم الاستقرار أو الشعور بعدم الأمان واحدة في أربعة أحلام، والنتيجة أن التفسيرات جميعها لأنها من غير الثقات في تفسير الأحلام كانت إسقاطات لانفعالاتهم وأحاسيسهم واتجاهاتهم وانطباعاتهم عن الحياة على مواقف تخيّلوها لأنفسهم.

الباب السادس عشر
«الأحلام النَمطية»

- ١ -
أحلام العري

قلنا إن الأحلام تتميز بالخصوصية، ويلزم لتفسيرها إذن أن تكون هناك زُملة منها ليفسر بعضها بعضاً، وتُلقي جميعها الضوء على النَّسَق الرمزي للحالم وطريقته في التفكير الحلمي، وأسلوبه في العَرض الحلمي، وأن يساعدنا الحالم على التفسير، أو تساعدنا معرفتنا بظروف الحالم وشخصيته، وقد نجرّب في تفسير الحلم التداعي الحر للحالم حول موضوع حلمه وأحداثه الظاهرة لنخلص منها إلى المعنى الباطن.

ويبدو أن هناك أحلاماً نمطية لا تحتاج إلى كل ما سبق ويمكن تفسيرها مفردة كما هي، ونطلق عليها هذا الاسم «الأحلام النمطية»، لأننا جميعاً قد خبرناها يوماً ما، ولها عندنا معنى واحد، ويبدو أيضاً أن منشأها عندنا واحد، والمثال على ذلك أحلام العُري كالحلم التاسع من الفصل السابق. والشرط في أحلام العري النمطية - كما نلاحظ - أن العري يتسبب عند الحالم في الخجل، فإذا لم يكن الحالم يستشعر الخجل فللحلم تفسير آخر بالضرورة. وهذا الخجل الذي يستشعره الحالم نتيجة عُريه يعاني من جرّائه، بحيث تتسبب هذه المعاناة في أن تُكَف حركته فلا يستطيع الفرار من الناظرين، ولا يستطيع درء عُريه وسَتره فهو كالعاجز، وقد يتحرك ولكن حركته لا تفيده.

والعُري نفسه يختلف من حالم إلى حالم، وبحسب موضوع الحلم، فقد يكون العري لراقصة هو التجرّد تماماً، وقد يكون العُري لضابط هو أن يسير بدون الكاب على رأسه!

ومن الغريب في أحلام العُري النمطية أن عري الحالم لا يستثير الناس من حوله، فلا أحد يعيره التفاتاً. وارتباك الحالم وعدم مبالاة الناس هو تناقض يلفت الانتباه للحلم، ولولاه لما كان للحلم المعنى الذي نقول به، وذلك أن أحلام العري تعكس رغبة من الطفولة، وفيها كنا نمشي عرايا ويلذ لنا ذلك، وما كانت

النظرات تنتهبنا، وذلك نفسه ما يحدث في الحلم، فالناس لا يتنبهون لنا ونحن نرتبك من العري، والقَلب الذي يحدث - وهو من ميكانيزمات الأحلام أو الحِيَل التي تلجأ إليها - جعل اللذة للتعرّي خجلاً منه، وإذن فالرغبة التي يعكسها هذا الحلم النمطي هي رغبة في الاستعراء أو الاستعراض، وهي رغبة عميقة فينا من الطفولة البعيدة، بل هي رغبة تاريخية في الإنسان منذ الخليقة، ففيما يقال إن آدم وحواء كانا عاريين في الجنّة، ولم يخجلا من عُريهما إلا بعد أن عصيا الله. وكذلك في الإنسان، فإن الخجل يتأتى من انتصار الرغبة السحيقة التي نصفها بأنها لاشعورية، أي أنها فينا دون أن ندري عنها شيئاً أو نعيها، وانتصارها على رقابة التربية والحضارة، أي على الضمير أو الأنا الأعلى الذي موقفه هو موقف الله، فظهور الرغبة عصيان للشعور أو الوعي أو الضمير، والعقاب أن يستشعر الانسان الخجل، والمثال لذلك:

حلم ١ - حلمت أني في عملي وأجلس إلى مكتبي، وفجأة تبينت أني عار، وأخذت أهيل الدوسيهات فوقي، وأنظر حولي مخافة أن يكتشف الموظفون العري الذي أنا فيه.

التفسير: الحالم قد أتى ذنباً يتعلّق بالعمل، ويخاف أن ينكشف ويحاول أن يغطي على فعلته.

حلم ٢ - حلمت أني ليلة زفافي، وكانت زميلاتي قد تحدثن عنها، ولكني لم أكن أخاف شيئاً إلا أن يراني عريسي عارية، فأمسكت بملابسي بشدة واستيقظت من نومي مفزوعة.

التفسير: الحالمة كانت تعاني من تأجيل زواجها باستمرار وتريد إتمام الزواج ولكنها كانت تخشى إعلان رغبتها حتى لا تفسّر تفسيراً جنسياً، وكانت تسكت على مضض، وهو ما يزعجها، ويسبب لها معاناة نتيجة هذا الصراع الذي يحتدم داخلها ولا يدري به المحيطون بها.

- ٢ -
«أحلام موت الأهل»

قد يحدث أن نحلم بأن عزيزاً علينا قد مات، كأن يكون أباً وأخاً أو أختاً أو صديقاً، وعندئذ فقد نحزن ويصيبنا

الكمد ونذرف الدمع الثخين، أو قد لا نتأثر البتة وكأن شيئاً لم يحدث.

والأحلام من هذا النوع، التي يمكن أن نُدرجها ضمن الأحلام النمطية، هي التي نستشعر فيها الحزن حقاً، فبديهي أن نحزن لموت هذا القريب أو العزيز، وغير الطبيعي أن لا نحزن، ولذلك فإن أحلام الموت التي لا تقترن بالحزن لا بد أن تعني شيئاً آخر خلاف الموت، والمثال على ذلك هذا الحلم:

- حلمت أن ابن اختي الوحيد قد مات، وكنت أتأمله مسجي على الفراش ولا أبدو حزينة البتة.

- التفسير: تبين من مستدعيات الحلم واشتراك الحالمة في التفسيرات أن أختها هذه كان لها ولدان، مات أحدهما من قبل، وحضر موته قريب لهما كانت تتمنى لو تزوجته. وقد انقضى زمن على الحادثة، وعاودها الحنين لرؤية قريبها هذا لأنها لم تتزوج للآن، ويبدو أنه لم يكن هناك احتمال لزيارته لهما إلا مع حادث مهم كحادث وفاة الابن، ومن ثم فقد حلمت أن الإبن الثاني قد مات لعل هذا القريب يحضر هذه المرة أيضاً فتراه. وإذن فالحلم يعبّر عن مكسب ثانوي ستناله الحالمة لو وقع الموت لابن أختها، فليس موت ابن اختها هو الذي يعنيها، ولذلك فلم يكن هناك بكاء ولا حزن حقيقي، ولم يتعلق شعور الحالمة بالمحتوى الظاهر للحلم بل بالمحتوى الباطن، والحلم لهذا السبب ليس من الأحلام النمطية لموت الأهل، ففي هذه الأحلام الأخيرة يترافق الموت وأن يستشعر الحالم الحزن الشديد، وأن يبكي على الميت بكاءً مراً، لأن الحلم يعكس رغبة الحالم أن يموت هذا القريب موتاً على الحقيقة أو على المجاز، فقد يكون الموت بالبدن، وقد يكون موتاً أدبياً، وفي الحالتين هو موت لهذا القريب نتمناه له في أعماقنا ولا تفصح عنه ألسنتنا، ولكن أحلامنا قد تفضحنا وتكشف ما تكنّه ونحاول ستره من مشاعرنا وأفكارنا. وربما لا تعني الأحلام النمطية من هذا النوع اننا نتمنى الموت لهذا القريب الآن، فلربما كانت تلك أمنية جاشت في صدورنا يوماً من الأيام، وربما تكون رغبة من الماضي السحيق منذ الطفولة. وربما يعترض معترض فيقول: وهل من المعقول

أني لو حلمت أن والدتي توفيت اني أتمنى لها الموت؟! وهل نتمنى الموت لأبنائنا إذا حلمنا بوفاتهم؟

فأولاً دعنا نتحدث عن الطفولة، ففيها يكون الشقاق والغيرة والحسد والسباق على المكانة الأولى عند الأبوين، وكثيراً ما نرى الإخوة في الطفولة في شجار كأنهم الأعداء الألداء. وتنتهي الطفولة ونكبر في التفكير، ولكن المشاعر الأولى تظل هناك دائماً تعمل عملها، ومنها بقايا تبقى معنا باستمرار حتى الشيخوخة، فإذا جاءت حادثة ما، وما أكثر ما يتفجر منها بين الإخوة الكبار بسبب الميراث وزواج الأبناء غير ذلك، فقد تعود ذكرى الرغبات الأولى، وليس البكاء الشديد لدى رؤية الميت الأخ إلا لأن الأنا الأعلى أو الضمير، أو مكونات التربية والحضارة في الحالم، ترفض مثل هذه الرغبة الممنوعة وتعاقبه عليها بعذابات الضمير التي مظهرها هذا البكاء في الحلم. وليس للموت عند الأطفال المعنى الذي للموت عند الكبار، فالطفل يفهم من الموت أنه اختفاء الشخص، ولذلك فكلما تمنّى الكبير البالغ أن يختفي شخص من حياته فإنه يطلب له الموت، والسؤال الآن هو: مع افتراض أن رغبة الطفل أن يختفي إخوته بمعنى أن يموتوا، تفسيرها أنانيته التي ترى فيهم منافسين له، فكيف نفسر رغبته تجاه والديه اللذين يمنحانه الحب ويقضيان له حاجياته؟ والواقع أن الطفل إذا حلم بموت أحد الوالدين فهو يحلم بموت الوالد من جنسه، بمعنى أن البنت تتمنى لأمها الموت، كما يتمناه الولد لأبيه، وذلك هو ما يحدث غالباً، كما لو أن الصبي يرى في والده الذكر غريماً له كإخوته، والبنت ترى في أمها غريمة لها. وأذكر بهذا المناسبة أن صديقاً لي سافر هو وزوجته للحج وتركا ولدين لهما عند جدتهما، وجاءت الأنباء الكاذبة تترى بسقوط الطائرة، وكانت الجدة تبكي والبيت كله في مناحة، وحدث أن رأيت الولدين يلعبان، وسمعتهما غير بعيدين مني يتساءلان إذا كان صحيحاً أن والديهما ماتا. وقال الابن الأكبر إن كان الأمر صحيحاً فهو سيرث سيارة أبيه وعمله، وقال الأصغر وأنا سأرث عفش البيت!

وتكشف لنا الخبرة بالحياة أنه خلف العلاقة بين الوالدين والأبناء لأكثر من مناسبة من مناسبات العداوة، وما لم تكن احتمالاتها قائمة ما كان القرآن قد أوصانا المرة تلو المرة بالوالدين إحساناً. وتعبر الأساطير عن ذلك، في العلاقات المحتدمة بين أفراد أسرة أوديب الملك، وكذلك تحكي الأساطير أن كرونوس إلتهم ابناءه، وأن شجرة الدر قتلت زوجها، وأن قابيل قتل أخاه هابيل، وست قتل أخاه أوزيريس، وكل ذلك نعرفه، وقد يشفع لنا إذا قلنا إننا قد نتمنى أحياناً موت أحبائنا بمعنى اختفائهم من حياتنا لو زاحمونا هذه الحياة. ونحن نعرف من دراساتنا للطفولة والأبوة أن الطفل ينزع منذ صغره إلى أن يحب الأب من الجنس الآخر، ولكنه يتعلم أن يتعين بالأب من الجنس نفسه ليكون له دوره في الحياة، ونعرف أن هناك عُقداً تتخلف من الطفولة، ومنها ما يقال له عُقدة أوديب، عن حب الطفل الذكر لأمه واستمرار هذا الحب حتى بعد أن يتعين بالأب، وتعني عقدة أوديب أنه بقدر ما يكون هناك من انجذاب من الأم نحو طفلها حتى وإن شبّ عن الطوق، بقدر ما يكون هناك من عداوة بين الأب وابنه وبين الابن وأبيه. وهناك عُقدة يقال لها عُقدة إليكترا، عكس عُقدة أوديب، توجه سلوك البنت من حيث حبّها الكامن لأبيها وبُغضها لأمها، وتوجّه سلوك الأم من حيث كراهيتها لميل الأب للبنت وتدليله لها، كما توجّه سلوك الأب من حيث هواه لابنته. وأيضاً هناك عُقَد بين الإخوة فحواها تنافسهم على محبة الوالدين، وشقاقاتهم التي لو تتبعناها لكان هذا أصلها، ومنها عُقدة يوسف التي موضوعها حسد الإخوة للأخ الصغير، وعُقدة قابيل ومدارها الدوافع النفسية التي تجعل الابن الأكبر يقتل أخاه الأصغر هابيل، وعُقدة سِت التي موضوعها دوافع الابن الأصغر لقتل الابن الأكبر (أوزيريس). ولا بدَّ أنَّ كلاً منا قد تبين في محيط حياته كيف يتهافت الأبناء على مكان الأب من المائدة إذا خلا، أو كيف تحاول البنت أن تخلف أمها إذا غابت وإذن أفلا يكون منطقياً مثلاً إذا أخذت الأم إبنها الطفل ليشاركها سريرها عند سفر الأب أن تعتمل هذه الأمنية بنفس الابن لو أن أباه يستمر

غائباً حتى لا يحرمه حضوره من أن ينام في حضن الأم؟ ومن وسائل استمرار هذا الغياب يتعلم الأبناء أن يصبح الأب في عداد الأموات، ويتعلمون بالتجربة أن الموتى يظلون غائبين مثل الجدة أو الجد اللذين ماتا، بمعنى أنهما ما يزالان غائبين. ويطلق النفسانيون على هذا الموقف الذي لا بد أن نخبره جميعاً والذي لا بد أن يخلف آثاره فينا جميعاً بالسلب أو بالإيجاب، إسم الموقف الأوديبي، وهو موقف يجمع بين الأب والأم والأبناء بحيث تدور بينهم منذ الطفولة حمى حرب مستترة فيها انحيازات وائتلافات ومرارة وقمع وتأديب وكبت، فنخرج من هذه المرحلة ولا يعلم إلا الله ماذا نكون نفسياً. ولسوف نتناول هذا الموقف في الفصل القادم إن شاء الله (الأحلام والصراع الأوديبي).

والمهم أن أحلام موت الأقارب، التي نصفها بأنها تُظهر حقيقة مشاعرنا تجاه أرحامنا، وتُفصح عن جانب منها يتستر باستمرار بحيث نبدو دائماً وكأننا المحبون ولا شيء غير ذلك. وقد ننكر أن يكون هذا هو المضمون الحقيقي لهذه الأحلام، فنقول إن إنكارنا لا يقتصر على التفسير ونحن في حالة اليقظة، فإننا ننكر أيضاً ما تذهب إليه هذه الأحلام، ونحن نيام، لدرجة أن الرقابة على الأحلام، وهي المسؤولة عن تحريفها وإظهارها بالمشاهد والرموز التي تظهر بها، لا تكون مستعدة لمواجهة هذه النوع من الأحلام من فرط بشاعتها، ومن ثم فقد تفاجئنا بظهورها وبالمعنى البشع الذي ننكره عليها، وقد يدفعها إلى الظهور قلق على حياة شخص عزيز يلم بنا كأثر من آثار اليوم السابق، ويَستغل هذا القلق الرغبة المحرمة، وتستغل الرغبة هذا القلق فتتقنّع به.

مثال: ١

- حلمت أنني أنتظر حضور أمي، وكنا نجلس واخوتي في انتظار حضورها، وأقلقنا غيابها، وتساءلنا ما إذا كنا قد بحثنا عنها في المستشفيات، وسألتُ عن مستشفى بالذات هي الأشرفية.

التفسير: الحالمة مريضة بعينيها وتخشى على نفسها، وقلقها على صحتها دفعها إلى أن تُحيي في نفسها ذكرى أمها، وهي ترى نفسها في أمها، وقلقها

على أمها الذي عانته يوماً من الأيام يتفجر من جديد قلقاً على نفسها في أمها، وترى أن فقدانها المحتمل لبصرها بمثابة الموت لها كالموت الذي وقع لأمها، وأما المستشفيات التي تسأل عنها فإنها قد جرّبت العلاج في الكثير منها ودارت على كثير منها، وتخص مستشفى الأشرفية وهي مستشفى في الأردن، إذ الحالمة أردنية، وتعالج هذه المستشفى الناس علاجاً من نوع ليس كعلاج المستشفيات الخاصة، والحالمة تعتبر هذه المستشفى هي البداية لمأساتها، وفيها كانت بداية غيابها الحاضر، أو حضورها الغائب، أو حياتها الحالية التي تشبه الموت أو يتهدَّدها هذا الموت المجازي الذي هو فقدانها لبصرها. ولنلاحظ أن الحلم ليس فيه بكاء أو حزن أو ما يدل على ميت حقيقي يرتبط بالاختفاء الدائم المصاحب للموت، ولذلك فهذا الحلم ليس من الأحلام النمطية.

مثال: ٢

- حلمت أن زوجي مات وجاء أهله يطالبونني بالميراث.

التفسير: كانت الحالمة قد تشاجرت مع زوجها في اليوم السابق، وزوجها أودع لديها كل ماله، فلما تشاجرا هدّدها بسحب وديعته عندها، وذلك يقلقها، والحلم ينفي عنها أنها راغبة في مال زوجها، وينسب قلقها إلى ما قد يثيره أهله من مشاكل في حال وفاته، ولو كان الحلم يعرب عن حزن على الزوج الذي سيموت لكانت انفعالات الحالمة مختلفة تليق بتوقعات الموت أو وقوعه.

مثال: ٣

- حلمت أني ذهبت لزيارة أمي فوجدتها قد ماتت وبكيت عليها بشدة.

التفسير: الحالمة مطلّقة، ولها ولد عهدت به إلى أمها، كي يتسنى لها أن تعمل وتعول نفسها وابنها. وكانت الأم قد رفضت فكرة زواجها من مطلقها هذا، وحقدت عليها الابنة، ولكنها نفّذت فكرتها، والابنة، أي الحالمة، تعتبر أمها مسؤولة مع ذلك، لأنها كان في وسعها أن تمنعها من الزواج، ولو بالقوة، ولكنها لم تفعل بحجة أن الابنة كبيرة ومتعلمة وخريجة جامعة. والحلم فيه الرغبة بإيقاع العقاب بأمها، وهو أن تختفي من

حياتها، فهي تذكرها بفشلها وتؤنبها داذماً، وهي بمثابة الضمير الذي يعذبها، ثم إن الأم لو اختفت بالموت فإن معنى ذلك أنها ستضطر أن تستحضر إبنها معها، وهو ما تتمناه.

- ٣ -
«أحلام الامتحان»

كثيراً ما نحلم بأننا نؤدي امتحاناً ما، وأحلام الامتحان التي هي من قبيل الأحلام النمطية، فيها الجزع الشديد، والقلق المبهظ، والخوف، وتوقّع الفشل، ودائماً ما يكون الامتحان في مادة لم يحدث أن رسب فيها الحالم، ولو كان الامتحان في مادة يخاف الحالم منها، أو قد سبق له أن خاف منها، لكان للحلم ما يبدده، ولكن أحلام الامتحان النمطية ليس فيها ما يبررها في الظاهر، فالطبيب الناجح الذي مارس الطب لسنوات قد يحلم بأنه يمتحن وأنه يسلم ورقة الإجابة بيضاء، وقد يصحو من الحلم يستشعر النكد، ويحمد الله أنه طبيب فعلاً ويمارس الطب وليس هناك ما يخشى منه أو يجزع له. والحلم لا بد أن يرتبط بمواقف من حياته الحاضرة، تلح عليه، والامتحان كما نعرف إشتقاق من المحنة، ومَن منا لم يجرب محنة الامتحان منذ الطفولة؟ ومَن منا لم يُطلق على يوم الامتحان إسم يوم الهوْل؟ والتجارب التي قد ندخلها في الحياة ونخشى منها نحاول أن نطمئن أنفسنا بخصوصها، وما دام الحلم يمتحننا في مادة نجحنا فيها فهذا دليل على أن القلق المرتبط بالخبرة الحالية يربط بين هذه الخبرة وخبرة أخرى مشابهة، بل وربما أقسى منها (يوم الهول)، وقد نجحنا فيها، فلماذا لا ننجح في هذه الخبرة أيضاً، وهي مثلها إن لم تكن أقل منها خطراً، أو مبعثاً للخوف وللقلق؟ ولقد تبين بالبحث أنه كلما كانت هناك أحلام نمطية مرتبطة بالقلق والخوف والتوقعات الباعثة على الجزع، فإنها تأتي الحالم حين تنتظره في الغد القريب أو البعيد مسؤولية يخشى أن يخفق فيها، ولذلك فإن الحالم يتلمس مناسبة من ماضيه لم يكن فيها للقلق والخوف والجزع ما يبرّره، وجاءت النتائج بما يكذبها، وكأن الحلم

في الحقيقة يحمل العزاء للحالم، وكأنه يبلّغه رسالة من ذاته أو أناه، مضمونها «لا تخشى شيئاً من الغد، وتأمل أية مخاوف وقلق وجزع تملكك قبل امتحان الثانوية العامة أو البكالوريوس إلخ، ولم يصبك أي سوء مع ذلك! وها أنت الآن طبيب بالفعل، أو مدرس إلخ!...»، أو ربما يختلف مضمون الرسالة، بحسب مستدعيات الحالم، أو بحسب ما نجمعه له من أحلام من هذا النمط، فقد يكون الحالم بحلم امتحان شيخ كبير في السن تجاوز تجربة الامتحانات، ومع ذلك فإنه قد يحلم بها إذا كان في حياته ما يشبه أنه يدخل محنة أو تجربة مقلقة.

مثال: حلمت أني أدخل امتحان الكلية الحربية وقد طلبوا مني أن أخلع ملابسي وأقف عارياً، وقد فعلت وأنا شديد الجزع، ثم صرفوني بدعوى أني لا أملك اللياقة البدنية المطلوبة.

التفسير: الحالم يعمل ضابطاً، وامتحان اللياقة البدنية للكلية الحربية قد نجح فيه، وهو الآن برتبة كبيرة وكان قد تزوج وأنجب وماتت زوجته، وعاش أعزب مدة خمس عشرة سنة إلى أن كبر أولاده، ثم تراءى له أن يتزوج وخطب فتاة تصغره بعشرين سنة، وكلما اقترب موعد الزفاف زاد قلقه وتنامت مخاوفه، وهي مخاوف تربط بين التجربة الحاضرة والماضية عندما تقدّم للكلية الحربية وكان يتمنى أن يكون ضابطاً ويخشى أن يرفضوه، فقد كان بساقه كسر شُفِي منه، ولكنه كان يوجعه أحياناً، وكان يخشى أن يُكتشف أمر هذا الكسر الماضي. ثم إن التجربة الحاضرة التي يقلق منها هي تجربة زواج، والحالم يخشى الفشل، ويخشى أن يكون بقاؤه بدون زواج خمس عشرة سنة قد أفقده رجولته، وذلك ما كان يعتقده أيضاً لو فشل في كشف اللياقة في الكلية الحربية بمثابة إعلان بكمال رجولتهم، وكمال الرجولة هذا هو ما يغري الفتيات على طلب ودّ الضباط وتصويرهم في الصورة الرجولية الكاملة، وإذن فالتجربة الحالية توقظ التجربة الماضية حول كمال الرجولة، ولكن مضمون الحلم أنه ما دام قد نجح هناك فلماذا لا ينجح هنا أيضاً، وكأن الحلم يطمئنه على نتيجة مشروع زواجه المرتقب.

– ٤ –
«أحلام الطيران»

ليس منا أحد إلا وقد حلم يوماً أنه كأنما يطير، وللطيران في الأحلام لذة تجعل الحالم يتمنى أن يطول، وفي الطيران يمارس الحالم قدرة مطلقة على التحليق والارتفاع والحركة ومطالعة الأمور من علٍ. والغريب أن الذي يحلم بأنه يطير يستطيع أن يتذكر بدقة حُلمه ويصف مشاعره فيه. والوصف في أحلام الطيران للمشاعر أكثر منه للمَشاهد، وكأن أحلام الطيران أحلام مشاعر وأحاسيس، ويحلم الحالم بحلمه وهو يعي أنه يحلم، ويستزيد من الحلم، وأحلام الطيران لذلك من الظواهر قبل الشعورية، وهي أحلام تقوم على مسرحية الأفكار. فالشخص الذي يتمنى أن يحوز القدرة والقوة يحلم بأنه يطير ويشرف على الأمور من علٍ، والذي يعاني من واقع يحس أنه فيه مُحاصَر ومنبوذ يتمنى الانطلاق والحرية دون قيود ولا سدود.

ونحن نُكثر من أحلام الطيران، والطيران أمنية الإنسان، فالطائر وقدرته على المطالعة من علٍ، وتحليقه المتحرر، كل ذلك يجعل الإنسان يحلم، ويرجو أن يكون مثله، وهو لن يكون مثله في الواقع، فيفعل ذلك مجازاً في الحلم، فأحلام الطيران فيها تحقيق رغبة، ولسوف نرى أن ابن سيرين ذهب في تفسيرها مذاهب تشبه مذاهب النفسانيين، وبين ابن سيرين وفرويد نحو ألف عاماً.

وأحلام الطيران أحلام نمطية، بمعنى أنها شائعة ولها المواصفات نفسها، ولكن التفسيرات لها تتباين، وتشمل هذه الأحلام ذلك الضرب منها الذي يطير فيه الحالم أو يموج في الهواء، أو يسقط أو يعوم، وتعني في كل حالة معنى مختلفاً، ومادة الإحساسات المحتواة فيها هي وحدها التي تخرج من المصدر نفسه، ويبدو من التحليل النفسي أنها أحلام تعيد انطباعات من الطفولة، وتتعلق بالألعاب الحركية التي يغرم بها الأطفال من المهد، وكلنا يوماً من الأيام لعبنا مع أطفالنا بأن نلقي بهم في الهواء ثم نلقفهم أو نرفعهم عالياً هابطين بهم، دواليك، وقد نرفعهم عالياً ثم نعدو عبر الغرفة، وكأننا نطير بهم أو

نطيّرهم، والطفل أثناء ذلك يضحك من قلبه مسروراً غاية السرور. وليس منا إلا ورفع طفلاً وأنزله بحركة مفاجئة وكأنه يُسقطه، وقد نمسك به ونضعه على ركبتينا نحركهما حركة رتيبة صعوداً ونزولاً، وقد نكون مستلقين فنضع الطفل على ساقينا ونرفعهما عالياً، والطفل يطير من الفرح، ودائماً يستزيدنا الطفل من اللعب بهذه الطريقة، ويصيبه من هذه الحركات المفاجئة الدوار. وعندما نكبر تكون بأحلامنا الحركات نفسها والدوران والصعود والهبوط، ومع حذف الأيدي التي كانت تمسك بنا، فنبدو كما لو كنا نطير أو نسقط أو ندور أو نحلق أحراراً. ويشبّه فرويد ولع الأطفال بالألعاب التي تشبه الطيران بولعهم بالأراجيح، فهل منا مَن لم يحب الأرجوحة؟ وهل منا مَن لم يركبها ويطيّرها في الهواء عالياً حتى لتبتعد بعيداً نحواً من ستة أمتار، وقد يتمكن من أن يقلب الأرجوحة في الهواء؟ فإن لم يكن قد فعل ذلك في صِغره لسبب أو لآخر، فمن منا لم ينظر الآخرين يركبونها ويطيرون بها ويتشقلبون في الهواء وهم سعداء غاية السعادة؟ واللذة التي تصاحب هذه الألعاب تجعل لها إشباقاً تنفرد به، حتى لتتكرر اللذة مع الأحلام التي تتكرر فيها هذه الألعاب. ولربما تكون للإحساسات الفسيولوجية مثل حركة الرئتين في عملية التنفس صعوداً وهبوطاً، دخل في إثارة هذه الأحلام التي فيها الطيران والسقوط، غير أن التحليل النفسي يستبعد هذا السبب الفسيولوجي كأصل لهذه الأحلام، وإنما الأصل دائماً نفسي، وإن كان يلبس أحياناً الشكل الفسيولوجي طالما أنه شكل انساني قد تتسربل به آمالنا ورغباتنا وطموحاتنا وصراعاتنا. ورغم أنها أحلام نمطية لها شكلها الواحد، وربما أصولها الواحدة، إلا أن لها خصوصية تجعل تفسيراتها تتباين. وكان نابليون يحلم بأنه يمشي في الهواء وان قامته تطول حتى لتبز كل القامات، ونابليون كان قصيراً، وكان أعلى أهل عصره طموحاً وحباً للسيطرة والتفوق. وقد تحلم البنات كثيراً بأنهن طيور صغيرة لطيفة، فيُظهرن طبيعتهن الودودة والتي قد يُحرَمن من ممارستها في النهار.

وهناك من يذهب إلى تفسير أحلام الطيران بأنها أحلام جنسية، والرجل الذي يحلم بأنه يطير دليل على أنه كان منتصباً أثناء الحلم، والمرأة التي تحلم أنها تطير تعلن بطريقة غير مباشرة عن رغبة جنسية. ومن أسماء القضيب أنه الإير، والإير كلمة ساميّة معناها الهواء، وكان الإير إله الهواء عند الساميين، والإير في اللغات الأوروبية (air) في الإنجليزية مثلاً، والإير عند العرب هو القضيب في حالة الانتصاب، ربما لأنه يرتفع ساقماً يطاول رأسه الهواء، وربما لأنه يمتلئ بالهواء فيكون انتصابه، وكان الأقدمون يقولون بالقضيب المجنّح. وقد تكون أحلام الطيران لذلك أحلام شبقية بالنظر إلى الأحاسيس الجسمية التي تقترن بها والتي تصاحب الانتصاب والإنزال، ثم بالنظر أيضاً إلى أن الأطفال دون العاشرة لا يحلمون أنهم يطيرون، أي لا يحلمون بالطيران قبل البلوغ، فإذا كان البلوغ بدأوا يحلمون أنهم يطيرون.

والطيران كما في أحلام نابليون قد يكون تعبيراً عن شعور بالنقص أو العجز، أو قد يكون تعبيراً عن الطموح أو الرغبة في التحرر والانطلاق، أو في السيطرة والقوة. ونحن في هذه الأيام نعتبر قوة سلاح لاطيران هي القوة الفعالة في الحروب، والطائرة إنجاز حضاري هو تحقيق لأحلام الطيران من جانب الإنسانية كلها، وتمثل في الطائرة كل رغبات الإنسان في القدرة والقوة والانطلاق.

ولربما تزيد بنا متاعب الحياة، وتقسو علينا ظروفنا وتحاصرنا فيكون أن نحلم بأننا نطير مبتعدين. ومنا من يريد الخلاص من المتاعب بالموت، والطيران يماثل الموت، ونحن نقول طارت روحه أي مات، وكأن البدن الثقيل الذي لم يتحقق به الطيران، بموته تطير الروح فيتحقق إذن للإنسان ما كان يهفو إليه.

وابن سيرين يرى في أحلام الطيران تفسيرات مشابهة وإن لم تكن لها الأسباب السابقة، وهو يقول بتفسير جنسي: «ومَن رأى أنه يطير من سطح إلى سطح آخر فإنه يطلّق امرأته ويتزوج بغيرها». ويقول بتفسيرات أخرى فيها التفسيرات السابقة كلها وأكثر منها، فمَن رأى أنه يطير كالطير من مكان إلى مكان،

فإنه يدل على السفر، وبالطبع يقصد إبن سيرين التنبؤ بالسفر، ونحن نقول إنها رغبة السفر. ويستطرد إبن سيرين فيقول بما يعني ان الطيران قد يكون رغبة في علو القدر، ويقيس هذا العلو المرغوب بمقدار بُعد الحالم في الطيران عن الأرض. وقد يكون الطيران الذي يبلغ السماء طلباً للحج، ومَن رأى أنه يطير من غير ريش فإنه يعني أنه فرط إحساس بالقدرة، أو على العكس دليل العجز في الواقع فيرى أنه في الحلم يطير أي يقدر برغم أنه ليست لديه أدوات القدرة. ومما يُروى أن رجلاً جاء إبن سيرين يقول له: إنه يطير في السماء وفي الأرض أيضاً، فقال له إنه رجل كثير الانتصاب، أي لا يفرّق في الجماع ويمكن أن يجامع هذه وتلك. ويقر إبن سيرين ان الأحلام قد تعكس الرغبة فيقول إن الطيران قد يؤول بالتمنّي إذا كان الحالم يُكثر منه في أحلامه، ويقول إن الطيران فيه لذة وسعادة بدليل أننا نقول في اليقظة إننا نطير من الفرحة. والطيران قد يكون تعبيراً عن الاستعلاء. وأما النابلسي فيقول بالنسبة لطيران النساء إنه رغبة في الزواج أو النكاح، ويفسر مَن يطير فيسبق الآخرين أنه رغبة في التفوق عليهم، ومن يطير كالحمامة وهو قادر على أهل الأرض بأنه رغبة في التسيّد والتسلط، ومَن يطير وهو في غُربة أنه يرغب في العودة للوطن، ومن يطير فوق البيوت والأزقة أنه يستشعر الضيق والمعاناة والاضطراب في حياته، ومن يطير بين السماء والأرض يكثر من التمني، وقد يعني أنه يطلب العِلم إن كان عالماً، أو المجد إن كان مجيداً، أو المال إن كان من طالبيه، رحم الله إبن سيرين والنابلسي فقد كانا نابغين!!.

— ٥ —
«أحلام السقوط»

يحلم الناس كثيراً بالسقوط، كأن يسقط الواحد من حالق، أو يرى نفسه وقد هوى في جُبّ سحيق، أو قد انزلقت قدمه فهوى من السلم، ويفزع الحالم ويصيبه من ذلك الهلع، ولكنه قبل أن يرتطم بالأرض يستيقظ مفزوعاً. وقد

يتكرر الحلم مع الحالم ويعاوده الليلة بعد الأخرى، وتتشابه أحلام السقوط عند الناس فهي من الأحلام النمطية، وإن كان تفسيرها في كل حالة يختلف باختلاف ملابسات الحلم وأحوال الحالم. ودائماً تكون أحلام السقوط قصيرة الأمد، وتنتهي بأن يستيقظ الحالم.

ولربما تكرر أحلام السقوط حوادث السقوط التي نتعرض لها ونحن أطفال، ولا يكاد يوجد طفل إلا وعانى من السقوط من فراشه ثم أسرع إليه المحيطون به ورفعوه ودللوه وأعادوه إلى سريره، ويتربّى لدى الطفل الخوف من السقوط ويتوقعه، فإذا بلغ مبلغ الكبار فإن توقعات المستقبل، والخوف من السقوط والفشل، قد تجعله يعيش في قلق يدفعه إلى أن يحلم بالسقوط على الطريقة التي عرفها في طفولته.

والسقوط قد يعني السقوط الأدبي، والمرأة الساقطة هي التي تأثم جنسياً، والسقوط في الحلم عند النساء إن كان له هذا التفسير الجنسي هو رغبة جنسية محرمة، وكأن رسالة الحلم تنبيه الحالمة إلى خطوة هذه الرغبة فلو حققتها تكون قد أثمت. والسقوط بالنسبة للرجل قد يكون استسلاماً لدواعٍ يجاهدها، فالذي يقبل الرشوة لأول مرة قد يحلم بأنه يسقط في بئر عميق، والذي يستكين للظلم قد يرى في المنام أنه يسقط.

ولربما تُفسّر أحلام السقوط بأنها مخاوف من الزلل، أو من الهزيمة، وكأن الحالم يعيش حياة فاضلة ويخاف أن يخطئ، أو أنه يهفو للسيطرة والقوة وتتراوحه لذلك نواح فيه ضعيفة ونواح قوية، ويخشى أن يغلبه ضعفه على قوته.

والسقوط في التفسير الشعبي للأحلام له دلالة تنبؤية، وهو عند إبن سيرين يعني التحول من الغِنى إلى الفقر، أو من السؤدد إلى الذل، غير أن ما يذهب إليه إبن سيرين من معنى تنبؤي نقول به ولكن من منطلق ما يجري به تفكير الحالم وليس ما سيحدث فعلاً، ولربما يكون الحالم على وعي بما يعتمل به من أفكار ومخاوف، ولربما تعمل هذه عملها في تصرفاته لاشعورياً وتنعكس على أحلامه.

- حلمت أني أصعد الدرج وكنت أعاني

في صعودي وألهث، وكنت أخشى من بلوغي درجة معينة كانت تبدو مكسورة، والدرابزين عندها متداع، فلما بلغتها زادت مخاوفي وحاذرتُ قدر استطاعتي، ولكني فجأة وجدتني أهوي، واستيقظت مفزوعاً أتحسس جسمي.

التفسير: الحالم عصامي تبين من مستدعياته أنه عانى اليُتم صغيراً، وحاول أن يتعلم، وعانى كثيراً، وأنكر على نفسه كل بهجة ولذة حتى أشرف على التاسعة والثلاثين، وكان يخشى أن يبلغ الأربعين ولم يتزوج بعد، وكان يخاف إن تزوج ربما يفشل وتضيع عليه ثمار كفاحه الطويل. والسلالم هي سنوات العمر التي تنقضي، وهي أيضاً درجات أو مراحل ترقّيه من يوم تيتّم حتى الوقت الحالي. والدرجة المكسورة هي سن الأربعين، وهي سن حرجة بالنسبة له، وعليه أن يقرر فيها أو يتخذ قراراً مصيرياً وهو الزواج، وعليه أن يعتمد على نفسه في قراره فلا سند له فيه (الدرابزين عند هذه الدرجة متداع)، والسقوط يرمز لمخاوفه من الفشل.

– ٦ –
«أحلام الحفاء»

الحفاء كالعري، وإن كان العري للجسد، والحفاء للقدمين. ولقد قلنا إن التعرّي في الأحلام ينبئ عن ميول إستعراضية، وكذلك الحفاء، وإنه لأمر ذو بال أن يكون التخفف من الملابس مقترناً أيضاً بالحفاء. مثال:

– حلمت أني أسير حافي القدمين وأكاد أطير وأرى من حولي خضرة وزرعاً في كل مكان.

التفسير: الحالم قاطع طريق مقيّد في أقسام الشرطة من الخَطرين، وسنّه ثماني عشرة سنة، أطبقت عليه الشرطة وحاصرته وكان قد أصيب بالرصاص وحلم حلمه هذا وهو نائم. والحفاء هنا رمز للتحرر الذي ينشده، وكأنه قد تخفف من كل همومه، والطيران هو رغبته أن يتجاوز كل مشاكله، فإذا حدث ذلك فإنه سيشعر وكأنه في الجنّة.

والحفاء قد يعني الفقر والعوز، وقد يعني الانفضاح، وقد يعني ذهاب السلطة، وابن سيرين يفسره بأنه مصيبة تنزل

بالمرأة، كأن تطلق، أو ينشف سترها. والأحلام كما نذهب في تفسيرها لا تنبئ بالمستقبل إلا بالقدر الذي تكون عليه أحوال المرء في يومه بحيث لا يمكن إلا أن تكون المصيبة نتيجة لها قد يشهدها الغد.

مثال:

- رأيت أني ألقي درسي وكنت أضع الروب الجامعي، والقاعة صامتة والحاضرون ينظرون وأنا أسمع لنفسي، ثم فجأة قالت طالبة في الصفوف الخلفية، «هذا الدكتور حافي القدمين!!» وضحك الجميع ونظرتُ لقدميّ فاكتشفت عريهما، وحاولت أن أستتر خلف الطاولة، ولكن الضحك المتصل من تلاميذي جعلني أهرول خارجاً.

التفسير: الحالم أستاذ جامعي نابه، وكان قصير القامة شديد النحافة والسمرة، إلا أنه كان شديد الأناقة، وقال عن نفسه مفسراً الحلم إنه ليس جميلاً، وهو يحب الملابس لكي يتجمل، وأصله المتواضع ترك بصماته على صحته وحجمه، إلا أنه كان يعوّض بالتفوّق في الدراسة، والحلم لذلك تدفع إليه مشاعر بالنقص، وهو حلم نمطي لأن هذا النوع من الأحلام النمطية عن الحفاء يقدم لنا صورة حلمية تتميز بالتناقض، فكون الحالم أستاذ جامعة ويحاضر يتناقض بشدّة وأن يظهر أمام تلاميده حافي القدمين، والارتباك هو النتيجة التي لا بد أن يستشعرها، ويذكرنا هذا الارتباك بارتباك مثله في أحلام العري النمطية. وفي أحلام العري إذا حلمت البغيّ أنها عارية فإن عريها يكون منطقياً مع كونها بغيّ، ولكن إذا حلمت الشريفة العفيفة أنها تسير عارية فذلك هو التناقض الذي يُدرج الحلم ضمن الأحلام النمطية. وأيضاً لا بد أن يوجد هذا التناقض في أحلام الحفاء. والحفاء في حالة هذا الأستاذ الجامعي يفضح أصله المتواضع. وإننا لنلاحظ أن طالبة هي التي تصرخ بالاكتشاف، وذلك يكشف جانباً من حياة هذا الأستاذ، فقد كان له غرام بالتلميذات، وعنايته بملابسه ليظهر بمظهر يعجبهن، وذلك مجال آخر يُظهر فيه شعوره بالنقص ويُثبت فيه رجولته، إلا أنه رغم نجاحه في الميدانين كان يدرك أن الناس يعرفون عنه ما يحاول أن

يستره، وهو لم يتزوج للآن لأنه يشك في الحقيقة في رجولته، كأن الحلم إذن يكشف عن صراع بين جوانب الضعف فيه وجوانب القوة، وغلبة جوانب الضعف، ولذلك يشعر بالخزي ويحاول الاستتار ويخرج مهزوماً.

والحفاء في الأحلام قد تدفع إليه منبهات حسية، والتفسير بالتنبيه الحسي جائز في حالة حلم نرى فيه أنفسنا مثلاً وكأن ماء بارداً ينزل على قدمينا، أو نرى أن أقدامنا كأنها تغوص في الثلج، وعادة ما تأتينا مثل هذه الأحلام والوقت شتاء وتتعرى القدمان منا ونحن نيام، وهناك تجارب على التنبيه الحسي للأحلام وخاصة بالنسبة للأقدام، إلا أنه في حالات الأحلام النمطية بالحفاء، والتي تأتي على الصورة السابقة، وتقوم على التناقض، كأن يرتدي الحالم في الحلم فاخر الثياب ولكنه يكون عاري القدمين، أو كأن يظهر نابه الشأن يخاطب الجماهير، أو يجلس مجالس العظماء، ويكتشف أنه حافي القدمين، لا يمكن أن نفسرها تفسيراً فسيولوجياً، وليس من تفسير للتناقض إلا أن تكون دوافعه نفسية، ومن ثم لا يتمشى معها إلا التفسير النفسي.

- ٧ -
«أحلام سقوط الأسنان»

ومن الأحلام النمطية تلك التي موضوعها سقوط الأسنان، أو الشَّعْر أو العجز يلم بعضو من الأعضاء والتفسير الشعبي هو التفسير الغالب عند الناس، وهو تفسير تنبؤي كما ذكرنا ونحب أن ننبه باستمرار، غير أن النبوءة فيه يمكن أن تكون نتيجة وانعكاساً للأحوال النفسية للحالم، وللتفاعلات الدينامية لشخصيته، وما يكشف عنه الحلم من صراعات يظهر بعضها على بعض. ولنتأمل ما يقوله إبن سيرين أو النابلسي عن سقوط الأسنان، والأسنان في التفسير الشعبي هي ما يحوزه الشخص من مال أو أملاك أو أهل أو ولد، وتشبيه ذلك بالأسنان له ما يبرره، فالمال والولد والأهل عُدّة الرجل، وسقوط السِنّ قد يعني على ذلك فقد المال أو موت الولد، والأسنان كثيرة وتعيين السن الساقط هو

تعيين لقرابة الميت من الشخص، فالأسنان العليا هم الرجال من جهة أبيه، والسفلى هنَّ النساء من جهة أمه، وأدناها من الثنايا أقربهم في النسب، والثنياتان العليا هما الأب والعم، فاليمنى الأب واليسرى العم، وإن لم يكن له أب أو عم فأخوات، أو ولدان، أو صديقان ناصحان مشفقان، والرباعية ابن عم الرجل أو صديقان يقومان مقامه، والناب هو الشخص من أهله الذي يعتمد عليه ولا يكون فوقه أحد، أو صديق حميم هو أعلى الأصدقاء مكانةً عنده، والضواحك الأخوال وبنو الأخوال أو من يقوم مقامهم بالنصح، والأضراس أجداد أو بنون صغار يباهي بهم ويأنس إليهم، والثنيتان السفليان الأم والعمة، فاليمنى الأم، واليسرى العمة، وإن لم يكن له أم أو عمة فأختان أو بنتان أو من يقوم مقامهن بالنصح، والناب الأسفل سيد أهل بيته ومن يستند إليه أو من يقوم مقامه، والضواحك السفلى بنت خالته أو بنت خاله أو من يقوم مقامهن بالنصح، والأضراس السفلى والعليا الأبعدون من أهل بيت الرجل والجدّة أو بنات صغار يباهي بهن، فإن تحرّك منها سن واحدة من هؤلاء فمرض، فإن سقطت أو ضاعت فإنه موت من يُنسَب إليه من هؤلاء، أو غيبته عنه غيبة لا يراه بعد ذلك، فإن أمسكها ولم يدفنها فإنه يستفيد بدلها من يكون له مثل ذلك القريب الذي ينسب إليه تلك السن في التأويل، فإن دفنها فإنه موت ذلك القريب، وكذلك سائر الأسنان وكذلك بقية الجوارح.

ويبدو أن تأويل سقوط السن بموت قريب هو من التراث الشعبي الذي يرقى أن يكون ميثولوجيا إنسانية، وهو كان كذلك عند الأقدمين من اليهود واليونانيين، والرومان والمصريين القدماء والأشوريين، وأهل الصين والهند، وهكذا يرد في كتبهم في تفسير الأحلام. وقد يبدو التأويل الشعبي متناقضاً مع التأويل النفسي، إلا أننا نقول إن التأويل النفسي يجعل خلع السن أو سقوطها نوعاً من العقاب يُنزله الشخص بنفسه، أو ينزل به لفعل يرى أنه قد أثم به. ويبدو أن الشعور بالذنب سمة نفسية تميّز الانسان عن الحيوان، ولقد كان الإنسان دائماً خطاء، ودائماً هو فاضل

يهفو إلى الفضيلة، وأبداً هو الشاعر بالذنب، والشعور بالذنب عقاب لأنك به تعيش في قلق وتوتر وصراع وترقّب لمكروه، وإنزال العقاب بالبدن ضرب من التكفير عن الذنب واتجاه في السلوك للتكفير عن الذنب، وإننا لنحاول أن نرى سبباً لحلاقة الرأس بعد الطواف بالكعبة، أو للختان، أو للإخصاء، فلا نجد من تفسير لذلك إلا أن يكون عقاباً ينزله الشخص بنفسه، للتكفير، وليتطهر به، وليحس بعده أنه أفضل. وسقوط الأسنان أو خلعها، وكذلك سقوط الشعر من هذا المنطلق أيضاً تكفير وتطهير للبدن. ونحن نعرف من دراسة العُصاب القهري أن المريض ينسب موت الأقارب إلى إثم إرتكبه، وهذا الإثم في أبسط حالاته أن المريض بالعصاب لم يلتزم بما فرضه على نفسه من طقوس قهرية، يفعلها في ترتيب وعلى الدوام، فإن تهاون فيها مرة، أو تقاعس فقد يتوقع أن يُعاقَب على ذلك بأن ينزِل به مكروه، لا ينزل به هو نفسه ولكن بقريب له. ولعل ذلك نفسه سبب شيوع التفسير الشعبي لسقوط الأسنان بأنه موت قريب. والميثولوجيا بعامة هي الأحلام العُصابية للإنسانية بعامة. وهناك الكثير من الشعوب تُضفي على خلع الأسنان هالة طقوسية كبيرة، مثله مثل سقوط الشعر أو قصّه، أو الختان، فيُعنى الشخص بدفن السِنّ المخلوعة، أو خُصلة الشعر المنزوعة، أو الغُرلة المختتنة، باعتبار أن الجزء من البدن يمثّل الشخص كله. وهناك ضروب من السحر بالاقتران، فقد تقع هذه الأجزاء بيد غريب أو عدو فيؤثّر فيها بسحره، فيمكن بالتالي أن يتأثر الجسم كله، ويصاب بالمرض أو يأتيه الموت. والتفكير البدائي الطقوسي يبعد الشر والمرض عن الشخص ويحيله إلى غيره، وليس أقرب إليه من القريب يحيله إليه. ولقد عرفنا مما تقدم من أبواب هذا الكتاب أننا نكن لأقاربنا الأقربين الحب الظاهر، وأمّا البُغض فنقمعه ونكبته، وتتراوحنا بالنسبة لأقاربنا الأقربين لذلك مشاعر متضاربة، قد نسلك إزاءها بالنهار بأن نُظهر الحب لهم، فإذا كنا نياماً تأتينا الأحلام كاشفة للوجه الآخر المناقض للحب، ولكنه يكون وجهاً مقنّعاً، يستر نفسَه بالرموز، ومن ذلك سقوط

الأسنان أو خلعها، وتفسير هذا السقوط بأنه وفاة الأقربين.

وكذلك نعلم أن هناك ما يسمى ببدائل الاستمناء، فالطاقة التي يمكن أن تذهب في الاستمناء قد نحوّلها إلى منطقة أخرى من الجسم نشحنها شحناً جنسياً، ونعتاد على دلكها أو دعكها أو فركها كلما زاد الشحن الجنسي فينا، ومن ذلك فرك الاذن، أو دعك الأنف، أو الربت على الشعر، أو هزّ الساقين أثناء الجلوس. وقد يحدث أن نستعوض اللذة بأن نجعلها علوية بدلاً من أن تكون بالمناطق السفلية من البدن حيث الأعضاء الجنسية، وذلك من تأثير القمع والكبت، وهذا الاستعواض [illegible] ما يسمى النقل الجنسي، ومن أمثلته الشائعة أن يُستبدَل الوجه في رمزية التفكير اللاشعوري بأعضاء التناسل، فقد نشبّه الخدّين والسمنة بهما بالمقعدتين، ونشبّه الشفرين بالشفتين اللتين تضمان فتحة الفم، والمقارنات [illegible] أمر شائع، ويزيد الشَبَه اكتمالاً وجود الشَعْر في كل من [illegible]وجه والعورة وقد يتصور [illegible]ض العُصابيين الفرج وكأن له أسناناً يمكن أن تخصيهم في الجماع، فيكون من ثم نفورهم منه وخوفهم المرضي من النساء، وكأن الأسنان ووظيفتها القضم والتقطيع والتحطيم، أي وظيفة عدوانية، قد توظّف أيضاً جنسياً، فيكون أن سقوط السن بمعنى انتهاء القُدرة العدوانية الذكورية، أي ان الحالم لديه خوف مرضي من الإخصاء، أو انه يعاني من العُنّة، وقد يكون بالمعنى نفسه عند الأنثى، فهي تعاني من عقدة إخصاء، وتكلَف بالسلوك الذكوري، وربما تكون بسبيلها إلى الزواج، وذلك يعني أنها لن تكون من بعد قادرة على أن تسلك سلوكها الاسترجالي، أو أنها ستفقد حريتها. ونحن في الأدب الشعبي قد يخاطب الرجل زوجته أمام الأولاد، فيطلب منها أن تتيح له فرصة مجامعتها دون أن يفهم الأولاد ذلك، فيقول «سني توجعني وقلت إنك ستعالجينها». وقد يضبط الطفل الصغير أباه وأمه يتجامعان فيتعلل الأب بأن ماما تخلع له سنه، وكأن خلع السن بمثابة رمز للجماع. وبالنسبة للمراهقين يكون خلع السن بمثابة إستمناء، ولربما تكون إذن القوة الدافعة إلى أحلام المُنبّه

السنّي عند الذكور مرجعها النزعات الاستمنائية في زمن المراهقة، ولذلك قد نجد أن بعض أحلام المُنبّه السنّي يصحبها إستمناء فعلاً.

ومن التفسيرات الشعبية أن خلع السن بالنسبة للحامل هو الولادة، وطريقة الخلع تنبئ عن نوع الولادة التي تتوقعها أو تتمناها الحاملة، وما إذا كانت سهلة أو متعذرة، فالسن هي الطفل، فإذا سقطت طواعية فالولادة سهلة، وإذا كان بها ألم فالولادة متعثرة بعض الشيء، وذلك يعني أن المولود ولَد من الصعب إنزاله إلا ببعض الجهد والألم، ويأخذ بهذا التفسير يونج، ويقول به ويصادقه عليه إرنست جونز.

ويذهب فرويد وجماعة التحليل النفسي إلى تفسير سقوط السن أو خلعه بأن يردّوه إلى النزعات الاستمنائية، وخاصة أن السن له مدلول رمزي شعبي بأنه القضيب، فالألم به وسقوطه ذاتياً، قد يكون بديلاً عن الامناء الليلي، وقد يترافق معه، ونزعه باليد يرمز للنزعات الاستمنائية، وقيام طبيب بنزعه هو أثر من آثار الجنسية المثلية وإن كان أثراً لا يُعتد به.

أمثلة:

حلم ١ - حلمت أني أتألم ولم أكن أعرف مصدر ألمي، ولكني كنت متضايقاً، فأخذت شربة ماء وتمضمضت.

التفسير: الحالم كان يشكو ألماً في سنه قبل أن ينام، ولما استيقظ وتذكر حلمه أمسك بالسن بيده وقلقلها إلى أن انخلعت. والمنبّه الحسّي في الحلم واضح، وكان الحلم مرشداً له بحيث ألهمه أن يقوم بخلع السن هو نفسه.

حلم ٢ - حلمت بأن سنّي توجعني، وقد رأى زوجي ألمي فقال سأذهب بك إلى الطبيب، ولكن أمي لم تر داعياً لذلك ووضعت لي بعض الملح عليه فزال الألم فعلاً.

التفسير: الحالمة كانت حاملاً، وكانت تخشى الولادة القيصرية، وبينما كان الزوج يرى ضرورة التدخل بالجراحة من أولى الأمر، فإن الأم لم تكن ترى موجباً للخوف، وتستبعد القيصرية كلية، أو أنها كانت تتمنى أن لا تضطر ابنتها إلى الجراحة، وأما الملح فذلك لأن أمها كانت تعالج وجع الأسنان لأي فرد من الأسرة

بوضع قليل من الملح على السن المريضة، وكان علاجها ينجح، أو هكذا تتذكر الحالمة من أيام صباها، وفي هذا الحلم ترى أن نصيحة أمها لها بعدم الخوف لا بد أن تنجح أيضاً مثلما كانت تنجح نصيحتها بتطبيب وجع الأسنان بالملح، أو انها كانت تتمنى لو تتحقق لها أمنية أمها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

حلم ٣: حلمت أن أسناني توجعني، وكنت أضع يدي على خدّي من الوجع، وقد أشفقت عليّ زوجتي فنفخت في فمي فزال الألم.

التفسير: الحالم كانت به أشواق جنسية قبل النوم، ولكنه اضطر إلى تأجيلها لما رأى زوجته قد سبقته إلى النوم، وكان يخشى أن يوقظها لأنها كانت تهب في وجهه كلما فعل ذلك، فنام على مضض وحلم حلمه ذاك، وقد استيقظ من النوم فوجد نفسه منتصباً يضع يده على قضيبه، ونفخ الزوجة هو ما قال عنه «لو أيقظتها لأجامعها تهب في وجهي»، فكأنه يقول لو أن زوجتي أشفقت عليّ ورضيت بالجماع بدلاً من أن تهب في وجهي لزال الوجع. ومن ميكانيزمات الأحلام أو الحيل التي تحتال بها لتصوير صيغة «لو أن» أنها تستحضر الصورة الحلمية وتستغني بها عن «لو أن»، فتكون الصورة للزوجة وهي تشفق عليه وتنفخ له على الألم فيزول، والنفخ لدى العامة كما نعرف للتلطيف، ونحن قد ننفخ على الطعام مثلاً ليبرد.

– ٨ –
«أحلام سقوط الشعر»

أحلام سقوط الشعر من الأحلام النمطية، والشعر رمز القوة، وهو كذلك في الميثولوجيا، والتفسير الشعبي لسقوط الشعر أنه يدل على الهمّ والغم، أو زوال القوة والمنعة، وللمرأة يخاصمها زوجها أو تُطلّق، وإن لم تكن متزوجه فلا تتزوج أبداً، بينما التفسير الشعبي لطول الشعر أنه زيادة في العمر أو في المال أو في الولد، وسواد شعر المرأة يدل على محبة زوجها لها. وبالنسبة للمهموم أو المدين زيادة الشعر زيادة في الهمّ أو العيال أو في الدين، وانتشار الشعر

إضطراب في أحواله، ونظمه نظم لأحواله، وطول شعر الإبط زيادة في الجاه، ونتفه صلاح أمره. وحلق الرأس زيادة في العيال أو الجاه، وكفارة للذنوب، وزوال للهموم وقضاء للديون، وحلق الشارب إصابة خير. والمرأة التي ينبت لها شارب تلد ولداً إن كانت حاملاً وإن كانت عقيماً لا تلد، وشيب الشعر أو اللحية زيادة في الأبهة، ونقصان اللحية نقصان في الهمّ أو الدين، وطول اللحية فوق قدرها همّ وغمّ.

وفي التحليل النفسي فإن سقوط الشعر قد يعني تهافت قوة الرجل مادياً أو أدبياً أو جنسياً، وفي الميثولوجيا فإن قوة شمشون البدنية والجنسية كان يرمز لها شعره، فلما قصّته دليلة زالت عنه قوته وفحولته معاً. وفي الشعوب البدائية إطالة الشعر زيادة في القوة فيستطيع الشخص أن يتحكم حتى في الطبيعة، وكأن قص الشعر أو سقوطه بمثابة الإخصاء للرجل، ومن ثم فإن أحلام سقوط الشعر قد تفسر التفسير الشعبي بأن الحالم يعاني من صراعات يخشى معها أن تزول قوته أياً كانت هذه القوة، وخاصة ما تعلّق منها بالجنس. والدلالة الجنسية للشعر لا ينكرها منكر، فالشعر الغزير الطويل سمة الأنثى، وشعر البدن سمة الذكر، والشعر يغطي العورة، وقد تضطرب الأحوال النفسية للشخص ويصاب منها بالشذوذ فيُغرم بذوائب شعر الإناث ويعتدي عليهن خلسة أو علناً بقصّها قصاً، ويحتفظ بها يعاملها كأنها أنثى كاملة، وهو الاضطراب المعروف باسم الفيتيشية.

وسقوط الشعر مثل سقوط الأسنان، كلاهما قد يكون له التفسير الذي يناسب مقتضيات الحالم وظروف الحلم إلا أنه في كل الأحوال فإن الحالم لا بد أن يكون في صراعات مع نفسه ويعاني من القلق والمخاوف. ومن الاضطرابات النفسية الجلدية التي تصيب الرأس ويسقط بها الشعر الثعلبة، ومنها أنواع تكون الإصابة بها عقب الصدمات النفسية، أو لا يصاب بها إلا العُصابيون، فإذا نحن حلمنا بالصَلَع مثلاً وأن الشعر قد سقط فذلك دليل معاناة أكيدة قد تتحقق في الواقع، وكأن ما كنا نخشاه نتيجة أننا نعرفه بحكم الثقافة قد يأتينا في الحلم على

شكل صَلَع نصاب به، أو تساقط للشعر، كما لو كان الحلم نذيراً بما سيحدث لو استمرت حالة القلق والمخاوف تستبد بنا.

ويذهب فرويد وعلماء التحليل النفسي إلى اعتبار الإخصاء أو العُنّة، المضمون الحلمي لسقوط الشعر، بمقتضى إزاحة للاهتمام الجنسي من أسفل الجسم إلى أعلاه، فبما أن الشعر علامة فحولة في الميثولوجيا فسقوطه يعني إمّا الخوف من الإخصاء، أو من العنة، أو أنه تعبير عن حالة العجز الجنسي للذي يعاني من مخاوف إخصاء، أو للذي يعاني من العنة. ويفطن التفسير الشعبي للمعنى الجنسي لسقوط شعر المرأة بأنه طلاقها من زوجها، وانفصاله عنها، أو انصراف قلبه عن هواها. ويعتقد العامة أن بالإمكان التفريق بين الرجل وزوجته بالسحر لهما أو لأحدهما باقتناء خصلة من شعره والقراءة عليها، ومن ثم تحرص النساء بخاصة أن لا يقع شيء من شعورهن في يد أحد كي لا يعمل لهن عملاً، فكأن الإخصاء، أو العُنّة، أو النفور الجنسي، يمكن استحداثه بالتأثير في الشعر، وكأن للشعر قيمة سحرية، غير أننا لا نرى هذا الرأي ولا نذهب إليه. وسقوط الشعر أو قصّه في الأحلام قد يعني المعاناة من القلق والخوف ربما من فقدان القوة أياً كانت، ومن ذلك المال أو الجاه، أو السلطان أو الجنس. وسقوط الشعر أو قصّه أو حلقه في الحلم، قد يكون عقاباً ذاتياً ينزله الشخص بنفسه لمشاعر ذنب به، ولربما يستيقظ الحالم من حلمه فيتحسّس رأسه ليجد أن بعضاً منه قد زال فعلاً بالمرض الذي يقال له الثعلبة.

حلم ١ : حلمت أني أستحم، ونظرت في المرآة فوجدت أن شعري سقط، وقمت من النوم أتحسّس رأسي فاكتشفت أن جزءاً من المقدمة قد زال فعلاً.

التفسير: الحالمة معلّمة مصرية وكانت تعمل في مدرسة فلسطينية في الكويت عندما عُقدت إتفاقية كامب دافيد، وقد نشب صراع وقتها بين المصريات والفلسطينيات من المعلمات، وكانت هذه المصرية صديقة للكثيرات من الفلسطينيات فأصيبت بصدمة نفسية وهي ترى صديقاتها يتحدثن بكل هذه الكراهية لمصر، وكانت تريد أن

تقابل الإساءة بالإساءة، وكان يمنعها أنهن صديقات، فاضطربت أحوالها النفسية، وساء نومها، وكثرت أحلامها ومنها ذلك الحلم، وكانت تعاني من توترات سابقة تدرجها ضمن العُصابيات، وسبق أن أصيبت بالثعلبة وبالأكزيما، ومن ثم عاودتها هذه الأمراض الجلدية النفسية في ظل معاناتها الحالية.

حلم ٢: كنت أسبح بالبحر وخرجت، وإذا بي أتبين أن جسمي كله قد سقط شعره، وتحسست رأسي وأنا مضطرب فإذا بها أيضاً صلعاء، والتقيت بزوجتي فحاولت أن أخفي رأسي بيدي، ولكنها أشارت إليها ساخرة، وقالت صارت رأسك كالبطيخة القرعة.

التفسير: الحلم لمهندس في منتصف العمر يهوى زميلة له، ورفضه أهلها لقصور ذات يده وأصله الاجتماعي المتواضع، فأوعز ذلك صدره وتهالك على العمل ليقتني المال، وتزوج امرأة مطلقة وغنية ليحل بها مشكلته المادية، ولكن لأن العنصر النفسي في الجنس غير موجود فقد أصيب بالعُنة، ودار على الأطباء فنبّهه طبيبه النفسي إلى الأسباب النفسية لعُنته. وفي ضوء هذه المعلومات تتضح رموز الحلم: فالبحر هو حياته العائلية والمهنية والجنسية المضطربة، وسقوط شعر جسمه ورأسه هو ذهاب رجولته، وكانت زوجته في اليوم السابق قد طلبت أن تأكل البطيخ ووعدها بشراء واحد، وكان البطيخ في أول الموسم وثمنه مرتفع، ولكنها لما فتحت ما اشتراه تبينت أن البطيخة قرعة فسخرت منه، وظلت تردّد: أتمنى البطيخ فيُحضِر واحدة قرعة!! فكان هذا الجزء من بقايا اليوم السابق، وفيه تعريض بعجزه الجنسي.

— ٩ —
«أحلام النار»

ومن الأحلام النمطية أحلام النار، ومثلما قلنا إن ما يجعل الأحلام نمطية ورودها بمحتوى ظاهر واحد عن حالمين كثيرين. وأحلام النار أتت القدماء وتأتي المحدثين، وتفرِد لها الكتب القديمة أبواباً ذات مساحة كبيرة بالنظر إلى كثرة ما يمكن أن تأتي النار على صورته، ولا

شك أن الصور الحلمية للنار لها مضمون ثقافي يختلف باختلاف الثقافات، ولكننا معنيون بمضمونها العام ودلالاتها الأكثر شيوعاً، ومنها أن النار دالة على السلطان بتأثير جوهرها الذي يعلو على كل الجواهر، ودالة على العذاب، وبها تكون جهنم، وعذاب الضمير يُرمز له بالنار، وربما كانت النار من دلالات الهدى فقد اهتدى بها سيدنا موسى، والنار رمز الفتنة والحرب والبُغض، ونقول عن الوباء إنه نار، ويُشبّه بها الجدب يأكل الأخضر واليابس. والنار في الشتاء دليل اليسار لأنه لا يشعلها إلا القادر عليها. والنار في مكانها من المشاعل وفرة في المال، وفي غير مكانها لا يخمد لها أوار وقد تُعَطّل عن العمل. ومن أكل ناراً فإنه مال حرام، ويُشبّه أكل مال اليتامى بالنار. وما أصابت النار فأحرقت من بدن أو ثوب فهو ضرر ومصائب. ومن قبَس ناراً أصاب مالاً حراماً، ومن أصابه وهج النار إغتابه الناس، والكيّ بالنار لذعة من كلام.

تلك إذن الصور الشعبية للنار، تذكي المخيلة في الأحلام فتأتي الصور الحلمية بليغة مبينة بيانها، وإن كنا نكرّر كل حين أن التفسير بالتنبؤ بما سيكون بحيث نقول مثلاً عن الحلم بالنار تأكل قرية، إنه فرية تنتشر فيها وتصيبها الفتنة، لا نأخذ به، وإنما نقول عن تفسير لرؤيا كهذه إن الحالم بها يعاني من مخاوف الفتنة، ويعيش في قلق وتوقّع لها، ولربما يكون لمخاوفه وقلقه وتوقعاته أسبابها ودوافعها السليمة فتأتي النتائج الصحيحة كمترتبات لمقدمات صحيحة، وعندئذ تصدق رؤياه.

ومن العبارات اللغوية أن يُشبّه الحب الشديد والعشق المتيم بالنار، وكذلك تأتي النار في الصور الحلمية عن الحب، وتوصف العاطفة بأنها مشبوبة، ويقال إن لها لهيباً، وهناك دائماً علاقة بين الجنس والنار، ونحن نقول إشتعلت به الرغبة. والنار كانوا يتعبدون لها وما يزالون وهم يضرمونها فيكون الرقص حولها والجماع. والنار تطهّر. ومن المحلّلين من يردّ غُلمة إشعال الحرائق Pyrolagnia إلى الإحباطات في الطفولة والجوع العاطفي ينشأ عليه البعض، والجوع الجنسي يستبد بالمراهق أو البالغ نتيجة العجز عن إشباعه لسبب أو

لآخر، وقد تحفل الأحلام بالنار بهذا كله، ويكون ورودها فيها لهذه الدوافع أو بعضها. وقد يأتي الحلم والحالم يضرم النار، وفعل إشعال الحرائق عندما يتكرر من الأفعال المعادية للمجتمع ولا يقوم به إلا سايكوباتي، وتكرار الحلم بإضرام النار قد يدل على عقلية اجرامية، وربما يعكس تلفاً عضوياً ذهنياً يجعل الحالم مريضاً مذهوناً، وتأتي أحلامه هلوسات، وربما يكون عملاً قهرياً إستحواذياً يأتيه الحالم غصباً عنه فيتواتر الحلم بإضرام النار. ولا شك أن لأحلام الحرائق صلة بالجنس فكلما تهيّج الحالم في اليقظة فإنه لسبب ما قد يقارن بين هياجه وإضرام النيران، فيصنع الحريق في الحقيقة أو يأتيه في الحلم، ومع تنامي الحريق يزيد الهياج الجنسي فيُمني، وكأن الامناء تبوّل يريد أن يطفئ به الحريق، وهو في الحالين يطفئ الحريق المشتعل على الحقيقة أو على المجاز بقضيبه ويستشعر لذلك لذة جنسية وإن كانت لذة مضطربة، والكثير من الناس وخاصة البدو يفعلون الشيء نفسه في اليقظة فيلذ لهم إطفاء النيران التي شعلونها للطهي أو للتدفئة بالتبوّل عليها، وقد ينتصب الرجل وهو يطفئ النار ببوله، أو قد يضاجع بعدها. والامناء أو الاستمناء عند المرضى بهوس إشعال الحرائق عقب إضرامها مثل ذلك، وهو كالتبوّل على النار الذي يكون بالبعض فعلاً قهرياً متواتراً، وكلاهما من الأفعال التي يختص بها الذكور دون الإناث. ولا عجب إذن أن تكون أغلب أحلام الحرائق من النوع الجنسي - أي الذي ينتهي بالإنعاظ - يختص بها الذكور دون الإناث، ولقد تبيّن من إحصاء أحلام الحرائق عند المراهقين أنه من بين كل مائة ذكر يحلمون بالحرائق أحلاماً جنسية هناك عشر فقط من الإناث تأتيهن هذه الأحلام. والمرأة التي تحرك مشاعرها الحرائق في الأحلام غالباً من النوع البارد جنسياً. وكانت الروائية جورج صاند تقول إن النار تستثير فيها الرغبة في التبوّل، وانها تحلم كثيراً بالنار، وهي أيضاً كثيرة الاستيقاظ من النوم لتتبول. وفرويد يقرن بين أحلام النار والرغبة في التبوّل، ويردّ هذه الأحلام إلى ذكريات الطفولة عن بلل

الفراش، وما كان الأهل يحذرون منه أطفالهم بقولهم لا تلعبوا بالنار حتى لا تتبولوا على أنفسكم في الليل. وإنني لأميل إلى رأي فرويد، فالملاحظ عند التبوّل أنه يكون هناك حَرَقان يستشعره الكثيرون، والإحساس الحارق في الفرج أو القضيب خلال الهياج الجنسي لشبيه به، وقد يستشعر البعض ميلاً إلى التبوّل كلما كان هناك هياج جنسي، ويمكن أن تكون القوة التدميرية للنار رمزاً للطبيعة القوية للدافع الجنسي، فكلما استبد هذا الدافع جاءت الصور الحلمية بالنار إنعكاساً للرغبة الجنسية، وقد تكون للحرائق غُلمة في اليقظة وفي الأحلام، وربما يشبعها لدى المنحرف إشعالها، وربما كانت تلك حال نيرون وهو يضرم النار في روما، وكانت تأتيه أحلام إضرام النار، وكان كلما رأى ناراً يتعبّد لها وكأنها إله، وربما كان ذلك أيضاً هو حال الكثيرين من مثيري الفتن ومشعلي الحروب.

أمثلة:

حلم ١: حلمت أني أدخل مكاناً وكانت الدنيا شديدة الحرارة، وقال قائل أنت تستحق الكي بالنار، ووجدتني مغصوباً أن أمشي إلى النار، وأنا أقاوم ولا أستطيع ردّ نفسي، واستيقظت مفزوعاً ووجدت أني قد أمنيت.

التفسير: الحالم طالب تجارة قد أطلق لحيته ويعيش حياة تديّن وينضم إلى جماعة دينية، وهو يهفو جداً إلى الجنس، وبه حساسية لسماع حكاياته، ويتمنى الزواج، ويكره أن يكتشف الناس فيه هذا الضعف، ويعيش صراعاً بين ميوله الجنسية القوية، وبين قوى القمع والكبت فيه، وكلما تهافت جنسياً كان توغله أكثر في الدين، وحلمه هذا ضمن أحلام أخرى كثيرة يحلم فيها بالنار والعذاب، والنار في هذا الحلم هي عذاب الضمير، وهي نار مطهّرة له، وتعكس أيضاً نار أشواقه الجنسية، وكأنه بالنار يتحقّق له شيئان: التنفيس جنسياً فيُمني، وأن يعاقب نفسَه على ذلك بما يستشعره من عذابها.

حلم ٢: حلمت أني أشعل موقد الغاز فانفجر، وكنت أملأ جردل الماء وأرش عليه فانطفأت النار.

التفسير: الحالم طفل في السابعة يُعالَج من التبوّل اللاإرادي ليلاً، والحلم بالنار هنا له سبب فسيولوجي وهو امتلاء

مثانته بالبول، وانفجار الموقد هو انفجار لمثانته وتبوله رغم إرادته، ولقد تبوّل فعلاً وبلّل فراشه، فكأن ماء البول قد أطفأ نار الرغبة المحتدمة فيه أن يقوم بالتبول.

حلم ٣: هذا الحلم لفرعون موسى يورده إبن سيرين بالتفسير الذي يراه له ونقدمه نحن بما نراه له من تفسير:

«حلم فرعون حلماً فظع به وهاله. رأى كأن ناراً خرجت من الشام ثم أقبلت حتى انتهت إلى مصر فلم تدع شيئاً إلا أحرقته، وأحرقت بيوت مصر كلها ومدائنها وحصونها، فاستيقظ من نومه فزعاً فجمع لها عدداً عظيماً من قومه فقصّها عليهم، فقالوا له: لئن صدقت رؤياك ليخرجن من الشام رجل من ولد يعقوب يكون هلاك مصر وهلاك أهلها على يديه، وهلاكك أيها الملك، فعند ذلك أمر فرعون بذبح الصبيان حتى أظهر الله تعالى تأويل روياه، ولم تغنِ عنه حيلته شيئاً، وربّى موسى عليه السلام في حجره، ثم أهلكه على يديه عزّت قدرتُه وجلّت عظمته».

والحلم أصلاً تقصه التوراة، وواضح أنه من وضع الأحبار لأن الحالم وإن كان فيه أن مصر ستعاني من فتنة أو غزو يتحصل لها من ناحية بلاد الشام، إلا أن حكاية أن محدث الفتنة من ولَد يعقوب يكون هلاك مصر على يديه ملفقة تماماً، ولا تأتي في تفاصيل الحلم، ثم إننا نعلم أن موسى وُلِد بمصر وعاش بها قومه مدّة تربو على الأربعمائة سنة حتى اندثرت قوميتهم وصارت لهم عادات ولغة المصريين. ويروي فرويد في كتابه موسى والتوحيد أن العيّ بلسان موسى هو عجزه عن التحدّث بالعبرانية، وأن الختان اليهودي هو عادة مصرية لها ما يبرّرها عند المصريين وليس لها ما يبرّرها عند اليهود، وأن تحريم لحم الخنزير لأن المصريين حرّموه على أنفسهم فقد كان من الصُّوَر التي اتخذها سِت في عراكه مع أخيه أوزيريس شكل الخنزير، فكان الخنزير نجساً عند المصريين لهذا السب، وحرّمه اليهود عندهم بلا سبب، وإن تحريم اليهود للتماثيل كان لأن المصريين كانوا يتعبّدون التماثيل فكأن الديانة اليهودية مصرية المنشأ والطابع. وليس ثمة ما ينبئ بأن الفتنة أو الغزو الموعود في الحلم يمكن أن يرتبط بقوم

موسى من نسل يعقوب! والرأي عندنا أن فرعون موسى كان من الفراعنة الضعاف كحاكم، وفي عصره كان هناك ما يشبه الغزو الفكري الشامي حتى أن النساء كانت تُستورد من الشام ومعهن عادات أهلها ولغاتهم، وكان الهكسوس من أهل الشام وقد حكموا مصر أيام النبي يوسف، ولذا ظهر اتجاه وطني في مصر يرفض تكرار ذلك ويتصدّى له، ونعلم أن الملوك يمتلىء تفكيرهم بما ينفع شعوبهم، وبما يحل مشاكلها، ورؤيا الملك بالنار تأتي من ناحية الشام وتهلك مصر هي رؤيا عادية جداً تعكس هموم الملك اليومية، والحلم هو رأيه الشخصي فيما يشهد أنه غزو فكري لبلده يأتيها من الشام، والحلم بذلك نفسره بأنه تعبير عن مخاوف مَلك مصري وقلقه إزاء الهجمة الفكرية السامية.

- ١٠ -
«أحلام الولادة»

من الأحلام النمطية، والولادة من الأحداث الكبرى في حياة كل إنسان وينسب علماء النفس إلى الولادة آثاراً هائلة على التكوين النفسي للفرد باعتبارها صدمة يسمونها صدمة الميلاد، فالخروج من أمن الرحم والماء الذي يحيط بالجنين ويسبح فيه مطمئناً إلى اضطراب الحياة والتنفّس بالرئتين، ومشاعر الجوع والعطش، وأحاسيس التبوّل والتبرّز، كل ذلك يصاب منه الطفل بالمخاوف والقلق. وكلما أعوزنا الزمن في الحياة من بعد كان بنا الحنين لعُزلة الرحم، فنعتزل داخل حجرات كالرحم، ولعلنا نستشعر وقتها بمشاعرنا ونحن في الأرحام، أو تأتينا الأحلام وفيها الماء يرمز للرحم، والخروج منه يشير إلى الخروج من الرحم أي الميلاد. وكذلك النجاة من الغرق من دلالات الميلاد. ويروي فرويد حلماً لإحدى مريضاته: «حلمت بأنها تقفز إلى الماء في منطقة منه انعكس عليها ضوء القمر الشاحب». وتفسير هذا الحلم يكون بالقلب، بمعنى أن القفز إلى الماء هو في حقيقته خروج من الماء، أي ولادة، وكلمة القمر في الفرنسية - حيث كانت المريضة فرنسية - هي La lune، وتعني

أيضاً «المؤخرة»، والقمر الشاحب إذن المقصود به المؤخرة، فكأن الولادة التي تراها هذه الحالمة هي ولادة بالمقعدة وليس بالرأس، ومن شأن هذه الولادة أن تكون عسرة. وقد ذكرت المريضة أن الحلم ربما إذن يصورها وكأنها «تولد»، ولما سألها فرويد ماذا تعني بأنها «تولد» كما يقول الحلم، قالت أوليس العلاج كأني أولد من جديد، فكأن الحلم بمثابة الدعوة منها لتواصل العلاج وإن كانت ولادتها عسرة.

- ١١ -
«أحلام الحمل والسقط والميلاد والرضاعة»

أحلام الحمل من الأحلام النمطية التي لا تنبئ عن مخاوف أو قلق ولكنها تنبئ عن رغبة في الحمل، ورغبة في خير يتحصّل للواحد ويزيد به، كزيادة الحامل بحَملها، فالتاجر إذا حلم بأنه حامل، أو أن زوجته حامل فإما لأنه يرغب إما في ولد أو في زيادة ماله من التجارة. والعالِم الذي يحلم بالحمل قد يكون راغباً أيضاً في الحمل على الحقيقة بمعنى أن ينجب، أو الحمل على المجاز بمعنى أن يوفقه الله إلى حلّ مشكلة علمية، أو إنشاء نظرية، أو صياغة فكرة لم يسبقه إليها أحد. وربما يكون الحالم بأنه حامل يعاني من صراعات جنسية مثلية يسوء بسببها تعينه بدوره الذكوري ويختلط تعيّنه الذكوري بتعين أنثوي فتتوه عليه الأدوار الجنسية. وقد تكون أحلام الحمل للرجل من قبيل التخيّلات التي تفصح عن رغبة في أن ينقلب أنثى، وذلك شائع بين المتخنثين والمتشبّهين من الذكور الذين يعانون من الاضطراب الجنسي المسمى التخنّث أو الاضطراب الجنسي المسمى التشبّه. ومن أحلام الولادة أن يحلم الذكر بأنه يلد، غير أن ولادته تأتي من شرجه، والولادة الشرجية تخييلات تتراوحنا في الطفولة، وتأتي الذكور، وتلح عليهم عندما تزيد الحساسية الشهوية بمنطقة الشرج وتتثبت كمنطقة شهوية، فتكون من بعد منطقة جنسية يتعامل معها جنسياً، أي تتحول إلى منطقة للجماع وتخييلات الولادة، ولربما يتحصل الحمل الكاذب للمأبون ويكبر بطنه، فلا غرو أن

تعكس الأحلام كل ما يدور من أفكار بذهنه وتصادق على ما يتخيّله أو يتمناه، أو يذهب إليه خاطره بلا وعي منه.



ومن الأحلام التي تندرج تحت أحلام الولادة أحلام السُّقط، فيرى الحالم أن حمله لم يتم، وتفسير ذلك أن ما كان يفكّر فيه وتتّجه إليه إرادته بالتفكير يميل إلى الانصراف عنه وان لا يتمه.

في حين أن الذي يرضَع يعني أنه إنسان إنتهازي أو إعتمادي، فإن كانت رضاعته من ذكر فحتماً يعاني من ميول لواطية، ومثل ذلك أن ترضَع الأنثى من ذكر لميول ذكورية فيها. والرجل الذي يحلم بأنه يرضع أنثى به ميول أنثوية، ونحن نعرف أن الذكور قد يعانون من حسد الثدي مُعاناة الإناث من حسد القضيب، والرجل الذي يعاني ذلك ربما يتزوج إلا أنه يخدم زوجته ويحب ذلك، ويقوم بالطهي والكي والغسل والكنس وتحميم الأولاد، ويسميه أصحاب مدرسة التحليل النفسي الرجل المهبلي، أي المؤنّث، الذي يتعيّن بأدوار النساء. وتكشف الأحلام من هذا القبيل كل تلك الميول والاتجاهات والانحرافات. ومن رموز أحلام الميلاد أن نحلم بأننا نمر بأماكن ضيقة، والمكان الضيق رمز للمهبل، ونعاني أثناء الحلم من مخاوف وقلق كما لو كنا محاصرين، وهو الحصر أو القلق نفسه الذي يعاني منه العُصابيون الذين يشكون رهاب الأماكن المغلقة أو الكلوستروفوبيا، فكأن المرور فيها في اليقظة أو الحلم بمثابة كابوس يرين على الصدر، وذلك بسبب أننا نستعيد من خلالها حصراً قديماً كان بمثابة التجربة الهائلة العميقة الأثر، والتي تترك هذا الأثر مدى الحياة من بعد، وتطبع الشخصية بطابعها بطريقة أو بأخرى، وهي تجربة الميلاد، أو صدمة الميلاد، وعندما تتعثر الولادة، وينزلق الجنين من المهبل، ويحاول المرور بصعوبة وتطول الولادة، وقد يشارف الموت، وقد يصاب من بعد بخواف الأماكن المغلقة، أو تمهد الصدمة لإصابته به، وقد يخاف الموت خوافاً مرضياً وتأتيه أحلام الموت

كالكوابيس فيحلم بأنه يُدفَن حياً، أو يُغلَق عليه قبر، أو يحلم بأنه يُشنق أو يُخنَق، ولعل الموت في هذه الأحلام رمز للميلاد، والقبر رمز للرحم، ولعل الحالم يعاني من مواقف حصرية في حياته تعيد إلى ذهنه موقف الميلاد فيتمثل ألم الولادة ألماً للموت، ويعاني من ألم الموت هذا، وكأنه يقول لنفسه: إنه مثلما اجتاز صدمة الميلاد فسيجتاز أية صدمة، ويولد من جديد، ولعله لهذا السبب يذهب التفسير الشعبي الأحلام من يرى نفسه وقد مات أنه يولد من جديد بمعنى سيطول عمره.

❖ ❖ ❖

ومن أحلام الميلاد والموت طائفة يحلم الحالم بها كأنما الأرض ابتلعته، أو أنه ابتلعه وحش، أو حوت، ثم قذف به إلى الخارج، وذلك تفسيره معاناة حاضرة للحالم يرجّح فيها لنفسه أنه سيخرج منها سالماً، ولعل قصة النبي يونس من ذلك، فيونس كان الصراع فيه محتدماً بين الواجب وحب الذات، وبين الغيرية والأثرية، وبين الأنا والضمير، وقد رأى يونس أن يهرب من واجباته ويسافر مرتحلاً، فغرقت المركب والتقمه الحوت، فاستغفر من ذنبه، وكأنه كان في حلم. وكأن الحلم كانت تدفع إليه مشاعر ذنب هائلة، فلما انتصر الضمير على الأنا، لفظه الحوت، وكأنه قد ولد من جديد بأنا جديد، وقد طهّره العقاب من ذنوبه، وذاك تفسير أن الموت في الحلم ولادة أخرى.

- ١٢ -
«أحلام الحيض»

أحلام الحيض من الأحلام النمطية التي تأتي البنات والسيدات والعوانس والعجائز على حد سواء، وقد تأتي الرجال، وأما إتيانها البنات فهو من قبيل ما يسميه علماء النفس حرص العذرية، حيث تكون بالبنت مخاوف من الزواج ومن الليلة الأولى، فتأتيها التخييلات بخصوص افتضاض بكارتها وعندئذ قد تحلم بالحيض ينزل عليها بديلاً عن دم الافتضاض، وكأنها بذلك تيسر على

نفسها الزواج وتلغي مخاوفها.

وقد تحلم الأم بأن الحيض يجيء ابنتها، فقد ترى أن ابنتها تأكل عسلاً أسود مثلاً، وهو ما يعني أنها ترى أن الابنة قد كبرت وحان حيضها.

والمرأة المتزوجة إذ تحلم بأنها تحيض فذلك قد يعني نفورها من الجماع، حيث بالحيض تعتذر عن إتيانه، وقد يعني أنها ترى عدم كفاءة زوجها جنسياً، فالمرأة المتزوجة لا تحيض إلا إذا كانت غير حامل، وكأنها تلوم رجلها على استمرارها تحيض، ولذلك فقد نفسر رؤية المرأة لحيضها أن بها أشواقاً للإنجاب.

ورؤية العجوز للحيض مخالف للواقع، فإذا حلمت أن الحيض قد نزل عليها فذلك ربما لأنها تتحسر على شبابها وتتمنى لو تعود الزمن القهقري، أو ربما تكون قد مرّت بمعاناة عظيمة تذكّرها بتجارب مماثلة من حياتها في ماضي أيامها، والمعروف أن الحيض ينزل على المرأة في غير أوانه إذا زعلت، والزعل يبين في الحلم فترى نفسها تفعل الشيء مثلما كان يحدث لها سابقاً.

والحيض للرجال قلب للدور الجنسي، وقد يحب الرجل امرأته حباً جماً حتى ليتعين بها، فإذا كانت بالزوجة أشواق لأن تحمل فقد يرى زوجها أنه يحيض، والمعنى بالقلب أنه يتمنى لزوجته أن يرتفع حيضها، أي أن تحمل.

ولقد قيل إن المأبون يحيض كالنساء، وليس ما ينزل منه حيض على الحقيقة ولكنه تجلّطات يضرب لونها للسواد، وتتجمع في المستقيم، بسبب سوء الاستخدام، وتنزل دفعة واحدة. ولقد تأتيه أحلام الحيض لتؤكد دوره الجنسي السالب.

والحيض قد يراه البعض في الأحلام نفوراً من الجنس الآخر، فقد يميل الشخص في اليقظة لفتاة ويراها في الحلم تحيض فينفر منها، وكأن الحلم يمدّه بالذريعة للنفور. وقد تعني رؤيته لها تحيض رغبات لا تفصح عن نفسها بفضّ بكارتها. ورؤية الحيض قد يعني ميولاً عدوانية ضد النساء، ونحن نعرف أن كل الثقافات تجعل المرأة في المحيض نجساً، وقد تغلو في ذلك كما في اليهودية فتنهى حتى عن مؤاكلتهن في المحيض.

- ١٣ -
«الأحلام الأوديبيّة»

قيل إن هذا العصر الذي نعيش فيه هو عصر القلق، وهو حقاً ما يعاينه فيه كل بصير، غير أننا نطالع التاريخ وسيطَه وقديمَه، ونقرأ كتب الأدب في الشعر والنثر والقصة والمسرحية، ونقرأ التوراة والأناجيل والقرآن، فلا نخرج من كل ما نقرأ ونطالع إلا بأن عصرنا ليس أسوأ العصور، وأن القلق ليس سمة نُختَص بها، فالقلق عام وشائع، وكان مع الإنسان دائماً وأبداً، حتى ليمكن أن نقول إن الإنسان يولد والقلق معه، وإنه مخلوق قلق، قد قُدّر عليه أن يقلق دائماً. ويبدو أن القلق سمة الوجود الإنساني، وهو دافع قوي من الدوافع التي تشكّل الأفراد والجماعات وتوجّه أهدافهم، فالقنبلة الذرية مثلاً ترتبت على الشعور بالخوف، ولم تكن سبباً للخوف، والخوف هو الذي يجعل الحكومات والشعوب تخصص نحواً من نصف ميزانياتها أو ما يزيد على ذلك للدفاع.

والإنسان مخلوق قلق لأنه يعاني من صراعات باطنة، وشخصيته تشبه البيت المنقسم على نفسه، والذي تدور بين أهله، وتملأ ساحاته حرب أهلية. ويعاني الإنسان عذاباً نفسياً وذهنياً كنتيجة لهذه المجاهدة الباطنة، ويحاول أن يخفف عن نفسه بمختلف الطرق إلا أن يمسك بالمشكلة الأصلية التي تسبّب له القلق، وذلك لأنه يتّجه لحل المشكل إلى العالَم الخارجي أو العالَم من خارجه، في حين أن المشكلة داخله هو، وإذا أراد أن يحلّها فعليه أن يستبصرها داخله، ويلتمس حلّها من داخله، ويضع يده على جذور القلق فيه.

والصراعات التي يعانيها الإنسان والتي تولّد القلق فيه مدفونة فيه - في عقله، وأعماق نفسه - ولكي يصل إلى أسبابها عليه أن يغوص خلفها إلى الأعماق وأعماق الأعماق، وأن يستخدم من الأدوات ما يمكِّنه من تحرّيها وملاحقتها وكأنه يتحتم عليه أن يستعين بأشعة إكس تكشف عنها وتفضحها، والأحلام هي هذه الأداة، لأن الأحلام هي مرآة الأعماق وهي المجال الذي تنطرح

فيه الذات للخارج، فعندما ننام وننقطع عن العالم الخارجي فإنه لا يتبقى للتفكير وللتأمل إلا العالَم الباطن، وفي الأحلام ننكفئ على أنفسنا، ونعيش مشاعرنا واضطراباتنا، والقلق الذي يخترمنا، والمخاوف التي تلفنا، والآمال التي تتلألأ من بعيد وتشدّنا إلى وميضها، والصراعات التي تحتدم بنا. والأفكار التي تأتينا في النوم حول كل ذلك في شكل الأحلام تسجل لكل منا كل الغموض الذي يلف حياتنا.

ولقد تسنّى أن نبحث في مجموعات هائلة من الأحلام التي جمعناها من الأسوياء لنطالع فيها الصراعات التي تهصر الإنسان وتنغص عليه عيشه، فما هي هذه الصراعات وما كنهها، وما هي طبيعتها؟

إن أول هذه الصراعات وأهمها جميعاً هو الصراع الثلاثي الأطراف، الذي يضم الحالم وشخصين آخرين، ولعلنا نذكر أننا قد قلنا سابقاً إن متوسط أشخاص الحلم هم ثلاثة بمن فيهم الحالم، ونحن نضيف الآن أن ما نقصد إليه هو أن يكون الشخصان الآخران رجلاً وامرأة، بمعنى أن يكون الثالوث المقصود رجلين وامرأة لو كان الحلم لرجل، وامرأتين ورجل لو كان الحلم لامرأة، وذلك شأن مألوف في الحياة نفسها وليس في الأحلام فقط، على شكل رجل تتخاطفه امرأتان، أو امرأة يتنافس عليها رجلان، وهو ما تدور حوله قصص السينما والمسرح والروايات والكثير من الشعر والأغاني، ويتكرر الشيء نفسه في الأحلام، والكثير منها يقوم على هذا الموقف الثلاثي دون كلل أو ملل، ودون أن يصبح هذا الموقف ممثلاً في الحقيقة، ولا في الخيال، ولا في الأحلام، فهو موقف متجدّد يشد إليه الناس شداً ويسيطر على تفكيرهم، لأنه يعكس صراعاً باطنياً له أهميته في حياتهم، ولعلنا بهذا الطرح المتجدد له في الأدب أو في الأحلام نجد الحل له، أو نجد بعض العزاء لما نستشعره نحن من جرّائه، فإذا كانت عُقدة الموقف تنحل أحياناً في قصص الأفلام أو المسرحيات أو الروايات فلعلها أيضاً تنحل في الأحلام. ولعلنا نؤثر أن نحدّد طبيعة هذا الموقف بعض التحديد فنقول إن الأحلام النمطية له هي أحلام يرى فيها الحالم

الذكر أن فتاته أو امرأته ينافسه على قلبها رجل آخر، ويحاول الحالم المستحيل أن يبزَّ منافسه وأن يخرجه من السباق عليها، فتكون فتاته أو امرأته له خالصة، وكذلك قد تحلم المرأة أن رجلها أو فتاها تنافسها عليه فتاة أو امرأة أخرى وتحاول أن تغصبه منها.

هذا الموقف نفسه إن كنا نعيشه في الشباب أو في أي وقت وزمن لاحقين فإنه تكرار لموقف نمطي بدائي عشناه في طفولتنا جميعاً، وهو الموقف الأوديبي الذي كان يضم الأب والأم والطفل سواء كان ذكراً أو أنثى. وربما يكون من المناسب أن نذكّر قليلاً بمعنى الصفة التي وصفنا بها الموقف وهو أنه أوديبي، وهو اشتقاق من أوديب، الملك اليوناني الذي تحكى الأسطورة أنه تزوج أمه وقتل أباه. والطفل في بواكير عمره يشعر بانجذاب نحو الوالد من الجنس الآخر فإذا كان ذكراً فإنه ينجذب إلى الأم، وإن كان أنثى انجذبت إلى الوالد، ومن ثم فإنه يغار من الوالد من جنسه نفسه، فالذكر يغار من الوالد، والأنثى تغار من الأم، ويجد أن هذا الوالد من جنسه نفسه يزاحمه حبّه للوالد من الجنس الآخر، فيبغضه أحياناً، ويحبّه أحياناً، ويتراوحه الحب له والبغض، وقد يسفر ببغضه حتى ليتمنى موت غريمه أو منافسه في حبّه. وهذه هي الدراما الإنسانية التي نعيشها في طفولتنا ونحاول لمعضلتها حلاً، وقد نستطيع حل الإشكال فنتعين بالوالد من الجنس نفسه ونتشبّه به، لعلنا نكون في الصورة التي نجد أن الوالد من الجنس الآخر يحب الابن من الجنس نفسه بها. وهكذا قد نصل إلى الحل بأن يتشبّه الولد بأبيه لعله يرضى عنه، ولعل الأم ترى فيه صورة أمثل لرجلها الأب. وتتشبّه البنت بأمها للغاية نفسها، فتُرضي نزعة الأم لأن ترى فيها نفسها، ولتكون نسخة أفضل منها في عين الأب. وهكذا نحن دائماً نريد لعلاقاتنا الحميمة أن تكون علاقة بين اثنين، وليس علاقة بين ثلاثة، والاثنان صُحبة، بينما الثلاثة كثير وزحام. وينعكس هذا الموقف الأوديبي في أحلامنا حتى لنذهل من الوضوح الذي يكون عليه الصراع في الحلم فلا نصدق التفسير. وإليك هذا الحلم:

– حلمت أني أضاجع أمي، ومن الغريب

أني كُنت منتصباً، وكانت هي في كامل ثيابها، وأنا أيضاً، وكنت ألتصق بها وأضمّها إليّ في وَلَه.

وهذا الحلم أيضاً الذي ليس بصراحة الحلم السابق:

- حلمت أني متزوجة من رجل يكبرني كثيراً، وكان في العمر كأنه أبي، وكان قصيراً وسميناً. وكنت أقف في النافذة إلى جواره ننظر إلى المشهد أمامنا. وفي الشارع كان الناس مجتمعين يشيرون إلينا في غضب، لأني رضيت أن أتزوج رجلاً في عمر أبي. وكان واضحاً أني أعرف بعضاً من هؤلاء الناس، فقد كانوا صديقاتي، ولكني لم أكن أبالي، وكنت سعيدة بزواجي من رجل به شَبَه من أبي.

والحلمان يستشعر الحالمان بهما الذنب لما يفعلاه، فالشاب في الحلم الأول لا يفعل ما يفعل إلا وقد ارتدى ثيابه وأضفى الثياب على أمه، فهو يعرف أن ما يفعله خطأ ولا يجسر على أن يفعله مباشرة. والبنت تحل إشكال حبّها لأبيها بأن ترى نفسها في الحلم أنها تتزوج رجلاً يشبه أباها، وهكذا تستعيض عن أبيها بصورته طالما أن أباها محرّم عليها.

وأما الحلمان التاليان فهما لفتى يناصب أباه العداء صراحةً في الحلم، ولفتاةٍ ترى أن أمها عدوتها اللدود:

حلم ١: حلمت أني أتشاجر مع أبي وكان يمسك في يده عصا غليظة حاول أن يعتدي بها عليّ، فلكمته بقوّة أطاحت به من فوق السلم، فسقط يهوي على الدرج.

حلم ٢: حلمت أن أمي جاءتني غاضبة ومهدّدة، وكانت تريدني أن لا أخرج ولا ألبس كما تلبس البنات، فناقشتها ولكنها ما كانت تبالي بي، فأخذت أصرخ وأصرخ حتى بحّ صوتي ولم يعد يخرج، وأحسست أني أخور، ولم أستطع أن أحرّك يديّ ولا قدميّ كأنني أصبت بالشلل، واستيقظت مذعورة فحمدت الله أني سليمة، ولكني كنت في حال يرثى لها من النكد.

والحلم الثاني أكثر تعقيداً من الحلم الأول، لأن الحالمة فيه لا تعرض كراهيتها لأمها فقط، ولكنها تبين سبب هذه الكراهية، والحالمة تكره أمها لأن الأم برفضها أن تلبس وتخرج كالبنات تحول بينها وبين إتيان شيء تأتيه البنات اللاتي

يلبسن ويخرجن، ولا تريد إبنتها أن تحذو حذوهن، وفي هذه الحالة فإن الأم تجسّد ضمير البنت.

ولو أخذنا الأحلام التي يظهر فيها أحد الأبوين أو الأبوان معاً وصنّفناها بحسب ما يبدو بين الحالم وبينهما من علاقات مودّة أو بغضاء، لوجدنا أحلام الرجال تصور الأم في صورة محببة بينما تجعل الأب معادياً، والعكس صحيح في أحلام النساء، فالأم تظهر بغيضة والأب يبدو ودوداً. ولو أخذنا أية شخصية من شخصيات الأحلام التي نحلم بها بحيث تكون هذه الشخصية في سن أحد الوالدين فإننا نتحصل على النتيجة نفسها، فالرجال يتصورون الذكور كبار السن معادين، والإناث كبيرات السن ودودات، بينما تتصور النساء الإناث كبيرات السن معاديات والذكور كبار السن ودودين، ومن ثم فإن موقف الحالم أو الحالمة من الأبوين يحدّد موقفهما من أي من الناس الذين يحلمان بهما من أي من الجنسين ممن يكونون في سن الأبوين، ونلاحظ أيضاً أن النساء لا يفرّقن هذه التفرقة الحاسمة بين الأبوين بحيث يجعلن الأمهات في الجانب المعادي، والآباء في الجانب الصديق مثلما يفعل الرجال، فالنساء يمكن أن تكون لديهن مشاعر مختلفة تجاه الوالدين، وهو شيء لا يدهشنا إذا عرفنا نشأة هذه التصورات، فالأطفال من الجنسين سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً تتكون لديهم مشاعر إيجابية تجاه الأم ولا يشعرون بمثل ذلك نحو الأب، ثم من بعد المراحل الأولى ينحاز الأطفال لأي من الأبوين من الجنس الآخر بحسب المعاملة، فالبنت لا تجد أن أمها صديقتها، على عكس الأب الذي يترضّاها أكثر ويتقرّب منها، والولد لا يجد أن معاملة أبيه له ودودة على عكس أمه، ويتبين من تصرفات الأب معه خشونة في حين أن الأم تتقرب منه وتتودّد له. ومع ذلك فإن البنت لا تنقلب على أمها انقلاب الولد على أبيه، فتظل بالبنت رغم غواية الأب لها أشواق لأمها، وتتمنّى أن تفهمها الأم، ولا تقطع علاقتها بها، وتحاول وصائها باستمرار، ولذلك فإنها تعاني في حياتها أكثر مما يعاني الولد الذي يحسم الأمر وينحاز كلية ولا يتراجع عن انحيازه،

ولا تتراوحه مشاعر البُغض والحب مثلما الحال مع البنت.

وإليك هذا الحلم الذي يصور علاقة أحد الشبان بوالديه:

- حلمت أننا في الإسكندرية نقضي الصيف، وكنا على البلاج، ونزلنا الماء أنا وأمي وأبي، وأخذنا نسبح ونحن في بهجة، وفجأة وجدنا التيار يسحبنا، وكانت أمي على يميني وأبي على يساري، وسمعت أبي وأمي يقولان: التيار يسحبنا يا بني، وتطلعت نحو أمي وأبي، ولا أدري لماذا ظننت من الوهلة الأولى أن أبي سيدبّر نفسه، وأن أمي هي الأولى بالرعاية، وضربت الماء بقوة ووصلت إليها، بينما ما تزال صرخات أبي تدوي في أذني، وأخذت بيد أمي واتجهت إلى الشاطئ وتبينت بعد فوات الأوان أن أبي قد اختفى.

ونحن نرى في أحلامنا الصراعات التي تنشأ بين الأولاد وذويهم ونشهد في الوقت نفسه محاولات الحالم أن يحل بقايا هذه الصراعات من الطفولة، وتقدّم الأحلام حيلاً طريفة يلجأ إليها الحالم من الجنسين، كهذا الحلم:

- كنت أنا وأبي وأمي نركب سيارتنا إلى بيتنا في الريف، وكانت أمي هي التي تقود السيارة، بينما كنت أجلس إلى جوارها، وأبي في الخلف، وكانت أمي سارحة بينما أتناقش أنا وأبي، وكان موضوعنا ما تفعله بنات اليوم، وتطرّق الحديث إلى الحب، وكان أبي يضحك مني لجهلي، وقال سأعلمك وأخذ يربت بيده على شعري، ويدلّك كتفي ويقترب بأنفاسه من رقبتي وأذني وأنا مندهشة لتصرفاته وأحمر لها خجلاً، وأمي صامتة لا تقول شيئاً.

والحالمة تنسب الفعل الأخلاقي لأبيها بدلاً من أن تنسبه لنفسها، وتستشعر الذنب مع ذلك لأنها رغم حيلة القلب هذه ما تزال تدرك في أعماقها أنها هي التي تتمنى أن تفعل ذلك وليس أبوها، وما تريده فعل محرم وضميرها يؤنبها لهذا السبب. والحالمة تحيّد الأم، أي تجعلها على الحياد، فلا تعلّق على ما يدور، فكأنها أخرجتها من الموقف وجعلت المسألة بينها وبين الأب فقط. وحيلة القلب هنا ذكية، وتتجنب بها البنت أن تبدو في صورة الغاوية لأبيها، لأن هذه

الصورة لا يوافق عليها المجتمع والدين.

والحالمة السابقة نفسها تفصح عن كراهيتها لأمها بطريقة فريدة تحقق لها أمانيها الشريرة للأم دون أن تظهر صراحة:

- رأيت جدّي، وكان طبيباً للأسنان ولكنه اعتزل الطب، رأيته يعالج ضرس أمي، ثم شهدته يخلع الضرس، وبعد ذلك لاحظت لدهشتي أن أمي تغيّر شكلها فوراً، فشاب شعرها كله، وبدت التجاعيد في وجهها، وانحنى ظهرها، كأنها أصبحت عجوزاً شمطاء، وقد فزعتُ مِن تحولها هذا وأصابني الخوف وأخذت أبكي.

وتظهر الحالمة نفسها بُغضَها لأمها هذه المرة صراحة ولو أنها تتوجه ببُغضها لبديلة عن الأم:

- كانت المرأة إلى جواري، وكانت ترتدي ثياباً كالتي ترتديها أمي، وتقص شعرها مثلها، ولم أكن أعرفها، وكنت ما أزال أتساءل مَن تكون، عندما رأيتها تصرخ وتتلوى ألماً، وتسقط على الأرض وتمد ذراعيها نحوي، وتطلب النجدة وتشير إلى قلبها وكان واضحاً، أنها تعاني نوبة قلبية كالتي تصيب أمي، ولم أسرع بنجدتها، بل على العكس تمنيت لو تموت وأرتاح من شكلها وصوتها ووجودها إلى جواري، وشهقت المرأة ثم أسلمت الروح.

ونلاحظ أنه حيثما تكون البغضاء يكون الخوف، ولنتأمل خوف الحالمة السابقة من كل النساء في مثل سن أمها:

- كنت على البلاج، وكنت أريد أن أستلقي وأستمتع بالشمس والهواء ومِلتُ بجسدي على الرمال، واكتشفت أن هناك سيدة في نحو الخمسين (كانت أمها في الخمسين) ترمقني شذراً، وغطيت ساقيّ ولكنها ظلت تنظر إليّ نظرات حادة فاعتدلتُ في جلستي وقد تملكني الغيظ الشديد منها.

وواضح الآن السبب في كراهيتها لشبيهة الأم: إنها لا تريدها أن تستمتع بحياتها.

وأما في هذا الحلم فرأيها في أبيها مختلف وتجعله خديناً لها وشريكاً في الفعل الفاضح:

- كنت على البلاج مع شخص، وكنت وهو كأننا متفاهمان، وكان يمسك بيدي ويتحسّس شعري وأنا مستلقية على الرمل

وقد استسلمت لمداعباته تماماً، وكان هذا الشخص أشيب الشعر، وما كنت أراه كذلك، فقد أغمضت عينيّ في نشوتي، واشتدت الشمس، ففتحت عينيّ لأرى غير بعيد سيدة شعرها أشيب تشير إليّ مشمئزة، وتطلعتُ حولي لأتبين لمن تشير فوجدت أنها تشير إليّ، وأضمرتُ لها البُغض في نفسي، فقد أخرجتني مما كنت فيه.

وواضح من الحلم أن هذا الشخص هو أبوها، وهي تستمتع بحياتها معه لولا ما ينغصه عليها تزمّت أمها التي تمثلها هذه السيدة، وزملة الأحلام السابقة كلها تحكي عن التوترات في حياة الحالمة التي تردّها لأمها، في حين أنها دائماً تنشد المتعة مع أبيها.

وإليك هذا الحلم لشاب يضاجع بديلةً عن الأم ويعاقب نفسه على ذلك:

– حلمت أني أنزل في فندق، وطرقت الباب سيدة طويلة القامة بيضاء وكانت تبدو محترمة، ودفعتني إلى الداخل وبدأت تقبلني، ثم همّت أن تخلع ملابسها عندما دخلت سيدة أعرفها وأحبها، وعندئذ تلاشى كل شيء، ثم رأيتني في الشارع أشهد عراكاً بين شاب ورجل يكبره كثيراً، وكان واضحاً أن الرجل سيصرع الشاب، وألقاه على الأرض، وكاد يقتله، والشاب يتلوى، ونظر إليه الرجل ثم تركه، والشاب يبكي، فرجع إليه الرجل، وربت على رأسه وتحاضنا، وانتهى المشهد وأنا مسرور غاية السرور لهذه النهاية.

والحلم يعكس حقيقة مشاعر الحالم نحو أمه وأبيه، وهو يشعر بالحب لأمه حباً شهوياً لا يرضى عنه، فيجعل الرجل يعاقب الشاب، والرجل يمثّل أباه، وبعد أن يُنزل العقاب بنفسه يشعر أن أباه قد رضي عنه، وبذلك ينحل الصراع الأوديبي عنده وتكون الأمور على ما يرام.

ويذكر فرويد في كتابه «تفسير الأحلام» أنه كان كلما سأل مريضاً عمّا إذا كان يحلم أحلاماً أوديبية، أكّد له المريض أنه لم يرَ في حياته حلماً كهذا، ولكنه كان عندما يعصر ذاكرته يتذكر أنه ربما حلم حلماً مشابهاً، ويستطرد فرويد أن الأحلام الأوديبية تأتينا بل وربما تأتينا أكثر من الأحلام العادية، ولكننا لا نذكرها بالذات، أو ربما لا تلفت نظرنا،

فإذا جلسنا إلى المحلل فإننا بالتداعي الحر نذكر الكثير منها. والأحلام الأوديبية المُقنّعة كانت تأتي القدماء، وكانوا يفسّرونها التفسير الفرويدي. ويذكر أوتو رانك أن يوليوس قيصر قد حلم حلماً رأى فيه أنه يجامع أمّه فأوّله مفسرو الأحلام بأنه سوف يمتلك الأرض الأم. وكذلك حلم هيبياس الذي يرويه هيرودوت، والذي رأى فيه أنه يضاجع أمّه، ففهم من الرؤيا أنه سيعود إلى أثينا ويسترجع سيطرته على أرض وطنه. ويعلّق فرويد على ذلك بأن هذه الأساطير والتفاسير تكشف عن بصيرة سيكولوجية صادقة، وتؤكّد تلك التجربة حيث نلاحظ أن الناس الذين يعلمون أنهم مفضّلون عند أمهاتهم، أو لهم عندهن مَعَزّة خاصة، يبدون في حياتهم ثقة فريدة بالنفس وتفاؤلاً شديداً، قد تكون لهما مظاهر البطولة، فيكون سلوك هؤلاء الناس الناجح الذي يحقّق لهم نجاحاً في حياتهم.

وهذه العلاقة الأوديبية من جانب آخر قد تفسد حياة الطفل، فيشب غير قادر على أن تكون له علاقات غيرية سوية مع آخرين من خارج نطاق أسرته، فقد يستشعر وهو رجل أنه يخون حبّه لأمّه إذا وقع في غرام امرأة. وقد تستشعر البنت أنها تخون حبّها لأبيها لو أسلمت قلبها لآخر. ويعمل الآباء فيما يبدو على ترسيخ هذا الاتجاه عند أولادهم بأن تكره الأم خطيبة إبنها أو زوجته، ويكره الأب خطيب إبنته ويضيّق عليها من حيث الحرية التي تكفلها الخطبة للخطيبين. وكم من بنات وبنين رفض الآباء أن يعقدوا قرانهم على من اختاروهم شركاء لهم ولم يكن هناك سبب مُقنع. وهذا الحلم يبين لنا إحساس الحالمة بالذنب لأنها ستتزوج:

- حلمت أني سأتزوج، وكان الجميع فرحين من أجلي إلا أنا، فقد كان لدي إحساس بأني، بزواجي، أظلم إنساناً وأسيء إليه، ثم رأيت أبي يقف قُبالتي ويحاول أن يخنقني، وكنت أتلوى وأعلم أني أختنق، ولم أكن أخشى الموت بقدر ما كنت مفزوعة لأني قد أغضبتُ أبي لدرجة أن يريد خنقي.

وتشعر الحالمة أنها تتصرف عكس رغبة أبيها، وأن من حقّه أن يعاقبها وهو ما تراه هي من وجهة نظرها، ولا يهم أن

يكون ذلك حقاً ما يراه الأب، ولأن الإحساس بالذنب هو إحساسها هي وليس إحساس الأب.

وهذه الزملة من الأحلام لشاب كان يحبّ أمه حب العبادة، وكان يتعلل لعدم زواجه بأن أمه في حاجة إليه، وبسبب بُخل أبيه وتقتيره وشجاره الدائم مع الأم كلما وجد نفسه معها وحدهما دون الابن. وهو ينزع في هذه الأحلام إلى التدرّج بالمشكلة إلى الحل الذي يراه لها، ففي الحلم الأول يرى أن فتاته هي عزاؤه عن صراعات البيت، وفي الحلم الثاني يرى أمه تبكي منه هو وليس من الأب، ولا يدري السبب، وفي الحلم الثالث يرى أن أمّه ستكون بائسة لو أنه تزوج وتركها، فيقرّر ألاّ يتزوج، وفي الحلم الرابع يحل الإشكال بأن يموت أبوه فترضى فتاته أن تتزوجه وتعيش أمه معهما.

الحلم ١: حلمتُ أني ذهبت للقاء فتاتي وكنت بائساً ولا أدري السبب، فقالت لي حقيبتي معطّلة فأصلحها بدلاً من هذا الكلام الموجع للدماغ.

الحلم ٢: حلمتُ أن أمي كانت تبكي وحاولت أن أعرف السبب، وكانت تقول أنت السبب. ولكن كيف؟ لم تقل. فقط كانت تبكي.

الحلم ٣: حلمت أني وأمي نجلس في المطبخ ونتذكر الماضي وكنا مسرورين وقالت لي ولكنك سترحل وتتركني يا خائن فأقسمت أن لا أتركها، وأخرجت علبة احضرتها وفتحتها، وكان بها فستان أبيض فرحت به وابتسمت وقبلتني.

الحلم ٤: حلمت أن أبي قد مات، وقد انتقلنا إلى شقة أخرى تتسع لي ولزوجتي وأمي. وكانت الأمور بين زوجتي وأمي على ما يرام، وكنت أطري طهي زوجتي فتنظر إلي أمي وتقول ذلك بفضل أمك.

وهذا الحالم إنسان متهافت الشخصية، ويعيش في كنف أمّ مسيطرة وأب ضعيف، ومشكلته أنه لا يثق في نفسه، وهو لا يفكر في ضعفه ولا يجد لنفسه الحل الواقعي، ولكنه يحلم حلماً يحل به مشاكله فيميت الأب ويجد الشقة المناسبة، ويوائم بين أمه وزوجته. والواقع أن أحلام هذا الفتى كلها من النوع الذي نلمس فيه الكراهية للأب والحب المولّه للأم. والصراع الأوديبي لم ينحل عنده وما يزال يعتمل فيه ويفسد

عليه حياته، فلا يتعامل بواقعية مع المواقف المختلفة. ويأتي على الأطفال عادة سنّ معينة يدركون فيه حقيقة انتماءاتهم، ومن ينبغي أن يتعيّنوا به من الوالدين، فالذكور ينحون إلى الذكور، والإناث تتوجهن إلى الإناث، وبهذه الطريقة يضعف الحب الذي يمكن أن يقوم بين الولد وأمه ويفسد عليه حياته من بعد، وتضعف أيضاً الكراهية التي تكون بينه وبين أبيه، ويجد أنه من اللازم عليه أن يتصرف مثله، وأن يكون له دور ذكوري مثله. وقد يحدث كثيراً أن ينقلب حب الولد لأمه إلى كراهية، عندما يتبين أن حبّها له يحول بينه وأن يتطور التطور الطبيعي، وأن يكون له دوره الذكوري، وهذا الشيء نفسه قد يحدث أيضاً بالنسبة للطفلة تجاه أمها وأبيها، ومع ذلك يظل تخوّف الأطفال الذكور من جنس الذكور البالغين على ما هو عليه، ويظل تخوّف الأطفال البنات من جنس الإناث البالغات، ومهما كانت إيجابية الاتجاه الذي تنحل به عقدة أوديب فإن ما يتخلف عنها هو من عيّنة ما كان موجوداً في الأصل، وهو أن يتصور الولد والبالغ من بعد أن كل الأولاد أو كل البالغين من الذكور معادون له، وكذلك تتصور الأنثى أن الإناث معاديات. ومهما بدا لنا أن هذا الشاب أو ذاك يعامل أبويه باحترام، وأنه يحبهما كل الحب، فإن المظهر لا بد أن يخفي أشياء أخرى قد تتكشف فقط في الأحلام، ولعل العرض الذي تعرضه الأحلام أو الذي تعرضه المسرحيات والأفلام والروايات، عن هذا الموقف الثلاثي هو الذي يشدنا إلى قراءتها أو مطالعتها فاغري الأفواه مشدوهين، لأن ما نراه فيها ليس المظهر ولكنه الحقيقة التي تُبدهنا، وهذا ما نحسه تجاه مسرحية هاملت، وتدور أحداثها متلاحقة، ونحن على وعي بما جرى فعلاً، ويتابع هاملت وهو يتردّد في الانتقام لأبيه، ونشعر بشعور غامض يلهمنا السبب، وهو ان العمّ قد نفّذ الجريمة التي كانت تراود هاملت نفسه، وتراود كل طفل يرى في أبيه منافساً له على حبّ أمّه. ونسمع هاملت يلوم أمّه أنها خانت عهد أبيه وتزوجت، والواقع أنه يقول هذا الشيء عن نفسه هو، ويرى في زواج أمه خيانة له هو، ولو كانت الأم

قتلت الأب ولم تتزوج لما كانت ثورة هاملت، والمزعج لهاملت أن الأم تزوجت. أولا يقول كل طفل، لو سألناه عمّن سيتزوج، أنه سيتزوج أمه؟ أولا نرى الطفل يضرب أباه لو رآه يقبّل أمه؟

ولربما قد نذكر مقولة ديديرو التي صارت مثلاً: إن كل طفل ليتمنى أن يزيح أباه من طريقه ليخلو له حب أمه. ولكم يتمنى الأطفال الذكور أن يموت الأب ليتزوجوا أمهاتهم!! ولقد حفلت الدراما الإغريقية بهذا الصراع الأوديبي الثلاثي الأطراف، وليس أروع من مسرحية الملك أوديب لسوفوكل عرضاً لهذا الصراع، وهو ما جعل فرويد ينبّه إليها.

ولربما يكون النقد الموجّه لفرويد أن ما استقاه من أصول للصراع الأوديبي مصدره دراسته لأحلام المرضى، غير أن الكثيرين قد درسوا أحلام الأسوياء، كدراستهم لأحلام المرضى باضطرابات نفسية أو عقلية، وكانت النتيجة واحدة. وتعمل عقدة أوديب عملها في الجميع سواء كانوا أسوياء أو مرضى، ولربما يكون فعلها في الأسوياء أكثر من فعلها في المرضى، ولنضرب لذلك بهذا المَثَل الذي نلاحظه جميعاً ونعرفه في أوساطنا، وما منا من لم يسمع أن رجلاً يحاول أن ينتزع من آخر خطيبته أو زوجته، وقد يفلح في ذلك، ولربما عاينا فعلاً إمرأة تختطف خطيب أخرى أو زوجها، وليس من دافع لأيهما سوى هذا الدافع من عقدة أوديب: أن نحوز الشريك أو الشريكة لآخرين. ويفسر لنا ذلك سبب أن بعضنا يفضل أن يبقى بلا زواج، بدعوى أنه يرعى أمه أو أخته بعد وفاة أبيه أو بعد أن تركهما أبوه. وقد نسمع أعذاراً غريبة، وقد تكون مُقنعة ولكنها تخفي الدوافع الحقيقية، وتتلخّص في تعلّق الرجل الشديد بأمه، أو تعلق البنت بأبيها. وتكشف الأحلام هؤلاء الناس وتبين عن الأسباب التي من أجلها يُصابون بالقلق.

ويبدو أن كل الأحلام التي مدارها صراعات من نوع ما، منشؤها هذا الصراع الأزلي الذي نعيش بسببه في قلق، والذي يدفعنا إلى أن نحلم أحلامنا هذه عن آبائنا. وهذه الصراعات التي أهمها الصراع الأوديبي هي التي تصنع ما أطلقنا عليه إسم الأحلام النمطية.

وهي أحلام عرفها إبن سيرين وميّزها فرويد، غير أنهما قالا بأن ظاهر الحلم له باطن، ومن ثم فإن القول بالأحلام النمطية يتناقض، لأن هذه الأحلام نمطية في ظاهرها، وتختلف في باطنها. ولعله لهذا السبب نركز على تفسير ظاهر الحلم في كتابنا هذا، ولا نعول كثيراً على طريقة التداعي الحر، لأنه ربما لا تتهيأ لنا الظروف أن نتحصل على المستدعيات الباطنة، أفنترك الأحلام إذن وقد عرفنا مالها من أهمية؟ الحل هو أن نركز على ظاهر الحلم ونحاول أن نستكنهه. وقد ركّز فرويد على نوعين من الأحلام النمطية هما أحلام السقوط من الأماكن العالية، والأحلام المهدّدة التي نرى فيها أن أحداً يهاجمنا، كأن يكون لصاً أو قاطع طريق، أو كأن يطاردنا شخص أو حيوان، ونتعثر في الهروب. ونلاحظ أنه رغم أن تفصيلات هذه الأحلام تختلف من شخص لآخر فإن العامل المشترك بينها جميعاً هو نفسه دائماً، وهو في النوع الأول قلق ينتاب الحالم من أنه مفارق لموضوع كان يعيش في كنفه ويستند إليه، وهو في النوع الثاني، الذي أطلقنا عليه إسم الأحلام المهدّدة Threatening dreams، ترقّب وخوف وقلق من تهديد بالإيذاء مصدره خارجي. وثمة فارق آخر بين النوعين السابقين يجعل كل نوع منهما نسيج وحده، وهو أنه في النوع الأول، أي أحلام السقوط، يشعر الحالم أنه وحده دون أن يعينه أحد أو يسعفه أو يمسك به ويحول بينه والسقوط، وفي النوع الثاني يكون الحالم إزاء شخص أو شيء أو حيوان يخاف منه ويحاول أن يهرب ولكنه يعجز. وفي النوع الأول تكون هناك حركة ملحوظة ومفاجئة، وفي النوع الثاني يبلغ بالحالم الفزع انه يتسمّر في مكانه، بمعنى أنه تمتنع عليه الحركة أو كما نقول تُقمَع.

ولقد ثبت من إحدى الدراسات عن مجلة Psychiatry بعنوان: Harris, 1: Observations Concerning Typical Anxiety Dreams، أن أغلب أحلام القلق مظهرها الحلمي هو السقوط أو التهديد الخارجي، وأن الناس تأتيهم هذه الأحلام بدرجات متفاوتة، وتؤثر فيهم أيضاً تأثيرات نفسية متباينة. ونفهم من شيوع

هذه الأحلام أنها لا تعكس إضطرابات نفسية أو عقلية، ولكنها تأتي الأسوياء وغير الأسوياء على السواء، ومن ثم فقد تكون هناك أسباب عميقة تخص تطورنا منذ الطفولة هي التي تدفع إليها. وهذا حق، فهناك أخطار نفسية نتعرض لها في طفولتنا، وهي بخصوص النمط الأول وهو نمط أحلام السقوط، أخطار أن يتخلى عنا أحد الوالدين أو كلاهما، وأن يسقطنا من حبه ورعايته وحمايته، وربما ما يستوجب الفراق. وأما أحلام التحديد الخارجي فيقابلها ما نخبره في طفولتنا من أذى يلحق بنا أو يتهدّدنا من الأبوين وخاصة بالنسبة للأولاد، حيث قد يعانون مخاوف من العقاب من الأب يصل إلى حد الإخصاء، وقد يتوجّه معنى الإخصاء إلى قطع القضيب أو بتره، وقد يتوجّه إلى ذكورة الطفل فيحال بينه وأن تنمو من حيث اعتباراتها المميزة للذكور في مجالات السلوك والتفكير والشعور والحُكم، وبالاختصار تتهدد تمثّل الطفل لدوره الذكوري. وإذن فإن أصل القلق والمخاوف ينشأ أول ما ينشأ في الموقف الأوديبي الذي يضم الطفل والوالدين.

ولعله لهذا السبب يعتبر المحللون أحلام السقوط نمطاً من الأحلام يسمونها أحلام السقوط الأدبي، بمعنى أن الحالم يتهدده أن يتداعى بالسقوط أخلاقياً، ولا يحدث له ذلك إلا لأنه قد عانى أن يسقط من اعتبارات الوالدين أو من محبتهم. ويعتبرون الأحلام المهدّدة نمطاً من الأحلام يطلقون عليها إسم أحلام الإخصاء، وأصلها المخاوف والقلق اللذان يعاني منها الأطفال نتيجة تهديدات الأبوين بالعقاب في الطفولة. وبقدر ما يعاني الطفل من أخطار أن يتخلى عنه أبواه أو أحدهما، ومن أخطار العقاب من قبلهما، فإنه سيعاني مستقبلاً من أحلام من أي من النمطين السابقين، ولقد عرفنا في أبواب سابقة أن أكثر ما يحلم به الذكور هو أحلام العنف في حين أن أكثر ما تحلم به الإناث هو أحلام الانفصال أو التي موضوعها الحب والبغض. ويفيدنا ذلك أن نعرف إتجاهات الناس وتكوينهم النفسي وديناميات شخصياتهم، فلو عرفنا أحلامهم نعرف نوع التربية التي تعرّضوا لها. ولقد ثبت فعلاً أن سلوك الذين يحلمون أحلام

السقوط يتصرفون في الحياة من منطق تجاربهم في الطفولة التي أساسها الانفصال، بينما يسلك الذين أحلامهم مهدّدة بحيث يغلب عليهم الخوف من الأخطار الخارجية. غير أنه من ناحية أخرى فإن من يخاف أن تتركه أمه يخشى أن يغضبها ومن ثم فقد يصرف غضبه على أبيه غالباً، ولا يكون أمامه أن يعلن عن هذا الغضب على الأم إلا في الأحلام فقط، ويكون عكس ذلك في الحياة، وإن من يخاف من عقاب أبيه وسخطيه عليه فقد يرهب أن يغضبه، وبدلاً من أن يتوجه بغضبه إليه فقد يصرفه على أمه غالباً، ولا يجرؤ أن يعلن عن عدائه لأبيه إلا في الأحلام. ومن ثم فقد نستنبط أنه كلما كان سلوك الفرد فيه الاحترام الشديد والتبجيل للأب كلما كانت أحلامه تجاهه معادية غالباً وتعكس حقيقة هذا الاحترام، وهو انه مبني على الخوف منذ الطفولة. وكذلك قد تكاد تقدّس البنت أمها، فنجد أن أحلامها عكس ذلك ونتبين أنها في طفولتها كانت شديدة الاعتماد عليها. وهذا ما سنناقشه من زاوية أخرى من خلال دراسات أخرى للأحلام المهدِّدة.

- ١٤ -
«الأحلام المهدِّدة من نمط أحلام الحرامي وغيرها»

نعود مرة أخرى لما أسميناها الأحلام النمطية لنؤكّد من جديد ما نعنيه بها، وهو أنها الأحلام الشائعة، أي التي يحلم بها كثير من الناس، في مقابل الأحلام الخاصة أو الفردية. فإذا كنا سنعامل الأحلام بوصفها وسيلة قياس للشخصية كاختبارات رورشاخ فإن تقسيمها هذا السابق ليشبه تقسيم إستجابات رورشاخ، فمنها استجابات عامة يأتيها أغلب الناس، ومنها استجابات خاصة تشير إلى اتجاهات وميول معيّنة تخص أحد الناس دون كل الناس.

والأحلام النمطية مثلها مثل الاستجابات العامة، ومنها أحلام السقوط، والتعرّي، والامتحان، وخلع الأسنان، وموت الأقارب، والأحلام الجنسية أو أحلام الزواج، وأحلام ركوب

الـخـيـل أو الـدراجـات والـقـطـارات إلـخ، وأحلام الضياع التي مؤدّاها أننا ضللنا الطريق، وأحلام الجهد الضائع. ولقد تحدثنا عن أغلبها وضربنا لها الأمثلة وقلنا إن فرويد قد جعل تفسيرها عند الناس تفسيرات متشابهة، وردّها إلى ما يردّونه إليه وهو القلق إزاء موضوع معين، أو القلق الذي يولّده توجس الشرّ وتوقعه من موضوع مُهدّد، ولذا فقد أُطلق عليها إسم أحلام القلق Anxiety dreams، وقدّم تحليلات لبعضها فقال إن الأحلام قد تصدر أيضاً عن رغبة، والرغبة في أحلام التعرّي مثلاً هي رغبة إستعراضية، بأن نستعرض أو نستعري أمام الوالدين أو أحدهما، وأن البنت تميل للاستعراض أمام الأب، والولد يستعرض أمام الأم. والرغبة - في أحلام موت الأقارب - تعكس الإحباط من معاملة الوالدين في الطفولة، والخوف من أحدهما لسبب من الأسباب حتى ليتمنى الطفل لو أن هذا الأب يموت، ورغم أننا ننسى كل ذلك عن الطفولة بتأثير ما تتعرض له هذه الرغبات من استهجان بسبب التربية، وما تفرضه المصلحة على الطفل نفسه، بحيث يجد أنه لا بد أن لا يعلن عن رغباته ويضطر أن يكبتها، إلا أنها تستمر تعمل عملها فيه لاشعورياً، وتأتيه في أحلامه تكشف عن وجودها واستمرارها. وليس من الغريب أن نسمع طفلاً يطلب الموت علناً لمن يكرهه حتى ولو كان أحد الوالدين أو الإخوة، بل إن الوالدين نفسيهما قد يدعوان بالموت على الطفل في لحظات البُغض وكلما زادت شقاوته. ولقد سمعنا ذلك كثيراً، وعايناه بأنفسنا، أن يقول الطفل أو البالغ، «إن شاء الله تموت يا فلان». وأمّا الرغبة التي تفصح عن نفسها في أحلام الامتحان فهي أن نتجاوز محنة حاضرة، بأن نستعيد في الحلم تجربة سابقة ناجحة، يقلبها الحلم تجربة فاشلة، لينبهنا الجهاز النفسي أننا طالما اجتزنا محنة سابقة فسنجتاز هذه المحنة أيضاً، فكأننا بأحلام الامتحان نرغب في تطمين أنفسنا.

وربما يناسب طبيعة الذكور العدوانية أن تأتي أحلامهم عنيفة، وكان الأولى أن تأتي أحلام التهديد - التهديد الواقع على الحالم - أكثر بالنسبة للبنات، بالنظر

إلى كونهن أميل إلى المسالمة والاستكانة فيقع عليهن الظلم الكثير، إلا أن ذلك لا يصدق إلا في أحلام الاعتداءات الجنسية بالاغتصاب وغيره فإن أحلام الإناث بها أكثر، وهي ضعف أحلام الذكور بالاعتداءات الجنسية. وتتراوح التهديدات المقصودة من مجرد التهديد بالضرب إلى التهديد بالقتل، أو بالقبض على الحالم أو سرقته، والاعتداء الجنسي عليه، وأكثر ما تكون التهديدات في الأحلام من هذا النوع بالقتل للجنسين، ثم يأتي الضرب الثاني في الترتيب، ثم القبض على الحالم، ثم الاعتداء الجنسي، ثم السرقة. ويتراوح ردّ الفعل عند الحالم ما بين الهرب من الموقف بالركض أو تغيير المشهد، أو أن يتقدم أحد لينقذه، أو انه يستيقظ فزعاً، وعادة ما نصف هذه الأحلام بأنها كوابيس وكلها من قبيل ردود الفعل السلبية، وقد تكون هناك أحلام من قبيل ردود الفعل الإيجابية، بأن يردّ الحالم على التهديد في الحلم بتهديد مثله، أو بأن يظهر التحدّي. وبصرف النظر عن كونها ردود فعل ناجحة أو فاشلة، فإنها بشكل عام تكون في الأغلب والأعم ردود فعل سلبية، ويستوي في ذلك أن يكون الحالم أنثى أو ذكراً. وأغلب هذه الأحلام ليس فيها ما يستوجب أن يتلقى الحالم تهديداً، وحتى لو كان قد أساء الفعل فالتهديد لا يتناسب مع الفعل. وكثيراً ما يكون المهدّد حاملاً لسلاح ما وخاصة في أحلام التهديد الجنسي. وفي أحلام الإناث يكون المُهدّد شخصاً واحداً، بينما في أحلام الذكور يكون هناك عدة أشخاص.

ونخلص من كل ما سبق إليأن أحلام التهديد هي انعكاس لتصور الحالم لنفسه من حيث الضعف والقوة، والشخص الذي يحلم هذه الأحلام ويُكثر منها شخص ضعيف ومستكين وسلبي، وليس الخوف من الإخصاء هو الذي يدفعه إلى أن يحلم بأحلام التهديد، لأن الحلم يدل على أنه فعلاً قد خُصي، أي انه بتأثير سلطان الأبوين عليه في صغَره، قد خرج من الموقف الأوديبي وقد حيل بين ذكورته وأن تنمو النمو الطبيعي. وهو الآن يشعر أنه عاجز ولا حول له ولا قوة، وتعكس أحلامه مشاعره هذه، ولهذا فهو يرى أنه لا يستطيع أن يجاري التهديد

إلا بأن يركض أو يصرخ أو يستغيث أو يصحو. وإذا كنا سنفترض فعلاً مع فرويد أن أصل أحلام التهديد هو الخوف من الإخصاء فإن ذلك قد يكون مفهوماً في حالة الذكور، ولكنه لن يتمشى كتفسير في حالة الإناث، فأي إخصاء يمكن أن يقصد إليه في حالة الإناث، إلا أن يكون معنى الإخصاء منصرفاً إلى المعنى العام وليس المعنى الخاص، والإخصاء بالمعنى العام هو بتر الشخصية Amputation of personality، بأن يحال بينها وأن تتنامى وتنضج، وذلك ما يحدث كثيراً من جرّاء الصراع الأوديبي الذي ذكرناه، والذي قد يكون موضوعاً لأحلام أطلقنا عليها إسم الأحلام الأوديبية. ولفرويد رؤية في الأنوثة تعني أنها الاستسلام والخنوع والاستكانة والسلبية. والأنوثة بهذا المعنى قد توجد أيضاً في الذكور، وعندما يستشعر الذكر أنه يتصرف بسلبية وخنوع فإنه يحاول جاهداً أن لا يكون كذلك، ونقول عندئذ إنه يحاول أن يجاهد الإخصاء، أي يجاهد أن يتحول إلى أنثى ولو بالمعنى دون المبنى، فإذا غلبت عليه السلبية والخنوع قلنا إنه تقبّل الإخصاء، ومن ثم فنحن نقول إن أحلام التهديد هي أحلام خنوع وسلبية واستكانة، أي أحلام أنوثة، ويستوي في ذلك أن يحلم بها الذكور أو الإناث.

ولقد قال فرويد أيضاً عن الأنوثة إنها ميل نحو تلقي الألم واستعذابه، وأطلق على ذلك إسم البُعد الماسوشي في الشخصية، ومن ثم فإنه يكون من الطبيعي أن تأتي أغلب أحلام الإناث مُهدّدة، ولكنه ليس من الطبيعي أن تأتي أحلام الذكور من هذا النوع إلا أن يكون البُعد الغالب في شخصية الحالم الذكر هو البُعد الماسوشي الأنثوي، وهو الذي يجعله يتقبّل التهديد بخنوع، ولا يرد عليه، وقد يهرب من الموقف برمته أو يستغيث كالأطفال، وذلك يعني بلا جدال أن حلم التهديد ليس عن خوف من الإخصاء عند الذكور، ولكنه يدل على أن الحالم الذكر قد خُصِي فعلاً وصار أقرب إلى طبيعة الإناث، ويفيدنا أن نعرف ذلك لأن الحلم كما قلنا وسيلة من وسائل التعرّف إلى مكونات الشخصية ودينامياتها وتأثير التربية فيها وفي

نموها، وتحليل الحلم هو بمثابة تحليل للشخصية.

ولقد كانت هناك بحوث حول علاقة ردّ العدوان بقوة وتماسك الأنا أو الذات عند الحالم. وتبيَّن أن الأطفال بالنظر إلى تهافت ذواتهم وعدم نضجها، فإنهم يتقبلون التهديد أو العدوان في أحلامهم، وبالمثل يتقبل المريض بالاضطرابات النفسية أو العقلية التهديد أو العدوان، إلا أنه في حالة المراهقين يكون هناك رد فعل إيجابي وعنيف في نحو ٥٣٪ من الحالات، بينما تزيد النسبة عند البالغين الأسوياء إلى ٧٠٪ ومن الطبيعي أن يشعر الطفل إزاء التهديد الخارجي بالعجز، وأن يتصور نفسه غير قادر على دفع العدوان عليه مادياً ومعنوياً، إلا أن البالغ الذي يتصور نفسه على هذا الضعف لا بد أن يكون ضعيفاً فعلاً، وكأنه يتصور نفسه طفلاً، أو يتشبه بالإناث اللاتي يعرفن أنهن كالأطفال أعجز من أن يواجهن التهديد بالتهديد.

ولقد قلنا عكس فرويد إن أحلام التهديد لا تصدر عن خوف من الإخصاء، بل هي تعبير وانعكاس لحالة الإخصاء التي يعيشها الحالم، فهو ضعيف ومستكين كالإناث، وهو لا يخاف الإخصاء ولكنه يخاف ما تخافه الإناث والأطفال من مخاطر العالم الخارجي، وأن يُؤذى منها أو أن يُقتَل، وأن يُعتدَى عليه جنسياً. ومع ان أحلام الاعتداء الجنسي أقل بنحو النصف عند الذكور عنها عند الإناث، إلا أننا لا نستطيع أن نتغاضى عما ترمز إليه رموزها عند الحالم، وهي رموز جنسية مفضوحة وتُشبه القضيب، فهي بنادق وسكاكين وخناجر وإبر إلخ. وهو يخاف دوافعه وغرائزه التي يشبّهها الحلم بالحيوانات، وبقوى الطبيعة كالزلازل والفيضانات ويخاف عذابات ضميره، ويمثلها في الحلم الشرطة وناظر المدرسة والمدير والرئيس في العمل إلخ. ولا يمكن لأن يعني رفضنا أن نردّ مع فرويد أحلام التهديد إلى الخوف من الإخصاء أنه لا توجد أحلام من هذا النوع يمكن أن نردّها فعلاً إلى الخوف من الإخصاء، وهناك أحلام أمكن جمعها وفيها يحلم الحالم أن أسداً قد قضم قضيبه. أو أن حادثة وقعت فبترت إصبعه أو ساقه، ويعكس الحلم

تصور الحالم عن نفسه أنه عاجز جنسياً، وقد يحلم مثلاً أن الجنود من فرقته سلموا بنادقهم ورفض هو أن يسلمها، ويعني ذلك أن الرجال من جيله قد أصابهم العجز الجنسي ولم يصبه، فهو ما يزال يعاند، وذلك وضع يتوسط القدرة الجنسية والعجز، إلا أنه يعني بالتالي أن العجز مدركه لا محالة.

ونعود إلى الصراع الأوديبي ونتذكر أن أول من نحبه ونتعلق به هو الأم، وأن أول من نشعر تجاهه بمشاعر متباينة فيها الحب والكره معاً هو الأب، وقد تظهر له الحب وتكتم البُغض، ونلاحظ لذلك أنه في أحلام التهديد بالنسبة للذكور فإن بغضنا أو مخاوفنا من الأب. تمتد إلى كل ذكر، وذلك هو أصل أن نحلم بعدو ذكر، ومن النادر أن يحلم رجل أو فتى بأن أمه أو امرأة تناصبه العداء. ولقد قال لنا فرويد كذلك إن سلطة الأب يستدمجها الأنا أو الذات فيتكون الأنا الأعلى أو الضمير، وكلما كان الأب متزمتاً كان الأنا الأعلى أو الضمير متزمتاً أيضاً. فيأتي في الحلم على صورة رجل ولا يمكن أن يأتي على صورة امرأة!

وثمة فارق في أحلام الجنسين، فالغالب أن يتلقى الحالم الذكر التهديد إثر فعل شيء قام به، ويعني ذلك أن الرجال لديهم ضمير أكثر تشدداً من ضمير النساء كما قال فرويد، إلا أنه كثيراً ما يتلقى الرجل العون في حلم التهديد من شخص آخر، وذلك لا يحدث في أحلام التهديد عند النساء، فهل يعني ذلك أن النساء يشعرن في قرارة نفوسهن أنهن منبوذات، ولن يساعدهن أحد إذا احتجن المساعدة؟ ربما كان الأمر كذلك وهو ما يتماشى مع نظرة فرويد إلى الأنوثة، وخيبة الأمل التي تصاب بها البنت إذ تنشد العون من أمها في الموقف الأوديبي في الطفولة، فلا تجد منها الفهم ولا العون. وتخذلها أمها وهي أول من تحب، فيجعلها ذلك تتحول إلى أبيها، فيخذلها هو الآخر، وهو ما لا يخبره الولد، لأنه في طفولته يحب الأم ويستمر متعلقاً بها، وتتعلق به أمه ولا تخذله، وإنما يأتي الرفض له من أبيه فيكون مناصبته العداء.

الباب السابع عشر

«تحليل الشخصية من الأحلام: الشخصية التسلطية»

تتكون للطفل شخصية تسلطية بتأثير نشأته في ظل أسرة تأخذ بالتربية التسلطية، فقد يكون الأب أو الأم تسلطياً يحب أن يطاع، وأن تكون لابنه قيَمُه ومُثله وأفكاره وآراؤه. ويتصادم هذا الاتجاه مع رغبات الابن وتطلعاته، ولكنه لا يستطيع أن يعلن سخطه جهاراً، فيكتمه ولا يفصح عن كراهيته لأبيه، وفي الوقت نفسه يعتاد أن يُؤمَر وأن يَحترِم من يأمرون، ويتمثل أناه أوامر الأب ونواهيه فيكون له منها أنا أعلى أو ضمير ملتزم ومتزمت يعكس التزام الأب وتزمته، فكأنه من ناحية يكره الأب، ومن ناحية أخرى يتمثّله ويُنزِله من نفسه منزلة كبرى، ونسمي ذلك تناقضاً وجدانياً Emotional ambivalence.

فصاحب الشخصية التسلطية ينشأ يعاني من انقسام في مشاعره من جهة أبويه المتسلطين، فهو يكرههما ويحترمهما في الوقت نفسه، وهو موزّع بين هذين الاتجاهين. وتسلطه الذي تحصل له من المعاملة التسلطية لوالديه يعمّمه على كل الناس، فيقسمهم إلى أبيض وأسود، فالناس عنده ببساطة شديدة إما ضعاف متهافتون، وإما أقوياء أشداء، وهو يحب الأقوياء ويحترمهم، وسرعان ما ينصاع لأوامرهم ويلتزم بها حرفياً. وهذا الاتجاه فيه يعمل عمله اجتماعياً فيقسم به الناس من حوله إلى جماعتين، فهؤلاء أهله وأولئك أغراب عنه، أو هؤلاء من عشيرته وأولئك أجانب، أو هؤلاء مسلمون وأولئك مسيحيون، أو هؤلاء من أهل بلدته، أو الحي الذي ينتمي إليه أو الوظيفة التي ينتسب لها وأولئك من سواهم. وصاحب الشخصية التسلّطية يقبل قيم جماعته Ingroup بحُلوها ومُرّها، وقضّها وقضيضها، ويرفض قيم الجماعة الخارجية Outgroup مهما كانت لها حلاوة أو فائدة، فعاداتنا وأعرافنا هي الصح، وعادات وأعراف الأغراب خطأ. وعلى عكس ذلك تماماً صاحب الشخصية غير التسلطية الذي ينشأ في جو عائلي ليبرالي ليس فيه أبوان متسلطان، وتسير الأمور فيه

بالمحاجة، فالولد أو البنت قد يتناقشان أو يناقشان الأبوين فيما يطلبانه منهما، وقد يوجهان العتاب للأبوين أو يلومانهما حول قضية من القضايا، وقد يأخذ الأبوان بما يقترحه الأولاد. ولا يعاني الطفل في هذا الجو الصحي كبت أية مشاعر سلبية، لأنه إذا كانت لديه منها شيء فإنه يصرّح بها ولا يختزنها، فالتناقض الوجداني لا يعرفه، وليس له أن يصنّف الناس بالتالي إلى أناس يكرههم وأناس يحبهم، وهو لا يلوّنهم تبعاً لذلك بحيث يكون فريق أبيض وفريق أسود، ويتعامل مع الجميع بالتسامح، ولا يذهب مذهب التسلطي فيقبل كل ما يمت بصلة لجماعته على حساب الجماعات الأخرى، ولا يتعصب لأي فريق، وحاله كحال الرياضي الذي يستحسن اللعبة الحلوة سواء كانت من فريقه أو الفريق الآخر. والسؤال الآن هو: كيف تكون أحلام أي منهما؟ هل يختلف مضمونها اختلاف الشخصيتين؟ وهل نستطيع من ثم أن نميّز التسلطي من أحلامه؟ وهل من الممكن أن نفيد من ذلك فنستخدم الأحلام كوسيلة قياس للشخصية فيكون تحليلنا للحلم بمثابة تحليل للشخصية الحالمة؟

ولقد كانت هناك تجارب معملية ودراسات مستفيضة (Meer, S.: Authoritarian Attitudes and Dreams) حول هذا الموضوع، وجُمعت زُملة أحلام من أعداد كبيرة من شباب الجامعات من الجنسين، وجرى استفتاء واستقصاء حولها، ودُرست الأحوال العائلية للمشتركين، وتأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن التعصّب للأسرة وللأهل دأب التسلطي في أحلامه، وأنه مع الأغيار يُظهر العداء. ونحن جميعاً لا نعاين العداء إلا مع الأهل والأقارب والأصدقاء والأزواج والزوجات والأولاد ولكننا نكتم هذا العداء، فالمفروض أن لا نظهره، ونحاول أن نطامن منه لكي نُبقي القلق الذي يتسبب فيه في أقل الحدود. وأما بالنسبة للأغيار فلا مجال لكي نحتك بهم، فما الداعي لأن نظهر لهم العداء ونحن أصلاً لا نعرفهم ولم تكن لنا تجربة بهم؟ والأمر مع التسلطي أنه يزيح هذا العداء من أسرته أو جماعته Ingroup إلى غيرهم، ويُسقط غيظه منهم على

سواهم، وينقل ما يشعر به من مشاعر سلبية إلى الجماعات الأخرى الأقل شأناً من جماعته، والأدنى مكانة، ومن ثم تجده يناصبهم العداء بدعاوى من ديانتهم المختلفة أو عِرقهم المتباين، ونعرف أنه كانت هناك بحوث مستفيضة توفر عليها علماء أجلاء، مدارها التسلط وعلاقته بالأقليات. وأما غير المتسلط فالشأن معه مختلف، فهو لم يشب بحيث يفرق بين الناس من حيث هذا من أهله وذاك من الأغيار، ولم يعرف تصنيف الناس إلى أبيض وأسود لأنه كان دائماً يجهر بالعدوان إذا استشعره، ويناقش وينفّس عما يعتلج في صدره أولاً بأول، فلم يكظم ولم يقمع ولم يكبت، ولم يضطر أن يزيح ما يرين على صدره إلى المستضعفين من حوله. والميزة في الأحلام أنها مجال للتفريج عن النفس عمّا يلم بها من أدران أثناء النهار، ولذلك فإن المتسلّط يتوجّه بعدوانه بالنهار وبالليل إلى الأغيار، وكلما زاد ما يختزنه من عداء لأهله كان الزخم المعادي الذي يظهره في النهار أو في المنام للأغيار. والمشكلة أننا قد لا نجد من نسقط عليه مشاعر السُخط بالنهار، ولا نجد إلا المنام نوجهها فيه إلى أشخاص لا نعرفهم، وما من سبيل إلى تبيّن حقيقتهم، لنتخفف بهذه الوسيلة من القلق المصاحب لاختزان العداء، والذي يقضّ مضاجعنا إن لم ننفس عنه في أشكال السلوك العدواني خلال الأحلام.

والمتسلّط وغير المتسلط كلاهما يكون رقيقاً ولطيفاً مع أهله في الأحلام، والفرق بين الاثنين هو في درجة ما يظهرانه من العداء لغير الأهل، وهو المجال الذي نستطيع به أن نتبين هذا البُعد التسلطي من أبعاد الشخصية بتحليل أحلامهما، وتحليل الأحلام وسيلة من ثم هامة وصادقة للكشف عن ديناميات مختلف الشخصيات.

الباب الثامن عشر
«الأحلام الكاشفة للقلق»
«أحلام الفصاميين والمذهونين وغيرهم»

لا توجد سِنّ معينة تكون فيها أحلام القلق، وحتى الأطفال تكون لهم أحلام قلق. والثابت أن الأحلام غير السارة التي نحلم بها أكثر من الأحلام السارة. ولكل سن موضوعات تتسبب في أن يكون الحلم غير سار، ففي الأطفال من سَنة إلى أربع سنوات تكون موضوعات أحلامهم الحيوانات، ومع تقدّم السن تكون الأحلام غير السارة بسبب ما فيها من أغراب وأشكال مجرّدة غامضة تثير المخاوف وتبعث على القلق في السن من الخامسة إلى الثامنة، فإذا بلغ الطفل التاسعة وحتى الثانية عشرة يبدأ يحلم أحلاماً مدارها نفسه وما يكدّره منها. ولقد ثبت أن الطفل صحيح البدن تقل أحلامه عن الطفل المعتل البدن، وأن أحلام الأطفال تأتيهم مصاحبة للتوترات الانفعالية في النهار. وكان فرويد يقول إن أحلام الأطفال أقل من أحلام الكبار لأن رغبات الأطفال أقل، والأحلام تعكس الرغبات، ومن ثم تكون أحلام الأطفال أقل. وثبت أيضاً أن الفترات التي يتخفّف فيها الوعي وتتوسط المسافة بين اليقظة والنوم العميق أقل عند الأطفال منها عند الكبار، ولعله لهذا السبب أيضاً تقل أحلام الأطفال عن أحلام الكبار بالنظر إلى أن الأحلام تقع في تلك الفترات السابقة المتميزة بالنوم الخفيف.

وعند مناقشة مسألة علاقة الأحلام بالاعتدال النفسي والعقلي نواجه بصعوبات التصنيف والمواصفات التي ينبغي أن تكون لمختلف الأحلام لنضمها في هذا الصنف، أو ذاك، وكان شتيكل يقول إن كل حلم يحلل نفسه، ويصنّف نفسه، غير أنه بالنسبة للمحلل الحسّاس للفروق بين الأحلام سيجد الأمر شاقاً، إلا أننا بشكل عام نستطيع فعلاً أن نميز الشخصيات المعتلة من أحلامها، فالأحلام مرايا القلق، فإذا كان القلق بالشخصية السيكوباتية مثلاً، التي يعاني

صاحبها من مشاكل إجتماعية، فإن أحلامها تعكس مشاكل التوافق. وإذا كان القلق بشخصية يعاني صاحبها من عدم النضج الانفعالي فإن عدم النضج هذا تراه في أحلامها كاشفاً للتجارب الخاصة جداً التي تنفرد بها هذه الشخصية. وعموماً فإن الشخصيات المعتلة، كالشخصيات السابقة التي تشكو العُصاب أو الاعتلال النفسي أو الاجتماعي، أو تعاني الاكتئاب أو الصرع، أو حتى الصداع النصفي أو الفصام، فإن أحلامها من نوع الكوابيس Nightmares، تتسم بالمخاوف، وتتميز بأنها أحلام ملونة، فيها إحساس غامض بفقدان الشخصية، وعجز عن التفرقة بين ما هو من الأحلام وما هو من الواقع، فالأحلام تختلط بالواقع، ولا يميز الحالم إن كان يحلم أو يعيش الواقع. وإننا لنلاحظ مثلاً أن الشخص السوي تكون أحلامه عن الناس، بينما تفتقد أحلام العُصابي وجود الناس فيها. وتحفل أحلام هؤلاء الناس المعتلين بتخيّلات للعنف والإيذاء والإصابة وفقدان الأعضاء والموت. وهناك اختلافات هائلة في الرموز الظاهرة في أحلامهم عن أحلام الأسوياء.

وإليك أمثلة لأحلام لأشخاص يشكون الاعتلال، وأربعة أحلام لأسوياء لتسهل المقارنة:

١ - الحالم سوي: حلمتُ بما كان بيني وبين الفتاة التي كنت قد خطبتها وفسخت خطبتي بها، ورأيت ما كان بيننا من أوقات سعدنا فيها معاً، والصور التي أخذناها، والأفلام السينمائية التي شاهدناها معاً، والأحاديث التي كنا نتبادلها.

٢ - الحالم سوي: حلمتُ أني ركبت السيارة العامة وإلى جانب جارتنا التي تسكن الشقة المقابلة.

٣ - الحالم سوي: حلمتُ بمباراة كرة القدم التي سأحضرها يوم الجمعة، واننا كسبنا المباراة، وكان الناس يهتفون باسمي.

٤ - الحالم سوي: حلمتُ أني عدتُ إلى البيت فوجدتُ زوجتي مريضة.

٥ - حالة هستيريا وعدم استقرار إنفعالي: أحلم يومياً تقريباً بأبي وجدتي لأمي، وأبي كفيف وأنا دائم الحلم به.

٦ - حالة هستيريا نسيانية وعدم استقرار إنفعالي: حلمت أني أنتظر دوري لأتوجه إلى البيت، ولم أكن قد رأيت أسرتي لمدة طويلة، ورأيت شخصاً يجلس على طفلتي الوليدة فيكسر ضلوعها، وتُنقَل إلى المستشفى. هذا كل ما أذكره من الحلم. كنت مفارقاً لأسرتي ولي زمن، وفي صبيحة يوم الحلم سافرت إليهم.

٧ - حالة هستيريا حسيّة وتوهم مرض: حلمتُ أن أمي تموت، وكنت أراها ترقد على السرير، واستيقظت والعرق يتصبّب مني.

٨ - حالة هستيريا وبوال ليلي مستمر: عندما أنام أرى أحياناً أحلاماً ملونة يكون فيها كل لون وحده، ثم تبدأ تتداخل وتدور وتدور لدقائق ثم تختفي.

٩ - حالة هستيريا قلق مع وساوس وفرط اعتماد: كنت أطير في الهواء دون سند ظاهر وكنت أحلق فوق جمهور كبير، ثم قابلت امرأة جامعتها.

١٠ - حالة قلق مزمن: كان آخر حلم لي حلمته هو اني قد استدعيت مرة أخرى للتجنيد واني تركت لذلك زوجتي وطفلي، وكنت في شدة الغضب، وانضممت لفرقتي، وكنت أتمشى وحيداً عندما انهار بي جرف فاستيقظت.

١١ - حالة قلق مزمن: حلمت أن ذئاباً وكلاباً وقططاً متوحشة تهاجمني وتأكل من لحمي وقاربتُ أن أموت.

١٢ - حالة قلق حاد مع اكتئاب: حلمت أني كنت أقاتل رجلاً معه سكين في يده كان يحاول أن يضربني بها، وكان على وشك أن يصيبني عندما استيقظت.

١٣ - حالة قلق حاد مع اكتئاب: حلمت أني كنت أركب دراجتي وصدمتني سيارة وكسرت ساقي.

١٤ - حالة قلق حاد مع اكتئاب وخُواف مرضي من الإصابة بالسل: حلمت بأمي التي ماتت من خمس عشرة سنة، وأختي التي ماتت من عشر سنوات، وأخي الأصغر وهو ما يزال حي وسنه سبع عشرة سنة ولكنه في الحلم كان كسيحاً ويجلس في حجر أمي.

١٥ - حالة اكتئاب صاحبها له شخصية دورية: كان كل شيء في الحلم مشوهاً. بعض الناس لهم سيقان وأذرع وبدون رؤوس، وبعضهم لهم رؤوس وبدون أذرع.

١٦ - شخصية سيكوباتية: كل ما أذكره من الحلم أن الطائرات كانت تقذف المدينة بالقنابل.

١٧ - شخصية سيكوباتية: حلمت أني راهنت في سباق الخيل وكسبت مالاً اشتريت به بيتاً وتزوجت وأثثت المنزل.

١٨ - شخصية سيكوباتية لواطية: حلمت أن زميلي في العمل مثلي.

١٩ - شخصية سيكوباتية معتلة إجتماعياً: حلمت أني في البراري نصطاد، وكانت الحيوانات تكلّمني وأكلّمها، فاستدرت نحو رفاقي أضربهم بالنار وأحذر الحيوانات منهم.

٢٠ - شخصية سيكوباتية لواطية ومكتئبة: حلمت أني عريان والناس تجري خلفي تحاول الإمساك بي، وكلما ركضت كانوا يقتربون مني أكثر، وكان ما يضايقني هو أني عريان، وعندما كادوا يمسكون بي استيقظت.

٢١ - حالة فصام مبكر: حلمت أني حقّقت كل ما أصبو إليه، وصحّحت أخطاء الناس، وكوّنت نظريات، وصوّبت نظريات، وأنجزت في مجالي ما لم ينجزه الأوائل، ولم يجرؤ أحد أن يخطّئني لأنه لم يكن يوجد مَن هو مثلي.

٢٢ - حالة صرع ذاتي المنشأ: حلمت أني انحبست في حجرة ولا أستطيع الخروج منها.

وتبين من الدراسات المختلفة أن أحلام المصابين بالصرع مخيفة ولها طبيعة شهوانية، بينما أحلام المصابين بالهوس تتسم بالغرابة، والأحلام في العُنّة لا اتساق بينها، ولا يمكن أن تجمّعها، وتهرب أفكارها أثناء السرد، وفي الملانخوليا تكون الأحلام بشعة، وفي الهوس تكون مبهجة، وأحلام المخمورين عبارة عن هلوسات تختلط فيها اليقظة بتخيّلات وأوهام فيها الحيوانات، وتشبه أحلام الحشّاشين ومتعاطي الأفيون والمصابين بالعُصاب الهستيري. ويحرص المصابون بالفُصام على أن لا يبوحوا بأحلامهم وكأنها من الأسرار الخاصة جداً، إلا أنها عموماً كأحلام غير المفصومين من حيث أن الرقابة الحلمية تُمارس فيها، وفيها الرمزية وكل الحيل الحلمية، ويمكن أن تكون عدوانية أو جنسية. وإليك هذا الحلم لمصابة بالفصام

الهيبفريني ولها ثلاث سنوات بالمرض عندما حلمت حلمها هذا:

- حلمت أني في بيتنا في البلد، وأن بقرتنا مريضة وتُسهل، وذهبتُ أطببها، ولكني وَحَلتُ في الروث في مدخل الزريبة، وجاءت أمي توبخني لأني وحلت، واستيقظت من نومي فزعة.

والحلم في ظاهره عادي كأي حلم لأي واحد منا، غير أننا لو دقّقنا فيه فسنجد صورة لتقدم المرض بها، وأنه يعكس حالاتها وصراعاتها، فأمها في الحلم تظهر مرتين، عندما توبّخها، وعملها هنا هو عمل الأنا الذي يدفع عنها دوافعها الشهوانية التي يصفها بأنها وحل وروث، ويقول عنها إنها والغة فيها، والبنت لا تترك أناها يقول ذلك فهي ترد الصاع بأن تجعل البقرة مريضة وتحتاج لها، والبقرة هي الأم التي تمثل الأنا الموبّخ، وهذا هو الظهور الثاني للأم، وكأن المريضة تتمنى لأمها المرض نكالاً وعقاباً لها:

وهذا حلم آخر بعد عدة سنوات:

- كانت هناك امرأة مستلقية على ظهرها وترفع ساقيها لأعلى وفوقهما رجل تحملانه، ووجدتني آخذ مكان المرأة، ويتحول الرجل الراكب، إلى أبي، ثم هبط فوقي، وصنع أشياء غير مؤدّبة.

والتقدم في المرض لا يجعلها تستشعر مدافعة الأنا هذه المرة، فالحلم واضح وليست فيه رمزية ورغباتها تطغى عليها، وليس ذلك سلوكها في اليقظة، الأمر الذي يقطع بأن الفُصام يعمل عمله فيها.

وهذا حلم لفتى في العشرين قبل أن يهاجمه الفصام:

- كنت أبني بيتاً له شرفتان تتسلقهما أشجار الورد. وظهر رجل غني يريد شراء البيت ولم أقبل بيعه بأقل من مليون جنيه.

وبعد سنة من الإصابة بالفُصام وخلال فترة من الإبلال حلم بالبيت نفسه، ولكن اللصوص جاءوه هذه المرة في الليل واقتحموا البيت، فدافع عنه فأشعلوا فيه النار ليضطروه إلى الهرب، واستيقظ من الحلم من شدة القلق. وبعد سنتين من هذا الحلم، وبعد هجمة أخرى من المرض حلم بحرب تدور بينه وأعداء كثرين، واختبأ خلف البيت السابق، وكان يضرب في المليان في الأعداء من مخبئه، وكانت مذبحة. ثم بعد سنة أخرى

وقد تقدم به المرض جداً حلم الحلم التالي:

- حلمت أني أضاجع امرأة جميلة، وجاء زوجها وقاتلني فقتلته، وألقيت بجثته من النافذة، وقاتلت الشرطة لما جاءوا يقبضون عليّ وصرعت منهم عدداً كبيراً. ونزلت الدرج وخرجت إلى الشارع أعمل تقطيعاً في الجثث الملقاة، وكنت أشعر أني أريد المزيد.

ونرى أنه في الحلم الأول لما كان سليماً كان الأنا يُخفي الرغبات بالرموز، والحالم نفسه فسّر البيت بأنه بيت أمه، ثم قال: إنه يرمز للأم نفسها. وفي الحلم يقبل أن يمتلك البيت أبوه متمثلاً في الرجل الغني بديل الأب، ولكنه بعد أن يتداعى بالمرض لا يصبح هناك مجال لمهادنة الرجل وهو الأب ويقاتله على الأم. والبيت تشتعل فيه النار لأنه صار يجد أن تمسكه به خطر عليه، ولذلك يهرب منه، ولكنه في الحلم الذي يليه لا يهرب ولا يخاف، وتتحول عدوانيته إلى شراسة لا ترتوي أبداً.

وهكذا تكشف الأحلام إضطرابات الفصامى بأكثر مما تكشفها اليقظة التي تحيط شخصيته بواجهة خادعة. ولقد رأينا كيف تتداعى وظائف الأنا الكابتة ويتهافت الضمير بتأثير المرض حتى لا يبقى منهما شيء مع تقدّمه. ونلاحظ ذلك في زُملة الأحلام بتدرّج الضعف بالرقيب الذي ربما كان قبل هجمة المرض شديد التزمت، ونتيجة لذلك تظهر الدوافع اللاشعورية للمريض ظهوراً مبكراً نسبياً، وتتعارض مع أخلاقياته وتوجُهه الواعي، ولذلك تتسبب له في الكثير من القلق الذي يدفعه إلى أن يحلم أحلامه هذه المميزة. ويستمر التدمير في الشخصية يعمل عمله إلى أن يسمح بالدوافع أن تظهر سافرةً دون قناع أو ترميز. ولا يصبح هناك ظاهر للحلم وباطن، بل يتطابقان، ويحدث ذلك للأصحاء إلى حد ما في أحلامهم حيث يعمل الرقيب عمله في اليقظة، فإذا تدنّى الوعي مع النوم فإن الضمير يكون أقل تشدداً، غير أنه مع مرضى الفصام يتداعى الضمير بالكلية، ولا يكون له عمل في الحلم حيث تنعدم الرقابة عليه، وتظهر الدوافع سافرة، ورغم أنها دوافع لا يقرّها المريض في الواقع إلا أنها لا

تعود تستولد فيه أقل القلق من الأنا، وربما لا يكون هناك قلق البتة.

ولقد تبين بالإضافة إلى ما سبق أن الأحلام عند المرضى بالفُصام تختلف في طبيعتها باختلاف المرضى، بحيث يمكن أن تساعدنا الأحلام نفسها في تشخيص نوع الفُصام، فمثلاً تكون للأحلام عند المرضى، في الأطوار المتأخرة من الفُصام الهيبفريني طبيعة جنسية، بينما تكون لها طبيعة عدوانية في الكتاتونيا، وتكون نرجسية لواطية في البارانويا.

والأحلام في العُصاب غيرها في الذُهان، وأحلام المذهونين سادية الطابع وأكثر عنفاً. ومع تقدم المرض في الذُهان تكون الأحلام أكثر سفوراً وصراحة بدون أقنعة ولا رموز، فإذا كانت هناك فترات إبلال تتخلل المرض فإن المحتوى الحلمي يتغير بحيث تزيد الرمزية قليلاً ولكنها الزيادة التي لا تجعل حلم المذهون كحلم السوي.

ونلمس هذا التغير في أحلام المرضى بالصرع، فقبل النوبة قد تأتي أحلام المريض فتكون لها طبيعة سادية وتظهر الأشكال فيها مخيفة، فإذا انتهت النوبة فإن المريض إذا واتته الأحلام فإنها تكون أحلاماً من نوع لطيف مبهج، ولا تكون هناك أحلام بالمرة في ليالي النوبة.

ونلاحظ على أحلام مرضى الفُصام أنها تستعرض ماضيهم والحاضر وتستشرف المستقبل، ولا تعكس أية رغبات. وهذه الميزة في أحلامهم من حيث أن المريض يكون كما لو كان يتأمل تطور مرضه ويمعن الملاحظة لحالته تجعل بعض العلماء يطلق على أحلام المفصومين إسم الأحلام الملاحظة Endoscopic dreams. وتفيد هذه الميزة في تشخيص المرض عندهم، لأن الفُصام ربما كان هو الاعتلال الوحيد الذي تكون أحلام المرضى به لها هذه الصفة الاستعراضية لمراحل المرض وشكاوى المريض الحاضرة، وكأن المريض يلاحظ نفسه في أحلامه، وهذا الحلم من هذا القبيل، وصاحبته شابة متزوجة:

- حلمت أني رأيت خسوف الشمس، وكانت الدنيا كما لو كان ستار من الظلام

قد انسدل عليها، ورأيت أني أسير في شارع مزدحم بالناس والسيارات، والسيارات تكاد تصدمني، إلا أنها كانت تتجنبني في آخر لحظة، وشعرت بدوخة وفقدت الوعي، ثم وجدت نفسي في بيت ريفي، وكأنه مضاء بمصباح غاز ينشر نوراً خفيفاً.

والمريضة كما نلاحظ تتدرج بها الحالة في الحلم، وتمر بحالات يتفاوت فيها شعورها بوعيها، ويبدو أنها في أول الحلم غيرها في وسطه، ثم تظهر كما لو كانت ظروفها تتحسن، وهذا الإنباء بالتحسن يقع لها فعلاً بعد فترة بحيث أنها استطاعت أن تستأنف حياتها. والإنباء ميزة أحلام المرضى بالفُصام، وكذلك المرضى بالذُهان العضوي، بحيث تُخبر الأحلام عما سيؤول إليه حال المرضى في القريب، وخاصة مرضى الشلل. وفي حالة مرض كورساكوف قد تُخبِر أحلام المرضى بنوع الذُهان فتكون لها طبيعة جنسية مشاعية وتنتهي بالإمناء. ولذلك بوسعنا أن نتبين في أحلام المرضى بتصلب شرايين المخ إتجاهاتهم الشرجية.

الباب التاسع عشر
«لماذا ننسى الأحلام؟»

كثيراً ما نحلم ونذكر أننا قد حلمنا، ولكننا لا نستطيع أن نروي ما حلمنا به إذا طلب منا ذلك، ولربما ننسى الحلم بالكلية، أو قد ننسى بعض التفاصيل فيه، أو قد ننسى كل التفاصيل سوى أننا قد حلمنا. وربما قد نذكر من أحلامنا شذرات لا غير، أو قد نذكر الحلم تفصيلاً عند اليقظة من النوم، فإذا أوغل النهار وطُلِب منا أن نروي الحلم من جديد فقد لا نستطيع، أو قد لا نتذكر منه إلا النزر اليسير، وصار شيئاً عادياً أن يقول الواحد منا إنه يحلم ولكنه لا يذكر من أحلامه شيئاً.

والنسيان الذي ينسحب على الأحلام ينسحب أيضاً على كل ما نفكّر فيه أو ندركه أو نحس به، فإذا أردنا أن نلم بأسباب نسيان الأحلام فعلينا أن نلم أولاً بأسباب النسيان عموماً.

ونحن ننسى المُدرَكات أو الأفكار أو الأحاسيس، إما لضعفها، أو لقلة التهيئة النفسي المقترن بها. ونحن أيضاً ننسى الصور الحلمية، لأنها أضعف من أن تحتفظ بها ذاكرتنا، لكننا نلاحظ أيضاً أننا نتذكر أشياء تافهة وننسى أشياء كان يجب أن لا ننساها. وبالمثل في الحلم فإننا قد نذكر منه صوراً ضعيفة الأثر باهتة، وننسى صوراً أشد قوّة. وأيضاً فإننا ننسى في اليقظة ما يحدث لنا مرّة واحدة ونذكر ما يتكرر. ومعظم ما نراه في الأحلام صور لا تتكرر، فإذا تكررت فإننا نذكرها، تماماً مثلما حدث لفرعون يوسف حين رأى حلمه يتكرر لمرات ويلح عليه فما عاد ينساه. ونلاحظ أن حلم فرعون له اتساق بحيث تنتظم فيه أجزاؤه في وحدة من نوع مناسب، وهذا ما يجعل الحالم لا ينسى حلمه، فأما لو رأى أجزاء الحلم وصوره متفرقة كأنما هي عبارة قد انتثرت كلماتها وتبعثرت فإنه لو يحاول تذكرها فلن تسعفه الذاكرة لأن من شأنها ألا تذكر إلا ما كان منتظماً في تأليف واحد بحيث يكون له أي معنى. وأحلامنا من هذا القبيل، فإن التنسيق يعوزها غالباً، وتفتقد المعقولية، ومآلها لهذا السبب إلى النسيان.

والأحلام إذا ارتبطت بحياة اليقظة واستحضرتها في النوم فإننا قد نذكرها لأنها لصيقة بمشاكلنا وهمومنا، والناس الذين نعرفهم وقد نصادقهم ويصادقوننا، وقد نعاديهم ويعادوننا، فما مسّ من الأحلام أوتار حياة اليقظة يبقى في الذاكرة لأنه يتعلق بأذيال ذكريات حياة اليقظة ويتصل بها، فما نذكره منها نذكر أحلامنا المرتبطة به، كالشيء بالشيء يذكر. ونحن في اليقظة إذ نصحو من النوم تهجم علينا الحياة الحسية بحيث تشد إليها انتباهنا فتصرفنا عن كل ما ليس منها، ولا يبقى في الذاكرة إلا الصور الحلمية التي لها قوّة الثبات أمام طوفان الأحاسيس والأفكار التي تشملنا وتطوقنا وتلهينا عمّا عداها.

وبعض الناس يعتاد أن يذكر أحلامه ويهتم بها ولها، فتراه يحلم لذلك كثيراً، وبعضنا قد يتفاءل أو يتشاءم من الأحلام ولكنه يطلبها إذا نام، ويدعو من الله أن يأتيه في المنام ما يشير عليه بشيء معين، أو تصرّف من التصرفات، وهؤلاء يُكثرون من الأحلام. وبعضنا لا يهتم البتة إذا ما حلم أو لم يحلم، وهو بالقطع يحلم لأنه ما من أحد إلا ويحلم، ولكنه لا يذكر أنه حلم، لأنه لا يريد أن يذكر أحلامه ويسقطها سريعاً من ذاكرته ويصرف عنها انتباهه، ويعتاد ذلك حتى أنه قد لا يذكر أنه حلم يوماً من الأيام.

وبعضنا قد يعييه أن يذكر أحلامه بالنظر إلى أنه قد يصحو من نومه، إلا أنه ليستكمل حالة اليقظة يلزمه الكثير من الوقت ليعيد ترتيب مقومات يقظته، وينتقل من حال النوم إلى الحال الجديدة، وأثناء ذلك قد يسدل النسيان ستاراً على أحلامه، وتضرب الشواغل المستحدثة جداراً بين اليقظة وشواغل النوم.

والحلم إذ نحاول أن نتذكره يلزم أن نستحضر أحداثه وصوره ونرتبها الترتيب الذي يجعلها معقولة، وهذا الترتيب ربما لا يكون هو نفسه ترتيب الحلم، إلا أنه ليترجم الذهن الصور إلى كلمات لا بد أن يرتبها، وأحياناً قد يستحيل هذا الترتيب على البعض فينساها بسرعة.

والحلم عندما نحاول أن نتذكره فقد تسعفنا الذاكرة ببعض من صوره، وقد لا

تسعفنا بها، وكما يحدث في الذكريات العادية فقد نلجأ إلى التلفيق عندما تتباطأ عنا الذاكرة، ولا تسعفنا بالمادة المطلوبة. والذاكرة يجري عليها النقد، وما لا يعجبنا قد نغفله من صور الحلم، ونسقطه من الترجمة، ويتم ذلك كله من غير أن نعي أنَّ ذلك يحدث فعلاً، ومن غير أن نشعر أننا قد أغفلنا أشياء، وتغافلنا عن أشياء، ولفّقنا أشياء. والأحلام التي نذكرها لا يمكن أبداً أن تأتينا على هذا الترتيب والتنضيد، فهذا الشكل الذي تكون عليه هو فعل العقل الواعي، والعقل الواعي يضيف هنا وهناك، ويستكمل النقص ويسد الثغرات ليخرج الحلم على الكمال الذي نرى به حلم فرعون يوسف مثلاً.

والطريقة الوحيدة لكي لا ننسى الحلم هي أن نسرع بكتابته فور اليقظة، وكما تسعفنا به الكلمات ويجيء على ألسنتنا دون أقل إبطاء، فإن لم نفعل فإن النسيان سرعان ما يُعمل تأثيره في الذاكرة، وقد ننسى الحلم بالكلية، أو قد ننسى منه أجزاء، ولا تثريب على ما ينسى بالكلية، فأما أن ننسى أجزاء ونذكر أجزاء فذلك هو الذي ينبغي أن نحذره، لأننا عندئذ سنحاول دون قصد ولا وعي أن نستكمل النقص ونسد الثغرات ونؤلف من الجذاذات المتناثرة كلاً واحداً له نسق وحبكة، ويصير كل منا حينئذ كالفنان يؤلف حلمه، ويجهل أنه يفعل ذلك. ولقد ثبت أننا في كل مرة نروي فيها الحلم نضيف عليه أو نُنقص منه، مع تكرار الرواية المؤلّفة للحلم، أو الروايات بالأحرى، فقد نصدّقها نحن أنفسنا، ونهيم بها ولهاً، ونعلنها بحُسن نية كما لو كانت هذه الرواية هي فعلاً التي وقعت لنا.

ولقد قيل دائماً إن الحالم هو مبدع الحلم لأنه أولاً مَن يقع له الحلم، وهو شاهده ثانياً، وهو راويه ثالثاً. والحلم يكون صوراً وروايته ترجمة للصور إلى اللغة، وفي الترجمة تكون عمليات منطقية فيها التقديم والتأخير، والربط المنطقي الذي لا وجود له في الحلم، وبعض الناس لا يتيسر لهم ذلك، ولا يتقنون رواية الأحلام، ولا يفكّرون فيها من ثم لأنهم لا يستطيعون، ولأنهم يعجزون عن هذه العملية. ولقد قيل إنه من بين كل عشرة

أحلام تسعة على الأقل لا معنى لها. ونحن في الأحلام نربط بين أناس وأشياء لا تحمل أقل رابطة بينها، وينقلب المنظر عدّة مرات في لمح البصر كأننا في سينما، فإذا نحن أمام مجموعة أخرى أشد غرابة وأفرغ من المعنى من سابقتها، ويمضي الحلم ونحن نائمون فإذا استيقظنا فقد لا نملك إلا أن نقول أي جنون هذا، وسرعان ما ينسدل عليه النسيان.

وثمة سبب آخر لنسيان الأحلام، هو أنها تُظهر ما لا نود مصارحة أنفسنا به، وبعضها يكون لا أخلاقياً لا نرضى أن نرويه ونرفضه بشدّة، حتى أننا لنسقطه من حسابنا فوراً. وفي الحلم ينكشف الإنسان لنفسه كله على ما وُلِد عليه، بخيره وشرّه، وعُريه وعوزه، وما نكاد ننام، وتخف رقابتنا على أنفسنا بتدنّي الوعي حتى نصير ألعوبة لجميع الانفعالات التي تأباها ضمائرنا ونحن غير نيام، وترفضها معاني الشرف والقيم الأخلاقية التي ننشأ عليها. والذي ينكشف في الحلم هو الإنسان الغريزي، والإنسان عندما ينام يعود إلى الفطرة، والأحلام هي تفكير الفطرة، وكلما قلّ تأصيل الأفكار المكتسبة بالتربية والثقافة، وقلّ ترسيخها في النفس والعقل، زاد احتفاظ النوازع المخالفة لها بسلطانها على الحالم في أحلامه، ومن أجل ذلك قد ننسى أحلامنا متعمدين أو على غير وعي منا، لأنها تمثل نواحي ضعف فينا.

وبعض الأحلام قد يثير تذكرها القلق فينا، وقد يستحدث مخاوف لا نحب أن نستحدثها فنسدل ستاراً من النسيان عليها. وهذه النوازع المرفوضة وهذا الألم الذي تستحدثه بعض الأحلام كما في الكوابيس مثلاً، وتلك المخاوف التي قد تفزعنا في أحلامنا، قد تسارع بعملية النسيان هذه. وفي الكوابيس مثلاً عند الأطفال قد يستيقظ الطفل من النوم مفزوعاً فإذا طمأنه والداه فقد يعود سريعاً للنوم، وقد نسأله في الصباح عن حلمه، فنجد أنه لا يذكر منه شيئاً البتة، وكل تلك العوامل السابقة هي التي تستحدث أيضاً التشويه في الأحلام وهي التي تظهرها بمظهرها اللامعقول الذي يجعلنا نستنكرها عليه ونصفها من أجله

باللامعقولية ونسقطها من حسابنا.

والآن، وبعد كل ما سبق، فماذا يتبقى لنا من الحلم ليمكن أن نعتمد عليه، ونرى فيه أنفسنا، ونأتمنه على أن يكون وسيلة صادقة نحلل به شخصياتنا، ونعرف منه اتجاهاتنا؟

لقد عرفنا أن ما قد يتبقى من الحلم، أو ما نذكره منه، لا يمكن التعويل عليه طالما أن الذاكرة التي تخرجه إلينا وترويه علينا ليست مُؤتمنَة هي نفسها، وتعجز عن استبقاء الأحلام كما هي، وربما تضيع منها أهم أجزاء محتوى الحلم. ولربما نبدأ في سرد أحد الأحلام وسرعان ما نعلن أسفنا أننا لا نستطيع أن نكمل السرد لأننا لم نعد نذكره، رغم أنه واضح في أذهاننا أننا حلمنا أثناء النوم، وحلمنا أحلاماً كثيرة أيضاً. وقد لا نذكر إلا شذرات، وحتى هذه قد يأتي تذكرنا لها من غير يقين وقد نشك أن تذكرنا ليس فقط هو تذكر مجتزأ بل هو أيضاً ملفق، ولربما نشك أيضاً أن أحلامنا ليست بهذا الترابط الذي نرويه بها. فماذا إذن يتبقى لنا من الأحلام لنستعين به في مهمتنا هذه الكبرى - أن نعرف أنفسنا من خلالها؟

ونسارع فنقول إنه برغم كل هذه القصور وأوجه النقص والنسيان الكلي أو الجزئي فما يتبقى من الحلم هو شيء كبير جداً ولا ينبغي أن نغفله أو نسقطه من الحساب أو نستهين به. وهذا القليل والقليل جداً المتبقي يقتضي منا أن نواليه بالتحليل، وما قد نحسب أنه تافه، وغير مهم ليس بتافه على الحقيقة، ولا يمكن الاستغناء عنه إذا أردنا أن نحلّل الحلم ونتصدّى له بالتفسير حقاً. والمحلل يولي النص الحلمي كل احترامه حتى وإن كان هذا النص عبارة عن «حلمت بأبي أمس» فقط. والمحلل لا يغفل جملة أو حرفاً من النص، وقد يبدو الحلم مرتجلاً، وقد يبدو فيه الافتعال والتصنّع، وذلك شيء طبيعي طالما أننا نستحضره، فقد عرفنا ما تفعله به الذاكرة من تشويه في الاستحضار، ولننتبه لهذا المصطلح «تشويه الحلم»، أو ما قد يبدو أنه تشويه وهو في الحقيقة مراجعة له عندما نستحضر الحلم. وكأن هذه المراجعة تتم مرتين، وفي المرتين تعمل عملها تشويهاً للحلم، إلا أنه برغم ذلك فإن ما تسمح به يظل مرتبطاً بالمحتوى الذي حلّت محله،

ويظل علامة عليه يرشدنا إليه، ويجرّه جراً إلينا، وقد يكون هذا المحتوى نفسه بديلاً عن محتوى آخر.

وهذه المراجعة التي أشرنا إليها، قد يستحدثها المحلل للحلم عند الحالم بأن يطلب منه أن يسرد عليه الحلم مرة أخرى، ولسوف نجد أن الحالم تختلف روايته في كل مرة اختلافاً يسيراً، وقد يضيف وقد يسقط أشياء، وقد يستبدل كلمات بكلمات، وقد يختلف معنى العبارات تبعاً لذلك.

ولكن لماذا قد نطلب من الحالم أن يسرد الحلم مرة أخرى؟ ذلك ما قد نفعله عندما يستعصى علينا حلّه، وعندئذ قد تلفت نظرنا هذه التغييرات، وقد نسأله فيها. ومن تجربة فرويد وأصحاب التحليل النفسي وغيره من مدارس التحليل والتفسير للأحلام فقد تبين أن التغيير يشمل مواضع الحلم الحسّاسة فيجعلها التغيير تبدو تافهة وضحلة. ويتفق الجميع أنه كثيراً ما نبدأ بهذه التغييرات التي نعدها مواضع ضعف في الرواية - ومواضع ضعف منبئة - وما نكاد ننكأها حتى نتبيَّن أنها مثل عش الزنابير. والحالم إذ نطلب منه إعادة رواية الحلم يحرص أن يطرح روايته الثانية وقد أخفى منها - دون وعي منه - الإشارات الدالة على التفسير، والتي تحلّ غموض المحتوى وتكشف عنه. ونسمي ذلك مقاومة نفسية تعترض رواية كل حلم. وهذه المقاومة هي التي تفرض الرقابة الصارمة على الحلم أن يظهر مضمونه ظهوراً صريحاً، وهي المسؤولة عن التشويه، الذي أسلفنا القول فيه والذي يتعرّض له محتوي الحلم مرة، ثم يتعرّض له تذكر الحلم، فكأن هذه المقاومة هي المسؤولة كذلك عن النسيان. وإذا كنا نتشكك أن يكون الحلم أو بعض تفاصيله قد رويناه رواية صحيحة، فهذا الشك أيضاً مستمد من رقابة الحلم، ومن المقاومة التي تحول دون نفاذ أفكار الحلم إلى الشعور.

والمقاومة النفسية تمارس عملها لدى تصوير الأفكار هذا التصوير الشبيه في بعض نواحيه بالتصوير السينمائي بما يسمى الحيل الحلمية، وذلك مصطلح آخر ينبغي أن نتنبه إليه وسيحين الحين أن نتناوله إن شاء الله، ومن ذلك هذه

الخدع التي تشبه الخدع السينمائية، وهي في مجال الحلم حيل أو خدع الإبدال، والإسقاط، والنقل، والمسرحة، والقلب، ومن ذلك أيضاً أن تسحب الرقابة الحلمية القيّمة النفسية للأجزاء الهامة فتضفيها على الأجزاء غير الهامة وعندئذ قد تلتبس الأمور علينا فنحسب ما هو تافه هاماً، ونظن أن الهام تافه. وتعمل المقاومة النفسية عملها عند تذكّر الحلم فتراجع الرقابة الرواية الحلمية الثانية بحيث تجيء مختلفة عن الرواية الأولى، وممعنة في تشويه الحلم وتضليل محاولة التفسير، إلا أن هذا الاختلاف في الرواية حرِيّ أن ينبهنا إليه، وهو علامة مؤكّدة أننا بصدد عنصر مشتق من أفكار الحلم الممنوعة. وهذا الشك الذي قد نبديه، مقدمين للرواية بأننا لا نعرف أن هذا هو بالضبط ما رأيناه في الحلم، إلا أنه ما يرد على خواطرنا، هذا الشك الذي يعلن عن نفسه صراحة هو نفسه ممارسة للرقابة الحلمية، بالتشكيك في الرواية بحيث لا نعاملها جدياً ونستخف بها ومن ثم نُسقطها من حسابنا. فماذا إذن نفعل والأمر على هذا القدر من التعقيد؟ الحل هو أن نعي جيداً، سواء كنا حالمين نروي أحلامنا، أو معبرين نحللها ونفسرها، أن كل ما يعوق سرد الحلم، وكل شك في الرواية، وكل نسيان، هو نفسه من المقاومة. وعلينا أن نحذر ذلك ونعمل حسابه باستمرار ونكون مستعدين لمواجهته.

ولا ينبغي أبداً أن نغفل عمل الرقابة الحلمية والمقاومة النفسية. وقد يكون صحيحاً أننا ننسى الأحلام لأنها قصيرة لا تستغرق لسردها إلا أقل القليل من الكلمات وكأنها قصة قصيرة جداً، بل وقد تبدو قصة مهلهلة أحياناً، وغير معقولة أحياناً، وممعنة في الغرابة أحياناً، وقد لا نتفرغ لتذكرها، إلا بعد أن نستيقظ بزمن، إلا أننا مع ذلك لو حفلنا بأن نجلس لكتابة ما حلمنا به، ولو نكتب مشهداً أو حتى عبارة مما نذكره من الحلم، ثم أجهدنا أنفسنا قليلاً وتساءلنا حول معنى هذه العبارة، وما قد تذكّرنا به، أو يذكرنا به شيء فيها قد يسترعي انتباهنا، فقد تبدأ فعلاً سلسلة تذكّر الحلم كله، وقد نبدأ ندرك تفاصيله، وسرعان ما تأتينا التفاصيل من هنا وهناك بحيث قد

يتسنى لنا من هذه الشذرات أن نعيد تركيب الحلم على نحو ما، وكأن الحالم أو المحلل، أحدهما المونتير يقوم بعملية المونتاج والآخر يساعده، وهو عمل يقتضي جهداً وانتباهاً فائقين، ويدل دلالة مؤكّدة على أن ما نسيناه هو بالأحرى ما نتعمد أن ننساه، وما نقاوم تذكّره، لأنه قطعاً ينطوي على عنصر مُهدّد، أو مُعاد، أو مُقلق، أو مُخزٍ، أو مُخيف.

وليس أدل على أن نسيان الأحلام هو نسيان مُغرض يخدم أهداف الرقابة من أننا ونحن نسرد أحلامنا قد نتوقف فجأة لنعيد على المسامع رواية جزء أغفلناه ثم نتذكره، وكان هذا الجزء منسياً، ثم يتضح بالتجربة أنه أهم جزء في الحلم، إلا أنه مُسِح من الذاكرة، كما يمسح الرقيب الجزء الممنوع من الفيلم السينمائي، بسبب المقاومة النفسية عند تذكّره، والتي تفوق سواها من مقاومة قد تتعرض لها بقية أجزاء الحلم.

وإذن فعلينا إذا كنا نريد أن نتمرس بتحليل الأحلام أن نثابر على البلوغ إلى الأفكار اللاإرادية وهي التي تقاوم التذكّر، والتي ليس من سبب لنسيانها إلا الكبت، أو على الأدق المقاومة الناتجة عنه. ولا يتم تفسير الحلم دائماً من مرة واحدة، وكثيراً ما يستحسن بعد تدوين الحلم أن نترك تفسيره لفترة، وقد ثبت أن الأحلام التي يستعصي تفسيرها فوراً تقبل التفسير بعد مدة من الزمن، وذلك لأن المقاومة النفسية تكون قد خفّت. وقد يكون تفسير الحلم على أجزاء أفضل، ولنا أن نسمي ذلك بالتفسير المتكسّر للحلم. ولربما تكون هناك عدّة تفاسير للحلم الواحد، أي يكون للحلم تفسير مضاعف غاب عن المفسّر، والأسلم لذلك أن يتناول التفسير زُملة من الأحلام، أي مجموعة منها فتفسّر بعضها بعضاً، وتُلقي أضواء على بعضها البعض، وتوجّه التفسير إلى الوجهة الأصح والأكثر احتمالاً. وكان من رأي فرويد أن بعض الأحلام تستعصي على التفسير حقاً، وذلك صحيح لو اتبعنا المنهج بتفسير الحلم الواحد، وليس بالمستحيل إمكان تفسير أي حلم لو أننا ربطناه بأحلام أخرى للشخص نفسه تبدو على قدر من التماثل في الموضوع وتجتمع عليه في فترة زمنية معينة.

الباب العشرون
«الحيل في الأحلام»
«التكثيف والإبدال والقلب والنكوص والترميز والإخراج الدرامي»

يقدم فرويد في كتابه تفسير الأحلام نظرية تتعلق بعمل الحلم Dream-work، أي الميكانيزمات أو الحيل اللاشعورية التي تتحول بها أفكار الحالم المعقولة إلى صور حلمية غير معقولة في أحيان كثيرة، يوصف الحلم بمقتضاها بأنه يتعرض لعملية تشويه من عمل الرقابة والكبت والمقاومة التي تتعرض لها الأفكار وهي تتحول إلى صور حلمية.

ولغة الحلم إذن هي صور، وأفكار الحلم ومحتواه الذي يتضمن الصور بمثابة ترجمتين تؤديان في لغتين مختلفتين معنى بعينه، وكأن محتوى الحلم ينقل أفكار الحلم إلى نمط مختلف من التعبير. وهو نمط يحق علينا أن نعرف رسم حروفه وقواعد نحوه بالمقارنة بينه وبين الأصل، ومن ثم سيسهل أن نترجم الصور مرة ثانية إلى الأفكار خلال عملية تحليل الحلم. ومن الخطأ أن نقرأ رسوم الحلم أو صوره بحسب دلالتها المصوّرة لا بحسب علاقتها الرمزية، فلو افترضنا أننا رأينا في مجلة مصوّرة هذا اللغز المطلوب منا حلّه: منظر بيت، وعلى سطحه مركب، وشخص يجري في الشارع، وليس له رأس. والرجل أكبر حجماً من البيت. وهناك حرف من الحروف الأبجدية في زاوية من الصورة، فأي تفسير يمكن أن أقدمه كحل للغز قد يكون تفسيراً معتسَفاً لأن الصورة غير معقولة، فالمركب لا يمكن أن يعتلي البيت، والرجل لا يمكن أن يكون أطول قامة من الاثنين، والطبيعة لا تعرف الحروف الأبجدية. وهذا النقد الذي أقدمه لأي تفسير هو نقد له وجاهته، وما لم نتفق على شيء أساسي نترجم بمقتضاه هذه الصورة غير المعقولة، إلى أفكار معقولة فستطيش أي محاولة للتفسير. ولقد فعل الأقدمون الشيء نفسه، بأن اتفقوا على شفرة معيّنة يترجمون بها الصور غير المعقولة في

الحلم إلى أفكار معقولة، فقالوا مثلاً أكل الكعك في الحلم ضيق، فإن حلمت أنك تأكل كعكاً فأنت ستمر بفترة ضيق، غير أن هذه الشفرة لم يكن هناك من مبررات موضوعية لوضعها، وإنما تأتت بالاتفاق العام بمثابة حكمة الآباء، وفرويد هو أول من هدف إلى محاولة الترجمة بموضوعية لها مبرراتها، بحيث يمكننا أن نقول إن محاولة فرويد تفسير الأحلام هي أول محاولة تفسير علمية.

ويقول فرويد إن الباحث في أي حلم سيُبدَه أول ما يُبدَه، عند المقارنة بين محتوى حلم وأفكاره، بأن ثمة عملية تكثيف قد أجريت على الحلم على نطاق واسع، ولنتأمل مثلاً حلم فرعون يوسف بأن سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان، وهو حلم شديد الاقتضاب، لا تتجاوز كتابته السطرين، ومع ذلك فقد يستغرق تحليله الصفحات الطوال، فنعرف من الملك ما يشغل باله، وما يمكن أن تمثله له البقرات، وسنعرف أن الملك المصري كان وقتها يشغله جداً أمر الفيضان الذي تتوقف عليه حياة مصر الاقتصادية والسياسية والفكرية واستقرار المملكة، وكانت مصر بلداً زراعياً دائماً، وكان المصريون ينتظرون الفيضان ليبذروا القمح، والشطر الثاني من الحلم خاص بالقمح، والمصريون يربون البقر إلى جانب زراعة القمح، والبقرة عماد البيت المصري حتى أنها قد تبيت مع الأسرة في الحجرة نفسها، ولذلك فإن المعقول أن يتّجه التفسير إلى أن مصر قد تعاني ضيقاً بحيث أن البقر الأعجف يأكل البقر السمين، والبقر لا يكون أعجف إلا إذا كان محصول القمح متدن، ولا يكون المحصول كذلك إلا إذا تدنّى فيضان النيل، وكأن الحلم إذن يقول إنه قد يأتي على مصر سنوات تعاني فيها جفافاً حتى أن المصريين قد يأكلون كل ما ادخروه من سنوات الرخاء. وهذه الأفكار تعكس مخاوف مَلِك وقلقه أن يأتي العسر بعد اليسر، ونحن نعرف من دراساتنا النفسية أنه كلما زاد النجاح بالشخص إستبد به القلق أن يعقبه الفشل، وحالة الرخاء التي كانت تمر بمصر دفعت الملك أن يخاف أن يزول ذلك سريعاً، ويأتي الجفاف وتكون المجاعة. ولقد تعوّدت مصر على هذا

القلق وتعيشه حتى اليوم، ويخاف المصريون أشد الخوف أن لا يأتي الفيضان، وأما العدد سبعة فله قصة أخرى يطول شرحها بالنظر إلى المعاني الكبيرة التي له قديماً والتي شغلت بال الفلاسفة وحفلت بها آيات التوراة والأناجيل والقرآن.

وإذن فالحلم على اقتضابه قد يستغرق الصفحات عند تحليله، وما أوردناه تحليلاً لا يعدو إيجازاً شديداً لما يمكن أن يكون عليه التحليل. والأحلام قد تتباين موضوعاتها ولكن الميكانيزمات التي تقوم عليها واحدة دائماً، وميكانيزم التكثيف Condensation تحتال به الأحلام لتقول باختصار، في صور متعجلة سريالية، ما يقتضي قوله كتابة الصفحات الطوال. وبعض الأحلام لها تفسيرات مضاعفة، ويظل هناك دائماً احتمال بأن الحلم لم يفسر التفسير الكامل، أو أن له تفسيراً آخر وإن بدا التفسير الذي نقدمه مقنعاً، ومن ثم كان من المستحيل أن نحدّد مقدار التكثيف بأي حلم. وهذا الانعدام للتناسب بين محتوى الحلم وأفكاره هو دليل على أن المادة الحلمية قد جرت عليها أثناء تكوين الحلم عملية التكثيف هذه الواسعة. ولربما قد نظن أن مستدعيات الحلم غير ضرورية لتفسيره كلها، طالما أنها نسبية ومشروطة بقُدرة الحالم على أن يستدعيها رغم المقارنة النفسية، إلا أنها في الحقيقة جزء من الحلم، لأنها كانت حاضرة وناشطة وقت تكوينه، وهي لذلك أفكار أصلاً من الحلم جرى عليها التكثيف. ولا يعني التكيف أن الحلم قد اشتمل على صور دون صور واقتضى لذلك أن نستكمله بالمستدعيات، فأفكار الحلم التي تعكسها صوره هي التي تستدعي الخواطر حولها، كالشيء بالشيء يذكر، ولا يحدث أن يحذف منها شيء، والتكثيف من ثم لا يعني الحذف. وليس هناك حلم إلا وقد اكتمل، إلا أنه يحتاج دائماً إلى تحليل وتفسير، واستدعاء للخواطر وللذكريات، وإخراج للمكبوت. والأولى دائماً بالحلم أن نرصده فور الصحيان، حتى لا يُنسَى، وما قد نحسب أننا نسيناه نتذكره بالتداعي. وليس الحلم إلا إسقاطاً سينمائياً لأفكار الحالم بحيث تأتي صوره لتقابل أفكاره، غير أن الصور تكون

مختزلة ونحتاج لترجمتها إلى أفكار بلغتنا اليومية.

وهذا مثال للتكثيف في الأحلام:

- حلمت أني وأصدقاء لي ذهبنا إلى الإسكندرية ونزلنا في فندق في أبي قير، وكان عليّ لأصل إلى الفندق أن أعبر شارعاً صاعداً إليه، وكان الصعود يرهقني فإذا وصلت الفندق كنت أرتمي على مقعد لأستريح. وتبين لي أن أخي الأصغر ينزل في حجرة في الطابق الرابع. وكنت أنزل في حجرة في الطابق الأول. وقلت لا داعي لأذهب إليه.

التفسير: الحالم في الخمسين يشكو رهقاً في القلب، والتعب الذي يأتيه في الحلم كلما صعد إلى الفندق من تأثير أحاسيس المرض. والإسكندرية التي يحلم بها، والفندق الذي نزل به، من ذكريات رحلة مدرسية كان قد قام بها وهو في الجامعة واستمتع بها، وكان الفندق على ربوة كانوا يسيرون إليها صعوداً. والحالم يعيش في حياته الزوجية، ويتمنى لو يستطيع أن يطلّق زوجته، وكان دائماً يتراجع عن ذلك. وبدلاً من أن ينفصل بالطلاق كان يؤثر أن يقوم بسفريات طويلة يغيب فيها عن البيت، فإذا لم يستطع السفر على الحقيقة سافر في الأحلام، وقبل هذا الحلم كان قد تشاجر مع زوجته، والحلم نتيجة للشجار في اليوم السابق، ومبقدار ما هو هروب إلا أنه هروب لأيام زمان من عهد التلمذة، حيث ينزل في فندق ليس له وجود حالياً. والحالم يقول إنه ما عاد يقرب زوجته كالأول، فكلما ضاجعها يحس بإرهاق شديد بالنظر لمرضه، ويرتمي بعده، وبتعبيره، كالجثة الهامدة، وهذا هو قوله إن الصعود يرهقه، والصعود هو الجماع، وهو الوضع الذي يعتلي فيه امرأته، وكان الطبيب قد أشار عليه أن يجعل زوجته تعتليه، وقد ارتاح لهذا الوضع لكنها هي لا ترتاح فيه، فقد كان عليها أن تقوم بكل شيء، وجربت شيئاً لم تجربه من قبل وهو الإنعاظ، وقد هالها أمر نفسها فيه، وخافت، فكانت تحزن أن تصعد فوقه. وهو نفسه وإن كان قد ارتاح لهذا الوضع إلا أنه نفسياً متكدر، لأن كون الزوجة فوق وهو تحت يزعجه. وهو يرى أخاه الأصغر فاشل في الفندق «فوق» وهو تحت مع انه هو الناجح، وتلك

حيلة أخرى من حيل الأحلام هي حيلة القلب. وصلة الأخ بالحلم الذي يدور حول الزوجة وعلاقته بها أنه يشبّه به الزوجة، ويريد أن يقول إن كون الزوجة فوق لا يعني أنها أفضل منه فهي فاشلة كأخيه.

ومستدعيات الحلم كما نلاحظ تتكرر بها عناصر حتّمتها أفكار الحلم، وترتبط ببعضها وتنبّه بتكرارها إلى موضوع الحلم الرئيسي، وهي علاقة الزوج بزوجته. وذلك يجرنا إلى الحديث عن حيلة أخرى من حيل أو ميكانيزمات الأحلام هي حيلة الإبدال Displacement، وقد أبدل الحالم زوجته بأخيه الأصغر، واستبدل بوضع الجماع المقلوب السكن فوق وتحت. وللسكن فوق أو تحت مضمون اقتصادي واجتماعي ونفسي، فسُكان «فوق» هم الأفضل دائماً، بينما لا يسكن تحت إلا الطبقات الأدنى، وذلك هو المعروف بين الناس، ولنعمان عاشور مسرحية بهذا المعنى هي «الناس اللي تحت»، وهناك أعمال مسرحية غربية تتناول «الناس اللي فوق». والإبدال الذي يتم به ذلك في الحلم نلجأ إليه لتصوير حدث عادت في الحلم غير مشحون نفسياً فنشبّهه عيانياً، والمشبّه به قادر على أن يأتي في الحلم مصوراً، وأن يدخل ضمن موقف، بينما التعبير المجرد عن الحدث أو الفكرة قد لا يمكن تصويرها حلمياً. والفكرة التي نحن بصددها هي فكرة أن الزوجة صارت تعتلي زوجها، وذلك حدث له صدى نفسي ودلالات أخرى، والإبدال هنا بالإضافة إلى التكثيف يعملان عملهما بما يجعل الفكرة التي يتصديان لها صورة بليغة تقول بأبلغ مما تقول الفكرة المجرّدة. ولربما قد تستدعي هذه الفكرة الصغيرة مستدعيات تستنفد كتابتها صفحات، والصورة التي تطرحها بإيجازها تختزل هذه الصفحات وتكثّفها، ويعمل الإبدال في خدمة التكثيف بحيث يتيسر التكثيف به.

ولنعد إلى ما يقوله الحلم من أن الأخ يسكن فوق، ففي حين أننا قلنا إن الحلم استبدل الزوجة بالأخ، فإنه في الوقت نفسه قلب الوضع فجعل الأخ فوق والحالم تحت، مع أن ذلك غير صحيح حيث الأخ هو الفاشل والحالم هو الناجح. والقلب Inversion كما نوهنا حيلة أخرى. والقلب جاء عند إبن سيرين أنه التأويل بالضد

والمقلوب، كتفسير البكاء في الحلم بأنه فرح، والضحك بأنه حزن. والقلب لهذا السبب مسؤول عما نراه في الأحلام من تباين بين المحتوى الظاهر والمحتوى الكامن للحلم، وهو مسؤول مع التكثيف عن التشويه الذي يلحق أفكار الحلم فتأتي على الصورة أو الصور التي تأتي بها.

والنكوص Regression حيلة رابعة من الحيل الحلمية يتمثل في الارتداد إلى الذكريات والرغبات والصراعات من الماضي، وهذا هو النكوص الزمني، وهناك نكوص شكلي، أو نكوص طبوغرافي، والأول يكون بإحلال لغة الصور والرموز محل لغة الأفكار، ولغة الصور والرموز لغة بدائية من الماضي أيضاً، والثاني وهو النكوص الطبوغرافي حيث يتدنى الوعي وتقل المقاومة والرقابة فيسود اللاشعور ويتوارى الشعور.

والنكوص يكون في الحلم وفي اليقظة أيضاً، حيث أننا نستطيع أن نترك أنفسنا للذكريات ونحن غير نيام. والنكوص يكون أيضاً في هلاوس اليقظة عند المرضى بالهستيريا أو بالبارانويا، حيث يمكن أن تتحول الأفكار عند هؤلاء المرضى إلى صور.

والنكوص في الحلم، حيثما يقع، يكون نتيجة للمقاومة التي تُحول دون تقدم الفكر إلى الشعور وفق الطريق السوي، ونتيجة لجذب تمارسه إزاءها في الوقت نفسه ذكريات حاضرة ذات قوة حسيّة كبيرة. ويسهّل النكوص إنقطاع التيار التقدمي الذي ينساب في النهار من أعضاء الحواس. ولقد رأينا في الحلم السابق كيف يرتد الحالم إلى فترة من حياته كان فيها سعيداً، ولم يكن يعاني أي نوع من العجز، بل على العكس كان فاعلاً، وهو يذكر أنه كان يصعد إلى الفندق، ولكنه الآن يُرهَق من الصعود، وربما - لأن الصعود يرمز للجنس هنا - كان يمارس الجنس وقتها بكفاءة، والنكوص إلى هذه الفترة بالتداعي بالذكريات يخدم فكرة المقارنة بين عهدين ويكثفها تكثيفاً شديداً.

والترميز Symbolization وسيلة أخرى من وسائل الحلم لتحويل الأفكار إلى صور، وهو ظاهرة ملفتة للنظر حيث قد يتشابه الرمز والمرموز إليه تشابهاً

واضحاً، ويكثر مع ذلك أن ينعدم التشابه حتى ليكون استخدام الرمز محيّراً، والغالب أن الكثير من الأشياء التي ترتبط اليوم برباط رمزي يحيرنا أمره، ربما كانت في البداية قبل التاريخية تتحد في عينية تصويرية ولغوية، ومن ثم تكون هذه العلاقة الرمزية غير الواضحة الآن من عينية غابرة عليها. وبعض الرموز من الممكن ردّه إلى ما قبل قيام اللغات وانفراعها إلى جماعات لغوية، وبعضها قديم قِدَم الكلام نفسه، فالأب مثلاً كان يرمز له بالشمس، بينما يرمز للأم بالقمر، وللاخوة أو الأولاد بالكواكب، والرجل يُرمَز له بالقضيب على الحقيقة، بينما يُرمَز للمرأة بالفرج، وما نزال حتى اليوم في علم الإحياء نرمز للذكور بنحو ذلك، وللأنثى بفتحة مستديرة، وما يزال الموت يرمز له بالسفر، وللأطفال بالبذور.

والحلم يستخدم الرموز ليصور الأفكار تصويراً مقنّعاً لصرفنا عن معناها الحقيقي ويموّه علينا، إلا أنه من المحتمل أن يستخدم الرمز أيضاً إستخداماً حرفياً، فمثلاً نحن نقول إن الغضب قد استبد به فصار يغلي كالبحر اللجّي، والحلم يصور ذلك حرفياً فيجعل الحالم يركب البحر في ثورته من باب التشبيه البليغ، إلا أنه يقلب العبارة البليغة إلى صورة بليغة مستخدماً التشبيه المصوّر. ويجوز أن يأتي الرمز خاصاً جداً بالنظر إلى ما يمثله عند الحالم. وعلى كل فلقد أفضنا في الكلام عن الرموز في باب سابق.

والهدف من كل ما سبق من الحيل الحلمية أن يكون في المستطاع ترجمة الأفكار إلى صور، وما يجعل الحلم يلجأ إلى حيلة منها دون حيلة أخرى، أن تقبل الفكرة التصوير بهذه الطريقة دون غيرها، فهذا الاعتبار «قابلية التصوير» هو المعيار الذي به يكون إيثار حيلة من الحيل. ومن ذلك حيلة «المسرحة Dramatization»، فإذا أراد الحالم مثلاً، كما سبق أن نوهنا، أن يقول عن زوجة أنها خائنة فإنه قد يصورها تسقي زوجها السم، وقد قدمنا أحلاماً نمطية تدور حول الفقر وجعلنا لها عنوان أحلام الحفاء، فأن يرى الحالم نفسه في حفل كبير ويرتدي ثياب السهرة، ومع ذلك

يسير حافياً، فربما لديه خوف يلاحقه ويستشعر منه القلق، أن تزول ثروته ويعود فقيراً ويعاني كما كان يعاني؛ وكذلك الشأن في أحلام التعري فكلها نماذج لما يمكن أن تفعله المسرحة بالفكرة. ونقصد بالمسرحة طرح الأفكار طرحاً دراميأ أقرب إلى الإخراج السينمائي، ففي الحلم هناك القطع والمونتاج، ويورد فرويد نموذجاً لحلم فيه القطع:

- أذهب مع الآنسة «ك» إلى مطعم فولكس جارتن (قطع) أراني بعد ذلك في بهو منزل...

والحوار في الحلم هو دائماً إعادة محرّفة قليلاً لأقوال موجودة من قبل بين ذكريات مادة الحلم، وفي كثير من الأحيان لا يخرج الكلام في الحلم عن أن يكون إشارة إلى موقف درامي متضمن في أفكار الحلم، وأما معنى الحلم فيكون مختلفاً كل الاختلاف.

وأما الترتيب المنطقي في الحلم فهو كالمونتاج، فيه اللقطة التي تعود للخلف، وهناك أحلام تتسلسل فيها الحوادث تسلسلاً منطقياً، وأخرى يُغفل فيها الترتيب المنطقي، ونقول إن الترتيب المعوّل عليه هنا هو الترتيب النفسي، أي بحسب القيمة النفسية، المضفاة على المشهد. ومعنى الترتيب النفسي أن الأحداث أو الصور تأتي حسب أهميتها النفسية. وحتى الزمن المادي ليس له اعتبار في إخراج الحلم، ولكن الاعتبار للزمن النفسي. وقد يلجأ الحلم إلى ربط الأفكار بأن يستخدم ما يسمى بالمزامنة، فيحشد في الصورة الواحدة المادة الحلمية كلها، في مشهد أو موقف يجمعها، كما يفعل الرسام مثلاً إذا أراد أن يقدم في شكل صورة فكرة مدرسة أثينا، فيرسم كل فلاسفتها مرة واحدة، وعندئذ سنتبينها فوراً دون حاجة لعنوان أسفلها يوضح ماهيتها. والحلم يستخدم هذا المنهج في التصوير حتى للجزئيات، فكلما اقترب عنصران من عناصر الحلم كان ذلك بسبب وجود علاقة بين مقابليهما في أفكار الحلم، تماماً مثلما نفعل في الكتابة، فإذا جئنا - مثلاً - بالباء بعد الألف مباشرة كانت الكلمة أب، ولكن إذا فصلنا بين الألف والباء كان معنى ذلك أننا نشير إلى كلمتين، الحرف الأول من احداهما هو أ، والحرف الأول

من الثانية هو ب كما نقول في الإنجليزية B.A. بمعنى بكالوريوس آداب. وقد يريد الحلم أن يقول عن علاقة لأنه كذا وكذا فإنه كيت وكيت، وهي ما نعرفه باسم العلاقة العلية، فتأتي جملة الشرط في حلم تمهيدي، وجواب الشرط في حلم رئيسي، وقد يُقلَب الوضع، ولكن الجزء الأكبر من الحلم هو الذي يقابل دائماً جواب الشرط. وانقسام الحلم إلى جزئين لا يجزم دائماً بوجود علاقة علية بينهما، فقد يكون كلا الحلمين معالجة مختلفة لنفس الفكرة، وذلك كما يحدث مثلاً في أحلام الإمناء حيث تكون هناك عدّة أحلام جنسية تنتهي أخيراً هذه النهاية. وقد تأتي العلاقة العلية بطريقة أخرى باستخدام القَطع، فتكون صورة، ثم قطع إلى صورة أخرى، بدون أن يبدو أن هناك علاقة علية بينهما، وإنما يستخدم الحلم هنا طريقة التعاقب.

وأما علاقة إما كذا أو كذا فلا يستطيع الحلم تصويرها، وإنما هو يورد الاحتمالين في سياق واحد، كأن نقول كان المكان إما حديقة أو غرفة استقبال، فمقابل هذا الاحتمال في أفكار الحلم ليس احتمالاً مثلهما بل واو العطف، والقاعدة التفسيرية أن نعامل كلا الاحتمالين كما لو كانا يتساويان صحة، فالمكان فعلاً غرفة استقبال، وهو أيضاً حديقة.

وأما علاقة التضاد فالحلم يُسقطها تماماً، ويصور الضدين ويوردهما معاً على أنهما شيء واحد، وقد يصور الشيء بضده.

وأما في علاقات التماثل فهناك ألف طريقة لتصويرها، والحلم، أي حلم، ينبئ أساساً على علاقات تماثل، فالبحر اللجّي يماثل الغضب، والنار قد تماثل الشهوة، وقد تماثل الحقد. وعلاقة التماثل تفيد في تكثيف الحلم، وهي إحدى وسائله. والتماثل قد يكون بين شخصين فيرد أحدهما في الحلم ليقصد به الآخر من باب المحمولات المشتركة بينهما، وإذا حدث ذلك بين الناس نسميه التعيين في الحلم، وأما التماثل بين الأشياء فنسميه مزجاً، ويجوز أن يقع المزج بين الأشخاص، ويجوز أيضاً المزج بين الأماكن. والفرق بين التعيين والمزج فيما يتعلق بالأشخاص أنه في التعيين

يُكتفى بشخص واحد عن بقية الأشخاص، ولكن هذا الشخص يظهر في الحلم بكل العلاقات والمواقف التي تصدق عليه وعلى غيره. وأما في المزج فإن الشخص الذي يظهر تكون له من هذا ملمح، ومن ذاك ملمح، ومن ثالث ملمح، فتكون النتيجة ظهور شخص مركب وقد تجيء عملية المزج بطرق مختلفة، كأن يظهر الشخص في الحلم ويكون له إسم شخص آخر يرتبط به، وحينئذ نعلم أن المقصود هو هذا الآخر برغم اختلاف ملامحه المرئية. وقد يشارك الآخر لا بملامحه ولا باسمه، ولكن بحركاته المعروفة عنه. وقد يفشل الحلم في التعيين وفي المزج فيظهر المشهد منسوباً إلى شخص غير مقصود، بينما يكون المقصود مجرد متفرج في المشهد، ونجد الحالم يصف هذا المشهد فيقول مثلاً - عَرَضاً - وكانت أمي هناك.

والعنصر المشترك الذي يبرر توحيد الشخصين قد يتمثّل في الحلم وقد يغيب، والقاعدة أن التعيين أو تكوين الأشخاص المركبة يُستخدم من أجل تصوير هذا العنصر المشترك، فبدلاً من أن أقول إن س من الناس يعاديني وكذلك ص، فإن الحلم يبتدع شخصاً مركباً منهما معاً، أو يجعل من يرتكب الأفعال المعروف ص بارتكابها. وقد يستحضر الحلم الشخص المركب، بحيث يجعل الصفة المشتركة ليست هي المقصودة، وإذا حدث ذلك فإن التفسير يقتضي البحث عن الصفة الحقيقية، ونميز الصفة الحقيقية من الزائفة من الوزن النفسي الذي للصفة.

والأحلام أنانية، وكل حلم يدور حول صاحبه، فإذا حدث وكان الحلم يدور حول شخص آخر، فلربما - وهذا احتمال كبير، - أنه خلف هذا الشخص يكمن الحالم نفسه بواسطة التعيين. وقد يظهر الحالم وأشخاص أُخَر إلى جواره، ويتضح أنهم هم الحالم. وقد يحدث أن يرى الحالم نفسه في الحلم ويتضح أن المقصود شخص آخر، ويحدث ذلك في كل حالة بطريقة التعيين أيضاً.

وقد يكون التعيين بين الأماكن، وتبيّن هذا التعيين في أسمائها - أسماء الأماكن - أسهل من تبيّن التعيين في أسماء الأشخاص. وأما المزج بين الأشياء فهو ما يجعل الحلم يبدو غريباً. والمزج يكون

أيضاً بين الأسماء، ويكون بين المشاهد. ومزج المشاهد شبيه بالمزج في السينما، وقد يحدث أن تكون فكرة الحلم أن فلاناً هذا كلب إبن كلب، فيأتي الحلم بالكلب وتكون به صفات فلان، أو يكون له إسمه، أو يمتزج إسمه باسم من أسماء الكلاب الشائعة!

وربما كان أهم ما نقدره من الخصائص التصويرية في الصور الحلمية هو التفاوت في الشدّة الحسيّة بين مختلف الصور، ولا نعني بالشدّة الحسيّة هنا الظهور الذي لجزء على بقية الأجزاء، أو لحلم، على بقية الأحلام. وقد يتراءى لنا أن الحدّة النفسية لبعض أفكار الحلم قد يقابلها أن تأتي الصور الحلمية المقابلة لها شديدة الظهور، فالعكس صحيح، وذلك أن ظهور بعض الأفكار يستتبع أن تعاني من الرقابة والمقاومة بحيث تأتي الصور المقابلة لها باهتة أو تافهة أو هامشية، وذلك ما نقصد إليه أن إخراج الحلم يقلب القيم النفسية للأفكار، فما كان مهماً منها يظهر غير مهم، وغير المهم يبدو مهماً، وذلك بعض ما نقصد إليه عندما نتحدث عن التشويه في الحلم. ونقيس أجزاء الحلم بمعيار الشدّة النفسية. وإذا كنا بصدد الاستماع إلى تداعي الحالم حول أجزاء حلمه، فما كانت له شدّة حساسية أعلى كان أدعى إلى المستدعيات الأكثر. والحلم المشوّش هو الحلم الذي تجري عليه الرقابة عملها بشدة. والحلم الواضح هو الذي يمر من الرقابة بسهولة لأنه لا يعالج مسائل ممنوعة. والحلم المختلط هو الذي تتفاوت أجزاؤه في درجات الشدّة الحسية التي قصدنا إليها، وتتحكم مادة الحلم في إخراجه وليس العكس. وقد يلجأ الإخراج الدرامي إلى طريقة كفّ الحركة أي وقفها، وهو هذا النوع المعروف في أحلام الكوابيس، فالحالم يريد أن يتحرك فكأنه مسمّر في مكانه، ولا يستطيع أن يحرك يداً ولا أن يصرخ، وقد يريد أن يرد الإهانة فيصفع من أهانه ولكنه يعجز. ويريد أن يلحق القطار وتعصيه قدماه. وهذا الكفّ لا يحدث إلا إذا كانت بمادة الحلم حاجة تدعو إلى تصويرها هذا التصوير وحده، وغالباً ما يكون انعكاساً لصراع إرادات، بحيث يعكس الحلم عجز الحالم عن تحقيق

إرادته، أو عجزه عن أن يكون له موقفه.

ومن الأحلام ما يأتي إخراجه على أنه حلم داخل حلم، فيحلم الحالم بأنه يحلم، ويصف محتوى الحلم بأنه قد حلم به أثناء الحلم. والمقصود بالحلم في الحلم، هو التهوين من شأن الحلم الذي من الداخل وإظهار الاستخفاف بمضمونه، وكأن الحالم يصف الجزء الموصوف بأنه حلم، بأنه لم يقع ولا يعدو أن يكون حلماً، وذلك تماماً كما يحدث عندما نستيقظ من حلم كابوس، فنحمد الله بأننا كنا نحلم، أي نحمده على أن ما حلمنا به لم يقع، وأنه لم يعدُ كونه حلماً. غير أن هذا الحلم من داخل الحلم عندما يورده عمل الحلم بهذه الطريقة في الإخراج، فإن ذلك دليل قاطع على كون هذا الحلم الداخلي ليس من قبيل أضغاث الأحلام، وإنما هو شيء واقعي، وحدث حقيقي، وينبغي التعامل معه عند التفسير بجدية، وليس إخراجه كحلم داخلي إلا من قبيل التنصّل منه. وشبيه بذلك الأحلام اللامعقولة كأن نحلم بأن الأب الذي مات من سنوات حي يرزق، وأن أحد الناس جاء يحجز على الشقة ويطردنا منها بسبب دين على الوالد، ونناقش الوالد فيتبين أن هذا الدين لم يكتب له صكاً، ولكنه أعطى به كلمة، وأن الدين أصلاً لامرأة ساقطة، ونعجب لذلك في الحلم لأننا نعرف أن الوالد كان تقياً ورعاً. والحلم يخرج لا معقولاً إذا كان بين عناصر أفكاره حكم نصدره أو يصدره الحالم، مضمونه «هذا شيء سخيف أو غير معقول»، أي يكون بين أفكار الحلم فكرة يدفع إليها النقد أو الاستخفاف. واللامعقولية إذن هي طريقة في إخراج الحلم، ويتوسل بها عمل الحلم لتصوير التناقض في جو مزاجي يجمع النقد أو الاستخفاف إلى جانب المناقضة، وذلك بهدف أن يعطي للمحتوى الظاهر للحلم صورة ضاحكة، بينما المحتوى الكامن يكون متناقضاً مع الظاهر تماماً. ومن ثمّ وجب الحذر عند التصدّي بالتفسير لمثل هذه الأحلام، فكلما بدا الحلم كأنه جنون في جنون كما نحكم عليه عند اليقظة، فإنه أحرى بأن نعامله بجدية تامة. وكان الفلاسفة قديماً إذا أرادوا أن يقولوا ما يصدم الناس من حقائق، وخافوا مغبة الصراحة، إدعوا الجنون، وكذلك كان

الشأن مع ديوجين الكلبي الذي كان يزعج الناس بغرابة تصرفاته وصراخه عليهم في الأسواق، حتى سمّوه بالكلبي أو النّباح، وبهذه الطريقة كان يأمن العقاب، وكذلك الأحلام اللامعقولة. وليست هذه الطريقة إلا كمثل أختها التي لجأ إليها هاملت، الذي كان يخفي حقيقة ما يجري داخله من صراعات عنيفة غاية العنف بقناع من التنكيت والاستهتار. والأحلام التي نحكم عليها بأنها مجنونة أو غير معقولة، ليست أباطيل إذن، بل هي أحلام، من أفكارها التي تتضمنها النقد أو السخرية أو الاستخفاف، مما يستدعي ضرورة تصويرها على هذا النحو، فيأتي الحلم كأنه فيلم سينمائي هزلي، أو من نوع الأفلام الناقدة الساخرة.

الباب الواحد والعشرون
الكابوس

الكابوس حلم مفزع يُصاب منه الحالم بالخوف الشديد، حتى ليهب من نومه مذعوراً. والكابوس كحلم يتكرر مع الحالم، ويرى نفسه فيه في مأزق شديد يتهدّد منه الأنا تهديداً مباشراً، كأن يجد نفسه يدخل متاهة لا مخرج منها ويضيق عليه الخناق، أو يرى نفسه يسقط من حالق أو يهوي إلى حفرة، لا قرار لها، أو يجرفه الموج العاتي ويحوط به بالماء من كل جانب، أو ينحشر في ممر لا يجد فيه لنفسه متنفساً. وقد يهاجمه لص أو يغتاله مغتال ويتبين لنفسه أنه يموت، أو يظهر له عفريت أو غول أو جنيّة، فيحاول أن يركض فلا تطاوعه قدماه، ولا تنطلق الصرخة من فمه. وقد ننسى الأحلام ولكننا لا ننسى الكوابيس بالنظر إلى الهلع الذي يصيبنا منها، وأنها توقظنا من النوم. والمفترض أن الأحلام تأتي لتساعدنا على النوم، إلا الكوابيس، فإن المنقذ منها، ومن استمرارها، أن نستيقظ لنجد أننا منها قد أصابتنا صُفرة شديدة في الوجه، وقد نرتجف ويتصبّب منا العرق، ويرتفع ضغط الدم إرتفاعاً كبيراً مفاجئاً، بنحو ثلاثين ملليجرام، الأمر الذي يشكّل خطورة أي خطورة على الشيوخ المصابين بضغط الدم أصلاً.

ونحن قد نجهد لتذكر الحلم، وقد نشكو أنه مشوّش وغير واضح، أو نشكو أن أحلاماً عدّة في الليلة نفسها إنطبعت على بعضها، فاختلط علينا أمرها، فلا نذكر أهذا المشهد لهذا الحلم، أو لذاك، وأما في الكابوس فالأمور واضحة، والصور جلية، والمعاني حافلة.

والكابوس يأتي الأصحاء، كما يأتي المرضى النفسيين، وقيل إن نحو ٣٠٪ من الأطفال الأسوياء يضطرب نومهم بالكابوس، وأكثر ما يأتيهم في السن بين الثامنة والسابعة عشرة. ويرى الطفل في الكابوس حيوانات يخافها، وقد يجد نفسه مطارَداً وعاجزاً لا حول له ولا قوّة، وينتابه اليأس ويستشعر الوحدة، ويملأه الخوف. وقيل إن نوم الأطفال الخفيف يكون بعد خمس ساعات من استغراقهم في النوم

العميق، وعندئذ تأتيهم الكوابيس، وأغلب ما تأتيهم وهم نيام على الجنْب. والطفل الذي يحلم بكابوس قد يحلم به لأنه قد عانى تجربة خوف تتكرر معه في الحلم من هذا النوع، وقد يتحصل له الخوف نتيجة ما يشاهد من أفلام التلفزيون المرعبة، أو ما يقرأه من مجلات أطفال تصور الحيوانات في صور مخيفة، وتظهرها في حكايات يصدقونها. ويميل الأطفال إلى المبالغة وتصديق ما يقال لهم، أو ما يقرأون ومن ثم فقد يلاحقهم ذلك في أحلامهم.

ويكثر الكابوس في حالات الإصابة بالاضطرابات النفسية، وحيثما كانت الشكوى من المخاوف والقلق العُصابي، ومن اضطرابات مثل نهك القتال، وصدمة الوغى، وصدمة القنبلة، وصدمة الكوارث، والفصام، والاكتئاب، واضطرابات الشخصية عموماً.

والكابوس يسهُل تذكّره لوضوحه، وبسبب الشحنة النفسية العالية التي تكون به، وهي المسؤولة عن الذعر المرافق، وعن اليقظة التي تسرع إلى الأنا كنوع من السلوك الدفاعي.

ولا يختلف الكابوس عن الأحلام في النوع ولكن في الدرجة، فالخوف في الكابوس أشد منه في الأحلام المُهدّدة، ويتميّز بأن الحالم يشق تنفّسه، حتى لكأن شيئاً يرين على صدره، وربما لهذا السبب أطلق عليه العرب اسم الحضون، لأنه كما لو كان هناك مخلوق ذو قوة هائلة يحضن النائم حضناً، فهو منه في ضيق وأي ضيق، ويطلقون عليه اسم الباروك، أي الذي يبرك على النائم، وهو الجاثوم كذلك، أي يجثم على الصدر أو على الجسم كله فيشل الحركة ويقيّد الأطراف.

والمظنون أن الكوابيس تأتي البنات والنساء عموماً أكثر من الفتيان والرجال، وأن الأرامل والعوانس والراهبات أكثر تعرضاً لها من المتزوجات. وأنها تعبّر عن صراعات نفسية حادة تدور حول رغبات جنسية مكبوتة تجاه المحارم. وحوادث الكابوس تمثيل لدور المرأة في العملية الجنسية، حيث تستلقي ويكون الرجل فوقها، وكذلك في الكابوس فما تحلم به يكون باركاً فوقها يكبسها كبساً ويحضنها حضناً. ولعل الاسم الإفرنجي

فرس الليل nightmare لأن ما تحلم به المرأة يأتيها خفيفاً كالفرس ويطاردها فلا تستطيع منه مهرباً. وكثيراً ما يكون هذا الوافد المزعج فرساً فعلاً، ولعل الفرس من دون سائر الحيوانات قد يتطرق إليه خيال المرأة بسبب فحولته وقوته الجنسية النهمة. وأما اسم الحضون فلأنهم قديماً كانوا يتصورنه شيطاناً مريداً من الذكور، به غُلمة ويختار النساء لإشباع غُلمته، فيزورهن ليلاً وهن نائمات، ويعانقهن مجامعاً، وقد يزورهن نهاراً، وهذا كابوس النهار ويسمونه لذلك فرس النهار daymare، ورَسَمَه الفنان الإيطالي فيوزيللي في أواخر القرن الثامن عشر بشع الوجه وشائه الجسم، وقد ربض على صدر امرأة شابة مستلقية على ظهرها ومستغرقة في النوم. وربما كان رسمه شائهاً لأن الرغبة الجنسية اللاشعورية لا يمكن أن تصورها إلا هذه الصورة الفطرية، من حيث إلحاحها اللامعقول وسطوتها الحيوانية.

وليست الكوابيس أحلاماً جنسية لأنه لا استمناء فيها، وليس فيها انتصاب. وليست كلها بدوافع نفسية، والشائع عند العامة أن أسبابها جسمية كالتُّخمة وامتلاء المعدة وما ينشأ عن ذلك من ضغط على الحجاب الحاجز وإعاقة للدورة الدموية إلى القلب والرئتين، حتى أن كاتباً مثل ستيفنسون كان يستحدث الكوابيس به استحداثاً ليحلم أحلاماً بشعة يجعلها موضوعات لقصصه، وكان يتناول لذلك أطعمة دسمة قبل النوم، يتخم منها وتثقل على معدته حتى ليشق عليه أن يتنفس.

ولربما تستحدث الكابوس منبهات خارجية، فقد تتعرّى القدم خلال النوم أثناء الشتاء فيحلم النائم أنه يغوص في بحر من الثلوج، وبعض الناس يوقدون في الشتاء مواقد في حجرات نومهم فيكثر بها ثاني أوكسيد الكربون ويقل الأوكسجين مع الاحتراق، ويستشعرون كأنهم يختنقون فتأتيهم الكوابيس انأهم يختنقون، وإن كانت المواضيع التي يدور عليها الاختناق هي مسائل أخرى صراعية، أو خوافات أو مشاعر ذنب لا شعورية يستبد بهم القلق المبهم بسببها وتظهر مع حالات التداعي الجسمية هذه،

بالإضافة إلى تدنّى الوعي في النوم، وكأن هناك من يخنقهم أو كأنهم محاصرون بنار تلظّى وقد أحاطت بهم ولم يعد لهم منها رجاء. والكابوس يكرر الخبرات الصادمة اليومية، فمن يُصدَم بسيارته وينجو بالكاد قد يرى في الليلة نفسها كابوساً بأن قنبلة قد انفجرت به، وأصل هذه القنبلة ربما كان انفجار إطار السيارة الذي تأدّى إلى الحادث الفظيع. وقد يرى الذي تُجرَى له عملية جراحية بعد تخديره كلياً، تكراراً لتجربة التخدير فيأتيه كابوس بأنه يسقط من حالق، ويكاد يصرخ ولا من صوت يخرج منه، بينما روحه تنسلّ من جسمه، وتنسحب انسحاباً. غير أن المنبهات الخارجية أو الحشوية ليس شرطاً أن تستحدث الكوابيس، فهذه المنبهات ما هي إلا علّة ترتكن عليها أسباب أخرى.

وكانوا قديماً يقولون إن الكوابيس أحلام جنسية تدفع إليها رغبات محمومة لا تجد لنفسها المنصرف ويستحثها أن ينام الحالم على ظهره، ولعل ذلك هو السبب في نصيحة البعض التزام النوم على الجنب الأيمن لنتجنب أن تأتينا الكوابيس.

وكان ابن سيرين يقول: الكابوس من الشيطان، والشياطين في التحليل النفسي رغبات مستعرة لا نرضى عنها أو لا نحب أن نظهرها ويرانا الآخرون عليها، أو قد تكون رغبات لا شعورية كبتناها في وقتها ونعاني منها، وتتسبب لنا في صراعات ومشاعر ذنب تضطرب منها نفوسنا، فلا نعرف كيف نفسرها وننسبها إلى عمل الشيطان. والشياطين بعد ذلك قد تكون مشاعر تلهبنا العداوات، وأن نبغض ونكره ونحقد، ولا تعجبنا هذه الميول فينا، ونستبشع ما يدور داخلنا، ولعل ذلك هو أصل فكرة القرين، وكأنه الأنا الآخر يتواجد داخلنا وننقسم بسببه إلى شخصين متعارضين، أحدهما يعمل علناً، والآخر يهمس ويوسوس لنا، وكأنما الشيطان الذي يستحث الكابوس هو هذا القرين الوسواس الخنّاس، وكأنما هو شيطان على الحقيقة بقدر ما يكون من المشاعر الشيطانية من داخلنا، والتي تتعلق بالخبرات اليومية الصادمة أو الحكايات المخيفة، وتظهر مرتبطة بها.

ومن رأي فرويد الذي يقول إن الأحلام صدى لرغبة، أن الرغبات اللاشعورية

تعنف أثناء النوم، وتتوجه لأن نعيها، غير أن ما قبل الشعور يقابلها في منتصف الطريق، ويحد من غلوائها، ويظهرها صوراً حلمية لا خطر فيها، ومن ثم لا تضطرب بها أحوال النائم فيستمر في النوم، برغم من أن هذه الرغبات قد تكون عدوانية أو جنسية لا يرضى عنها الأنا، ويخاف ظهورها ومغبة هذا الظهور، وقد يأتي الحلم بها من ثمّ حلماً مزعجاً، إلا أنه طالما أن إزعاجه محتمل فإن النائم يبقى نائماً، إلا في حالة الكابوس، فإن الإهاجة التي تبتعثها الرغبات اللاشعورية لا يفلح ما قبل الشعور في رصد حركتها والحدّ من غوائها، فلا يكون أمامه، لينقذ الأنا ويدفع عنه شرّها، إلا أن يوقظ الحالم من نومه.

ويقول فرويد إن كبت الرغبات اللاشعورية يسبب ألماً، والقمع الذي نوجّهه للمحتوى الفكري للرغبات اللاشعورية يمتد إلى الألم الذي يستحدثه كبتها، فإذا أخفق القمع إنطلقت الرغبات، وصاحبتها الحالة الوجدانية المؤلمة التي ترتبط بها، فيكون الكابوس مخيفاً ومؤلماً. ومن رأي فرويد أن الرغبات اللاشعورية، إذا أخفق قمعها، إنطلقت في مسارين، فإما أن تتجه إلى أعضاء الحركة فتُفرغ فيها تهييجها فتصاب من هذا التهييج بتلف تكون به الأعراض العُصابية، وهذا هو أصل العُصاب، وإما أنها تتجه إلى ما قبل الشعور، فيسيطر عليه محتواها الفكري، فتكون الهلاوس الحلمية التي لا يجد الأنا نجاة منها إلا بالاستيقاظ التام، ولهذا السبب فإن فرويد يجعل نظرية الكابوس من نظرية الأعصبة، ويؤثر أن يستبقي الخوض فيها ضمن الحديث عن الأعصبة وليس في نطاق تفسير الأحلام. وسنحاول أن نبني على ما يقوله، فطالما أن الأنا هو الذي يستشعر وطأة الكابوس، فلنلحقه بمتعلقات الأنا ضمن مختلف ما يتعرض له من أنواع الضغوط التي لها وطأة، سواء منها ما كان يصدر عن الضمير أو الأنا الأعلى، أو ما كان يأتي من اللاشعور، أو ما كان مصدره العالم الخارجي. والكابوس إذن عَرَض مرضى لقلق الأنا نتيجة وطأة اللاشعور كما قال فرويد، وربما نتيجة وطأة الأنا الأعلى أو الضمير، وربما أيضاً نتيجة وطأة العالم الخارجي.

فأمّا ضغوط اللاشعور فقد أفاض فيها فرويد، وأما وطأة العالم الخارجي فهو ما نعرفه باسم المنبهات الخارجية وما يتهدّد الأنا منها من أخطار، وأما وطأة الضمير فذلك ما نحن بصدده، فنقول إن من الكوابيس وهو الغالب فيها، ما هو نوع من العقاب يُنزله الأنا الأعلى بالأنا، وكأن الشخص يعاقب نفسه بنفسه على أن كانت له رغبات محرّمة أو محظورة، أو أنه فعل ما يتعارض والأخلاق. وقولنا إن الكابوس مظهر لقلق يصيب الأنا نتيجة وطأة الضمير أو الأنا الأعلى عليه، يجعلنا نصف هذا القلق بأنه قلق أخلاقي، وهو لا يكون بالأنا إلا إذا عانى من صراعات محتواها أخلاقي، ولقد أسهبنا في الحديث في باب كامل في الصراع الأخلاقي، والكابوس من نوعية الأحلام التي مدارها الصراع الأخلاقي، ونسميها أحلام العقاب، فعن أي شيء يعاقب الحالم نفسه؟ إنه يعاقب نفسه عن عدم التزامه بالأخلاق، وعن مخالفته لضميره وارتكابه أفعالاً محرمة أخلاقياً ودينياً، وربما يكون قد عصى أمه أو أباه، أو استشعر العداء لإخوته، أو زنا بامرأة جاره، أو سرق، أو حتى حدّثته نفسه بالسرقة أو بالزنا. والكابوس هو الثمن الذي يتقاضاه الأنا الأعلى منه عقاباً له على إثمه أو خطيئته أو جُرمه أو ذنبه، والكابوس من ثم يعطينا فكرة عن الحالم من حيث ما يراه حلالاً أو حراماً، وما يعتبره من الأخلاق أو ضدها، ويعكس تصوره للجزاء والعقاب، ويحلل شخصية الحالم فنعرف إتجاهاته وميوله ورغباته وصراعاته، وعلاقاته بالناس، وطريقته في الدوران والالتفاف حول ضميره والعرف الأخلاقي ليحقّق لنفسه، ما يرغب ويريد، دون أن يصادم المجتمع أو ذاته العليا، ولربما يرتكب ما يرتكب خفية دون حساب للرقيب من داخله، فيكون عذابه من بعد بمشاعر الذنب التي تؤرقه، بأن يستحضرها أشباحاً وغيلاناً ولصوصاً ومجرمين يهبّ بسببهم مذعوراً من نومه خوفاً ورعباً، وهذا هو العقاب الذاتي، وكم كان هذا العقاب مؤلماً أشد الألم عند ماكبث والسيدة ماكبث في مسرحية شكسبير الخالدة!

مثال:

كابوس فرويد: رأى أمه التي يحبها

نائمة في وداعة غريبة، وقد حملها شخصيان أو ربما ثلاثة لهم مناقير كمناقير الطير، وأرقدوها على فراش، فاستيقظ من نومه مذعوراً وباكياً، وكان في نحو السابعة، وبذلك أيقظ والديه.

التفسير: كان فرويد قد سمع كلاماً جنسياً من ابن البواب مما يستخدمه العامة للدلالة على الأعضاء الجنسية، وهو ما يفسر أن للأشخاص مناقير الطيور، وكثيراً ما نصف القضيب أو نطلق عليه إسم الحمامة أو البلبل إلخ، ونقول عن الفرج الكتكوت إلخ. وفرويد رأى جده لأمه عندما مات، وكان يرقد هذه الرقدة الوادعة، ورأى أمه في حالات كهذه مع أبيه، وقرن بين الحالتين وكلام ابن البواب، وكثيراً ما يحسب الأطفال أن الأب يؤذي الأم وهو يضاجعها، وقد يحسب أمه انتابها شيء أو ماتت بعد أن يسمع ما بينها وبين أبيه من أصوات خلال الجماع. والأشخاص الثلاثة رأى مثلهم يتعهدون جدّه بعد موته، ومناقيرهم تذكّر بالموت أيضاً بما نقرأ عن آلهة الموت عند المصريين مثلاً وتصورهم الآثار المصرية بمناقير.

والكابوس ربما يعاقبه على سماعه كلام ابن البواب المعيب، وربما يصور شعوره بالذنب لتبصصه على أبويه، أو تنصته عليهم، والتبصص عندما لا يكون مرضاً Voyeurism يستولد مشاعر ذنب، ويكون حب الاستطلاع قوياً وملحاً عن الأطفال وخاصة ما كان يتعلق بالجنس بين الأبوين، وقد تلاحقه مشاعر الذنب التي تعقب تجارب صادمة كهذه بقية حياتهم. ومن المصطلحات المألوفة في التحليل النفسي مصطلح المشهد الأول Primal scene، وهو المشهد الذي يراه الطفل لأول مرة ويعاين فيه الأبوين بالنظر أو بالسمع يتضاجعان، أو الذي يتّجه إليه خياله في فترة من حياته بتنبيه من أقرانه، فيحسب ما يتخيله واقعاً، وقد تثيره هذه الخيالات وتستغرقه ويكون لها وقع الخبرة الصادمة، فتنعكس على أحلامه في شكل كوابيس كهذه:

كابوس ٢: كنت أطهو، ورفعت غطاء الحلة فوجدت رأس طفل، وكان يبكي، ففزعت واستيقظت.

التفسير: الحالمة متزوجة من رجل لا تحبه، وتكثر لذلك الخلافات بينهما

وتبينت أنها حامل، وتحركت فيها الأمومة بشدة، وكان معنى أن يكون لها طفل من زوجها أن ترضى بواقعها معه، وهي غير راضية فاتفقت مع صديقة لها، زوجها طبيب، أن يجهضها. وظلت أياماً تصارع الفكرة. وأخيراً نفّذتها، إلا أنها بعدها ظلت مضطربة أياماً تخاف أن يعرف زوجها وأهلها وتسأل المهتمين بالدين إن كان الإجهاض حراماً، وهو ما يفسر الطهو، أي تدبيرها لفعلتها الشنعاء، ورؤيتها لرأس الطفل الباكي وفزعها من النتيجة.

كابوس ٣: حلمت أني في دور علوي بعيدة عن الأرض، وكنت أشاهد المدينة والوقت قرب الغروب، وأدلف الليل فلم أتبينه، وفجأة رأيت شبحاً يتسلل نحوي، وهجم عليّ، وكنت كالمشلولة، وكان يحمل سكيناً، فأردت أن أصرخ ولكنه عاجلني بضربة في فمي أسالت منه الدم وأغشتني رغم أني كنت أدرك ما حولي، ورأيتني أسقط من حالق، والمسافة تطول بين المكان العالي والأرض، وأنا أجاهد أن لا أقع، واستيقظت.

التفسير: الحالمة فتاة جامعية تحب ابن الجيران الذي رفضه أهلها، وتقابله خلسة في حجرة مظلمة في غرفة فوق سطح منزلها الذي يجاور سطح منزل الجار. وكانا في لقاءاتهما يسمران معاً، ولكنهما قبل ليلة الكابوس تماديا، ولأول مرة تحسّ بأحساسيس غريبة أفزعتها، وقد حاولت أن تتملص من فتاها لكنه أمسك بها، وقاومته دون جدوى، وبكت كثيراً وقالت إنه اغتصبها، وإنه كان شيئاً فظيعاً وحشياً، وأدركت أنها سقطت سقطة شنعاء. ورموز الاعتداء الجنسي واضحة، وهي السكين رمز القضيب، والفم رمز الفرج، والدم المسال عليه، والغشية التي انتابتها، وسقوطها من حالق، واستمرارها تشعر أنها تسقط، وكلها أوصاف لحالتها حينئذ، وحتى الآن، وهو ما استحث الكابوس.

كابوس ٤: أركب سيارة صديقي المتهور الذي لا يحسن القيادة وتهولني سرعته ورعونته، فأحاول أن أضع قدمي على الفرامل لأوقف السيارة، وأدوس على الفرامل وبكل قوتي والسيارة مندفعة، وأنا أكاد أجن، فاستيقظت والعرق قد شملني.

التفسير: الحالم ميوله العدوانية

شديدة، وهو يعرف ذلك ويحاول دائماً أن لا يستثيره أحد، وفي اليوم السابق دار نقاش بينه وبين رئيسه، وكان يعتقد أنه على حق، ويحاول مع ذلك أن يخفف من غضبه، إلا أن الآخر استثاره بجهله وقلة أدبه، فهاج عليه، وكان يعرف أنه مخطئ إذ يثور كل هذه الثورة، ويحاول أن يضغط بقدميه على الأرض ليخفف من غلوائه دون فائدة، وقد ظل متكدراً طول اليوم يلوم نفسه ساخطاً عليها بسبب طبيعته هذه الغضوبة، والكابوس على ذلك يعكس صراعاته العدوانية.

كابوس ٥: كنت أنام في حجرة عندما انطفأت الأنوار فجأة، وشعرت أن شيئاً رهيباً لا بد أن يحدث، عندما أحسست بملاءة تلقى على وجهي، ولم أستطع أن أحرك يدي لأرفعها وكانت تحول بيني وأن أتنفس، وشعرت أني أختنق، وقاومت وأنا أحس بالعجز والموت يحتويني.

التفسير: تذكر الحالم خبرة صادمة له إستدعاها الكابوس، وكان وقتها في الخامسة من عمره، يشكو التهاب اللوزتين، وأخذه والداه إلى طبيب، وانتظروا بغرفة الانتظار، وطال انتظارهم، وأخيراً فُتِح باب وخرجت منه نقالة تحمل طفلاً فاقد الوعي، والطبيب إلى جواره، تلطخ معطفه بالدم، وخاف وران عليه الصمت، ثم التفت الطبيب إليهما، وأشار برأسه فحمله أبوه وتبعته أمه إلى حجرة داخلية، وأرقده على طاولة وأمسك بيديه، بينما الأم أمسكته من قدميه، وهو صامت مصفر الوجه، مشدوه العينين، ووضع الطبيب شيئاً فوق وجهه، واستنشق رائحة يختنق منها، ولم يستطع أن يصرخ، وتاه وعيه، ثم لم يعد يسمع أو يرى شيئاً. ولما تذكر الحادثة قال: لم أنسَ أبداً الرائحة والشيء الذي غطّى وجهي. وقال بحقد هائل: «تذكرتُ الآن! لهذا كنت أكره أن أزور مريضاً أو أي شخص يعمل عملية! كرهت المرض كرهاً شديداً». والكابوس يعكس مخاوفه القديمة، والغضب الذي اختزنه على من قيّدوا يديه وقدميه وكاد يموت بين أيديهم مختنقاً، وقد تسبّب له ذلك أن صار عدوانياً من وقتها، وكره أهله والناس حتى اعتزلهم، وكره نفسه لأنه لم يكن يعرف سبباً لكل هذا الدمار من داخله.

كابوس ٦: كنت راقداً وهناك صوت

قريب تك تك، وتبينت أنه صنبور الماء، شخص تركه دون أن يُحكم إغلاقه، وأحاول أن لا أسمع الصوت، ولكنه مستمر ويعلو حتى كأنه طبلة تدق، وشعرت أني عاجز عن الاحتمال واني أدوخ، ولم أقوَ على النهوض وسقطت وأنا أصرخ.

التفسير: الحالم يعاني من العادة السرية، وهو يصارع نفسه ألا يمارسها ولكنه لا يستطيع، والصنبور رمز جنسي، والماء المنساب منه، هو المني، ويكاد يجن أنه كلما قرّر ألا يفعل ذلك يعود حتى استحال شبحاً وضعف، وصار لا يقوى على الاستمرار واقفاً لمدة طويلة كأنه أصيب من جراء إدمانه العادة السرية بالنهك الشديد، والكابوس يعكس مخاوفه وصراعاته.

الباب الثاني والعشرون

«أحلام الشباب والصراع من أجل الحرية والاستقلال»

قضية الإنسان الأولى هي أن يختار في حرية، وهو في طفولته عليه أن يختار بين هذا الأب أو تلك الأم، وأن يتعين بأيهما، وأن يتنكب طريق الآخر، وأن يأخذ من أيهما ما ينفع نموه وتطوره نحو الرجولة أو الأنوثة، فيكون له دور الذكر أو دور الأنثى، فيسلك السلوك المناسب ويتطبع التطبع المرسوم. وهو في الشباب يعيش في همّ مقيم، أيظل يساكن الأبوين أو يخرج إلى الحياة العريضة يجرّب حظه ويحيا حياته ويكون له استقلاله، ويختار في حرية وظيفته، وفتاته التي يصنع معها أسرته، ويعني ذلك أن يحتمل المسؤوليات ويضطلع وحده بالمهام الثقال، ويعتمد على نفسه في الكسب. وهو قد ظل حتى الآن إذا احتاج المال أعطاه أبوه، وإذا ادلهمت ظروفه وجد في حنان الأم ورعاية الأب ما يعوضه عن أي ظلم، ويغنيه عن الناس، وأبوه يتكفل بتعليمه وتطبيبه، وإطعامه وكسوته، وهو المسؤول عن حمايته، وكانت أمه حتى وقت قريب تغذيه لبن صدرها وتعطيه معه الحدب والحب، وتدفع عنه غائلة المرض. أفيترك هذا كله ويخرج إلى الحياة يشق طريقه هو بنفسه دون سند ولا معين هذه المرة إلا من قوته وشخصيته وكفاءته ومؤهلاته؟ هذه هي القضية في السن نحو العشرين: هل يختار الشاب النضوج والحرية والاستقلال، أم يؤثر السلامة ويبقى تابعاً للأبوين حيث الأمن والزمان، والعَوْل الذي ليس فيه كد ولا تعب ولا إعمال فكر ولا نَصَب. وقد يعزم الشاب ويحسم أمره ويشد رحاله يقصد أن يختار لنفسه وأن تكون له حياته، فيتعثر حظه وتصيبه من عراك الحياة أدران، فيعود أدراجه يحتمي بالأبوين ويقنع أن يفكرا له ويجهدا من أجله. وقد يوغل في الترحال بعيداً عن بيت الأسرة، أو يلزمه لا يبارحه، وقد تتوطد صلته بأمّه أو يرضى أن يكون تابعاً لأبيه، وأياً كان الطريق الذي يختار فهو دائماً مهموم، فلا هو يرتاح إذا استقل، ولا هو يستشعر الرضا إذا ألحق إرادته بإرادة الأبوين. والفلاسفة يقولون إن

الهمّ الذي يلازم الإنسان أنه إبن أبويه، فطفولة الإنسان هي أطول طفولة لكائن حي، وما من كائن في الوجود يعيش طفولة تستمر لعشرين أو ثلاثين سنة، ويكون فيها مُلَبّى الحاجات، ومحمياً من كل الأخطار، وقد يعهد إليه الأبوان ببعض المهام يكون مسؤولاً عنها، ولكنها المسؤولية في إطار الأسرة ومن خلالها، والحرية التي يمارسها حرية محدودة في كفالة الأب، وهي تدريب بسيط يدخله لعله يكتسب منه الاعتماد على نفسه وأن يقوم بمرداها، ولكن يأتي السن التي لا يطيق الشاب فيها أن يفكر له غيره، وأن يحتمل عنه همومه، ويريد أن يستشعر أنه قد صار رجلاً أو امرأة، وبلغ مبلغ أيهما، وبوسعه أن يتخذ القرارات، فإذا بدأ الطريق فقد يصاب بالإحباط، وقد يذهله الفشل، وقد تلحق نفسه المرارة، فإن كان في بلد بعيد سارع إلى التحدّث مع أبويه عبر الهاتف دون أن يدري السبب لذلك، أو قد يقطع تذكرة حافلة أو قطار، أو حتى طائرة، بحجة زيارتهما، ولكن ما يحدوه حقيقة غير ذلك، فهو في فشله، أو مع ما ناله من إحباط، قد افتقد الأمن العائلي.

وهو في قلق مع أبويه، وفي قلق لو غاب عنهما. وفي المراهقة يكون هذا الصراع شديداً، وهذه المراوحة بين أن تكون له حياته واستقلاله وحريته وأن يعيش في وجْد وهمّ، أو يكون تابعاً يقضي الأبوان له حاجاته ويكفلان له الحماية بلا مسؤولية ولا حرية ولا استقلال. ومن الغريب أنه قد يبقى في حماية الأبوين ويتهمهما بأنهما يستبقيانه إلى جوارهما، وإذا استقل بنفسه فقد يلح في طلب عونهما ويسأل المزيد من المال! ومع أنه ينشد الاستقلال عن الأبوين فإنه يرضى أن لا تكون له مع أقرانه إرادة، ويدمجها في إرادتهم. وقد يطلب لنفسه الحرية إذا تعلّق الأمر بأبويه مع أن ما يطلبه ربما كان التحلّل من كل ارتباط اجتماعي قد يكون فيه تكلفة عليه. وقد تعني الحرية التي ينشدها الإباحية أو الفوضوية، حتى ليتهمه المجتمع بالجُنَاح. وقد يصر أن يحترم الكبار رأيه ويقدرون أفكاره، مع أنه هو نفسه لا يحترم أحداً، ولا يولي كبار عائلته ولو عُشر الولاء الذي يربطه بأصحابه، وكل ذلك من أعراض صراعات هذه السن بين أن ينضج الشاب

أو لا ينضج، وبين أن يستقل بحياته، أو لا يستقل. وقد تجد الشاب أو الشابة يتزوج زواجاً متسرعاً به أشواق الاستقلال، ولا تمضي الشهور إلا ويعود أيهما إلى أسرته عودة التائب ينشد العون والحماية. ونلمس ذلك كثيراً عند البنات، وقد تتعلل البنت بمختلف العلل تعود بسببها إلى صدر أمها، وبيت العائلة، حيث لم تعتد العمل ولا المسؤولية. والبنات أكثر تعرّضاً للإصابة بالقلق من جرّاء هذا الصراع. وربما كان السبب في طبيعة البنات نفسها، وربما كان بتأثير التربية والثقافة، والناس طبائع وأولاد التربية، وصراعاتهم في مرحلة الشباب كصراعاتهم في أي من مراحل العمر تعكسها الأحلام، ويعرض كل حلم حلاً فتتنوع الحلول بتنوع الأحلام وحالات أصحابها. وهذا الحلم لفتاة عُقد قرانها ولم تدخل على عريسها بعد وتنوي أن تسافر معه إلى موسكو في بعثة دراسية، وقد حلمت حلمها ذاك قبل السفر مباشرة:

– حلمت أني بفستان الفرح في المطار، وكانت أمي وأبي وإخوتي هناك. والجميع يزغردون، حتى المسافرون، ولكني كنت مهمومة وأنظر إلى أهلي حزينة، وكنت أريد أن أبكي، وكانت أمي كذلك وإخوتي. وكنت أتطلع إلى هذا الرجل الذي يأخذني منهم. ولم أكن أعرفه. كان غريباً مع أنه لم يكن كذلك، لكني كنت أشعر أنه غريب، ومددت يدي إلى أمي لتشدني إليها فلا أسافر، لكن زوجي تناولها، واحتضنني، ونادت المضيفة أن نصعد الطائرة، فدفعني زوجي برفق في اتجاه السلم ملوحاً لأهلي. وشعرت أني سيغمى عليّ، وأمسكت بدرابزين السلم أحاول أن لا أقع، وأكملت الصعود ودخلت. يا لها من تجربة.

والتفسير: الحلم تصوير صريح ومباشر للمشكلة، حيث الحالمة تريد أن تسافر مع زوجها، وتأمل أن تبقى مع أمها واخواتها، وهذا يرمز للمستقبل، وهؤلاء يرمزون للماضي، وكانت تعيش معهم في أمان بينما الزوج تتصوره غريباً لا تعرفه مع أنها هي نفسها تعلّق على ذلك بأنه لم يكن كذلك، ومعنى هذا أنها ما تزال غير مطمئنة أن تكون حياتها معه مثلما كانت عند أهلها، إلا أنها أخيراً تقرّر أن تكون

لها حياتها الجديدة المستقلة وتركب الطائرة.

وهذه الحيرة أو التردّد بين الماضي والمستقبل تكون دائماً عند الفتيات بين أن تختار الزوج أو أهلها، بينما لا نلاحظ ذلك عند الشبان، فالمشكلة عندهم ليست مشكلة أن يتزوج الشاب أو أن يبقى مع أبويه، وإنما المشكلة هي أن تكون له حياته الخاصة، ويمارس نفسه في حرية أكبر، برغم أن ذلك يقتضيه أن يعمل ويجهد، وكان في بيت أبيه مكرماً وله مصروفه الخاص ولا يتحمل أية تكاليف، كهذا الحلم:

- كان الوقت ليلاً وأنا واقف في الشارع. وكنت حزيناً، وربما كنت مسافراً. وغير بعيد على الرصيف المقابل كان بيتنا. كان البناء كأنما لونه أخضر مع أنه ليس كذلك، وكانت بالنوافذ ستائر، وبيتنا ليست به ستائر. وكنت كأنما أنا طويل جداً وأستطيع أن أنظر من النوافذ. كانت أمي هناك كأنما هي فتاة شابة، وأبي كذلك، كان صورة مني. وكانت هناك دراجة سألت أمي عنها فقالت دراجة «علي». وكأنما قلت لها متى يحضر، قالت لا أدري، تأخر قليلاً، وعندما استيقظت من الحلم شدهت لأني أنا «علي» وكنت أسألها عن نفسي:

التفسير: الصراع الذي يعاني منه الحالم يدفعه إلى أن يسأل أمه متى يعود إبنها «علي» الذي عرفته هي صغيراً يركب الدراجة، إلا أنه يبدو أنه لن يعود فقد حسم الأمر برغم الذكريات الحلوة عن الطفولة والبيت السعيد الذي ما تزال الأم فيه كما كانت عندما كان الحالم صبياً، وكذلك الأب، والخضرة في لون البيت، تضفيها نفس الحالم على البيت الذي تصوره كأنما هو جنة بها كل شيء. وما عاد كل ذلك مجدياً لأنه مسافر برغم كل شيء.

والبنات لا يتركن البيت لأنهم يتزوجن فقط، فقد تترك البنت البيت سعياً وراء رزقها. والحلم التالي لفتاة تسكن الأرياف، وتحصل على تقدير جيد جداً في الحقوق، وتعيّن بالجامعة. وهي مسافرة وتحتفل مع زميلاتها من البلدة نفسها واللاتي يسافرن معها أيضاً في رحلة عمل إلى القاهرة:

- كنت مع زميلاتي في بيتنا ونحن

سعداء. كنا نضحك ونرشف القهوة، وكانت زينب تدخن، وأغلقنا الباب علينا حتى لا يراها أبي، وقالت: زينب لن نحتاج أن نغلق الأبواب في القاهرة، وقالت فاطمة: لماذا لا نسكن كلنا مع بعض، وجعلنا نرتب مَن، تنام مع من، لكن أبي دخل لا ندري من أين. وقال لنا فجأة: والزواج؟ باكر يكون زواجكن جميعاً، وتركنا وخرج ونحن في غاية النكد.

التفسير: الحالمة تعطي نفسها العذر أنها ستترك أسرتها بأن تجعل حلم السفر يشملها وصاحباتها، والسفر يعني التحرر تمثله زينب التي تدخن، ولن تحتاج في القاهرة أن تغلق الباب، وفيها يستطعن إذا سافرن أن تكون لهن الحرية الكاملة، ولن يحتجن أن ينمن من بعد مع الأخوات بل مع الزميلات، فالحرية تعني نهاية الأخوّة وبداية الزمالة. لكن برغم كل ذلك فإن الحالمة مشدودة إلى أسرتها ولا تريد أن تسافر، بدعوى أن أباها يريد تزويجها، أو بدعوى أنه أحرى بها أن تتزوج في بلدها وتقيم في المكان الذي تقيم فيه أسرتها، والمراوحة بين الاتجاهين تنغص عليها حياتها، وما تشهده في الحلم هو النكد الذي هي فيه لأن عليها أن تفكر في الحلّين دون نتيجة.

وتحلم الحالمة السابقة نفسها حلماً آخر ربما كان فيه الحلّ لمشكلتها:

- كان الوقت ليلاً، أركب القطار، وجاء الكمساري وطلب التذكرة فأعطيته بطاقة، قال: ما هذه، قلت: إثبات أني أعمل، قال: أريد تذكرة، قلت: هي التذكرة، وأخذ البطاقة وعلّم عليها. وقلت له: سأشكوك للمدير عندما أصل إلى بيتنا، ألا ترى أني متعبة؟

ويبدو أن الحالمة قد وجدت الحل لمشكلتها بأن تسافر يومياً إلى عملها الجديد وتعود إلى أهلها في المساء، ويبدو أن الكمساري أبوها، وأنه يعاتبها على السفر، وهي تبرّر سفرها بأنها تعمل وتحتج بالعمل، فالعمل مبرّر لكل شيء، والعمل لا يتعبها وإنما يتعبها النقاش في العمل عندما تكون مع الأب في البيت، وهو الكمساري الذي يسمح لها بالسفر وبالعمل، ومع ذلك يناقشها رغم تعبها أو أنها تعبة من مناقشاته.

والحالمة السابقة تحلم أيضاً بهذا الحلم لها عن السفر أيضاً:

- كنت كأنما عدت تلميذة أحمل كتبي، وكنت أقف على محطة القطار وأرى بيتنا بعيداً، وأرى فيه إخوتي وأمي وأبي. وجاء القطار والدنيا زحمة فجأة، وكنت أسير وئيدة حتى أزاحم الناس، ودقّ الجرس، وكان عليّ أن أشق طريقي لأصل للقطار، ولكني لم أستطع تحريك قدميّ ولا يديّ. كنت عاجزة تماماً والقطار يتحرك وأنا أبكي لأني لم ألحقه ولكن بكائي كان بلا دموع.

التفسير: الحالمة في الحلم تشدّها ذكريات التلمذة وحياتها مع أهلها، وتريد أن تترك كل شيء خلفها، لأنها تريد أن تكون نفسها وتعيش حياتها، إلا أنها لا تلحق القطار، ولا تبكي عليه بكاءً حقيقياً، لأنها في دخيلة نفسها هي سبب أنها لم تلحقه، فلم تكن تريد أن تركبه، وكانت تريد البقاء مع أهلها.

وأحلام الزفاف يكثر فيها عرض هذا الصراع بين الماضي والمستقبل، وأن تكون البنت مع أهلها أو تتركهم إلى حياتها الجديدة:

- حلمت أني بثوب الفرح، وهناك زحام، وكنا على محطة أوتوبيس وعيوننا معلقة بكل سيارة قادمة. كنا في انتظار أحد. وسألتهم: من ننتظر؟ فقالوا: العريس لن يحضر، وبسرعة خلعت ثوبي وضحكت أنا وصاحباتي.

وهذا حلم آخر للحالمة نفسها:

- كنت أجلس أنا وخطيبي في الصالون، وقال لي: تعرفي أن اليوم زفافنا؟ قلت: أعرف، ولكنا لن نذهب، ووافقني وجلسنا وكأن الأمر لا يعنينا.

وعادة إذا حلمت البنت بالفرح فالعريس في الحلم شخص لا تعرفه، وذلك لأن كونه رجلاً غريباً مبرر كافٍ لتأجيل الفرح أو إلغائه، ويعني ذلك أن الحالمة لا تستسيغ فكرة أن تتزوج وترحل عن بيت الأسرة وتجرّب حياة جديدة. وعلى العكس عندما يحلم الفتيان بالزواج، فالعروس فتاة معروفة للعريس بالاسم، ويحبها وتحبه، ولا شيء يحول دون إتمام الزواج. والفتيان لا يخشون الزواج كالفتيات، وتجربة الزواج على العكس مفرحة، بينما هي للفتيات تجربة مجهولة، وكل مجهول نخافه، وهي تجربة محفوفة بالمخاطر، واحتمالات فشلها كبيرة، وتعني فراق

الأهل، بينما لا يعني الزواج للولد أنه يفارق أهله.

وأحلام الفراق تأتي متنوعة، فربما يقع الحلم في صحراء، وقد يرى الحالم أنه قد ضلّ الطريق، أو قد يرى أنه في زورق في بحر لجيّ، أو أنه ضلّ الميناء وصار في عَرْض البحر، أو أنه في قارب قد فَقَد المجدافين، أو أن الدفّة قد انكسرت، أو أن القلوع انقلبت، أو أنه في سيارة قد فرقعت إطاراتها.

وأحلام الوحدة تصوير لأزمة الحالم وصراعاته، وتكثر عند الفتيان، وقد يعبّر الحلم عن قلق الانفصال عن الأهل، بأن يرى الحالم نفسه يسير في طريق مهجور ويهاجمه لص أو حيوان مفترس، أو يسمع أصواتاً مخيفة، فينادي على أبيه أو أخيه أو أمه بحسب علاقته بهم، ويصرخ عليهم، وقد ينقلب الحلم كابوساً.

وهذا الحلم لفتاة ترى في بيتها ملجأ لها من مخاطر الدنيا:

- كنت أركب الأوتوبيس وخلفي مباشرة كان يقف رجل غريب الأطوار، وكان يحاول الإمساك بي، وكنت أهرب منه وهو خلفي. وطلبت من السائق أن يسرع، وقال: أخيراً وصلت. ونظرتُ. هذا بيتنا. وعندئذ تلاشى الرجل الغريب.

والحلم واضح أنه يعكس رغبات جنسية للحالمة تخاف منها وتجد أنها بمنجاة من الضلال طالما كانت ببيتها أو إذا عادت إليه. والبيت هنا أو الأسرة هي صمام الأمان للحالمة أن تضل.

وأحياناً يكون حلّ الصراع بين الأمن الذي نستشعره في البيت مع الأسرة والحرية التي نتمناها لأنفسنا، هو أن نرحل طلباً للتغيير ولكن مع الأسرة، وبهذه الطريقة نحقق الرغبتين: أن نعيش كما نهوى، وأن يرافقنا الأهل فلا ننفصل عنهم. وحتى ذلك الحل قد لا يعجب الشباب، فقد تصور الأحلام الحالم أو الحالمة يقوم برحلة مع أبويه لكنه لا يكون سعيداً وهو معهما، كهذا الحلم:

- حلمت أني في زيارة للإسكندرية، وكنا الأسرة كلها، وكنت مقطبة طول الوقت أدير ظهري لأمي، ولا أرى البحر ولا أشعر بشيء، فقررت أن أعود أدراجي إلى بيتنا. وركبت الأوتوبيس وأمي تسألني إلى أين، فقلت لها: ذاهبة لأنام.

وقد يصور الحلم الفتى أو الفتاة يركب

القطار الخطأ أو لا يستطيع العودة، ويجد عنتاً في السفر:

- كنت في المحطة وقالوا لا تذاكر إلا في السوق السوداء. وكان الزحام، وتزاحمت حتى اشتريت تذكرة، وذهبت لأركب القطار فلم أستدل عليه، وأخيراً عرفته عندما وجدت زوج أختي في النافذة، فركبت وتحرّك القطار، ولكن أحدهم قال إنه ذاهب إلى مكان آخر خلاف مدينتي.

ومعوّقات السفر في الحلم دليل الرغبة أن لا يتم السفر. والحالمة تعثر على زوج أختها في النافذة فتقول إن ذلك يعني أن القطار قطارها وهو خطأ، لأن كون زوج أختها في القطار يعني أن القطار ليس ذاهباً إلى الأهل ولكن إلى غير ذلك وهو ما ثبت فعلاً، فطريق الزواج لا يلتقي غالباً والطريق إلى الأهل.

وقد يجرّب الحالم حظّه من الدنيا، ويعود في النهاية إلى بلده وأهله حيث الطمأنينة:

- كنت أركب القطار وكان بلا نوافذ، والدخان قد جعل كل المسافرين لونهم أسود. ووصلنا فقالوا انزلوا ونزلت، وكانت المحطة قفراً فلا شجر ولا بيوت ولا ناس، ونظرت حولي وخفت، وأسرعت إلى شباك التذاكر وقطعت تذكرة بسرعة لأعود، ووجدت كرسياً مع أناس يضحكون وكنت سعيدة بهم.

وفي الشطر الأول من الحلم حيث الرحيل لا شيء يسر الحالم، وحتى محطة الوصول مقبضة، وفي الشطر الثاني يكون العود أحمد.

وقد يكون صراع الأمن أو الاستقلال بسبب رغبة الحالم أن يتحسن وضعه الاجتماعي فتتحسن بالتالي ظروف معيشته وسكنه، وقد يشعر أنه مع أهله محدود الأفق ضيق التفكير، فإذا خرج إلى العالم فقد يجد أناساً أفضل وأنماطاً من العيش مختلفة تماماً ترضي طموحه، ويتمثل ذلك في الحلم التالي الذي يرى الحالم فيه نفسه في بيت أوسع وأرحب، ومع ذلك فالبيت هو بيت أهله وكأنه بذلك يحل الصراع فيجمع في هذه الفيلا التي يتضمنها الحلم آماله وأهله معاً.

- كنت في بيت كبير أبيض وله سلالم رخام بيضاء، وكل حجرة مختلفة عن الثانية، إلا أنها جميعاً بيضاء، والعفش

حديث أبيض. وكان كل شيء جميلاً. وكان هناك تلفزيون وتليفون وثلاجة وفيديو والجميع باللون الأبيض، وعلى الحوائط كانت صور أبي وأمي وإخوتي. وكانوا ينظرون ويبتسمون في الصور.

وفي حلم آخر يقارن الحالم بين البيتين القديم والجديد، أي بيته في الواقع وبيته المُرتجى، ويفضل الجديد على القديم:

- كنت أتطلع في مجلة ملونة، وكان الموضوع عن المساكن القديمة والأحياء التاريخية، ووجوب هدمها لتحل محلها بيوت وعمارات حديثة. وكنت أقرأ وأتأمل وأشحت بوجهي عن البيت القديم. ورأيت في نافذة أحد زملائي كنت أتشاجر معه أيام التلمذة. ونظرتُ إلى البيت الجديد الذي أعجبني فيه اتساعه، ورأيت أني فيه وإخوتي وأبويّ، وأنا ألعب البلياردو.

وهذا الصراع الذي يميّز أحلام الشباب يكشف عن ميولهم في التحرر، وأن تكون لهم حياتهم المستقلة، إلا أنهم مع ذلك ما تزال بهم الطفولة، وما يزال الحنين إلى الأهل يشدهم ويعوق حركتهم، وقد ينجح في التخلص من حبال القرابة قد يلقي حباله إلى آخرين يكوّن بهم أهلاً جدداً وبيتاً غير البيت القديم، إلا أن الحنين قد يعاوده فيرى الحلم تلو الحلم أنه يعود، لكن السيارة تتعطل أو الطائرة لا تطير في الميعاد. وتكون الأعذار المختلفة عن إتمام السفر في رحلة العودة إلى الماضي، أو الرحلة إلى المستقبل والاستقلال. والأحلام تكشف كل هذه الاتجاهات والميول والعلاقات بالأبوين والإخوة، ونوع ذكريات الماضي، واستشرافات المستقبل. والأحلام دائماً تشخيصية، تحلل الشخصية ونعرف منها دينامياتها.

الباب الثالث والعشرون
«أحلام الشيوخ وصراع الحياة والموت»

يعي الإنسان أنه مقدور عليه الموت، ويدرك أنه ينضج للموت، كالثمرة تمام نضجها يعني سقوطها، أو قطافها، إلا أنه كثيراً ما ينسى أنه مائت، وعندما يموت له عزيز يحزن مرتين، مرّة لأن هذا العزيز لم يعد له وجود، ومرّة لأن قارع الموت يفاجئه بوجوده بعد أن كان قد نسيه، ويفرح مرّة واحدة لأن الموت أدرك غيره وتركه لدور آخر لم يحن بعد. ونحن في شبابنا لا نحسب أي حساب للموت، وعندما نطعن في السن ويلح المرض ويعاودنا باستمرار، وينتابنا الضعف، ويضيع منا العزم، نضطر أن نعترف بحقيقة الموت وقُربه الوشيك، ولكننا لا نستسلم أبداً. وطالما أن الحياة تدب فينا فنحن نجاهد أن ننفض عنا الموت، بأن نناضل لأن نبقى، وتنتصر فينا الحياة على الموت، وحتى ونحن نموت نخطط للحياة، فنوصي من أجل أن يعيش الآخرون، وأن تتأكد بهم الحياة. وهذا الصراع من أجل الحياة يطبع الإنسان، وهو طابع حياته في الشيخوخة خصوصاً، وهو الصراع الذي يعلو على كل الصراعات الأخرى في هذه السن. وكان صراع الحياة والموت قائماً منذ اللحظة الأولى للميلاد، ولكن الحياة فيه كانت الغالبة في الطفولة، فلما جاءت الثلاثون تعادلت كفّتا الحياة والموت، فلما صارت الأربعون غلبت كفّة الموت على كفّة الحياة، ثم تُرجح كفّة الموت بعد الخمسين، وبعد الستين يمثُل الموت ويكون في خواطرنا، ويكثر ذِكرُه على ألسنتنا، فإذا كانت السبعون وجدَنا الموتُ قابعين في انتظاره كأننا على موعد معه. والموت يخترمنا ويشملنا التفكير فيه من بعد سن السبعين. وصراع الحياة والموت لا يُفصح عن نفسه، في كل ما سبق، ولا يكون ظاهراً جلياً أثره في سلوكنا وتصرفاتنا، ولكنه دائماً هناك يعمل عمله في أعماقنا، دون أن نشعر به، ومن غير أن يدركه فينا الآخرون، فإذا تحصّل لنا النوم فإن الوعي الظاهر في العقل يُظلم دون الأعماق فتخرج الأفكار

في الأحلام، فإذا أردنا أن نتأمل صراع الحياة والموت فعلينا أن نرتاد أحلام الشيوخ.

وما نقدمه هنا زُملة أحلام لشخص قد طعن به السن فخرج من عمله على المعاش، وكان قد شغل منصباً له وزنه، وهو ما يزال عضواً بنادٍ اجتماعي معروف، ويمارس الرياضة، وكان يحب الصيد وتحصّل على جوائز فيه، وهو يعلق في بيته بعض الأسماك النادرة المحنّطة التي استطاع أن يصيدها، وصوراً له مع أكابر الموظفين ورموز المجتمع المشهورين، وعرف النساء وكانت له جولات معهن، وتقلبت به ظروف الحياة، وكانت حياته دائماً مفعمة بالحركة، غنية بالأفكار والمشاعر، والآن وقد أوغل في العمر ولم يعد الشاب الذي كان فهل يقنع بما كان، ويتخلّف عن الركب، ويترك كل شيء ويستكين؟ أبداً فما دامت شُعلة الحياة تضيء فيه فهو لن يطفئها، وسيحاول باستمرار أن يزيد إضاءتها ويشعلها أكثر كما في أحلامه هذه:

- رأيت نفسي مع فتاة جميلة، سبحان الله! الشباب حلو! كانت شابة في نحو الخامسة والعشرين. كنا نجلس متقابلين ونتعشى معاً. وتغير المشهد ورأيتني معها في الإسكندرية على البلاج. كانت بثوب الاستحمام. أي جمال هذا الذي كان جمالها! وسبحنا سوياً. كنت كالسمكة التي لا تهدأ ولا يستقر لها قرار، أعوم وأزوغ هنا وهناك. وفجأة اختفت الفتاة، ونظرت وكان غير بعيد شاب لا أعرفه، قال: إنك تسبح وتغوص بمهارة عجيبة، قلت: هناك مَن هم أصغر مني سناً وأصبى لكني أبزّهم جميعاً في السباحة.

والحالم كما نرى ما زال مشغولاً بالنساء، وما تزال به شقاوة الشباب، فيحلم بالنساء الجميلات، ويجالسهن، وله معهن شأن، وما يزال به العنفوان الذي يستطيع به أن يسبح، إلا أنه يعترف بأنه من الممكن أن يوجد مَن هم أصغر سناً وأصبى، والحلم من ثمّ لا يمكن إلا أن يكون لإنسان كبير في السن يدفع عن نفسه أنه قد كبر، ويتمسك بالحياة بأن تكون له نشاطاتها حتى وإن كانت في الأحلام وحدها.

وهو في حلم آخر يحلم ببلده وموطنه الذي فيه وُلِد وتربّى:

- حلمت أني عدت إلى بلدي بنها التي شهدت شبابي. كنتِ أنتظر على محطة القطار. وجاء القطار وله ضجيج وتزاحم عليه الناس، ولم أستطع أن أصل إليه، وتحرّك وتركني. وخرجتُ من المحطة وسرتُ على شاطئ النيل. كان الماء عظيماً ومغرياً. وغير بعيد كانت طاحونة أعرفها. حلوة بلدي! الماء، والطاحونة، والشجر المُدلّى أغصانه في النهر الجاري، والسمك يظهر طافياً ينادي على الصيّادين، لكني تركت ذلك وسرت في طريقي.

والقطار يرمز للزمن الذي يتولى، ولشبابه الذاهب، فهو لم يعد قادراً على أن يلحق به، لكنه ما يزال به العزم، فالماء والطاحونة والسمك هناك، وهي رموز جنسية واضحة بمعنى أنه ما يزال ينتصب ويُمني وقادراً على الجماع، والماء رمز المني، والسمك الطافي قدرة الانتصاب، والشجر المدلّى الغصون في الماء رمز للجماع. والحلم يرجع القهقري لأيام زمان، والكثير من أحلام الشيوخ هذه صفتها: إنها أحلام عن أيام العز والقوّة والفتوة، وعندما يحن العجوز لأن يستعيد شبابه فإنه يحلم بالماضي، وترتاد أحلامه ملاعب الصبا، ثم إنه إذ يحلم بالماضي يبتعد عن الحاضر، فالحلم طريقة للهروب من إلحاح الزمن الحاضر المُهدّد.

وهذا الحلم له وهو يلعب الرياضة:

- كنا في النادي نلعب الكرة الطائرة. وضربت الكرة مسدداً فسجلت نقطة لنا، وكان الهتاف يكال لي. وأخذ التعب بمجامع الجميع إلا أنا. ولم أتعب، وما كنت أتعب من رياضة أحبّها. وانتقل المشهد إلى الحمام، وأخذت حماماً وأنا سعيد. وضربت صديقاً لي على بطنه مازحاً: كرشك كبير!!

وهو يحلم في الليلة نفسها هذا الحلم الثاني:

- كنت أريد أن ألبس ملابسي بسرعة لألحق موعد عملي. وكان عليّ أن أصل هناك قبل الثانية والنصف لأذيع نشرة الأخبار. وجاء الأتوبيس إلا أنه تجاوزني، فأخذت أعدو وأعدو وأعدو فقد قررت أن ألحق موعد عملي حتى لو عدوت إليه، واستيقظت وأنا أعدو.

وطبيعي أن ينتقل الحالم من حلم

الرياضة إلى العمل، ولكننا نلاحظ أنه في حلم الرياضة يؤكد على مقولة تعب الجميع وأنه لم يتعب، ويهزل مع زميل ويشير إلى كرشه، والحالم يؤكد على أنه لم يعد لائقاً بدنياً بسبب كرشه هو نفسه. وفي الحلم الثاني يعترف بعجزه أيضاً حيث يفوته الأوتوبيس، ولأنه يريد أن يعود إلى عمله «ألحق عملي» فهو يركض، أي أن فكرة العودة ستقتضي منه لتنفيذها أن يركض ويركض ويركض، أي يبذل الكثير جداً. والحالم واقعي، فمع أنه ما يزال يتمسك بالحياة إلا أنه يعرف حدوده، وتجتمع فيه أحاسيس الشباب مع أحاسيس الشيخوخة وإدراكها، وتنتصر الشيخوخة على الشباب في الحلم.

وهذا الحلم التالي يزيد مشكلة هذا الحالم وضوحاً ويلقي المزيد من الأضواء على الحلول التي يقترحها هو نفسه:

رأيت منزلاً قديماً ولكنه كان ما يزال جميلاً، وكنت أتجوّل فيه، ورأيت مكتبة وامرأة في نحو الثلاثين تنفض الكتب وترتبها. وكان هناك رجل يكبرها قليلاً، والاثنان ما كانا يباليان بي. وقلت للمرأة: حافظي على الكتب لأن صفحاتها أسهم شركات تساوي مالاً وأنا أريدها أن تحرص عليها. ثم اختلف المنظر فرأيت نفسي في حجرة في الدور الأرضي مع ولد وبنت، ولم يكونا يعيراني أدنى التفات. وقلت لهما: أحتج على هذه المعاملة. أنتما لا تعاملاني باحترام. ثم سألتهما عن أمي فقالا: لا علم لنا أين تكون أمك.

والمنزل القديم الجميل هو نفسه الرجل، وما تفعله المرأة بالكتب هو عادة ما يفعله الورثة بها بعد أن يموت صاحبها، وهذا التفسير يقوّي منه أن الحالم يحذّر المرأة أن تستهين بها لأن صفحاتها أسهم شركات، ولذلك يريدها أن تحرص عليها. وهي الشيء هو نفسه ما يقوله المورث لورثته من بعده: إحرصوا على هذا الشيء أو ذاك لأنه ثمين. وهذه المرأة والرجل معها هما إبنه وزوجة الابن، وهو لا يشعر بأنهما يهتمان به. والولد والبنت في الدور العلوي هما حفيداه. وهو يشكو من إغفال الجميع لأمره. وهم لا يحترمونه حتى من أجل المال الذي سيخلفه لهم والذي يحرص عليه، لأنه هو وحده الذي يعرف كم قاسى ليجمعه، والمال هو جهد قد اختُزِن، وهو

جهده طوال عمره إختزنه لهم ولكنهم لا يعرفون قيمته ولن يعرفوها مثله. وأما تغيّر المنظر من حجرة المكتبة إلى الغرفة بالدور الأرضي فهو بمثابة انتقال من الحاضر إلى الماضي حيث الطفولة والذكريات، كأن الحالم يرتد إلى طفولته، ومن الطبيعي أن يسأل عندئذ عن مكان أمه. ولقد توفيت الأم، ويبدو أنه من شكواه من معاملة الجميع له قد صار يؤثر أن ينضم إلى أمه ويموت، والموت عند البعض في مرحلة معيّنة وعندما يكون هناك إيمان يعني حياة أفضل، وهو لا يخيف البعض إذا كانت أعمالهم طيبة. وقد يطلبونه كتغيير للأحسن لحياتهم. والناس عندما يحلمون بأشخاص ماتوا، وبرغم أنهم قد يحلمون بهؤلاء الموتى باعتبارهم أحياء، إلا أن استدعاء الموتى في الحلم دليل على انشغال بال الحالم بفكرة الموت. ولربما يكون الحالم شاباً، ولربما يزعم أن فكرة الموت هي آخر شيء يمكن أن يشغل نفسه به، إلا أن الموت - يستوي في ذلك الشبان والشيوخ - قد يبدو عند البعض خلاصاً حقيقياً لمشاكل الحياة، وربما تكون هذه المشاكل بالنسبة للشباب لا تستوجب أن يتمنى الحالم الموت لنفسه، إلا ان استدعاء الموتى في الحلم هو تأكيد على أن هذه الفكرة تداعب خياله وتخطر في باله.

والحلم بالموتى تتعدد أشكاله بحسب ثقافة الحالم، فمثلاً حلمت امرأة مات زوجها حديثاً أنه طلبها عبر التليفون، فلما ذهبت لتخفض الراديو لتستطيع أن تسمع زوجها كان قد انصرف، فكانت تصرخ وتنادي عليه دون جدوى. وهذه المرأة ترى في الموت أنه انقطاع الاتصال بينها وبين الميت.

وهذا الحلم لامرأة مات زوجها منذ سنتين:

- كنت في حفل زفاف فيما يبدو، ووسط الزحام تبينت زوجي ولم يلمحني، وكان منصرفاً فناديت عليه بالاسم، وأسرعت الخطو أتبعه، وأنا أهتف باسمه وأستصرخه أن ينتظرني ولكنه لم يسمعني، واستيقظت وأنا أبكي وأنادي على زوجي.

والحلم من نوع أحلام الرغبة، وهذه الرغبة في هذا الحلم هي الرغبة في أن تنضم إلى زوجها، وانضمامها إليه بعد أن

فرّق بينهما الموت بمثابة زواج جديد، وربما كان ذلك بسبب اجتماعهما في مكان الزحام بمناسبة الزفاف، ولكنها لن تستطيع أن تزف إليه فعلاً، وهو حتى لم يلبِّ نداءها، ولم يستمع إلى صراخها، وهو الصراخ الذي أيقظها من النوم، لأنه يمثّل بدوره رغبة معارضة أقوى من الرغبة في الأولى، هي الرغبة في أن تعيش.

وقد يُشغَل العجائز بالموت وتكون بهم الرغبة شديدة أن يموتوا، فيحلم الحالم بأحد أقاربه من الموتى، وخاصة أمه أو أباه، فيدخل الحجرة ثم يدعوه ليلحق به، كهذا الحلم لامرأة رأت أباها يدخل حجرتها ويتقدم منها ويضع يده على يدها دون أن يتكلم ثم يخرج، وكأنما هذه اللمسة من الأب الميت لابنته تعني أنه يطلب منها أن تتبعه.

والحلم التالي لامرأة أيضاً قد تقدّم بها السن وتكالبت عليها الأمراض:

- رأيت عجوزاً تشبه جدتي تلبس ثياباً سوداء، وتتلفح بشال أسود، ووجهها به سُمرة، وخدود عميقة، ولها نظرة خاصة وبريق بعينيها، وكانت تقف على رأس سريري وتتمعنني.

والعجوز هو تصور المرأة للموت، وهي تقابله في الحلم وجهاً لوجه. وأحياناً يكون تصور الموت أنه رحلة، وذلك ما يراه فيه معظم الناس في بلادنا التي كان فيها التفكير في الموت منذ الفراعنة وما قبل ذلك. وهذا الحلم لسيدة في نحو الخامسة والستين مات عنها زوجها وابنها:

- حلمت أني أجهّز نفسي للقيام برحلة. وكان عليّ أن أسرع، لكني ما كنت أتعجل نفسي، وكنت أدخل حجرة وأخرج منها لأدخل ثانية، باحثة عن شيء لا أجده، فالحجرات كلها فارغة.

والمرأة ترى أن حياتها كالحجرات الفارغة، فارغة. وهي تعتزم أن تخلفها وراءها للقيام بالرحلة التي تتلكأ في القيام بها لعلها تجد شيئاً تعيش من أجله.

والعجائز قد تختلف نظرتهم إلى الموت، فالبعض قد يراه راحة واجتماع لشمل الأحباب الذين رحلوا، والبعض قد لا يتصوره ولا يطلبه مهما كان بؤس الحياة التي يحيونها، كهذين الحلمين:

الأول: - حلمت أني أرقد في سريري وأشعر بتعب شديد وأن روحي تصعد، وكنت سعيداً بذلك ولم أشعر بقلق على أسرتي، ولم يخطر على بالي إلا أني عما قريب أرحل وأتحرر من كل قلق، ولن تعود بي حاجة أن أستيقظ من نومي لأسرع لألحق بعملي.

الثاني: - حلمتُ أني متُّ ووضعوني في القبر وأغلقوا عليّ الباب، وكنت أحاول أن آخذ أنفاسي دون جدوى، وأشعر أني أختنق، وكنت أدق على القبر بكلتا يديّ وأركله بقدميّ. واستدرت أطالع القبر فلم أجد إلا حوائط يبرز منها الطوب، والأرض رملية والرائحة عفنة تملأ المكان. واستسلمت فقد شعرت بالتعب واليأس.

والحالم في الحلم الأول يرى في الموت راحة له ويرحب به، وفي الثاني يرفض الموت ويصاب منه بالرعب ولا يرى فيه أي راحة، ويحاول يائساً أن يهرب من القبر.

وإنها لحقيقة أن الناس كلما تقدّم بهم السن إتّجه تفكيرهم إلى الماضي وتذكره، وإنه لمن الملفت للنظر أن الذاكرة عند الشيوخ تقوى بصدد أحداث الماضي حتى لنسمع منهم تفاصيل عن أحداث وقعت منذ أربعين أو خمسين سنة وكأنها وقعت بالأمس، في حين أنك قد تسألهم ماذا أكلوا منذ نصف ساعة فلا يذكرون. والماضي دائماً له رونق وبهرج عندهم ليس للحاضر، والمستقبل بالنسبة لهم لا يمكن إلا أن يأتي بالأسوأ. وهذه الظاهرة تبدأ معنا جميعاً في نحو سن الأربعين فيقل الفعل عندنا، وقد نقنع بأن نعيش في الماضي، ونجتر ذكرياته، ويطلق العلماء على هذه الظاهرة النكوصية إسم النقطة السيكولوجية الوسيطة، أي التي تتوسط حياتين، فقبل النقطة كان للحياة نبض ناشط، وإيقاع فاعل، وواعد، والمرء يفكّر ويفعل من أجل مستقبل يحلم به ويخطط له، ويشعر أن الحياة دوّامة من الحركة، وأنه جزء من الدينامو الهائل الذي يهدر بالحركة. وبعد هذه النقطة السيكولوجية المتوسطة تبدأ حركة الحياة في التخلّف، ويخفّ التوتر، وينخفض النبض، ويكون الإيقاع بطيئاً، ويزداد بطؤه كلما أوغلنا في العمر حتى ليبدو أنه سيتوقف، ومن ثم نحلم بما

يعوضنا عن أفلاس الحاضر، فتأتي أحلامنا صدى لرغباتنا إن كنا نريد الحياة فتفعم الأحلام بها، وإن أردنا أن نتخلص منها وننهيها حلِمنا أيضاً، ولكنها أحلام بالموت وليس بالحياة، وتتراوحنا الحياة والموت ويتعاورانا في اليقظة والمنام، وكأننا نعيش لنموت، أو كأننا نعيش الموت في الحياة. وفي الشيخوخة تكون للحياة والموت فلسفة، وليس إلا الفلسفة هي التي يمكن أن تجيب على هذا السؤال: وماذا بعد الحياة والموت؟ ولعل الدين هو الوحيد الذي يعطينا الإجابة، فتبارك الذي قال إنه قد خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً. وفي أحلام الشيخوخة سيلح هذا السؤال: ماذا بعد الموت؟ وستكون في الشيخوخة أحلام تكشف عن رؤية الحياة والموت عند الحالم، وبعضها بمثابة كشف حساب للحالم، وبعضها ذكريات قد يفرح لها وتسعده لأنها صدى لضمير مرتاح ونفس مطمئنة، وبعضها ذكريات قد تشقيه لأنها رجْع صدى لضمير معذّب.

الباب الرابع والعشرون
«أحلام اليقظة»

الأحلام تكون ونحن نيام، وسنصطلح في هذا الباب على تسميتها بالمنامات، وهناك أحلام تأتينا ونحن مستيقظون، وفي الحالتين نحن نحلم، وفي الحالتين ينسحب الحالم من الحياة. وفي المنامات إنسحابه بالنوم، وفي أحلام اليقظة يكون انسحابه بانشغال الفكر وانصرافه تماماً إلى ما يصرف إليه تفكيره وهو يحلم. وفي المنام يتنبه النائم بأن يستيقظ، وفي حلم اليقظة يتنبه بأن يعود إليه وعيه بالبيئة المحيطة به، وعودة الوعي أسهل في حلم اليقظة منه في المنام. وكذلك يتشابه المنام وحلم اليقظة من حيث أن التفكير فيهما قد نقضي فيه بأنه سخيف، وأنه لا يساير المنطق. وقد نحكي مناماً فنعتذر ونحن نحكيه لما فيه من تفاصيل قد تضحكنا أو يصيبنا منها الغم، وقد نستعرض حلم اليقظة فنجد حرجاً في ذلك لأننا نبدو به كما لو كنا أطفالاً. ونحن حقاً أطفال في الحالتين، فالتفكير المنامي تفكير أولي بدائي، ولغته الصور، وهي الأساس التي بدأ بها التعبير عند الإنسان، والتفكير الحلمي في أحلام اليقظة تفكير أليق بالأطفال، ويناسبهم أكثر، وأكثر ما تأتي أحلام اليقظة الأطفال.

وتتشابه المنامات وأحلام اليقظة أيضاً من حيث التذكّر والنسيان، ونحن قد ننسى ما نحلم به في اليقظة، تماماً مثلما ننسى المنام، وقد نذكر أجزاء وننسى أجزاء، وقد نستخدم التداعي الحر لنتذكر هذه الأحلام أو ما نسيناه منها كما في المنامات.

والمنامات وأحلام اليقظة كلتاهما أحلام تدور حول الحالم نفسه، غير أنه في المنام قد يتقنّع الحالم، وأما في حلم اليقظة فحضوره صريح وواضح. وحلم اليقظة قصير كالمنام، وقد يطول، وقد يأتي كحلم وحيد، وقد يكن حلقة في سلسلة من أحلام اليقظة تدور حول موضوع واحد وتتكرر فيها الشخصيات. ومن أحلام اليقظة - كالمنامات - ما هو نمطي، وما يتكرر المرة بعد المرة. ودراسة أحلام اليقظة لذلك ينبغي أن

تكون للزُملة منها وليس للحلم الواحد. ونلاحظ أن أحلام اليقظة تدور حول رغبات، وأحياناً ما تكشف عن صراعات قد كبتت، وتظهر لذلك مرموزة، وأحياناً تتلون بلون عدواني صريح، ولعل ذلك هو سبب نسياننا لها، أو إسقاطنا لأجزاء، فالكبت الذي تناول مصادرها يتناول أيضاً تذكّرها، وهو خلف الرقابة التي يفرضها الأنا على الرغبات أو الصراعات أو الميول التي تستحثها، فيكون تحريفها وطرحها صوراً لقصة يظهر فيها الحالم بطلاً أو منقذاً أو عظيماً أو محباً أو مرموقاً يُعجَب به الناس، فتتحقق له الرغبات، أو تنحلّ بها صراعاته، أو يصرف فيها ميوله. وحلم اليقظة يصرف فيه الحالم طاقته التي كان من الممكن أن يصرفها في عمل إنشائي، وبدلاً من أن يجهد الحالم ليحقق لنفسه الانتصار على خصمه بالتوسل إلى ذلك بالطرق الإيجابية، فإنه يتوهم هذا الانتصار ويعيش فيه لحظات أو دقائق وأحياناً ساعات. والانتصار والتفوّق هما انتقام يمارسه الحالم بالخيال، وهو التعويض عن قصوره وعجزه الحقيقيين أو النفسيين. ومن القصور ما هو عضوي، ومنه النفسي نتيجة خبرات الطفولة التي نصاب منها بالعجز، أو بالإخصاء النفسي، وهو شعور يتحصل للبعض إزاء ضغوط لا يملك لها دفعاً وهو طفل، ويتنامى معه ويفعل فعله، في الكِبَر، فلا تكون حياة الحالم من ثم مُشبعة لآماله وتطلعاته وطموحه وعواطفه ونوع الحياة التي يريدها لنفسه، فيعوّض عن ذلك بأحلام اليقظة. ولذلك فعند تحليل حلم اليقظة سنجد الحالم يواجه التحليل بالاستهجان والإنكار، وهو ما اصطلحنا عليه باسم المقاومة للتحليل عندما ناقشنا موضوع المنامات، لأنه يكشف عن المكبوت الذي لا يعرف الحالم عنه شيئاً أو لم يلاحظه في نفسه، ويفصح عن عُقَد النقص، وقد لا يساير المحلل على ما يذهب إليه.

وقد يزعم البعض أنه لا يحلم أحلام يقظة، وقد يفخر بذلك، وقد يجد أنه لو صرّح بأنه يحلم بها فلربما يكون ذلك دليلاً فيه على النقص، وهو ما يحاول أن يداريه، وما يحاول أن يوهم به نفسه والناس، بأنه إنسان عملي ولا يمكن أن

تستغرقه أحلام اليقظة. ولعل قصة سندريللا أروع مَثَل لحلم يقظة، ولعل حلم بائعة اللبن مثل آخر لما يمكن أن يكون عليه حلم اليقظة، وفي الحالتين نرى سندريللا وبائعة اللبن لما يمكن أن يكون عليه حلم اليقظة، وفي الحالتين نرى سندريللا وبائعة اللبن شخصيتين متواضعتي الأصل - أي أن ظروف حياتيهما دون ما تأملانه، غير أن سندريللا يأتي إليها مَن يتبين فيها ما لم يدركه المحيطون بها فيرفعها إلى أعلى مكانة في بلدها، بينما بائعة اللبن تستبق الأمور وتبني قصوراً على الرمال وتختصر الزمن وتعيش في حلم وردي ينقذها من فقرها ويرفعها إلى مكانة ترنو إليها ببصرها. وهي تعرف يقيناً أن قدراتها لا يمكن أن تأخذ بها إلى هذه المكانة ومع ذلك تحلم. وفي الحلمين عند سندريللا وبائعة اللبن نلحظ التقدير العالي من الحالم لذاته، واختلاف تقدير الناس لذاته عن تقديره هو لذاته. ولربما كان لظروف الحالم الاجتماعية والمادية ما يجعل إحساسه بذاته مرهفاً إلى الدرجة التي تخلق هذه المفارقة بين تقديره وتقدير الناس لذاته. وحلم اليقظة يشبع في الحالم تقديره لذاته، بأن يجعل تقدير الناس يتطابق مع تقديره لذاته، وهو لذلك يحلم أنه بطل، أو عبقري، أو فنان مشهور، أو زير نساء، أو شاعر رومانسي، أو ضابط مغوار إلخ. ومن ثم كان حلم اليقظة طريقة غير ناضجة لحل صراعات الحالم وإشباع ميوله ورغباته، وهو حل أليق بتفكير الأطفال أو التفكير البدائي بحيث يستحيل به الحالم قادراً قدرة مطلقة، فينتقم من عدوه، أو يتزوج من حبيبته، أو يحقق تقدماً علمياً يتجاوز به تخلّفه الدراسي، إلخ.

وشخصية الحالم تكشف عن ميول إنطوائية، وهو يستخدم طاقاته الإبداعية في إبداع عالَمه الحلمي فينسجه نسجاً، ويعيش فيه أحلامه الوردية، تعويضاً عن حياة فيها الفشل والقصور والإحباط وعدم التقدير والعوز والمرض وقلة الحيلة.

ومثلما رأينا في المنامات فقد نجد من ينسب أحلام اليقظة - إذا كان الحلم جنسياً أو عدوانياً - إلى الشيطان، وما

يرده البعض إلى الشياطين نعرف أنه من رغباتنا وصراعاتنا تأثير الكبت على هذه الرغبات والصراعات والميول من الحرج الذي نعانيه إذا اضطررنا إلى أن نحكي عن مناماتنا أو أحلام يقظتنا، وهو حرج لا يعرفه الأطفال فإنهم يعايشون أحلامهم ويسردونها في سرور، وقد يتضايق الآباء إذ يسمعون أطفالهم يخلطون بين الواقع والخيال، وبدلاً من أن يقول الطفل لأبيه مثلاً «كنت أفكر في الأسد وأنا ألعب في الحديقة» فإنه قد يقول له «رأيت أسداً وأنا ألعب في الحديقة»، ولذلك فلو شئنا دراسة أحلام اليقظة في أصفى أشكالها وأبعدها عن الحرج والكبت والقمع، فإن ذلك لن يكون متيسراً إلا في أحلام الأطفال، وتتمثل في شكلين، الأول هو ألعابهم الإيهامية، والثاني هو تلك الأحلام التي تأتيهم ونراهم مستغرقين فيها يبحلقون في لا شيء ذاهلين عما حولهم، وقد يصوغونها عبارات تحكي عما رأوه. والأطفال - كما نعرف - منهم مَن يقدر على صياغة العبارة، ومنهم مَن لا تسعفه لغته على ذلك فيطرح أحلامه في ألعابه، ولقد تسنّى لعلماء النفس مراقبة الأطفال في ألعابهم، وعلاج اضطراباتهم النفسية باللعب الإيهامي ليُسقط الطفل دخائل نفسه ومفاهيمه على الدُمى التي يختارها ليصنع منها شخصيات حلمه التي سيتعامل معها وترمز للشخصيات المؤثرة في حياته. والدراما النفسية المتحصلة هي حلم يقظة يقول فيه الطفل كل ما يريد، بفطرة سليمة، وقد يتحدث هو نفسه بلسان الدمية أو الدمى التي يلاعبها، ويتقمص الشخصيات التي تمثلها. وليس أروع من الألعاب الإيهامية للأطفال كأحلام يقظة. وليس أبيَن منها لنفسية الطفل الذي يعاني من الحرمان أو غير ذلك من مشاكل الأطفال، وخاصة الطفل الوحيد لوالديه، والطفل المعوق بدنياً.

ويتخذ الطفل له، أول ما يتخذ، خديناً متوهّماً يلاعبه Imaginary companion ويسرّ له بأسراره، ويكلّمه، ويحكي له الحكايات. ولو سألت الطفل عمّن يكلمه، لأجابك بلا تردّد إنه فلان، ولو قلت له ولكني لا أعرف طفلاً بهذا الاسم من الجيران، فقد يقول إنه فلان وكفى! هكذا

أسميها! وقد يصفه لك فتحسب أن الخيال يشطح به، أو انه طفل كذوب سينشأ على الكذب وقد تخاف عليه لهذا السبب، ولكنه لا يكذب، بل يتكلم عن حق، وهو ما يحلم به ويختلط عليه فيحسبه صدقاً وواقعاً، فطالما أن الواقع لا يزوده بما يريد فليصنع هو نفسه هذا الواقع، فيرضى ويسعد، ويعطيه ذلك إحساساً بالقدرة من حيث أنه قد استطاع هو نفسه تغيير هذا الواقع.

إذن فأحلام اليقظة التي تنطرح ألعاباً إيهامية في أوائل سني الطفل - نحو الثالثة - لها دورها السيكولوجي الخطير، والأطفال بها يشبعون رغباتهم التي لم تشبع، ويمارسون فيها ميولهم التي لا تجد الإشباع، ويسقطون من خلالها صراعاتهم التي قد تنحل خلال عملية الإسقاط هذه. والطفل في اللعب الإيهامي يمكن أن يمثل الأب المسيطر الذي لا يرد له طلب، والأم الحانية، ودراما المنزل، وما يكون هناك من خلافات زوجية أو عائلية. والطفل في اللعب الإيهامي يعوّض عن الحرمان هنا أو هناك. وكلما كانت الدمية بعيدة الشبه بالواقع كان ذلك أقرب إلى ما يطلبه فيها ليسهل عليه أن يتصورها على الصورة التي يريدها. وقد يلعب الطفل مع قطعة خشب صمّاء وكأنها سيارة أو قاطرة أو طائرة، فأما لو أعطيته طائرة فعلاً فلن يكون بوسعه أن يتخيلها قطاراً أو سيارة وقتما يريد أن يتخيلها كذلك.

ويعطي الطفل لدميته إسماً ليس من الواقع، لأنه لو كانت الدمية تعوضه عن شخص حقيقي يشبع رغباته مثلاً كما تشبعها الدمية، فإنه لن يكون بحاجة للدمية، لأن معه الأصل، ولكن الطفل يختار للدمية إسماً ليس كأسماء الأسرة أو المعارف فلا تكون واقعية الاسم حداً لخياله، فهو يريد إسماً يوحي له بإيحاءات مفتوحة. وقد يختار مع ذلك إسماً واقعياً، ولكنه في هذه الحالة لم يعد واقعياً، فمثلاً قد يأتي زائر الى البيت ويلاعبه ويُسَرُّ له جداً، فإذا رحل عن البيت ولم يعد ضمن الواقع فإنه قد يطلق إسمه على لُعبته، لأن قد تحصل له من هذا الزائر إشباعاً يرجو أن يستعيده بأن يُحِلّ اللعبة محله. وقد يختار الاسم مزجاً بين الحقيقة والخيال. وأنا أعرف طفلاً

أطلق على دميته إسم «الشاطر»، فلما شاهد حلقات طفطوفة في التليفزيون غيّر الاسم إلى «طفطوفة الشاطر». والمزج قد عرفناه من حيل المنامات.

ويعني اختيار الطفل لاسم للعبته، أي الدمية أو الخدين المتخيّل الذي يلاعبه، أنه قد بلغ مرحلة متقدمة من مراحل نموه، فالخدين أو الدمية المتخيلة في أول الأمر لا يكون لها شخصيه محدّدة، ويمكن أن تكون أي شيء، إلا أنه عندما يعطيها الاسم فذلك يعني أن ملامح شخصية الخدين أو الزميل الملاعب له قد تحددت في خياله. وبمعنى آخر فإن مرحلة التجريب تكون قد انقضت ويكون الطفل قد أصبح يدرك ما يريده، فإذا عرف هذا الخدين أو المُلاعِب المتخيّل، فإنه بالتالي يعرف نفسه ويحدّد فكرته عنها وتتحصل له صورة فطرية عَمن يكونه، ويبدأ شعوره بذاته يتنامى.

وتظهر دراسة أحلام اليقظة عند الأطفال إهتمامهم بالحيوانات، ولقد عرفنا أنه أيضاً في المنامات فإن الحيوانات تكون موضوعاتها. والحيوان يشد إليه انتباه الطفل بالنظر أولاً إلى مخالفة شكله، ثم لأنه برغم ضآلة جسمه يفعل أشياء لا يستطيعها هو. والحيوان أقرب إليه من البالغين، فحجم جسمه من حجم جسم الطفل وليس ضخماً كالبالغين. والطفل نفسه باعتبار مراحل النمو في مرحلة أشبه ما تكون بالحيوانية، أي أنه يكون على الفطرة فيتماثل مع القط الصغير أو الجرو، ويستطيع أن يتناوله وأن يحتضنه، وينيمه معه ويؤاكله، وهي عمليات تمهد لما سيكون من بعد، حيث الزمالة أو الرفقة بين الأقران. والطفل بالحيوان تكون له أحلام تفوق، فقد يرى العصفور يطير ويعلو فيحلم أنه عصفور لكي يعلو، وقد يرى القط يتسلق الحائط فيحلم أنه قط ليستطيع ذلك أيضاً، فكأنه ينسى في الطيور والحيوانات عجزه وقلة حيلته وحرمانه وعداءه للعالم. وأحلام التفوّق فيها هذا الإيحاء الذاتي بالتفوّق والقوّة. وقيل إن منشأ النزعة إلى التفوّق عند الشخصيات المتفوّقة فعلاً هي هذا الضرب من أحلام اليقظة التي نطلق عليها إسم أحلام التفوّق.

وعندما يتوقف الطفل عن ملاعبة

زميله المتخيّل فإن معنى ذلك أنه قد كبر، وأنه قد اتجه إلى أن يستعيض بزميل حقيقي يتخذ منه صديقاً، وهو لا يفعل ذلك إلا إذا وجد أن هذا الطفل الحقيقي يشبع فيه كل ما كان يشبعه زميله المتخيل.

ونحب أن نسوق هنا مثلين من أحلام اليقظة، الأول يرويه فرويد، وهو لطفل كان شديد التعلّق بأمه، وكان عليها أن تخرج إلى عملها يومياً، وتتركه في البيت، وعند خروجها كان طفلها يودعها وداعاً مؤلماً له. فإذا انصرفت ظل زاهداً في كل شيء، إلى أن عثر يوماً على بَكَرة بها خيط قطن فكان يلعب بها، واكتشف أن هناك مماثلة بين البكرة التي يسرّه أن يلعب بها، وأمه التي تظهر وتختفي لتظهر من جديد، فقد كان يرمي بالبكرة فتدور إلى أن تختفي تحت كنبة فيقول الطفل: ذهبت، ذهبت، ثم يسحبها من الخيط فتظهر البكرة فيقول فرحاً: حضرت، حضرت! وهو بهذه اللعبة كان يمثل دراما اختفاء وظهور الأم مع ما يصاحب ذلك من انفعالات، فهو الحزين كاسف البال عندما تنصرف أمه، وهو السعيد غاية السعادة عندما تعود، والتمثيلية الإيهامية هذه تفيده لأنه يتعلم منها أن الحياة فيها الفراق واللقاء، والحزن والسعادة، وأنه لا حزن للأبد، ولا فرح للأبد، وأن الحزن والسعادة والفراق واللقاء يتعاوران الحياة. ثم إن الطفل وهو يستعيد هذه الخبرات ويتحكم فيها يشعر أنه قادر ومسيطر، فإذا لم يكن يستطيع أن يسيطر على ظروفه فإنه على الأقل يستطيع أن يسيطر على انفعالاته، وقد يتحصّل له الإدراك أنه بعد كل عسر سيأتي الفرج، ويتعلم أن لا يستجيب للخبرات المؤلمة باليأس المطلق والانهيار التام طالما أنها إلى زوال، فلا الألم يدوم، ولا اللذة تدوم، ولعل ذلك سبب الفلسفات التي نقيمها من بعد للألم كما عند شوبنهاور ونيتشه وأبي العلاء المعري.

والمثل الثاني الذي نحن نسوقه لطفلة ولدت أمها أختاً لها صارت تغار منها، وانقلبت عدوانية وصارت كثيرة الشجار مع أخيها الأكبر، وصارت تعاند أمها ولا تحبها، إلى أن حدث يوماً أن ظهر لها كلب أسود كبير في الشارع هجم عليها فصرخت صراخاً هائلاً أفقد الأم

صوابها، فتركت إبنتها المولودة وركضت إلى ابنتها هذه واحتضنتها وقبّلتها وهدّأت من روعها وأعطتها شيكولاته، وحكت لها الحكايات وأنامتها معها في السرير، وبذلك كان ظهور هذا الكلب مناسبة ومصدر إشباع لكثير من رغباتها. ثم تطور الحال فأخذت تحلم بالكلب وتفزع من نومها، الأمر الذي اضطر الأم إلى أن تنيمها معها، فتأكدت بذلك المكاسب التي آلت إليها بظهور الكلب. وتطور الأمر إلى أبعد من ذلك، فصارت البنت يتهيأ لها أنها ستلقى كلباً أسود في كل زاوية وشارع وناصية، ومن ثم رفضت أن تخرج وآثرت أن تبقى ملازمة أمها، وكأن هذا الكلب كان سبباً للبنت في إشباع رغبات وحاجات أخذت شكلاً مغالى فيه بسبب ولادة البنت الجديدة، وقد استثار ظهوره خيالات لديها. ونخلص من دراسة حالتها وحالة الطفل الذي يحكي عنه فرويد، أن الأطفال يفهمون أي خبرة بشكل بسيط جداً، وأنهم قد يصبونها في قالب تمثيلي إيهامي، أو يصورونها في ألعابهم، أو يمثّلونها في حياتهم، فالولد يتّخذ الموقف المفروض عليه، موضوعاً لتمثيل اختفاء الأم وظهورها، فيستعيد انفعالات الألم والفرح، والبنت تصوغ الموقف في قالب إيهامي تمثيلي بحيث تكرر الخوف فيكون لها الأمن مردوداً من الأم المكلومة على ابنتها، وفي الحالتين نكتشف ديناميات الموقف والشخصية ودوافع السلوك من خلال اللعب أو التمثيل الإيهامي الذي اصطلحنا عليه باسم أحلام اليقظة عند الأطفال.

فإذا تجاوزنا مرحلة اللعب الإيهامي إلى الأحلام التي يمكن أن نحيكها عبارات ونصوغها في كلمات، وقد نكتبها، فإن هذه الأحلام تأخذ شكلاً مختلفاً، ويمكن تصنيفها إلى أربعة أنماط، الأول هو نمط الأحلام الاستعراضية Fantasies of display، وفيها يتصور الطفل نفسه يقوم بأعمال لا يقوم بها في حياته الواقعية فيثني عليه الناس ويستحسنوها منه، والثاني هو نمط أحلام الإنقاذ Saving fantasies، وفيها يقوم الحالم بأعمال فوق استطاعته، ينقذ بها إنساناً غالباً ما يكون من الجنس الآخر فيحبه هذا الآخر ويُكبره أبواه والناس الذين رأوه ينقذه. وغالباً ما تكون البنت التي ينقذها

الحالم ذات مركز اجتماعي مرموق، وهي رغم ذلك تقع في حبّه ويتغاضى أبواها عن كونه أقل منهم اجتماعياً. ومن الممكن أن نعتبر الأحلام التي يستعرض فيها الحالم مهارته مثلاً في كرة القدم فيصيب مرمى الخصم وينقذ بذلك فريقه من هزيمة محقّقة - يمكن أن نعتبرها أيضاً من نمط أحلام الإنقاذ. والنمط الثالث هو نمط أحلام العظمة Fantasies of grandeur، وهو نمط شائع حيث نجد الكثيرين يتوهمون أنفسهم ملوكاً أو أمراء أو فنانين مشهورين أو أبطال رياضة من الرياضات وينسجون حول أنفسهم أحلاماً يكال لهم فيها الثناء ويشار لهم من خلالها بالبنان. والنمط الأخير هو نمط أحلام الولاء Fantasies of homage، كأن يرى الحالم نفسه يوالي إنساناً ويتفانى في الإخلاص له ويظهر محبته، ونلمس ذلك خصوصاً في أحلام البنات التي موضوعها الحب الذي قد تكنه البنت لمدرّستها المفضّلة.

والأنماط السابقة يدل تحليلها على أن شخصية الحالم - من نمط الأحلام الاستعراضية وأحلام العظمة - أنانية، بينما شخصية الحالم - من نمط أحلام الإنقاذ والولاء - غيرية. والشخصية الأنانية التي تظهرها هذه الأحلام تنحو للطفولة وتتعلق بها، وربما كان ذلك لولادة طفل أخ للحالم صرف انتباه وحب الأم عنه إليه، فأصبح يلجأ إلى أحلام اليقظة يشبع بها ما حُرِم منه. وهذا الموقف نفسه نجده مثلاً في أحوال الكبار الذين تكون لهم مناصب كبيرة ثم يُجرّدون منها، فبدلاً من مواجهة الموقف الجديد تجدهم يسترسلون في الأحلام التي يستعيدون فيها مُلكهم الزائل وعظمتهم التي كانت. وبعض الأنانية بالكبار يكون مصدرها من الطفولة ميل الآباء أن يستعرضوا مهارات أطفالهم أمام الضيوف، وقد يتحصّل للطفل أن دوره في الحياة لا يتجاوز هذا الظهور، وأن سائر الناس ما وُجدوا إلا للإعجاب به، فإذا لم يستطع الطفل بعد ذلك تنمية موهبة من مواهبه بحيث تصبح مشاهدته أمراً مثيراً للاهتمام فعلاً، فإنه سيجد عندما تتقدم به السن أن الناس قد صاروا يستشعرون الملل كلما تواجدوا معه، ويصبح إلحاحه على تحصيل الإعجاب

منهم مصدر إزعاج لهم. ولربما يلمس الطفل أيضاً ذلك فيضطر إلى مضاعفة جهده ليفرض نفسه على المحيطين به بأن يزيد صقل موهبته، أو أن ينسحب بعيداً عنهم وقد أصابه الاكتئاب، ومن ثم فقد يصرف وقته باحثاً عن العزاء في أحلام اليقظة المفرطة في الأنانية.

ويمكن دراسة أحلام اليقظة من زاوية أخرى، فهي ترمز إلى هرب الحالم من جماعته وما تتطلبه منه كفرد فيها، أو ترمز إلى التمرد عليها. والمفروض أننا نتنازل عن مطالبنا الخاصة التي تتعارض مع مصالح الجماعة، أو نتظاهر بهذا التنازل، لكن الذي يحدث أنها نُكبَت في اللاشعور وتعمل عملها من ثم دون أن نعي وجودها وتعبّر عن نفسها في صورة أحلام اليقظة وغير ذلك من الأنماط السلوكية الأخرى.

والأناني الذي يستعرض في أحلامه ما يوجب إعجاب الناس به، يلزمه جمهور ليستعرض أمامهم، والغيري يلزمه الشيء نفسه، غير أن الأناني الذي يحلم بأنه مثلاً يلعب كرة قدم ويحرز لفريقه النصر إنما يفعل ذلك لا لإرضاء الفريق، وإنما لإشباع أنانيته بأن يكون محط ثناء الفريق، بينما الغيري يحلم بأنه قد حقّق لفريقه النصر ويقول واصفاً ذلك: نحن انتصرنا، ويجد إشباعاً لحاجاته بأن يرى نفسه في فريقه يواليه وينقذه وإن كان قد استعرض مهارته أيضاً أثناء ذلك. ولقد رأينا أن أصل ذلك أن الطفل الأناني عندما يختار شريكاً له في اللعب يختار خديناً متوهماً هو صورة من نفسه وكأنه يلاعب نفسه، ومن ثم يتحدث فيقول أنا، وهو من بعد يضطر إلى أن تكون أحلامه أيضاً في نطاق الفريق أو الجماعة ولكنه يستخدم حضور هذا الفريق أو الجماعة لمصلحته لا لمصلحة الجماعة.

ونجد الأنانية في بعض ضروب أحلام اليقظة، إشارة إلى ما يعتقد الحالم، أن الجماعة تنتظر منه أن يتولى قيادتها. فقد يحلم موظف صغير قليل الشأن أنه يؤلّب عمّال المصنع ضد أصحابه، ويقف خطيباً فيهم يعدّد لهم فساد الإدارة وجشع رأس المال، فيهتف العمال حينئذ باسمه ويرتضونه زعيماً لهم لمعرفته الشديدة ووعيه الكبير، ومن ثم يقوم بعرض مطالبهم ويقنعهم بالعودة إلى

عملهم، ويُعجب به أصحاب العمل فيعيّنوه مديراً للمصنع، ويُعجَب به العمال فينصاعوا لأوامره.

وأحلام اليقظة للأناني تكشف عن طفولة مسرفة في تفكيره، فالناس عنده إما طيبون غاية الطيبة، وإما أشرار والغون في الشر، والحالم هو الواعي بأسرار الجميع، والقادر على النفاذ إلى أعماقهم، والكل أخيار أو أشرار ينصبونه عليهم لمهارته وفراسته، وهنا نرى في هذا النوع من أحلام اليقظة صورة للمجتمع أو لجماعة الناس التي يحيا الأناني بينهم ويعمل من خلالهم.

وبعض أحلام اليقظة الاستعراضية يتّجه إلى استعراض المعرفة، وبعضها يتّجه إلى استعراض العنف أو إبراز الفعل. ونوع المعرفة قد يتمثل في أن يحلم الحالم أن رجلاً مثلاً قد كشف له سراً وهو على شفا الموت، ثم يكون الحلم عبارة عن مهارة الحالم وهو يستغل هذا السر إستغلالاً يجعله محط إعجاب الجميع. وربما يتحصل للبعض نتيجة للتربية أن الإعجاب سيكون نصيبهم لو امتلكوا معرفة تخصهم وكأنها السر.

ونحن مثلاً كأطفال نرى الكبار يتحدثون حديثاً لا نفهمه فنحسب أنهم يتناولون أسراراً. وقد يعجب الطفل بأبيه إذ يقرأ كل هذه الكتب، وقد يسأله عمّا فيها فيجيبه الأب ببساطة لا يصدقها الابن لأنه لا يمكن أن يكون هذا الكلام التافه هو ما تحويه. ويحكي أحد الآباء الحكماء وكان أستاذاً في الرياضيات، أن ابنه طلب منه أن يُفهمه معنى الرياضيات فبسّطها له، ولكن الطفل ظل يلح عليه مع ذلك قائلاً: «قل الصدق. زدني إيضاحاً».

ونحن نميل إلى هذه السرية في طفولتنا، وبعض الأعمال الأدبية الكبيرة هي ضرب من أحلام اليقظة يقوم على معرفة البطل بالأسرار كما في القصص البوليسية. والحالم فيها هو البطل يستعرض معرفته وسعة اطلاعه بخبايا النفوس في حل اللغز. ومرة ثانية نلتقي ببساطة تقسيم الناس إلى مجرمين وضحايا ورجال شرطة يتعقبون المجرمين وينقذون الضحايا، بينما ينال البطل الذي حلّ اللغز النياشين وتقريظ الصحافة والناس.

وقد نتساءل عن سرّ إقبال الناس على

القصص البوليسية وأفلامها، وليس من جواب سوى أنها بمثابة أحلام يقظة تستثير خيالهم وتشبع فيهم الميول لإماطة السرّ وإظهار المعرفة. وقد نسأل أنفسنا كذلك عن سبب الإقبال على نوع القصص والأفلام التي يقال لها قصص وأفلام الخيال العلمي، وليس من تفسير لهذا الإقبال إلا التفسير نفسه، وهو أنها بمثابة أحلام يقظة، فيها المعرفة الغريبة غير المجدية التي يسعى إليها هذا النفر من الناس الذي يميل أن يعيش أحلام اليقظة ولا يصلح لنوع الحياة العملية التي تتطلب إعمال الفكر، ولكنها من ناحية أخرى تفتقد الإثارة. وحياتنا المعاصرة حياة ساكنة، ويعوِّضها نمط الناس الذين يحبون أن يعيشوا الإثارة والحركة بخيالهم، بأن ينخرطوا في أحلام يقظة تعوضهم ما ينقصهم. وبعض القصص والأفلام فيه رومانسية مسرفة تشبع أيضاً نفراً من الناس وكأنها أحلام يقظة يدخلونها ليعايشوا الانفعالات العاطفية الجيّاشة والنهايات التراجيدية. وربما قد نقول إن أي مواطن أصبح ينشد كل مقومات الحياة العصرية المادية، وهذا قد يكون صحيحاً، إلا أننا جميعاً في ظل هذه الحياة العصرية المادية صرنا نعاني نقص الإشباع النفسي، ومن ثم نجد الكدر والضيق والاكتئاب واللهفة إلى شيء مجهول، من معالم الشخصية الحديثة، مما قد يميل بنا إلى أن ننخرط في أحلام اليقظة ننسجها نسجاً أو ينسجها لنا آخرون هم هؤلاء القصاصون والروائيون والمسرحيون ومخرجو الأفلام التي صارت بضاعتهم سلعاً رائجة رواج الطعام والشراب.

ونحن عندما نبلغ المراهقة ونولي ظهورنا للطفولة نواجَه فجأة بملَكة الخيال تعمل عملها في حياتنا وكأنما تتفجر مع المراهقة. وأحلام اليقظة في المراهقة تميزها صبغتها العاطفية.

وتصور أحلام اليقظة العاطفية الحالم في صُحبة شخص من الجنس الآخر، يتجالسان ويتسامران ويتحاوران، ويكون ذلك دائماً على خلفية شديدة الزواق من منظر طبيعي جميل أو حجرة فاخرة الرياش، ويتوقف المكان على ثقافة الحالم والوسط الذي ينتمي إليه. والحالم يحكي حلمه ويقول عن الحالة

الوجدانية التي تصحب الحلم بأنها سعيدة جداً، وقد يستدرك فيقول بل إن لفظ السعادة ليقصر عن الوفاء بوصفها فالحق أني كأنما أرتفع عن الأرض أو أشعر أني أخفّ من الهواء.

والخيال في سن المراهقة الذي يُلهم أحلام اليقظة أكثر نضجاً من خيال الطفولة. وربما يكون الثراء العاطفي لأحلام اليقظة في المراهقة مردّه ما يكتسب الفرد من خبرات تشتق مادتها من الحياة نفسها، أو من الكتب، بالإضافة إلى ما يكون في المراهقة من كبت شديد للدوافع الجنسية كبتاً يتسبّب عنه انفعالات عنيفة.

وحلم اليقظة الذي نسوقه لفتاة في السادسة عشرة من عائلة بسيطة: كانت ترى كل ليلة قبل ذهابها إلى فراشها حلم يقظة تظهر فيه حجرة جميلة ذات ألوان هادئة، ولا تذكر الفتاة أن الحجرة كان بها أزهار ولكنها تذكر جيداً الرائحة الجميلة التي كانت تفوح بها. وكانت الفتاة تجلس إلى أريكة وإلى جوارها ملتصقاً بها فتى يبادلها الحب وينشدها بديع الكلام متغزلاً، ما سمعت ولا قرأت مثله، وكانت تشعر لذلك بنشوة تدغدغ جسمها وجوارحها.

والحلم يذكرنا بالرفيق أو الخدين المتخيّل في لعب صغار الأطفال وأحلام يقظتهم مما يوحي بأن الفتاة تعاني كبتاً ونكوصاً إلى مرحلة الطفولة الباكرة، وأن الرغبات الأنانية التي كانت بهذه المرحلة لم يتم التخلص منها ارتقاء إلى المرحلة التالية من النمو، بل إنها كُبِتت فعادت الآن إلى الظهور تنشد الإشباع. والفتاة في الحلم تحبس نفسها داخل هذه الحجرة كما لو كانت فردوساً. ونحن أمام حالة هروب من العالم الواقعي الذي تعرفه الفتاة والذي قد يشبع عندها رغبات، ولكن تبقى رغبات لا يشبعها إلى أن تنفرد بنفسها تصنع أحلامها، وتستمتع برفقاء خيالها إلى أن تنام، ويتغزل الفتى بجسمها وهي الظاهرة التي ينبغي أن نتنبه إليها في المراهقة، حيث قد تنبه التغيّرات التي تشمل الجسم إهتمام المراهقين بأجسامهم، فيتعاملون مع أعضائهم برومانسية، وينظرون إلى الجسم نظرة عاطفية وجمالية.

وبقدر ما يكون لجسد الفتاة من معان

يكون أيضاً لجسد الفتيان معان قد تتخالف مع المعاني الأولى. وهذا حلم يقظة لفتى يصور ما نقول:

يحلم الفتى بأن حصاناً قد جمح براكبته، ورغم أنه لم تكن له خبرة بالخيل فإنه يندفع خلف الحصان ويمسك بلجامه ويعرّض نفسه للخطر ويُعين الفتاة على الترجّل، ويصحبها إلى والديها اللذين يقدمان له الشكر ويدعوانه إلى بيتهما ثناءً منهما على بطولته.

ونلاحظ أن الحلم يشبه أحلام البطولة عند الأطفال الصغار، إلا أن الحلم يصطبغ بصبغة عاطفية لا نجدها في أحلام الأطفال. وليس في الحلم جمهور من المعجبين من جماعة الحالم تستحسن ما قام به، الأمر الذي يوحي بأن هذا الاستحسان ليس جزءاً من الإشباع الذي يتوخاه الحالم.

ورغم أن الحالم ليست له دراية بالخيل فإنه يفعل ما يفعل في جرأة وقوّة وهو ما يكون محل إعجاب أبويّ الفتاة، فالفتى ليس من طبقتهما إلا أنه يستحق أن يدخل هذه الطبقة العالية. وموضوع الفوارق الطبقية من موضوعات أحلام الشباب.

وترمز الكثير من أحلام اليقظة في سن المراهقة وما بعدها إلى الصراعات الطبقية، وتعكس أعمال أدبية كبيرة هذه الصراعات، وبعض هذه الأعمال ليس إلا أحلام يقظة لأصحابها.

ولقد عرفنا أن الأطفال يمرّون بالموقف الأوديبي وتتحصل لهم ردود فعل يكبتونها وتعمل فيهم لاشعورياً نتيجة ما يتوصلون إليه من حلول للصراعات الأوديبية أو الصراعات التي يستحدثها حبهم أو عداؤهم للوالدين. ويوفق الطفل إلى أن يكبت عداءه للأب من الجنس الآخر بينما يظهر له الود، وتظهر الصراعات الأوديبية من جديد في المراهقة، وتبين بها اتجاهات الأبناء نحو بدائل الأبوين من معلمين ومؤسسات دينية وحكومية. ولسوف نجد مواقف كالحلم السابق يتواجه فيها الشاب وأبو الفتاة التي يحبّها، ولكن الرومانسية التي ينزع إليها الشباب هي التي تجعل المواجهة غير عدائية، بحيث ينال الفتى استحسان وإعجاب الأب. ولعله لهذا السبب تتجه بعض أحلام اليقظة إلى أن يلجأ البطل إلى اختطاف حبيبته من قلعة

أبيها. والاختطاف كان صورة من صور الزواج من قديم الزمان تعبيراً عن العداء نحو الأبوين ومن نتائج هذا الصراع الذي يعبّر عن نفسه في أحلام اليقظة في صورة «الاستيلاء على المرأة» بأخذها من أبيها بطريقة أو بأخرى، أن العداء اللاشعوري نحو الأب قد يتّجه بشكل شعوري نحو النظام الاجتماعي القائم الذي ينظر إليه على أنه نظام طبقي عتيق يقاومه جماعة الشباب الأقوياء المتحمسين. وفي الحلم السابق يرمز الأب الكهل إلى النظام، بينما يرمز الشاب إلى إرادة التغيير. وذلك يفسر تبنّي الشباب للأحزاب الجديدة دائماً باعتبارها تمثل التمرّد على النهج الحزبي القديم. وكانت الاتجاهات السياسية للشباب المصري مع حزب مصر الفتاة (ولاحظ إسم مصر الفتاة أي مصر الشباب)، واتجهت جماعات الشباب في أوروبا إلى تأييد الأحزاب الفاشية والنازية والشيوعية، وهي أحزاب جديدة فيها التمرد والحماس. ولو شئنا أن نفهم أشياء عن السخط الاجتماعي في أمة من الأمم فإننا لن نجد ذلك في المنشورات الثورية بقدر ما نجدها في أحلام اليقظة التي تعكس المطالب الملحة للشباب. وفي حلم اليقظة العاطفي سنعثر على المدلول الحقيقي للعالم الجديد الذي ينشده الشباب، فإنهم عندما يخفقون في أن يجدوه في الواقع القائم فقد يسعون لتحقيقه عن طريق السلوك غير المتزن والعنيف، وهو ما نعبّر عنه في حالة الأفراد باسم السلوك العُصابي، والسلوك السيكوباتي، أو يحاولون أن يظفروا به توهماً بتعاطي المخدرات التي يتصورون بها أنفسهم في عوالم وردية، أو تكون لهم أحلام اليقظة من النوع العاطفي فيتجاوزون فيها العقبات الاجتماعية ويحقّقون ما يصبون إليه، وتروج لذلك الكتابات الرومانسية التي هي أحلام يقظة يصوغها الروائيون وصُنّاع السينما، وتشطّ بهم في الخيال تعوّضهم عما حُرِموا منه.

ولقد كتب الكثيرون في موضوع الصلة بين الأدب والفن وأحلام اليقظة، وأرجعوا ذلك إلى مَلَكة التصور، ونحن لن نتذوق الأدب إلا إذا عشنا مع الكاتب في جو تلك الخبرات الخيالية التي يوحي بها،

وصحبناه في رحلاته التي يصفها، وتأملنا معه حقول الخريف، أو نفذنا ببصيرة ووعي إلى أعماق النفوس. والبعض منا يتميز عن غيره بقدرته على التصور بأن ما يفكّر فيه أو يقرأه حقيقة، وقد يتجاوز حدود ما يرسمه الكاتب. ومثل هذا التصور ليس مجرد استقبال سلبي بل هو تصور ناشط إنشائي تلقائي. ولقد قال شللي إننا عندما نشاهد مأساة فإننا نرى أنفسنا في صور الشخصيات التي تظهر فيها، وقد تجرّدنا من كل ما يربطنا بالزمان والمكان. ويبدو أن هذا حقيقي فيما يمر بنا من خبرات عند قراءة القصص والقصائد والمسرحيات، حيث يتوقف تذوقنا على اندماجنا في شخصيات الأبطال فنشاركهم آلامهم وانتصاراتهم. ولقد ثبت أن قصة سندريلا ليست سوى حلم يقظة رأينا فيه أنفسنا، ولذلك تنوعت القصص لسندريلا بمختلف الأزمان والأمصار، وظلت سندريلا هي سندريلا إجمالاً، لأن قصتها هي قصة الشخص الذي يهان من أسرته التي لم يستطع أفرادها تقديره حق قدرة، غير أنه يتصل مصادفةً بأقوام آخرين يدركون حقيقته ويعطونه التقدير لذاته الذي يطلبه لنفسه وعرفنا أن مدار أحلام اليقظة عند الكثيرين هو تقدير الذات، ونحن نستمتع بتاجر البندقية لشكسبير، ونعيش حلم يقظة مع شايلوك برغم أنه كريه، إلا أن استمتاعنا به هو أننا نرى الجانب اللاشعوري منا فيه. وليس الأدب إلا وسيلة لنقل حالة الاستغراق التي عاشها المؤلف إلى القارئ. ولو درسنا كل كاتب قصة أو مسرحية لوجدنا أن هناك أشياء تتكرر معه في كل أعماله ترتبط بحياته الخاصة، ومنها نستطيع أن نكوّن صورة إجمالية عن نوع أحلام اليقظة التي كان يعيشها وهو صغير، ثم وهو مراهق، وأي نوع من الطفولة كانت طفولته. فأحلام اليقظة إذن قد تلهم الكثير، وربما كانت لها فوائد لا تحصى: وكان المربون فيما مضى ينظرون إليها نظرة تنقصها روح الفهم والعطف، على عكس المربي الحديث الدارس لمراحل النمو عند الناس ومستلزماتها، ومن ثم يدرك أن أحلام اليقظة ليست عيباً ينبغي التخلص منه، بل هي نشاط عقلي لا بد أن نتعهده

بالعناية وحُسن الاستخدام. ولنتناول كتابات كارلايل مثلاً، ولنحاول أن نقرأها من جديد لنتبين ملامح البطل الذي يتحدث عنه، ولنقارن هذا البطل بأبطال أحلام اليقظة الذين تحدثنا عنهم عبر مراحل النمو المختلفة لندرك أي أثر يمكن أن يكون لهذه الأحلام على تفكير فيلسوف مثل كارلايل. وأياً كان بطله، سواء كان نبياً أو مَلِكاً أو دكتاتوراً أو عَلَماً من أعلام الأدب، فإنه لا بد أن يكون ابن أمّته، ونتاج مجتمعه، والمعبر عن مقومات هذا المجتمع وتطلعاته. وكارلايل نفسه ليس إلا صورة لبطله، عاش طفولته بطلاً، ثم أصبح بطلاً من أبطال الفكر. وتصوّر كارلايل الفيلسوف له أساس من تصوراته في أحلام يقظته في طفولته، وإنما هو سما ببعضها إلى مرتبة القداسة، وهبط ببعضها إلى مرتبة المهانة، وفسّر التاريخ على أنه قصة جماعة من الأبطال.

وكارلايل ليس إلا مؤلفاً من عدد كبير من المؤلفين، يمثل الأديب الذي يتعهد أحلام يقظته ويخلق منها شيئاً يسمو على مجرد حلم اليقظة، وما حلم اليقظة عند هؤلاء إلا النبتة التي يتعهدها صاحبها فتترعرع وتصبح شجرة سامقة.

وبالمثل في الفن، فعلاقة الفن بأحلام اليقظة علاقة قوية من حيث أن الفن وسيلة للتعبير التصويري عن أحلام اليقظة، ويذكرنا ذلك برسم لطفل طلب إليه أستاذه أن يرسم أي شيء يعنّ له، وقد رسم الطفل ما رسمه ولم يكن من السهل طبعاً أن يدرك الأستاذ ما يصوره الرسم، فسأله عنه فقال له إنه منارة، ولما طلب منه المحلل أن يحدثه قليلاً عن رسمه، تبيّن أن الطفل لم يكن قد شاهد منارة أبداً، ولم يرَ صورة لها، ولكنه سمع مجرد سماع عما تعنيه المنارة من حيث إنارتها البحر للسفن فيمكنها أن تسير في أمان إلى المرافئ تحتمي من العواصف. والطفل إذن قد رسم شيئاً يرمز إلى الأمن، ويبدو أن هناك في حياته ما تعلم منه أن الضوء يعني الأمن. وقد غالى في رسم منارته المتصوّرة بأن جعل رأس هذا الشيء الذي رسمه كأنها الأباجورة، ولها قائمة وقاعدة، وجعل الرأس كبيراً كأنه هالة ضخمة من الضوء، فكأن هذا الطفل قد ابتدع رمزاً لنفسه يدل على

الأمن. وتبين أيضاً أن هذا الطفل يكره الظلام لأنه يخشى معناه، ومن ثم فقد خلق لنفسه رمزاً للأمن عندما شعر بحاجته إلى الأمن، فاستطاع بذلك أن يحصل من فنه على تعويض عن شعوره بالخوف وعدم الاطمئنان.

ومن المألوف أن الطفل في رسومه يُسرف في إبراز الأجزاء التي تثير اهتمامه بأن يضاعف حجمها ويكررها، فالطفل الذي يهتم برسم الطيور يرسم طائراً واحداً كبيراً أكبر من كل ما حوله ثم يكرّر ذلك. وإذا رسم قطاراً إهتم برسم العجلات، وإذا رسم دراجة إهتم برسم الزمارة، فالمقياس في رسم الطفل هو مقياس الاهتمام لا مقياس الأبعاد الطولي، وتلك هي اتجاهات الرسم البدائي نفسه، والطفل له في الرسم نظرة البدائي إلى الرموز والصور، ورسومه لذلك تأتي كالكاريكاتير. وهو يخلط كالبدائي بين الشيء الحقيقي وصورته، والكثيرون منا لهم الاعتبار نفسه، وما زلنا نتشاءم لو وقعت صورة، على ظن أن وقوعها يعني وقوع صاحبها أي موته. وعندما نريد أن نسحر لشخص نرسمه أو نقتني صورته لنصنع السحر فيها، وربما كان نجاح قصص مثل صورة دوريان جراي لأوسكار وايلد نتيجة وجود معتقدات لاشعورية كهذه.

وقد يبدو أن رسم الكبار مختلف عن رسم الأطفال، وذلك غير صحيح، فالراشد الذي يرسم يريد أن يأتي رسمه على الصورة الواقعية التي ألفها وليس على الحقيقة، ومن ثم تراه يقرّب تفاصيل ليكبرها، ويُبقي تفاصيل في الضوء ليُبرزها، وينتقي موضوعات لوحاته، ويفعل ذلك بدوافع داخلية عميقة، ومستهدياً برغباته واهتماماته. وهذا هو ما نقصد إليه من العلاقة بين الفن والأدب وأحلام اليقظة، فالفن تعبير بالصور عن صور ذهنية لأفكار، بعضها لاشعوري وبعضها شعوري، وبعضها رغبات واهتمامات وصدى لصراعات. ولعل خير ما ندرس به أحلام اليقظة في ارتباطها بالفن هو استجابات الفن عند المتفرجين، ونجد أن الاستجابة تكون عامة للوحات والتماثيل التي تساعد على أن يندمج

المتفرج مع الصورة أو التمثال، مثلما تكون الاستجابة كبيرة بإمكان اندماج القارئ مع أبطال القصة، أو اندماج المتفرّج مع شخصيات المسرحية. وكثيراً ما نسمع من الناس هذا التعبير «تخيّل نفسك تعيش بجانب هذا الجدول، أو في هذا الكوخ، أو على هذا الجبل». وفي مجال الأدب قد نسمع أحدهم يقول «تخيّل نفسك المَلِك لير وصنع بناتُك بك ما صنعه به بناته»، فكأن الصور الفنية سواء كانت بالخطوط أو بالكلمات تهيئ المسرح للمتفرج أن يحلم وهو يقظان. ولقد قيل إن أولى التعاليم التي يُنبّه إليها الفنان الصيني - وهو فنان يعرف بأنه لا يرسم الواقع مثل آلة التصوير - هو أن يُشغَل بالمناظر الطبيعية ويعايشها، ثم يطرحها من دماغه صوراً على القماش، يعرضها من زوايا مختلفة لا تتطابق مع الواقع، وبذلك يأتي الرسم عبارة عن تركيبة جديدة لها مدلول خاص، وكأنها حلم يقظة قد طرحه بالألوان والخطوط. ولن تسمع من أي فنان إلا هذه النصيحة «لا تتأمل الواقع بقدر ما تتأمل أحلامك عن الواقع».

والفن أو الأدب باعتبارهما خبرة جمالية يشاركان حلم اليقظة في الخبرة نفسها، بل إنهما ليصدران عن نوع الخبرة الجمالية التي يدخلها الفنان أو الكاتب وهو يحلم بصورته أو بقصته. والفنان أو الأديب وهو يرسم أو يكتب يستحضر صوراً لاشعورية، ويطرحها بشكل شعوري إنتقائي لا سبيل إليه إلا من خلال أن يحلم بالعمل الفني أو الأدبي، وأغلب الأعمال الأدبية والفنية تأتي على أساس من أحلام اليقظة والرؤى الحلمية ونحن أيقاظ، ولعل ذلك هو أحد الفوارق بين المنامات وأحلام اليقظة، رغم أننا قد سبق أن ذكرنا أن بعض الكتّاب قد يجعلون مادة مناماتهم موضوعات لرواياتهم أو قصصهم وكذلك فإننا ونحن نستمتع بالعمل الفني أو الأدبي فالغالب أن استمتاعنا به لأنه يجيء بدرجة أو بأخرى متطابقاً مع نمط أحلام اليقظة التي تأتينا وتوافق شخصياتنا واتجاهاتنا. وربما لم يكن حُكمنا على عمل فني أو أدبي بأنه عظيم إلا لأنه يوافق طرحنا لأفكارنا في شكل الصور التي تصنع أحلام يقظتنا. (Henry, G.: Daydreams).

الباب الخامس والعشرون

«أحلام تجريبية مستحدثة بالتنويم المغنطيسي»

لقد ذهبنا حتى الآن إلى ما ذهبنا إليه بشأن الأحلام سواء منها ما كان منامات أو ما تعلق منها باليقظة، وكل ما طرحناه في أغلبه لا يعدو النظريات والتفاسير التي قد نختلف عليها أو نزيد فيها، وما من دليل يؤيدها سوى نتائجها الثبوتية خلال العلاج النفسي، وما اتفق منها مع نتائج أخرى لوسائل تجريبية في مجال تحليل الشخصية، وهو أمر قد أجهد النفسانيين كثيراً لتكون لهم تجاربهم التي تقطع برأي حول الأحلام ونظرياتها. ولكي يمكن أن نطوّر منهجاً ندرس به الأحلام دراسة موضوعية بعيدة عن الطرح التفسيري لفرويد والآخرين، كان الاقتراح بدراستها تجريبياً من خلال ما يمكن استثارته من أحلام عند أشخاص ينوّمون تنويماً مغنطيسياً، وما يمكن أن يقدمه هؤلاء الأشخاص من تفسيرات لها، أو لأحلام حقيقية أو شبيهة بالأحلام كالأساطير مثلاً. ومن هذه الأحلام التجريبية وتفسيراتها بوسعنا عمل مقارنة بين نتائجها والنتائج التي تحصلنا عليها من خلال النظريات التي سبق عرضها.

ولقد كان إجراء هذه التجارب بإنشاء هذا النوع الجديد من الأحلام والذي اصطلحنا على تسميته بالأحلام التنويمية Hypnotic dreams، أي الأحلام التي نستحدثها بأشخاص منوّمين مغنطيسياً، بقصد اختبار مصداقية الرمزية في الأحلام وعلاقتها باللاشعور، وما إذا كان للأحلام ظاهر وباطن فعلاً. واختير للتجربة عدد من طلبة وطالبات الجامعة ممن ليست لهم اهتمامات بعلم النفس، ولا بالأحلام وتفسيرها، ولم تكن لهم نشاطات فنية أو اتجاهات أدبية قد تؤثر عليهم من قريب أو بعيد فتحيد بنتائج التجربة، ولم تكن لهذه المجموعة مشاكل عائلية، ولم يحدث أن اشتكوا من علل نفسية. فمثلاً اختيرت فتاة من مجموعة التجربة لتكون وسيطة، وبعد تنويمها قال لها الأستاذ المشرف: تعرفين أن للأحلام تفسيرات، وأن لكل حلم معنى،

وما سأحكيه لك هو حلم لفتاة، أرجو أن تعطينا تفسيراً له وأنت منوّمة هكذا، ومن عالمك يمكن أن تستبصري الأمور أفضل. الحلم لفتاة رأت نفسها وكأنها في حجرة وحدها، وكأنها ترتب حقيبتها، فتسلل ثعبان إلى الحقيبة واكتشفته، ففزعت وولت الأدبار. فماذا ترين تفسيراً لما رأته؟ قالت الفتاة في تردّد وعلى استحياء كتفسير للحلم: «الحلم جنسي، والثعبان يمثل عضو الذكورة عند الرجل بينما الحقيبة تمثل عضو الأنوثة في المرأة، ودخول الثعبان الحقيبة يرمز للجماع أو الزواج، فالفتاة تخشى الزواج لأنها ترهب الجماع، وفكرة الجماع تفزعها ولذلك تركض مولية الأدبار.

وبمثل ذلك كان هؤلاء الشبان يُسألون وهم تحت تأثير التنويم، وتكرّر عليهم الأحلام أو الأسئلة بعد أن يذهب عنهم تأثير التنويم، فكانت الاستجابات تتخالف في الحالتين.

وسُئلت إحدى الوسيطات عن تفسيرها لحلم: رأى فيه الحالم نفسه وقد اشتعلت النار في بعض الأوراق بمكتبه فركض خارج الحجرة واستحضر دلواً به ماء صبّه على الحريق» فقالت: إن الحلم يعني أنه يبول على نفسه.

وعندما طلب من الوسيطة أن تحلم بأنها تبول على نفسها، وأمها تؤنبها، قالت: أحلم أني وقعت في بركة ماء من البرك التي يخلّفها المطر في الشارع واتّسخت ثيابي فأنبتني أمي.

ونُقل حلمها إلى وسيطة أخرى ففسرته: بأن الحالم تبول على نفسها.

وقيل للوسيطة نفسها السابقة هذا الحلم: رجل يذهب إلى طبيب الأسنان فيخلع له ضرساً بعد جهد جهيد، فقالت: ربما يعني خلع الضرس علمية الختان، وربما كان يعني أن الرجل صار عنيناً.

وقيل الحلم نفسه لوسيطة أخرى بعد تعديل الرجل إلى امرأة، فقالت: إن خلع الضرس يعني أن المرأة في حالة وضع.

وحول أحلام المذهونين قالت وسيطة عن حلم: صاحبه يرى نفسه شغوفاً بالبطيخ ويلتهمه الواحد بعد الآخر قالت: إن الرجل غليم يحب الجنس وربما هو مصاب بالشذوذ الجنسي.

وقيل لوسيط: رجل حلم بأن الملك أمر بالقبض عليه وإعدامه، فقيدوه وأسندوا

رأسه على نطع تمهيداً لقطع رأسه، فقال: إن الملك هو ضميره، أو انه أبوه، وهذا العقاب الذي ينزل به لا بد أنه فعل ما يستحق أن يعاقب من أجله، وقطع الرأس يعني سلبه رجولته، وإذن فما فعله لا بد شيء جنسي يستحق أن يعاقب عليه بسلبه قدرته الجنسية.

ويبدو من كل ما سبق أن "وسيط في التنويم المغنطيسي يميل إلى إعطاء تفسيرات جنسية، وقد يرى البعض أن ذلك بسبب طبيعة العلاقة الحميمة جداً بين الوسيط والمنوِّم (بكسر الواو) والتي تصطبغ بصبغة جنسية، حيث أن أحدهما (الوسيط) مستقبِل وسلبي، والآخر (المنوِّم) مُوحى وإيجابي، وكأن الأول يقوم بدور الأنثى، والثاني يلعب دور الذكر، وهو ما نلاحظه في مجموعة الشباب المُستخدَمين في التجربة، فقد كانوا جميعاً إناثاً ما عدا الوسيط الأخير، وحتى هذا الأخير برغم ذكورته فإنه كان شديد الاحترام والاحتفاء بالمنوم، ولعل هذا أيضاً ما حدا بيونج إلى أن يرفض التنويم كوسيلة صحيحة للعلاج عندما تبين له أن الوسيط عندما استفاق قد شكره على استحياء لأنه لم يؤذِه جنسياً وهو منوَّم، فكأن المنوَّم (بفتح الواو) يدخل التجربة وفي باله أن من الممكن أن يكون هناك شيء جنسي بينه وبين المنوِّم (بكسر الواو).

وحول هذه العلاقة الخاصة بين الوسيط والمنوِّم قيل لوسيطة كانت فتاة خجولة في نحو العشرين «كنت تحزمين حقيبتك عندما تسلل ثعبان إليها واكتشفتِه ففزعتِ ووليتِ الأدبار، فما هو الحلم الذي يمكن أن تحلمي به؟ قالت: أحلم أني في الليل وأسير في مكان به أشجار كثيرة ملتفة، والأرض طين، وأنا أسير في الطين حتى خصري، وفوقي على الأغصان تتدلى ثعابين صغيرة، وكانت تتساقط على كتفيّ وذراعي وتنزلق فتحاول أن تطولني ولكن الطين كان يحميني منها وكنت أحس الأمان وأنا وسط الطين.

ذاك هو حلمها التجريبي فلما استفاقت من التنويم طلب إليها أن تفسره. وقد طلب ذلك شخص آخر بخلاف المنوِّم رغم أن المنوِّم حاضر، وقالت الفتاة: إن «الثعابين أشياء مؤذية

وأما الطين فهو الأمان منها»، وبذلك فقد ردّدت بعض كلمات الحلم. وتمّ تنويمها من جديد وقال لها الشخص السابق الحلم نفسه، وطلب منها تفسيره، فقالت: «إن الثعابين أشياء مرغوبة والطين حائل يحول دون أن تتحقق» ثم قالت: وربما الثعابين أفكار تعجبها ولكن الناس لا تعجبهم، لأنها قد تكون بالنسبة لهم أفكاراً ثورية»، وأردفت: وربما الثعابين أناس لهم آراؤهم التحررية التي لا تعجب غيرهم»، وأخيراً طرحت هذا التفسير: فلربما تشير الثعابين إلى تجارب تريد أن تدخلها ولكن العرف وهو هنا الطين، لا يسمح لها بدخولها». وبعد هذا التفسير غادر الحجرة الشخص الآخر وبقي المنوِّم معها، وطلب منها أن تزيده إيضاحاً فقالت هذه المرة وهي تبسط ساقيها وتمد ذراعيها مسترخية، وقد تغيّر صوتها: ربما الثعابين الصغيرة هي الحيوانات المنوية تتساقط من الأغصان النافرة، المنتشرة وكأنها قضيب الرجل عندما ينتشر وينفر». ومن هذا نرى أن الوسيطة قد أعطت تفسيرات عادية لما كان غير المنوِّم يستجوبها، فلما تُرِكت والمنوِّم وحدهما ارتاحت وقالت ما بنفسها، وهو هذا التصور الجنسي المشحون جنسياً شحناً عالياً. والتفسير الذي نتقبله منها ليس واحداً من كل ما سبق من التفاسير ولكنه جماع كل التفاسير السابقة.

وهذه حالة أخرى طُلب فيها من الوسيطة أن تحلم حول هذه المشكلة لصديقة لها اكتشفت أنها حامل وهي لم تتزوج، وجاءتها لتساعدها فكانت صدمة لها أن تعرف عن حملها. ولم تعرف كيف تتصرف، فقالت: إنها تحلم أنها في قارب، والبحر مضطرب، والأمواج حولها عالية، والمطر ينهمر عليها فيكاد يغرقها من فوق، والأمواج تكاد تغرقها من تحت». وبعد أيام نُوِّمت وقيل لها الحلم، وطلب شخص آخر بخلاف المنوم أن تفسّر الحلم، فقالت: إن الحلم يدور حول مأزق هي فيه، وربما لأنها فتاة والمأزق شديد لهذه الدرجة فلا بد أنها قد حملت سفاحاً، وأما أنها تكاد تغرق ووحدها في القارب فذلك لأن المشكلة تخصّها وحدها وليس هناك من يتحملها غيرها، وأن الناس ربما كرهوها فصارت وحدها،

وربما كان المطر دموعها تكاد تغرقها، والموج مشاكلها تضطرب بها أحوالها» ولما خرج الشخص الآخر وتُرِكت أيضاً مع المنوِّم استدركتْ فقالت: ربما المطر هو مني الرجل يكاد أن يغرقها، وربما هي تشكو الحرمان».

ولعل ما سبق من تجارب يطرح علينا أسئلة ملحة حول هذه العلاقة التي تكون بين الوسيطة تحت التنويم والمنوِّم (بكسر الواو)، والتي رأينا أنها تحدو بالوسيطة إلى أن تفسّر أحلامها هذا التفسير الجنسي، فهل هي إيحاءات من المنوّم، أو هل هي إيحاءات من الشخص الآخر قبل أن يغادر الحجرة؟ والحق يقال إنه لم يصدر أبداً من أيهما، لا تصريحاً ولا تلميحاً، ما يجعل المنومة تذهب إلى هذه التفسيرات الجنسية. ولا يتبقى إلا أننا نظن أن العلاقة بين المنوَّمة والمنوِّم هي علاقة تبعية وخضوع، فيها المنوّمة تستشعر أنوثتها تجاه ذكورة المنوِّم، وبذلك تصطبغ هذه العلاقة بالصبغة الجنسية، وذلك ما يجعل الكثيرين من علماء النفس يشبّهون التنويم بالتجربة الجنسية، وهو ما تستشعره المنوَّمة وهي في حَضرة المنوِّم وواقعة تحت تأثيره.

ولم يقدم أي من الوسيطات موضوع التجربة تفسيراً موضوعياً إلا قلّة منهم، وهؤلاء تبيَّن بأنهن مقاوِمات للإيحاء ولهن شخصيات نستطيع أن نقول إنها محدّدة وصلبة، لم يكن من السهل على المنوِّمين (بكسر الواو) أن يؤثروا فيها تأثيراً يمكن أن نقول إنه يشعرهن كما لو كانوا إناثاً في مواجهة ذكور.

وثمة مشاكل أخرى ظهرت في التنويم، ومؤداها أن بعض الوسيطات، كانت لا تحار شيئاً في الحلم إذا قيل لها إنه حلمها هي، فإذا قيل لها إنه حلم إنسان آخر تصدّت له بالتفسير، والبعض الآخر كانت لا تقبل تفسير الحلم إلا إذا قيل لها إنه حلمها هي.

وقيل لوسيطة: إن امرأة حلمت أنها حامل، وترقد في سريرها وتكتشف أن الديدان تزحف على ذراعها»، فلم تحر الوسيطة تفسيراً للحلم، فقيل لها: افرضي أنك أنت نفسك حلمت بهذا الحلم، فقالت: إنها فعلاً تحلم الآن بأن شمعة موضوعة في صحن بجوارها على طاولة تحترق، وأن الشمع يسيح وينزل

نقطة نقطة على الصحن»، فلما نُبّهت إلى الحلم الآخر قالت: إن الحلمين بالمعنى نفسه، وذكرت أن الحلمين يصورا الإمناء.

والحيلة نفسها ذهبت إليها وسيطة ثانية طُلِب منها تفسير الحلم السابق للحامل فلم تستطع، وبدلاً من ذلك: حلمت بأنها في سيارة تقودها وذراعها مستند إلى النافذة والمطر يتساقط منهمراً عليه»، ثم أردفت: الآن فهمت الحلم الآخر حول السيدة الحامل، فهي قد حملت سفاحاً، ولم تكن تريد أن تحمل ولكنها لم تحطاط وهي تضاجعه فحملت، والديدان هي المني». ولسبب ما حوّلت الوسيطتان الحلمين إلى حلمين خاصين بهما بحيث تناسب تصوراته طريقتهما. في التصور، ومن ثم فقد استطاعتا حينئذ فقط أن تفهما لغة الحلمين وأن تفسراها التفسيرين اللذين ذهبتا إليهما.

وهذه الطريقة في استحداث الأحلام عن طريق التنويم وهو ما استوجب إطلاق إسم الأحلام التجريبية أو التنمويمية عليها بدأها كارل شروتر في فيينا سنة ١٩١٢، ونبّه إليها فرويد سنة ١٩٣٣ في معرض الشكوى من أن علماء النفس لم يأخذوا قضية تفسير الأحلام مأخذ الجد فتكون لهم تجارب رائدة حول طبيعة الأحلام ومضمونها وعلاقتها بالحالم وخبراته وشخصيته. غير أنه في الأحلام التجريبية أو التنويمية قد لوحظ أن ما يأتي المنوّم من أحلام يتوقف على سعة خياله واستهوائيته، وتمثله للموقف الذي يصوّره له القائم بالتنويم وانفعاله به، حتى أن المنوّم ليتلوى من الألم إذا كان الحلم بصدد ألم، أو ليتغير وجهه إذا كان يقتضي الغضب، ويأتي من الحركات بكيانه كله ما ينبئ أنه يعيش الحلم بكل وجدانه.

ويبدو أن الأصلح لاستحداث حلم تجريبي ما يوصي به البعض: أن يقال للوسيط عندما نتأكد بأنه قد دخل في سبات عميق، انه سيذكر تجربة حدثت له من زمن وقد نسيها، ولكنه سيذكرها عندما يذكّره بها المنوّم، إلا أنه لن يحكيها له بل سيأتيه بشأنها حلم، وعندما يبدأ الحلم يرفع يده فإذا انتهى يخفض يده، ولا يستغرق الحلم بهذه الطريقة سوى دقيقة أو دقيقتين، ثم يبدأ بسرد

الحلم بعد هبوط يده. وهذه الطريقة أفضل من الأولى التي بدأنا بها الحديث حول الأحلام التنويمية لأنها أقل إيحاء للمنوَّم، وتترك له الحرية أن يتخيّل الحلم، مع تنبيهه ألا يكون الحلم حول الموقف الذي يشرحه المنوِّم، بل أن يكون ما يحكيه هو الحلم الذي يأتيه بصرف النظر عن هذا الموقف.

والموقف الذي يثير الأحلام من هذا النوع إما أنه موقف أو مثير جنسي، أو يتعلق بالجنس، كأن يتضمن الجماع أو الحمل أو الولادة أو التبول أو اللواط أو الاستمناء، وإما أنه موقف أو مثير عدواني أو عدائي، كأن يتضمن التنافس على شيء أو شخص، أو اتهام شخص زوراً، أو استغلال الناس. وللأحلام المستحدثة بالتنويم أو بالإيحاء أثناء التنويم كل مواصفات الأحلام العادية، ولا يميز الحالم بين أيهما. والمنوَّم بمجرد استماعه للموقف يحلم حلماً يبسّط فيه الموقف المُوحَى به مع بعض التعديل الذي يُدخل الحلم في نطاق خبراته اليومية. وكلما أوغل في الحلم استدرك الحالم بحيث يأتي الحلم بالفجاجة وعلى الشكل التصويري الذي تكون عليه الأحلام التلقائية.

ولا ندري السبب الذي من أجله لا يحلم كل الوسطاء تحت تأثير التنويم بالسهولة والمقدرة نفسها سوى أن يكون لشخصية المنوم دخل في استهوائه، ولقُدرته على التخيل واستيعاب الموقف وبسْطه في أحداث وصور، ولعلاقته بالقائم على التنويم، ولنوعية الخبرة أو الموقف أو المثير المعروض عليه أن يحلم حوله. وقد يحلم المنوَّم حلماً دون أن يكون هناك المثير الذي يستدعي الحلم، وهذا النوع غير المستحدث يكون له ظاهر يتمشى مع مصالح الحالم الشعورية. وتقوم بعض الأحلام التنويمية على خبرات من الماضي، أو على التلاعب بالألفاظ، وقد يختلف الحلم لمجرد وجود عنصر رجالي أو أنثوي مع القائم على التنويم أثناء عملية التنويم (Farber, L. et al: An Experimental Approach To Dream Psychology Through the Use of Hyponsis).

وعلى أي الأحوال، ومن دراستنا للأحلام عموماً، فإن ما تتصف به

ينسحب على الأحلام المستحدثة في التنويم، بل إننا لنجد أن هذه الصفات تجمعها أيضاً مع أحلام اليقظة. وهذه الصفات هي ثلاث صفات، فأولاً: إن الأحلام يراها الحالم باعتبارها حوادث حقيقية تقع له، وثانياً: هذه الحوادث زمانها الحاضر، وثالثاً: هي حوادث لها شكل تهويمي أو هلوسي لا نتبينه إلا بعد أن نصحو من الحلم. وعلى ذلك الظاهرة الحلمية هي ظاهرة تمتد إلى الأحلام وأحلام اليقظة وأحلام التنويم.

وفي بحث آخر حول الأحلام التجريبية المستحدثة بالتنويم أمكن بعد تنويم الوسيط أن يُترك لفترة دقيقتين ليستغرق في النوم، ثم يُعرَض عليه مثير، ويُترَك لفترة أخرى يُسأل بعدها عما كان يحلم به ويُرصَد الحلم، فمثلاً استحدثت الأحلام النمطية Typical dreams، ومنها أحلام السقوط، بتغيير وضع الحالم أثناء النوم بحيث يبدو كما لو كان جسمه قد انزلق. واستحدثت الأحلام الجنسية باستحداث مؤثر جنسي Genital stimulus كأن نمرر مسطرة على بنطال الحالم حول المنطقة الجنسية أو يُشمم عطراً فواحاً. وقد تبين صدق كل ما هو معروف عن الأحلام النمطية وخاصة أحلام السقوط، إلا أن الحلم الجنسي لم يكن يتحصّل دائماً بالمؤثر الجنسي، وكان مجموع الأحلام الجنسية المتحصلة بهذه الطريقة إلى مجموع التجارب المُستحدثة تمثل فقط ما مقداره ٣٤٪، الأمر الذي يقضي بأن الحلم الجنسي ليس كثير الذيوع أو التكرار كما يقول فرويد. وكما يلاحظ فإن التداعي الحر كان الوسيلة المميزة لهذه التجارب الأخيرة حول الأحلام التنويمية، فالحالم يُترك تماماً يتحدث عن حلمه، ولا يُحدّد له موقف أو يوصف له مثير، وإنما يُترك الحالم لخياله يفسّر المثير أو الموقف كما يحصل له، ويُسأل أسئلة لاستدراجه في الكلام، غير أن التغيرات التي تظهر على وجه الحالم وفي حركة أعضائه وصوته وتنفسه لتفوق ما يحكيه عن الحلم وموضوعه. ولا يختلف تذكر الحلم المستحدَث بالتنويم عن تذكر الحلم العادي، ويذهب بعض الحالمين إلى أن يؤكّد أن الحلم المستحدث أوضح من الحلم العادي وليس به غموضه، وأنه

يمكن استحداثه مادياً أي بمثير مادي، أو شفهياً، أي بمثير من كلمة مثلاً. وثبت من مختلف التجارب أن زمن الحلم المستحدث يبلغ في المتوسط نصف دقيقة (Klien, D.: The Experimental Production of Dreams During Hypnosis)، غير أنه من جهة أخرى فإن الحلم المستحدث لا يمكن أن يرقى إلى مستوى الحلم التلقائي من حيث التعقيد والشكل وعمل الحلم، ولا يستخدم من العمليات الأولية ما يستخدمه الحلم التلقائي، لدرجة أننا قد نستطيع أن نشبه الحلم المستحدث بالشِعر الذي يقال له شعْر العامية مثلاً أو الزجل، بينما الحلم التلقائي هو شعر بمعنى الكلمة، فهو محكم البناء وشديد التعقيد، وفيه إعمال وما يمكن أن نسميه «صنعة» أكثر. ثم إن الحلم المستحدث أو التنويمي يقع من الناحية الشعورية بين حلم اليقظة والحلم النومي، أي انه يشغل موقعاً متوسطاً بينهما. وبينما يأتي الحلم التلقائي ليحرس النوم، فإن الحلم المستحدث يتحصل فقط كنوع من الطاعة للمنوِّم وتحقيقاً لرغبته، أما الحلم التلقائي فإنه لا ينبثق إلا بهدف تحقيق رغبة لاشعورية عند الحالم نفسه (Brenman, M.: Dreams and Hypnosis).

وبعد، فلقد تناولنا الحلم، في ظني، من جميع جوانبه حتى لم يبق ما يمكن أن أضيفه إلى ما قلته... ومع ذلك فلكل عمل جانب ناقص مهما حسبنا فيه الكمال ولا أعتقد لذلك أني أوفيت الموضوع حقّه، ولعل في العمر بقية فيمكن أن أضيف شيئاً، بل وأشياء، في طبعات قادمة بإذن الله...

عبد المنعم الحفني

لوس أنجلس ١٩٨٨

تمّ بحمد الله

مصطلحات وردت بالكتاب

الحلم: نشاط عقلي يحدث أثناء النوم، وهو سلسلة من الصور والأحداث المتخيلة التي يمكن أن يكون لها معنى نفسي أو محتوى يمكن بلوغه بالتفسير والتأويل.

تحليل الحلم: محاولة تفسير الحلم وكشف المحتوى الباطن له.

رقابة الحلم: الرقابة المفروضة على صور الحلم، والتي تمنع رغبات الأنا غير المقبولة من المرور، ومن ثم تتستر الرغبات، ويصيبها التشويه والتحريف كي تستطيع الإفلات من الرقابة.

تحريف الحلم: تحريف الرغبات غير المقبولة من الأنا وتقنيعها كي تمر من الرقيب عن طريق حيل التكثيف والإزاحة والترميز والقلب، وكلها عمليات أولية.

خداع الحلم: وظيفة الأحلام هي إبقاء حالة النوم، بإيهام الحالم وخداعه بأن رغباته قد تحققت وإلاّ أيقظته رغباته.

صور الحلم: الحلم سلسلة من الصور والأحداث المتخيلة خلال النوم، وهي أحداث متخيلة بصرية وسمعية، وقد تكون صوراً ملونة، وقد يتضمن الحلم كلمات لها مدلولاتها المعينة. وكل ما يشتمل عليه الحلم من صور مضمونه تحقيق رغبة لم تتحقق أو مكبوتة، مما يتحتم معه أن تظهر الصور بشكل تعبيري يفصح عن المعنى الذي تقصد إليه أو الرغبة المراد تحقيقها، بتحليل هذه الصور وتحويلها من صور إلى أفكار.

تفسير الحلم أو تأويله: المفسرون للأحلام القدامى كانوا يحلّون رموز الحلم بشفرة إصطلحوا عليها كما في كتاب إبن سيرين عن الأحلام. ويعتبر فرويد أول من تصدّى لتفسير الأحلام علمياً، بتحليلها وترجمة المحتوى الباطن إلى محتوى ظاهر، وترجمة اللغة السينمائية الحلمية إلى لغة يومية حياتية. ومن أكبر إسهامات فرويد في تفسير الأحلام كتابه الكبير بهذا العنوان نفسه «تفسير الأحلام»، وقد قمنا بترجمته والحمد لله، وطبعته دار مدبولي سنة ١٩٩٦م.

مادة الحلم: هي المحتوى الباطن والظاهر للحلم.

مثيرات الحلم: تستثار الأحلام إما بمثيرات فسيولوجية، أو بمثيرات من البيئة، أو بمثيرات نفسية. وهناك أيضاً مخلفات النهار وهي ما يتبقى من خبرات النهار والأفكار حولها والأحداث المقلقة التي حفل بها والتي يمكن أن تدور حولها دراما الحلم وتتضمنها محتوياته. ومخلفات النهار قد تكون كل الحلم، وغالباً ما تمثل جزءاً من الحلم.

المشاعر في الأحلام: كانت الفكرة أن الأفكار وحدها يمكن أن تكون الممثلة للرغبات

أو الصراعات المكبوتة أو المقموعة، لكن وجود المشاعر في الأحلام نقض هذا الفرض ودلّ على أن المشاعر يمكن أن تكون جزءاً من الأحلام بشرط أن ترتبط بالمحتوى الباطن وليس بالمحتوى الظاهر، فمثلاً الرغبة الجنسية المكبوتة تظهر مرتبطة بمشاعر عدوانية ظاهرة.

الأحلام النمطية: هي أحلام تتشابه عند كل الناس ولها المعنى نفسه، وهي نوعان: أحلام لها المحتوى نفسه، وأحلام تتشابه شكلاً ولكنها في الحقيقة تختلف، ويتوقف التمييز بين النوعين على المتداعيات التي يكمّلها بها الحالم لكي يمكن تأويلها. والأحلام النمطية هي أصل التعبير بالأساطير والخرافات.

تكثيف الحلم: عملية أولية تتم في الحلم، وتنتقل بالحلم من موضوع إلى موضوع بشكل غير استطرادي، وفي هيئة صور بصرية غير منطقية تتجاوز منطق الزمان والمكان.

مُحدّدات الحلم: هي عوامل البيئة التي تلعب دوراً في تسبيب الحلم وتعطيه نكهته الخاصة.

الهُوَ: هو الجزء البدائي من الجهاز النفسي، ويطبق مبدأ اللذة، أي أنه لا يسعى إلا لتحصيل اللذة، وهو انفعالي، ولا يعرف المكان ولا الزمان.

الشعور: هو الحالة النقيض للنوم وللغيبوبة والخَدَر، وما يصدر عن وعي أو شعور، وبعض ما نأتيه يكون لاشعورياً.

اللاشعور: العمليات اللاشعورية موضوع الكبت اللاشعوري، ولا تصبح الذكريات والرغبات اللاشعورية شعورية بسبب المقاومة التي تعترض طريقها إلى الوعي.

المخاوف الليلية: تختلف عن الكوابيس، فالكابوس حلم مخيف يستيقظ منه الطفل أو الراشد وهو يذكر جزءاً من محتواه، وأما المخاوف الليلية فتقتصر على الأطفال، والطفل يفزع منها ويصحو ثم يعود إلى النوم ولا يذكر في الصباح مما حلم به شيئاً.

الاحتلام: يكون مع الأحلام الجنسية وينتهي بالقذف المنوي ويسمى لذلك هذا النوع من القذف باسم القذف الليلي أي أثناء النوم.

الأنا: يتكون الجهاز النفسي من الأنا والأنا الأعلى والهو. والأنا هو وعي الفرد بنفسه، وتجربته عن نفسه، وهو جزء الشخصية الذي يحتك بالحياة والواقع، وهو جوهر الشخصية.

الأنا الأعلى: هو جزء الأنا الذي تنمو فيه الملاحظة الذاتية والنقد الذاتي، وهو الجزء الذي تتم فيه الاستدماجات الأبوية.

والأنا الأعلى هو الضمير تجاوزاً وللأب الدور الرئيسي في تشكيله.

زُملة الأحلام: مجموعة الأحلام التي يحلم بها الشخص الواحد وتكوّن معاً سلسلة تتضمن معنى واحداً، أو مدارها موضوع واحد يلحّ على الحالم ويتخذ أشكالاً مختلفة من الأحلام.

العُصاب: إضطراب إنفعالي بسبب صراع داخلي وتصدّع في العلاقات الشخصية، وأهم سماته القلق. والقلق العُصابي ينشأ من الشعور بعدم الأمان الناتج من المواقف البيئية الضاغطة. وعُصاب القلق أن سماته كذلك الخوف وتوقّع الشر حتى في الظروف العادية، والمريض يضطرب نومه وتكثر أحلامه من نوع الكوابيس.

الكابوس: هو حلم يرى فيه النائم شيئاً يجثم على صدره، أو كأن وحشاً يحضنه ويكبس على أنفاسه، ولذلك كان العرب يسمونه أيضاً الحاضون والجاثوم. وربما يقتصر إطلاق الكوابيس على أحلام الأطفال من النوع المفزع، وإسم الجاثوم أو الحاضون على أحلام النساء الجنسية البشعة والمفزعة.

رمزية الحلم: للحلم لغته الخاصة به، وهي لغة بصرية غالباً، ولها دلالات نفسية بمثابة رموز، لها معان في حياة الحالم الشعورية واللاشعورية.

الرغبة في الحلم: عند فرويد يمثل المحتوى الباطن للحلم رغبة مكبوتة أو لاشعورية.

إخراج الحلم: وأسميه أحياناً مسرحة الحلم، وهي عملية تشكيل الرغبات والصراعات الإرادات والاختيارات اللاشعورية أو التي تريد التحقيق، في صور مقبولة بحيث يمكن التعبير عنها شعورياً، ولكي تفلت صور الحلم من رقابة الرقيب، عليها أن تكون مقبولة ومناسبة. والتكثيف مثلاً حيلة دفاعية جاهزة دائماً لخدمة هذا الغرض. والأفكار التي تجد لنفسها التعبير في الحلم لا تخضع لقواعد المنطق، ولكنها تتخذ لنفسها أشكالاً ورموزاً خاصة بها، وبواسطتها تخرج إلى حيز الوجود.

الإزاحة أو الإبدال: حيلة من حيل الحلم للتمويه والخداع على الرقيب، بالتأكيد على موضوع أو جزء من الحلم غير مهم بدلاً من المهم، وإفراغ المهم من الشحنة النفسية التي ترتبط به أصلاً، بذلك ينخدع الرقيب ويسمح للحلم بشكله هذا بالمرور إلى وعي الحالم في نومه.

العُقدة النفسية: فكرة أو مجموعة مترابطة من الأفكار المكبوتة تصبغها العواطف بشدّة في صراع مع غيرها من الأفكار أو مجموعات الأفكار المقبولة لدى الفرد.

عقدة أوديب أو عقدة الأم: نسبة إلى المَلِك أوديب الذي قتل أباه وتزوج أمه، وتطلق على تعلّق الطفل بأمه والتصاقه بها مع مشاعر سلبية تجاه الأب، ثم يكبر الطفل فيتعين بأبيه وبدوره الذكوري، ويكبت مشاعره العدائية تجاهه.

عقدة إليكترا أو عقدة الأب: إليكترا في الأسطورة اليونانية تعلقت بأبيها واختارته على أمها، ثم مع النضج تتعين بالأم وتكبت مشاعرها للأب.

الإخصاء: يعني الإخصاء بالضرورة إزالة الخصيتين، ولكنه في التحليل النفسي يعني فقدان الشعور بالذكورة ويبدأ الشعور بالإخصاء مع الأطفال الذين يعاقبون بتهديدهم بقطع القضيب في حالة ضبطهم يتناولونه بأيديهم فينتصب، ويستمر الطفل في الإمساك به منتصباً مما يجعل الأب خصوصاً يلجأ إلى تخويفه بهذا التهديد.

والإخصاء يمكن أن يحدث عند الأطفال والكبار. وعقدة الخصاء هي عقدة نقص يحس معها الذكر أنه أقل من الذكور عدواناً أو جنساً أو مبادأة أو قوّة أو انتاجاً. وتصاب بها الإناث كذلك، والتي تعاني منها تشعر أنها أقل من الذكور وتعجز عن ممارسة نشاطاتهم.

الصراع النفسي: وقوع دافعين أو رغبتين أو إرادتين متعارضتين. والأحلام قد تتأتى نتيجة الصراعات النفسية التي يعاني منها الحالم وتشكل سلوكه في اليقظة أو في الأحلام.

النكوص: حيلة نفسية يتجنب بها الفرد القلق بالعودة إلى مرحلة باكرة من مراحل تطوره النفسي الجنسي.

تلك هي أهم المصطلحات التي وردت في الكتاب ولم يتناولها الشرح في حينه، وقد أتينا عليها بإيجاز شديد.

